المخابرات الإسرائيلية

تاريخها ـ إدارتها ـ أشخاصها ـ أعمالها ـ فضائحها



ريتشارد ديكون

ترجمة
محمود فلاحة

رَيع الدَّار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠

المخابرات الإسرائيلية

الطبعة الخامسة ـ ١٩٩٦

الطبعة الأولى ١٩٨٧

رتشارد ديكون

المخابرات الإسرائيلية

تاريخها ـ إدارتها ـ أشخاصها ـ أعمالها ـ فضائحها

ترجمة
محمود فلاحة

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب بالانكليزية

The Israeli Secret Service

RICHARD DEACON



تقديم

في بضع مئات من الصفحات يتابع مؤلف «المخابرات الاسرائيلية»، الذي نقدمه، عملية التجسس اليهودية منذ القدم، عائداً ببعض جذورها الى ما ورد في التوراة، ومتتبعاً إياها إلى ما بعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، مفصلا في بعض العمليات المخابراتية الاسرائيلية، وفي سير أشخاص تولوا مسؤولية مختلف الأجهزة في هذه المخابرات، أو الذين كانوا على رأس بعض العمليات التي نفذتها.

إن المؤلف، وهو غربي، لا يخفي تعاطفه بين حين وآخر مع الصهيونية وكيانها، سياسة وعمليات، فكان وضعه هذا

الكتاب، وإيراده بعض العمليات المخابراتية والأشخاص الصهاينة المخابراتيين ضمن هذا المنظور.

على أن ثمة جملة من الحقائق تُفصح عن نفسها في فصول هذا الكتاب، بين حين وآخر، على رغم هذا التعاطف. وهذا أحد الأسباب التي دعت الى ترجمة هذا الكتاب وتقديمه.

« الكارتل »

ومن أبرز هذه الحقائق أن المخابرات الاسرائيلية ما كانت لتقوم بما قامت به، أو تؤدي مهامها التي أوكلت اليها، لولا الدعم والعون اللذآن تلقتهما من أجهزة المخابرات الغربية، مما يجعل مخابرات العدو جزءاً من تلك المخابرات النشطة ذات الامكانيات الكبرى والشبكات الواسعة التي تغطي جزءاً كبيراً من أرجاء المعمورة. وهنا، لا بد من القول إن مخابرات العدو جزء من « كارتل » مخابرات غربي يمتد من الولايات المتحدة الأميركية عبر اوروبا الغربية وحتى بعض الدول في القارات الافريقية والآسيوية والأميركية اللاتينية، وهذا ما نواجهه عربيا.

إن أولى « كارتل » المخابرات هذا، المتعاونة مع مخابرات

العدو ، التي تقدم له كل دعم وتمده بآخر المعلومات المخابراتية المأخوذة من آخر وسائل التجسس وأحدثها، هي وكالة المخابرات المركزية الأميركية . وفي أكثر من مكان في هذا الكتاب ورد ذكر لذلك . ففي الفصل التاسع ، على سبيل المثال لا الحصر ، ورد ما يلي وبالحرف الواحد :

«لقد كانت صلات المخابرات الاسرائيلية مع كلتا المخابرات الفرنسية ووكالة المخابرات المركزية الأميركية هي التي أبقت الاسرائيليين مطلعين على المخططات البريطانية زمن أزمة السويس سنة ١٩٥٦».

وبعد أسطر ، وعلى لسان أحد عملاء الموساد ورد ما يلي :

«وكانت المعونة التي تلقيناها ، بشكل غير رسمي ، من وكالة المخابرات المركزية الأميركية هي المعونة الوحيدة التي تلقيناها في ذلك الوقت من الولايات المتحدة ، فقد كان أيزنهاور يغتنم كل فرصة ليقول لنا ألا نعرّض السلام للخطر ، ولكنه أدان الانتفاضة في المجر .

«على أن وكالة المخابرات المركزية، رغم معاداة أيـزنهاور لمغامرة السويس، تعاطفت سراً آنذاك مع اسرائيل، ولا سيما أولئك الأفراد الذين عانوا من التسربات المريعة ومظاهر الخيانة في صفوف المخابرات البريطانية».

وفي مكان آخر من هذا الفصل:

«وتلقى الاسرائيليون، في الوقت نفسه، معونة غير رسمية من وكالة المخابرات المركزية الأميركية التي تمتلك معطيات مسربة اليها جمعتها آلات التصوير الواسعة الزوايا، المركبة على أقمار التصوير الصناعية».

وفي الفصل الرابع عشر عن «حرب الأيام الستة»، على سبيل المثال أيضا ورد ما يلي:

«ففي الجانب الأميركي حاز الاسرائيليون على قدر معين من الدعم غير الرسمي من وكالة المخابرات المركزية خلال عهد أيزنهاور، فقد تبنت هذه الوكالة الرأي القائل إن سياسة التهدئة التي اتبعها أيزنهاور تجاه العالم العربي ستكون كارثة على كل

مصلحة أميركية سواء أكانت اقتصادية أم عسكرية، ولذا اتخذت سياسة السماح بأن تقوم الموساد بالعمليات المخابراتية كافة في اسرائيل. وعنى هذا، باختصار، أن وكالة المخابرات المركزية لم تنشىء لها مكتباً أو تعين رئيس مركز لها في اسرائيل، بل ان ضباطاً معينين في السفارة الأميركية هناك تعاونوا مع الموساد. ونظرياً استتبع هذا تبادل المعلومات بين الجانبين، وعملياً أعطى هذا التعاون فائدة أكبر مما يتوقعه المرء عادة. وكانت الشخصيات الرئيسية في هذا الترتيب هي أساساً إيسر هاريل وافرايم ايفرون الذي أصبح فيما بعد نائب السفير الاسرائيلي في واشنطن ثم المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية، وجيمس انغلتون رئيس فرع مكافحة التجسس في وكالة المخابرات المركزية».

وفي الفقرة التالية ورد أن انغلتون هذا «تعاون تعاوناً وثيقاً هو وايفرون، وكان من نتيجته أن قدمت المخابرات لاسرائيل مساعدة تقنية في الميدان النووي».

والمخابرات الفرنسية شريك آخر في هذا «الكارتل» وتعاونت هي أيضاً تعاوناً وثيقاً مع المخابرات الاسرائيلية.

وفي هذا الكتاب أكثر من مثال على ذلك، وفيما يلي بعضها:

في مطلع الفصل التاسع، وعنوانه «انجازات يوفال نيعمان التقنية» ورد ما يلي عن التعاون والشراكة:

«خلال الخمسينات حافظت اسرائيل على علاقات ممتازة مع فرنسا، كانت قد تطورت وتنامت خلال سنوات ما بعد الحرب حين اتخذت الهاغاناه من فرنسا قاعدة لبعض نشاطاتها السرية. وقد امتد هذا التعاون الى ميدان المخابرات، وكان مفيداً جدّاً في ميدان المخابرات البحرية، الذي وضعه ضابط البالپام السابق مع الأميرال بيير بارجو، وذا قيمة ضخمة لاسرائيل أثناء حملتها العسكرية ضد مصر سنة ١٩٥٦. وقد استمرت هذه العلاقة بين المخابرات الاسرائيلية والفرنسية طيلة سنوات عديدة».

وفي الفصل الحادي والعشرين، عن «غارة عنتيبي» التي

طبل لها الصهاينة وأنصارهم، توضيح كامل لتعاون عدة أطراف من هذا الكارتل المخابراتي في هذه العملية، وأولها المخابرات الفرنسية ثم وكالة المخابرات المركزية الأميركية وحتى المخابرات الكينية:

«ومن الطبيعي أن أول الأعمال التي قام بها (رابين بوصفه رئيساً للوزراء)، هو ضمان أن كلا جهازي المخابرات الفرنسي والاسرائيلي يبقيان على الطول نفسه لموجة الاتصالات بينهما بعيداً عن التبادلات الدبلوماسية بين وزارتي خارجيتهما».

وعن الولايات المتحدة ومشاركتها جاء ما يلي:

«لم يهمل أي جهاز معقد للتجسس المعاصر. ولا يستطيع المرء لدى استعماله واحداً من هذه الأجهزة إلا أن يخمن ويستنتج، ولكن يبدو مرجحا أن الاسرائيليين حصلوا، ربما عن طريق الاميركيين، على بعض المعطيات المصورة المسجلة بواسطة الأقمار الصناعية عن عنتيبي».

وتعاون كينيا ومخابراتها أيضا في غارة عنتيبي:

«ومن أجل رفد المعلومات التي يبعث بها العملاء، أرسل فريق الى نيروبي لاجراء اتصالات مع حلفاء اسرائيل داخل مخابرات جومو كينياتا، رئيس كينيا، الخاصة والمدعوة بوحدة الخدمة الخاصة...

«وقامت المخابرات الاسرائيلية بنشاط واسع مكثف داخل كينيا، فإذا حدثت محاولة إنقاذ فإن إعادة تزويد الطائرات بالوقود لرحلة العودة أمر أساسي، ومطار نيروبي هو المكان الواضع لتنفيذ ذلك، إذ أن التزود بالوقود جواً عملية خطيرة، وخاصة لأنه سيوفر فرصاً لأية طائرات معادية للتدخل وصنع «حادث». وتقرر أن خير خطة هي ان تتوصل المخابرات الى تفاهم مع سلطات الأمن ووحدة الخدمة الخاصة في نيروبي حين تنفيذ عملية الانقاذ. وكانت علاقات اسرائيل بكينيا جيدة، وللموساد شبكة فعالة فيها...

«وفيما بعد ذكر مراسل صحيفة لوس انجيليس، في

نيروبي ، في تقرير له أن العملاء الاسرائيليين الذين كانوا في نيروبي منذ بضعة أيام قاموا بترتيبات العملية المعقدة » .

وكانت للمخابرات الألمانية الغربية مساهمات كبرى في هذا « الكارتل » ، وفي تقديم كل عون ممكن للمخابرات الاسرائيلية . وقد تضمن الفصل الحادي عشر ، عن الجاسوس الصهيوني لوتز الذي أرسل الى القاهرة، أكثر من فقرة حول ما قدمته ألمانيا الغربية لمخابرات العدو . ومنها الفقرة التالية :

«لقد أحرزت اسرائيل مكانة متميزة في عالم المخابرات بسبب مزجها الماهر ما بين التجسس والدبلوماسية، وباقناعها مخابرات الدول الغربية أنها جميعاً تشترك في مصلحة واحدة . ولهذا لم تعد تل أبيب مكان تبادل دولي للمعلومات السرية للدول الغربية فحسب ، بل إن رؤساء أجهزة المخابرات الغربية نظروا اليها على أنها حليف سري تجب مساعدته ، بشكل غير رسمي ، حين يكون ذلك ممكناً، رغم أنهم ادعوا ظاهرياً أنهم يتخذون موقف الحياد الصارم تجاه اسرائيل . وفي أواخر

الخمسينات جاءت هذه المساعدة، وبشكل وفير، من كلتا المخابرات المركزية الأميركية ومخابرات ألمانيا الغربية، مع موافقة خفية من الجنرال جيهلن نفسه».

هذا واحد من الأمثلة العديدة على التعاون المخابراتي الألماني الغربي ـ الاسرائيلي. كما أن لبريطانيا، صانعة وعد بلفور ومنفذته اثناء انتدابها على فلسطين، قسطاً وفيراً أيضاً في هذا التعاون، وقد تكون فقرة واحدة، من عديد الفقرات والاشارات ضمن الكتاب المشيرة الى ذلك، كافية ضمن هذا التقديم، وهي مأخوذة من الفصل الرابع عشر، وعنوانه «حرب الأيام الستة»:

«لقد احتاجت المخابرات الاسرائيلية، من أجل تحقيق ذلك النصر الذي حدث في حرب الأيام الستة، إلى كمال مطلق في المعلومات العسكرية، ويمكن أن يضمن هذا فقط عن دخول المخابرات السرية ميدان الدبلوماسية وكسب تعاون قوى أخرى. وكان البريطانيون

قد ساعدوا بشكل غير رسمي ، في بضع مناسبات كما ذكر في الفصل السابق من هذا الكتاب ، ولكنهم لم يكونوا موضع ثقة كاملة بسبب استمرار تسرب المعلومات من بريطانيا الى الاتحاد السوفييتي » .

بل إن بلجيكا والنروج شاركتا أيضا في هذا « الكارتل » ، وقدمتا كل معونة ممكنة لمخابرات العدو الصهيوني . فالتعاون مع بلجيكا كان من أجل ضمان شحنات البلوتونيوم اللازمة لصنع سلاح ذري ، من الكونغو والغابون . أما النروج فظهر دورها واضحاً بخاصة حين سرق الصهاينة الزوارق الخمس ، من ميناء شربورغ (٢٤ـــ ٢٥ | ١٢ | ١٩٦٩) . وقد جاء في الفصل السابع عشر ، « قضية الزوارق الخمس » ، ما يلي :

« على أنه لا يجب أن ينسب الفضل في الخطة المتبناة (لسرقة الزوارق) سواء إلى الجنرال ديغول أو الى الموساد ،

اذ كان مستحيلاً تنفيذها بدون التعاون بين الموساد والبحرية الاسرائيلية، ففي ذلك الوقت عرض الاسرائيليون خطة بيع الزوارق لشركة نفط ستاربوت البنامية، وهي مؤسسة نرويجية للتنقيب عن النفط، وذلك عن طريق مؤسسة للمحامين في لندن، وعنوانها في النرويج هو: صندوق البريد ٢٥٠٧٨، سولي ــ أوسلو ٢. وهذا أحد الأمثلة العديدة على التعاون بين اسرائيل والنرويج على المستوى المخابراتي».

هذه هي الحقيقة الأولى التي تفهم من بين سطور هذا الكتاب، وهي «الكارتل» المخابراتي الذي تشارك فيه مخابرات العدو، وتواجهه الأمة العربية وبخاصة دولها التي تقف في مواجهة العدو الصهيوني بمخططاته العدوانية والتوسعية، وفي مقدمتها القطر العربي السوري.

الاخفاقات الاسرائيلية

والحقيقة الثانية التي يفصح عنها الكتاب، هي ان العدو الصهيوني، رغم هذا الكارتل، قد مني باخفاقات مريعة في أعمال أجهزة مخابراته، كما أنه لم يكن حصيناً أمام اختراقات مخابراتية عربية ودولية، والأمثلة على ذلك عديدة.

في الفصل الثاني عشر، وعنوانه «انتقادات سويسرية عنيفة لهاريل»، أكثر من مثال، ومنها الفقرة التالية بالحرف الواحد:

«وثار السؤال القديم وهو هل يمكن تبرير التكتيكات الميكيافيلية؟ وفي هذا الوضع يمكن أن

يحاجج بوجود سبب قوي لاتخاذ هذه الاجراءات (ضد العلماء الألمان في مصر). ولكن ما حدث أن بعض تكتيكات هاريل العدوانية زاغت عن هدفها، وثبت أخيراً أن «تهديد اسرائيل» لم يكن سوى سخرية أليمة، ولكن هذا لم يتم إلا بعد أن وقع ما وقع.».

إن الرسائل الملغومة، التي ارسلتها المخابرات الاسرائيلية الى العلماء الألمان في مصر، واحدة من هذه الاخفاقات، ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٢ تلقى ولفغانغ بيلز، أحد التقنيين الألمان في مصر طرداً قرأت سكرتيرته «على غلافه عنوان المرسل المزعوم، وهو محام في هامبورغ، وأخذت تفتحه بدون أي تردد، فانفجر في وجهها ونقلت الى إحدى مستشفيات القاهرة حيث أمضت أسابيع عديدة».

«لقد كان هذا الطرد هو الأول في سلسلة من الرسائل الملغومة، ففي اليوم التالي وصل طرد آخر، ظاهرياً من مكتبة

في مدينة شتوتغارت، الى أحد المكاتب السرية للباحثين في الصواريخ وانفجر أيضا وقتل خمسة من المصريين. لقد كانت الرسالة التي تحملها هذه الطرود الملغومة واضحة: فالعلماء الألمان مهددون بالموت إذا لم يغادروا مصر. ووصلت الى القاهرة طرود أخرى خلال اليومين التاليين، ولكنها سلمت الى الخبراء لفحصها قبل فتحها، فوجدوها تحتوي على كتب مليئة بالأجهزة المتفجرة».

مثال آخر هو محاولة اغتيال الألماني الدكتور هانز كلاينفاختر، فني المختبر الذي كان ثقة في تركيب الصواريخ، خلال شهر شباط ١٩٦٣ في مدينة لوراخ الألمانية الغربية والقريبة من الحدود السويسرية.

وتلا هذا الاخفاق اخفاق آخر انفجر على شكل فضيحة قام بها اوتو جوكليك، العالم النمساوي والجاسوس الاسرائيلي مع يوسف بن غال الموظف في القنصلية الاسرائيلية في بال، بسويسرة. فقد هدد هذان هايدي غوركه، ابنة بول غوركه،

العالم الألماني الذي ساعد المصريين، وقبض عليهما رجال الشرطة السويسريون متلبسين بالجريمة، «وحارت السلطات السويسرية في أمرها»، كما يقول الكتاب، «فما هي الخطوة التالية التي ستقوم بها؟ فبعد استجواب الرجلين أبقتهما موقوفين اسبوعين قبل أن تعلن، يوم ١٥ آذار ١٩٦٣، ان الاتهام قد وجه الى عميلين لدولة اجنبية بتوجيه تهديدات الى الآنسة غوركه. وأضاف بيان المدعي العام السويسري أنه «وفقاً للتحقيقات التي جرت فإن القول الذي صدر عن تل أبيب وهو أن الآنسة غوركه هي التي رتبت الاجتماع في الفندق، ليس اكثر من مكيدة، ويجب رفضه كلياً».

وخلال المحاكمة كشفت فضائح المخابرات الاسرائيلية المتورطة في الأحداث الأخيرة في ألمانيا وسويسرة، «وفي أجزاء أخرى من العالم»، غير الكيان الصهيوني، «كان هنالك نقد للنشاطات غير الشرعية التي قامت بها المخابرات الاسرائيلية وادعاءات التكتيكات الارهابية، وتضرر موقف اسرائيل في

الخارج». وكانت من نتائج ذلك استقالة ايسر هاريل رئيس الموساد.

وأبرز الكتاب اخفاقاً آخر، وهو الفضيحة في البلدة النرويجية الصغيرة، ليلهامر ــ الفصل التاسع عشر. فقد تتبع رجال من الموساد من ظنوه علي حسن سلامة حتى هذه البلدة، ثم قتلوا عامل المطعم المغربي أحمد بوشيكي خلال شهر تموز سنة ١٩٧٣. وجاء في مقدمة هذا الفصل ما يلي بالحرف الواحد:

«لم تشمل الكارثة في ليلهامر على قتل الرجل الخطأ فقط، بل على تعقب «فرقة الانتقام»، واعتقال أفرادها. لقد شكلت هذه في الواقع، نقطة الحضيض بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية، لا بسبب الحادثة فقط، بل بسبب كافة العوامل الأخرى في القضية، فزامير كان في المكان نفسه، وهكذا فإن رئيس الموساد نفسه متورط في هذه الجريمة الشائنة، مما يعني ولا ريب ارتفاع الأصوات في الكنيست بالانتقادات والارتيابات

التي كانت سائدة في أواخر عهد هاريل بالنسبة لنشاطات الموساد. كما أن الاعتقالات التي جرت في النرويج، وما تلاها من نشر وإعلان عن المحاكمات التالية وحملة الدعاية المضادة التي قام بها العرب لم تساعد جميعها اسرائيل».

ثم يورد هذا الفصل نتائج هذه الفضيحة والأخفاق الكبير للمخابرات الاسرائيلية في النرويج، وكتب أحدهم: «وفي النهاية كانت النرويج الصديقة الودودة لاسرائيل، والتي قلما تكون الستارة التقليدية للعنف الفلسطيني ــ الاسرائيلي هي التي وضعت نهاية لها». ويعني الكاتب بذلك فرق الارهاب الصهيونية في النرويج.

على أن أحد أكبر اخفاقات مخابرات العدو كانت في الحرب التشرينية المجيدة، وبعدها تبادلت كلتا وكالة المخابرات المركزية الأميركية ومخابرات العدو الاتهامات بالتقصير، وتشكلت لجنة أغرانات الحكومية الاسرائيلية فأدانت القائمين

على أجهزة المخابرات الاسرائيلية، وأبانت مقدار اخفاقها قبيل تلك الحرب.

لقد أوضح الفصل العشرون، وعنوانه «دروس من حرب يوم الغفران»، هذا الاخفاق وكان مطلعه: «تكررت في وسائل الاعلام، وباستمرار، ان كل الشهرة التي كسبتها المخابرات الاسرائيلية لنفسها في حرب الأيام الستة قد فقدتها كلياً تقريباً بسبب اخفاقاتها في حرب تشرين ١٩٧٣».

وجاء فيه أيضاً: أن درو ميدلتون، مراسل صحيفة نيويورك تايمز ذكر ان «الولايات المتحدة ووكالة المخابرات المركزية ووكالة الفضاء القومية (المتخصصة في التجسس الالكتروني) كانت، ثلاثتها، مقتنعة منذ ٢٤ ايلول ١٩٧٣ أن الهجوم العربي الرئيسي قادم وحذرت اسرائيل. ولكن القيادة الاسرائيلية رفضت الانذار، فكانت واثقة جداً من معرفتها بالعرب!!، وهونت من قدرة اعدائها المحتملة على حفظ الأسرار».

وفيه أيضاً:

«وبعد وقت طويل نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقتطفات قصيرة من تقرير سري جاء فيه «أن مجتمع المخابرات الأميركية، أقر أنه فشل في التنبؤ بحرب ١٩٧٣، بل إن وكالات مخابرات عديدة تنبأت بعدم اندلاع حرب حتى قبل ساعات من نشوب الأعمال القتالية».

وقد انسحب هذا أيضا على المخابرات الاسرائيلية، وكتب دايان في سيرة حياته أن «شعبة المخابرات الاسرائيلية (ويفترض أنها أمان) ذكرت في مطلع تشرين الأول أن المصريين منهمكون في تدريبات عسكرية، ولكنهم لا يستعدون لشن حرب. ولم تكن هذه وجهة نظر الاسرائيليين فحسب بل أجهزة المخابرات الأميركية».

أما لجنة أغرانات فقد أدانت المخابرات الاسرائيلية، «وكان قرارها عن الجنرال زعيرا، رئيس أمان، أنه نظراً لاخفاقه الذريع لا يستطيع الاستمرار في منصبه رئيساً للمخابرات

العسكرية». كما طلبت أبعاد أربعة ضباط كبار آخرين عن مناصبهم.

ان ثمة اخفاقات أخرى وقعت فيها مخابرات العدو، وانسحبت نتائجها لفترة طويلة على ساحته السياسية، ومنها اخفاق العملية المخابراتية في مصر سنة ١٩٥٤ والتي عرفت فيما بعد بقضية لافون، وكشف الجواسيس الصهاينة في بعض الدول العربية، وسجنهم أو اعدامهم.

حرب المخابرات

هنالك حقيقة أخرى وردت في هذا الكتاب، وهي حرب المخابرات العنيفة ما بين العدو الصهيوني والمقاومة الفلسطينية بمؤسساتها وأشخاصها.

لقد استطاع الصهاينة أن يحققوا بعض الاغتيالات في صفوف المناضلين العرب والفلسطينيين من أجل القضية الفلسطينية، فاستشهد في هذه الحرب على سبيل المثال لا الحصر ــ وائل زعيتر ومحمود الهمشري وباسل كبيسي ومحمد بوحنيا وآخرون.

ولكن المقاومة الوطنية الفلسطينية استطاعت بدورها أيضا أن تلحق إصابات موجعة بمخابرات العدو الصهيوني

وبمخبريه، فلاحقتهم، وقتلت أحدهم في مدريد، وآخر في واشنطن وثالث ورابع وخامس، ولا تزال هذه الحرب مستشرية ضارية، فسقط شهداء عرب وفلسطينيون فيها، كما قتل بالمقابل صهاينة مخبرون ومسؤولون.

الاختراقات

واضافة الى الحقائق الثلاثة السابقة هنالك حقيقة اخرى، وهي أن العدو الصهيوني بأجهزته ومؤسساته لم يكن حصيناً منيعاً، فقد أمكن لأجهزة عربية ودولية أن تخترق ساحته ومؤسساته، وتصل الى مراكز رفيعة مطلعة فيها.

إن الأمثلة التي أوردها الكتاب عديدة، وفي هذا التقديم سوف يكتفى ببعضها.

في الفصل الثالث عشر، وعنوانه قضية اسرائيل بير، الفقرة التالية:

«وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٨ أعلنت اسرائيل عن أن أكبر شبكة تجسس، كشفت حتى آنذاك، قد تمت تصفيتها

على أيدي رجال الأمن فيها. وقد اشتملت هذه على عرب مقيمين في اسرائيل وعلى أقاربهم الموجودين في الأردن، وعلى متسللين قدموا من لبنان. فألقي القبض على عشرة من العرب المقيمين في اسرائيل رغم أن الاعتقاد ساد آنذاك أن المتورطين أكثر من ذلك. ويعود تاريخ نشاطاتهم الى سنة ١٩٥٦ مع بعض الانقطاعات نتيجة الاجراءات المضادة التي اتخذتها، بين حين وآخر، أجهزة الأمن الاسرائيلية».

هذه واحدة، ومثال آخر على الاختراق العربي للكيان الصهيوني ومؤسساته. ومثال آخر عام في الفقرة التالية من الفصل الخامس عشر، فترة اختبار الشاباك:

«لقد واجهت اسرائيل، طيلة هذه الفترة، سلسلة متكررة من النشاطات التجسسية المنظمة بعناية والموجهة ضدها. وقام ببعض هذه النشاطات الاتحاد السوفييتي كما رأينا من قبل، ولكن الغالبية العظمى منها قامت بها الدول العربية المجاورة. وقد وقعت مسؤولية مكافحة هذه النشاطات على الشاباك التي

أظهرت كفاءة ملحوظة في مواجهة تهديد أمن اسرائيل الداخلي، ولا سيما لوجود ثلاثمائة ألف عربي داخلها يتكلمون جميعهم اللغة العربية».

وبعد بضع فقرات جاء ما يلي حول تقرير لبن غوريون عن النشاطات التجسسية العربية والاسرائيلية:

«لقد لفت بن غوريون الانتباه الى الحاجة لمزيد من اليقظة في التعامل مع الجواسيس، مؤكداً على انتشار شبكات التجسس العربية، ولكن ما لم يتم إدراكه من قبل هو الحاجة الى اليقظة تجاه الاسرائيليين اليهود، لا العرب فقط، والمشاركين مشاركة فعالة في التجسس للعرب».

ثم يورد الكتاب شبكة التجسس التي تزعمها العربي داوود تركي من حيفا، وشارك فيها اليهوديان ايحود اديف ودان فيريد، كما يورد أمثلة أخرى منها قضية يعقوبيان وشبكة المناضل العربي السوري شكيب أبو جبل، واليهودي داني زايل اليهودي العراقي المقيم في الكيان الصهيوني والذي باع «كمية كبيرة من

الأسلحة والمعدات المسروقة من الجيش الاسرائيلي إلى مجموعة فدائية عربية تعمل في الخليل وبيت لحم، وقد قيل إن زايل تلقى مبلغاً كبيراً من المال وأنه فرّ من اسرائيل الى أوروبا في الشهر السابق».

هذه بعض الأمثلة على الاختراقات العربية للكيان الصهيوني ومؤسساته، وهنالك أمثلة أخرى على اختراقات دوليـةـــ أوردها، وسيكتفى أيضا ببعض الأمثلة من تلك الموجودة في هذا الكتاب.

المثال الأول هو أهارون كوهين، (الفصل الثالث عشر ــ قضية اسرائيل بير)، «فقد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لنقله معلومات سرية الى عملاء دولية شيوعية».

ثم تلي ذلك الفقرة التالية:

«وبينما كان ضباط المخابرات الاسرائيلية يتعقبون أهارون كوهين، وبدأوا يدركون مدى الجهود السوفييتيـة والبولونيـة والرومانية في التجسس على اسرائيل، وقع في أيديهم، وبشكل

غير متوقع ومن خلال تقرير بعث به أحد عملاء الموساد، نبأ مثير عن عالم نووي بين ظهرانيهم ينقل معلومات إلى الاتحاد السوفييتي».

أما هذا الجاسوس النووي فهو البروفيسور كَيرت سيتي الألماني السوديتي الكهل الذي شغل منصباً بحثياً هاماً، بوصفه عالماً نووياً مختصاً في الاشعاع الكوني في معهد التخنيون بحيفا، فهنا كان جاسوس يعمل لفترة طويلة في منشأة هامة جداً في اسرائيل، ويشكل تهديداً لا لاسرائيل فقط بل للولايات المتحدة ولأوروبا الغربية كلها».

وهنالك حالة تجسس أخرى هي حالة الدكتور اسرائيل بير، الذي خدم في القوات الاسرائيلية خلال حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وأصبح أصغر العقداء في الجيش الاسرائيلي، وحاز في فترة على سمعة طيبة بوصفه استاذاً كبيراً لكتابة تاريخ الحرب. ولكنه كان طيلة هذه الفترة، يعمل بتوجيهات من موسكو، ويُبقي «المركز»، أي قيادة المخابرات السوفييتية في موسكو،

مطلعاً على أدق الأسرار التي يبعث لها بها من تل آبيب، وعلى قدر هائل من المعلومات عن بلدان أخرى أيضاً.... ثم أصبح بير المعاون الرئيسي للجنرال ييغال يادين، رئيس أركان الجيش الاسرائيلي آنذاك وأحد كبار علماء الآثار فيه».

اختراق هائل ولا ريب للمؤسسة الصهيونية في دولة العدو. وهنالك اختراقات أخرى ذكرت في ثنايا هذا الكتاب.

جملة من الحقائق تضمنتها صفحات الكتاب، ودفعت إلى ترجمته، إنها:

- الكارتل المخابراتي الدولي.
- الاخفاقات الاسرائيلية.
- حرب المخابرات.
- الاختراقات للكيان الصهيوني ومؤسساته.

على أن ثمة حقيقة أخرى خامسة تضمنتها سطور هذا الكتاب. إنها تبيان آلية العمل المخابراتي الاسرائيلي وتطويره، لا اعتماداً على الأشخاص فحسب، بل على استخدام الأجهزة

العلمية في التجسس وخزن المعلومات في الحاسوبات الالكترونية، عن المؤسسات العربية وعن عسكريين ومدنيين عرب للافادة منها عند الضرورة. هذا مع ملاحقة النشاط العربي، الحربي بخاصة.

لقد تضمن الفصل التاسع، انجازات يوفال نيعمان التقنية، بعض المعلومات عن استخدام الحاسوبات في «توثيق المعلومات وتحليلها يومياً»، وعن «إقامة اجهزة استخبارات الكترونية».

«وباختصار، فإن تحليل معلومات أسرى الحرب وسَّع من ميدان الحقائق الى الميدان النفسي على أساس المقولة السليمة تماماً وهي أن من الضروري أن يعرف المرء عدوه. وعلى ذلك لم تضع «أمان» ملفاً لكل أسير تم استجوابه فقط، بل ملفاً أيضا لكل ضابط مصري منذ تخرجه من الكلية العسكرية مع خزن كل شيء وكل معلومة عنه في الحاسوبات الالكترونية، ومن ذلك: أين عُيِّن؟ وكيف رقي؟ وما هو اختصاصه...

الخ. وكان معظم هذه المعلومات يؤخذ من الصحف المصرية او من المجلات العسكرية. وهذا يفيد عند تقيم هؤلاء الضباط وفي حسبان تحركات قواتهم».

ومع تبيان آلية العمل المخابراتي الاسرائيلي كان أيضا كيفية اتخاذ قرار العمل المخابراتي ومتابعته، وكيفية تعيين مسؤولي أجهزة المخابرات ونبذة عن سير حياتهم التي أهلتهم لاشغال هذه المراكز، وعن عقلياتهم وردود فعلهم تجاه شتى الأحداث.



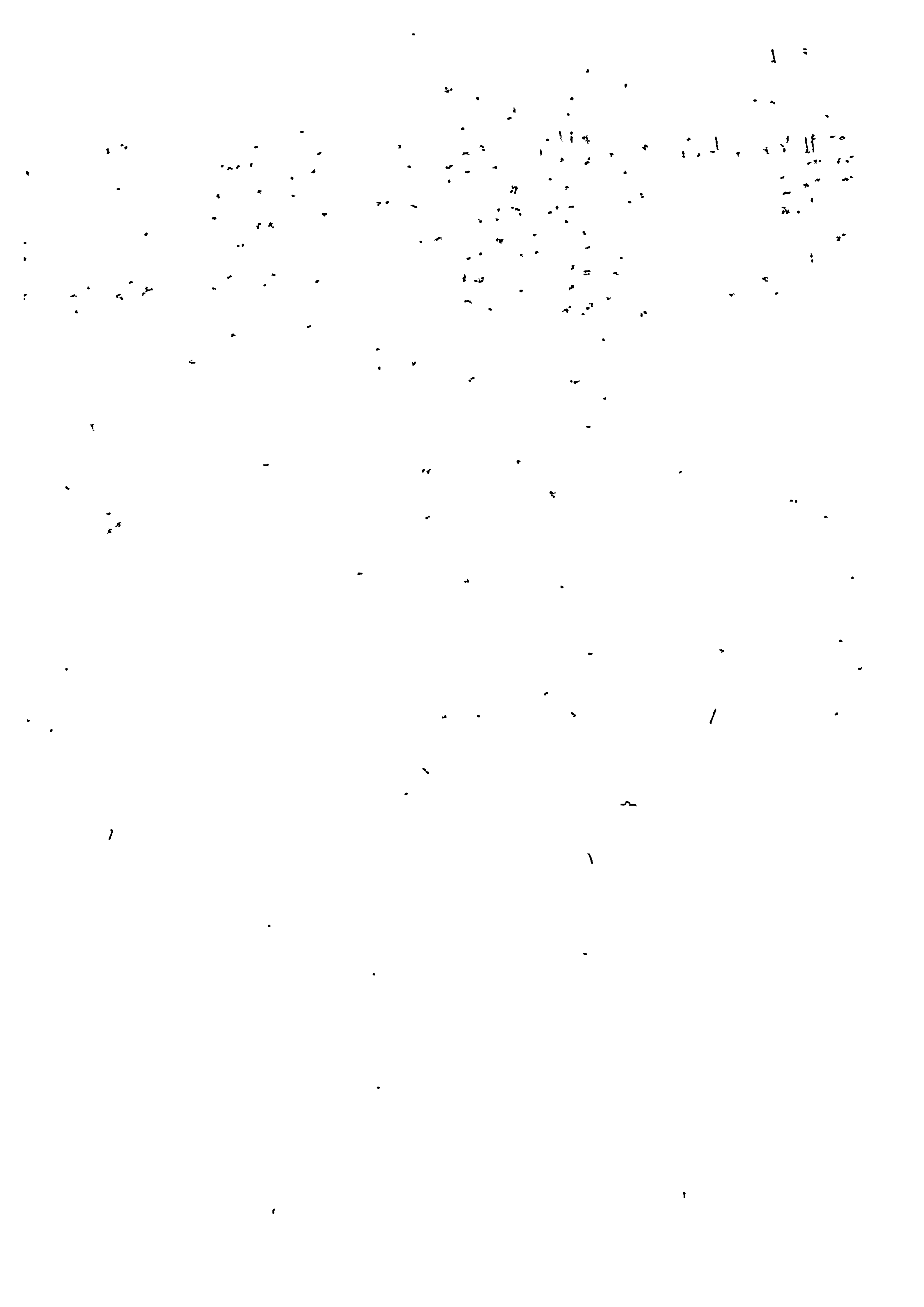
ان هذه الحقائق جميعها ستكون، ولا ريب، جد مفيدة وبخاصة لمن تعنيهم مثل هذه الأمور.

ولكن... ومع هذه الحقائق الهامة التي تضمنتها فصول الكتاب وصفحاته لا بد من تنبيه القارىء، مرة أخرى الى أن يضع في ذهنه أثناء القراءة، أن واضع الكتاب شخص غربي،

ذو ميولٍ وأهواء أقرب الى الصهيونية وكيانها منها الى القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية بخاصة.

إن تقديم هذا الكتاب للقارىء العربي الواعي، بالحقائق التي أشير إليها من قبل، جزء من معرفة العدو، وهذا بالتالي جزء من معرفة مقاومة العدو وشتى أجهزته وكيفية شن الحرب عليهما، والأمل، كل الأمل، أن نكون قد التزمنا جانب الصواب.

المترجم



الفصل الأول *

على خطى الاسباط الاثني عشر

* ارقام الحواشي ضمن النص، يُرجع في تفسيرها الى نهاية الكتاب، مرتبة وفق الفصول، وهي تدل على المصادر.

«لا يمكن الاستيلاء على المرتفع اذا
كانت منحدراته خالية من الحفر».

شلومو شولسكي

١ -

كان التجسس المنظم، وفي «العهد القديم» شهادة على ذلك، مهنة محترمة معترفا بها بين «الاسرائيليين» القدامى، ولذا يمكن القول ان المخابرات الاسرائيلية هي واحدة من أقدم منظمات الاستخبارات في العالم رغم ان عمر دولة «اسرائيل» لا يزيد على ثلاثين عاما. فالصينيون فقط يملكون تراثا تجسسيا أقدم، ويفيدون من شكل ما من الاستمرارية، ولكن الاسرائيليين عانوا من مضار زوال عملهم التجسسي طيلة بضعة قرون، ثم استطاعوا، خلال سنوات قليلة تلت قيام اسرائيل، ان ينشئوا جهاز مخابرات، يمكن ان يصنف، قياسا على حجمها، على أنه من الدرجة الأولى.

ومهما يكن من امر فان من الهام، لتقدير قيمة هذا الجهاز

المخابراتي، ان يتذكر المرء مفارقة انه اقدم جهاز واحدثه، في الوقت نفسه، بين منظمات المخابرات كافة.

ان جهاز المخابرات الاسرائيلي المعقّد الفتي هذا يدين كثيرا للماضي البعيد، فيشوع بن نون «ارسل من شطّيم رجلين جاسوسين سرا قائلا: اذهبا، انظرا الارض حتى أريحا»[1]. ووجد الرجلان لنفسيهما حليفا في راحاب، المرأة الزانية في اريحا التي عقدت ميثاقا معهما، فلم تؤوهما فقط، بل ساعدتهما، مساعدة كبرى، في تحقيق أهدافهما.

على ان موسى هو الذي وضع اسس الجاسوسية ونظمها على نطاق واسع، وادعى ان هذا أمر إلهي مقدس، وأرسى موضوع اسس عمل فريق جواسيسه، «...... فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب، كلهم رجال هم رؤساء بني اسرائيل»[2].

كان عددهم، جميعا، اثني عشر، وبهم أسّسَ موسى أول جهاز مخابرات اسرائيلي حقيقي. وكانت التعليمات الصادرة اليهم

---

(١) الحواشي مثبته في نهاية الفصول.

بسيطة وواضحة. أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم: «اصعدوا من هنا الى الجنوب واطلعوا الى الجبل وانظروا الارض ما هي؟، والشعب الساكن فيها أقوي هو أم ضعيف؟، قليل ام كثير؟، وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم ردية؟، وما هي المدن التي هو ساكن فيها؟، أمخيمات أم حصون؟، وكيف هي الأرض؟ اسمينة ام هزيلة؟، افيها شجر ام لا؟، وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض»[٣].

وربما لا تكون هذه نصيحة رفيعة كتلك التي نصحها حكيم الجاسوسية الصيني صن تسو Sun Tzu في كتابه بنغ فا Ping Fa سنة ٥١٠ ق. م، بيد أنها تكفي، على الأقل، لضمان أن هؤلاء الجواسيس عادوا، في غضون أربعين يوما، بتقارير عن الأرض التي تسيل لبنا وعسلا، وعن تحذيرات مما سيلاقيه الداخلون اليها. وحاليا، تتقبل المخابرات الاسرائيلية الاخبار السيئة كتلقيها الاخبار الجيدة، فالتاريخ مليء باخفاقات المخابرات بسبب اغفالها الحقائق غير المحببة لها.

واذا كان العديد، من أعمال التجسس الاسرائيلي القديمة المسجلة، تمتزج فيه الحقيقة بالخيال والأسطورة فإن ثمة قدراً كبيراً

من الأدلة على أن كثيراً من الأُصول التوراتية يقوم على أسس حقيقية. وقد تجلى هذا للفرقة الستين البريطانية في شباط ١٩١٨م، حين أمرها الجنرال اللنبي Allenby، وطلب من أحد ألوية هذه الفرقة أن يهاجم قرية مخماس ويستولي عليها، فاختار الرائد فيفيان غيلبرت Vivian Gilbert، قائد هذا اللواء، لقلة ما لديه من معلومات عن المنطقة ولأن خطة الهجوم تشتمل على اقتحام تل شديد الانحدار بنيت القريةِ فوقه. ولكنه تذكر أن مخماس قد ذكرت في سفر صموئيل الأول ــ الاصحاحين الثالث عشر والخامس عشر: «.... وخرج حفظة الفلسطينيين الى معبر مخماس... وبين المعابر، التي التمس يوناثان أن يعبرها الى حفظة الفلسطينيين، سن صخرة من هذه الجهة، وسن صخرة من تلك الجهة، واسم الواحدة بوصيص واسم الأُخرى سنَه.

«والسن الواحد عمود الى الشمال مقابل مخماس، والآخر الى الجنوب مقابل جبع. فقال يوناثان للغلام حامل سلاحه تعال نعبر الى صف هؤلاء الغُلْفِ لعل الله يعمل معنا لانه ليس للرب مانِعٌ أن يخلص بالكثير آو بالقليل.... وكانت الضربة الأولى التي

ضربها يوناثان وحامل سلاحه نحو عشرين رجلا في نحو نصف تلم فدان ارض » .

وقد استطاع الرائد غيلبرت ، بدراسته هذا المعبر ، ان يغير خطة العملية كليا ، فبدل أن يقوم بهجوم امامي لكامل اللواء بعث سرية واحدة لمهاجمة الأتراك .

وكان المعبر كما جاء تماما في سفر صموئيل . وفي كتابه « حكاية اخر حملة صليبية » The romance of the last crusade استطاع غيلبرت أن يظهر قيمة المخابرات القديمة . « وقتلنا او اسرنا كل تركي كان تلك الليلة في مخماس ، وهكذا كررت قوة بريطانية ، بعد آلاف السنين ، تكتيك شاؤول ويوناثان(٤) » .

وبعد وفاة هيرودس لاحت في الافق نهاية الدولة اليهودية ، فاستحوذ الرومان على مزيد ومزيد من السلطة ، ولدى وفاة نيرون كان القائد الروماني فسبسيان Vespesian قد اخضع عمليا فلسطين كلها ، على رغم الثورات الأولية ، ما عدا القدس . وحين أصبح امبراطورا ارسل ابنه تيطس لاخضاع القدس . فاستطاع هذا سحقها سنة ٧٠ ب . م ، وظل اليهود محرومين منها الى ان احتلوها في حزيران سنة ١٩٦٧ م . على ان الكفاح استمر ، بالنسبة

للمتعصبين في قلعة مسادا على شاطيء البحر الميت بقيادة اليعازار سليل يهوذا الجليلي موجد حركة المتعصبين Zealots الرائدة للهاغاناه التي انبثقت منها المخابرات الاسرائيلية. لقد وجدت هذه الحركة سنة ٦ ب. م، ولكن الرومانيين قضوا عليها نهائيا سنة ٧٣ ب. م.

لم يكن أمام اليهود، منذئذ، سوى ان يستغلهم قاهروهم او ان يهاجروا الى بلدان اخرى. اما الذين بقوا في فلسطين فكان الأمل ضئيلا جدا في امكان ان يشكلوا حركة سرية. وأما الذين هاجروا فقد جندت امم اخرى أفضل جواسيسها منهم. ويمكن، من هذه الناحية، مقارنة اليهود باليسوعيين Jesuits الاوائل الذين لعبوا دورا في عالم الجاسوسية حيثما استقروا. وربما كان من المحتم أن يميل اليهود الى خدمة البلدان البروتستانتية اكثر من ميلهم لخدمة الدول الكاثوليكية اذ مرت قرون قبل ان يعفوا او ينسوا ان توركويمادا Torquemadea، الرئيس الطاغوت لمحاكم التفتيش الكاثوليكي في اسبانيا، قال ان الموت الاسود (الطاعون) «وصل الى بلاده عقابا للاسبانيين على ايوائهم اليهود». وقد كان انصار كرومويل البيوريتان Puritan هم الذين شجعوا هجرة اليهود الى

انكلترا، كما ان جون ثيرلو John Thurloe ، رئيس جهاز مخابرات كروميل، هو اول من قدر قيمتهم كعملاء سريين لانكلترا، وشكل التاجر اليهودي انطونيو فرنانديز كارفاخال Anotonio Fernandez Carvajāl مع مؤسساته في القارة الاوروبية شبكة تجسس لجون ثيرلو، على حين ان سيمون دي كاسيريس Simon de Caceres ، وهو يهودي آخر، ابقى ثيرلو مطلعا على التطورات في اميركا اللاتينية وفي بحر الكاريبي. وقد استطاع الاميرال البريطاني بليك Blake ان يدمر اسطولاً اسبانياً مصفحا سنة ١٦٥٧ م، في جزيرة تينريف Tenerife نتيجة معلومات زوده بها جاسوس يهودي آخر مقيم في جامايكا Jamaica(٥) .

وفي القرن التاسع عشر جرى في المانيا، والى درجة اقل في روسيا القيصرية، استخدام اليهود، وبشكل رئيسي، في ميدان المخابرات. اما في فرنسا فقد كان ثمة، ومنذ سنوات عديدة، شعور باللاـــ سامية في الجيش الفرنسي بلغ اشد درجاته في الأركان العامة. وربما كانت قضية الفريد دريفوس، الضابط من أصل يهودي، أبرز مثال على ذلك، فقد أدين هذا الضابط بأنه عرض بيع أسرار الى المانيا سنة ١٨٩٤ م. وحكم عليه بالطرد من الجيش

وبالسجن في جزيرة الشيطان Devil's Island . وأعيد فتح قضيته بعد أربع سنوات . وفي سنوات ١٨٩٩ م أعيد دريفوس الى فرنسا ، وجرت له محاكمة جديدة ، وصدر اخيرا عفو عنه .

ويلاحظ أن معظم اليهود ظل مخلصا للبلد ، الذي آواه ، نتيجة لاستمرار الاضطهاد والازعاج اللذين تعرض لهما اليهود خلال القرون . وحتى الحرب العالمية الأولى ، ومع إمكان استثناء روسيا التي كانت حالة خاصة ، ظل يهود كثيرون يعملون باخلاص ، بل وبمخاطرة كبرى ، من أجل الدول التي أصبحوا مواطنين فيها . فكان ثمة عديدون منهم يخدمون « الدول المركزية » وآخرون يعملون لدى الدول الحليفة ، بل ان شباناً يهوداً فلسطينيين كثيرين كانوا ضباطا في الجيش العثماني ، ومنهم موشه شرتوك ، الذي غير اسمه فيما بعد الى شاريت ، وأصبح أول وزير خارجية لاسرائيل .

ولكن هناك ، بالطبع ، بعض الاستثناءات فقد عمل بعض اليهود جواسيس مزدوجين ، وأحيانا عملاء لثلاث جهات ، مستخدمين التجسس مهنة وليس دعوة وطنية . بيد ان هذه النزعة لم توجد ، عموما في بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا ، بل في روسيا

القيصرية اذ ان اليهود فيها كانوا لا يزالون يعاملون معاملة قاسية ويحشرون داخل الأحياء المنغلقة (الغيتو).

ونتيجة لذلك انضم يهود كثر الى الحركات السرية الثورية التي نشأت داخل روسيا وامتدت، في أحيان كثيرة، الى خارجها في أواسط القرن التاسع عشر. وكانت تعاطفاتهم، عموما، مع الأحرار والفوضويين والديمقراطيين الاشتراكيين والاشتراكيين الثوريين الذين قاوموا النظام القيصري. ولكن بينما كان بعض هؤلاء ثوريين واشتراكيين عن اقتناع كان آخرون أكثر اهتماما بالبقاء الشخصي. وقد جعلت الريبة الحياة صعبة على اليهودي بين زملائه الثوريين صعوبتها عليه في المجالات الأخرى من الحياة الروسية. وإذا توقفت الازعاجات التي تنزل باليهودي حين انضمامه الى الاشتراكيين الثوريين فكثيرا ما جعله عدم الثقة يخشى من ان اختفاءها مؤقت ليس الا. وهكذا عمل بعض اليهود، كوسيلة للبقاء في هذا المحيط، على صيانة وجوده عن طريق لعبة خطرة وناجحة بشكل مثير، وهي تأييد الطرفين. وكانت إحدى الطرق التي استطاعوا بها فعل ذلك هي التظاهر بالانضمام الى الاشتراكيين الثوريين او الفوضويين او أية حركة سرية اخرى ثم

تقديم خدماتهم الى الشرطة السرية القيصرية Ochrana . وهكذا أصبح يهود كثيرون مخبرين لدى الشرطة السرية، كي يحققوا هدفهم الرئيسي وهو كسب حماية هذه الشرطة، ومن الطبيعي أن معظم هؤلاء المخبرين تجسس فقط على الثوريين وقلما ورط نفسه توريطا كبيرا معهم.

ان هذا قد يكون أحد أسباب تغير الشعور المفاجىء تجاه البلاشفة اليهود في أواسط العشرينات. ولكن العامل الأكبر كانت القضية التقليدية لازدواجية التعامل اليهودي داخل الشرطة السرية القيصرية، وهي قضية ايفنو آزيف Ievno Azeff . فقد أحدثت هذه في روسيا تأثيرا يماثل قضية دريفوس في فرنسا. ولكن بينما كانت ردة الفعل النهائية لقضية دريفوس لصالح اليهود كانت ردة الفعل على قضية آزيف عكس ذلك ولضررهم الكامل. وحتى الآن لا يزال الرسميون السوفييت، يستشهدون في أحاديثهم السرية بقضية ايفنو آزيف حين يتحدثون عن المواقف القاسية تجاه اليهود، وبخاصة تجاه الذين يرغبون في مغادرة البلاد.

ومهما يكن من امر فان قضية ازيف ليست نموذجا لما كان يجري بين الجالية اليهودية في روسيا القيصرية، فكثيرون جدا من

المخبرين اليهود ظلوا مخلصين للشرطة السرية، وللحكومة القيصرية مستخدمين مهنتهم فقط للحفاظ على أنفسهم من الاضطهاد، وظل آخرون كثر ايضا مخلصين كليا لقضية الثوريين. ولكن آزيف حاول ان يحرز كلا الامرين، وسيسجل اسمه في التاريخ على انه العميل المزدوج الذي لم يستطع أحد كشفه كليا. فهذا الممارس الأكبر لفنون «العميل المحرض» لم يتخذ فقط صفة الثوري حين كان يعمل للشرطة مخبرا وعميلا سريا، بل نظم فعلا عمليات اغتيال كبار الشخصيات السياسية في روسيا حتى يستطيع اصطياد القتلة ومشاركيهم واعتقالهم ثم اعدامهم. وقد بدا في كل ضربة يوجهها للثوريين انه يوجه ضربة قوية مماثلة للشرطة. ولم يكن ثمة من شخص آخر يضاهيه براعة في مساعدة الشرطة واعتقال الثوريين، أو يماثله في الوقت نفسه مهارة في دفع قضية الثوريين بضربات موفقة الى الأمام. فأي الجانب أحرز الفائدة الكبرى؟ لا تزال الاجابة مستحيلة رغم ان القضية كلها كانت موضع تحقيق وبحث بعد الثورة البولشفية. ويؤكد غراهام ستيفنسون Graham Stephenson، المؤرخ البريطاني المعاصر الثقة بالتاريخ الروسي، ان «من المستحيل تحديد أي من الجانبين خان. على حين ان ا. ت. فاسيلييف A. T. Vassilyev، الذي كان رئيس الشرطة السرية

القيصرية، اعلن «ان أي ضوء كاشف لم يسلط على قضية ازيف، كما انني طوال فترة خدمتي لم تقع عيناي على اية وثيقة قد توضح ذلك العميل الغامض وتكشفه»[٦].

كان آزيف ابن خياط يهودي فقير، ولد في بلدة ليسكوفو Lyskovo في مقاطعة غرودننسكي Grodnensky في روسيا سنة ١٨٦٩ م. وبدأ حياته كاتبا في إحدى الدوائر ثم مدرسا خصوصياً فصحفيا قبل ان يقيم صداقة مع الثوريين، وبعدئذ عرض خدماته على الشرطة السرية القيصرية. وقد تسلل الى «تنظيم القتال» الخاص بالثوريين، وخطط لعمليات اغتيال اشخاص مثل سبياغين Sypyagin، وزير الداخلية، واوبولنسكي حاكم خاركوف Kharkov وبودغانوفيتش Bodganovitch حاكم أوفا Ufa وبليهفي Plehve الوزير الآخر للداخلية، والدوق الأعظم سيرجي الكسندروفيتش Sergei Alexandrovitch. ولكنه، في الوقت نفسه، سرب الى الشرطة السرية القيصرية معلومات كافية لمساعدتها على اعتقال بعض القتلة الحقيقيين، مبديا عناية كبرى للحفاظ على حياة أقرب حلفائه في الحركة السرية، وعاملا على تصفية الذين لا يثقون به كافة. ومع مرور الوقت تولى آزيف القيادة العليا للمنظمة الإرهابية على حين انه اقنع الشرطة السرية

القيصرية بجدارته الى الحد الذي رفع فيه مرتبه الى ١٦ ألف روبل سنويا، اي الى اربعة اضعاف ما كان يجنيه حين عمل لاول مرة معهم. واخيرا طارده الثوريون الذين خططوا لتصفيته، كما لاحقته الشرطة السرية القيصرية، فهرب من روسيا، واخذ يتنقل طيلة سنوات عديدة من مكان الى آخر مغيرا اسمه وفندقه كل بضعة اسابيع، فكان آناً في ايطاليا، ثم في مصر واليونان واخيرا استقر في المانيا حيث توفي قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى.

وقد يحاجُّ النظريون ان قضية آزيف لا علاقة لها بتاريخ المخابرات السرية الاسرائيلية. وهذا صحيح من ناحية، ولكن هذه القضية، بوصفها عاملا في خلفية الموضوع، حيوية وهامة لفهم كيف ان اسرائيل استطاعت ان تطور جهاز مخابراتها، فآزيف لم يكن عميلا يهوديا نموذجيا للدول العظمى قبل سنة ١٩١٤ م، بل ان مغامرته واهتمامه بالتفاصيل وصبره وموضوعيته وشدة قسوته تمثل الموهبة اليهودية الطبيعية للتجسس. وحين اقيمت اسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية وجدت هذه الصفات، بوفرة، في عملاء الهاغاناه والمنظمات اليهودية الفلسطينية الأخرى، ولكن، وعلى خلاف آزيف، كان ثمة دافع داخلي لأعمال هؤلاء.

لقد كان معظم القادة اليهود الأوائل في قتال سنة ١٩٤٨م. في فلسطين أعضاء في شتى الحركات السرية في روسيا وبولونيا والبلدان المجاورة.

فدافيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لاسرائيل ووزير الدفاع فيها ولد في بولونيا سنة ١٨٨٧ م، وكان في صباه عضوا في الحركة الاشتراكية اليهودية وهي: (باولي زيون) داخل بولونيا وعمل لجعلها قوة في الحياة اليهودية في اوروبا الشرقية تلعب دوراً فعالاً في منظمة الدفاع الذاتي اليهودية اثناء مذابح سنة ١٩٠٥ م. ونتيجة لذلك نزل اسمه في القائمة السوداء للشرطة السرية القيصرية، فغادر بولونيا الى فلسطين. وقد ولد البروفيسور بن زيون دينابيرغ Ben-Zion Binaburg، أول وزير تعليم اسرائيلي، في اوكرانيا سنة ١٨٨٤م، وانضم الى حركة العمل الصهيوني في روسيا سنة ١٩٠٣ م

وكانت قصص بعض اليهود الروس الآخرين مختلفة، فهنالك جوزيف ترمبلدور Joseph Trumpeldor (١٨٨٠ ـــ ١٩٢٠ م) الذي قيل انه كان الضابط اليهودي الوحيد في الجيش الروسي القيصري. وقد رفع الى رتبة ضابط بعد معركة بورت آرثر Port Arthur التي ابلى وفقد احدى يديه فيها. وخلال الحرب العالمية

الأولى خدم ترمبلدور في وحدة يهودية قاتلت مع البريطانيين في غاليبـولي Gallipoli على الدردنيـل(*). ولكـــن ربما كانت كبرى الأعمال اليهودية الفلسطينية المشهودة خلال الحرب العالمية الأولى هي أعمال عائلة ارونسون Aaronson ونشاطاتها التجسسية لصالح البريطانيين.

ان اليهود، وكما لوحظ من قبل، قد وجدوا في كلا جانبي القتال في تلك الحرب، ولكن عددا من المثقفين والذين تطلعوا الى «وطن قومي» وقفوا الى جانب الحلفاء. فهم رغم مقتهم روسيا القيصرية، علقوا آمالهم في الاعتراف بالمطالب الصهيونية على انتصار الحلفاء مع الدعم الذي تلقوه من وزير الخارجية البريطانية، اللورد بلفور Belfour، المتعاطف جدا مع الصهيونية، وكان آنذاك حوالي ٨٠ ألف يهودي في فلسطين، وكانت تل أبيب قد تأسست للتو على الكثبان الرملية خارج يافا سنة ١٩١٤ م. وعلى أية حال

(*)هاجر الى فلسطين سنة ١٩١٩، وأراد انشاء مستعمرات في شمالي فلسطين مع مجموعة من الصهاينة. هاجمه الثوار العرب عند قرية تل حي، قرب الحدود في لبنان، وقتلوه في الأول من آذار ١٩٢٠ م مع خمسة صهاينة آخرين. وهو يعتبر واحداً من الصهاينة الرواد.

(المترجم)

وضع بعض اليهود، الموالين للحلفاء، في فلسطين خططا سرية لمحاولة الاستيلاء على القدس حين تقهقر الأتراك.

كانت عائلة آرونسون غنية ومثقفة ومحترمة بين ابناء طائفتها، وعلى اقتناع تام ان الحلفاء سوف ينتصرون، وعرضت ان تقيم شبكة تجسس للبريطانيين. والاكثر من ذلك ان آرون آرونسون Aaron Aaronson مهندس هذه الخطة، لم يعد فقط بابقاء البريطانيين مطلعين على تحركات القوات التركية، بل اوضح انه لا يريد، هو وعائلته، أي جزاء أو مكافأة على خدماتهم. فقد كانت فكرة آرونسون ان اليهود، اذا قدموا خدماتهم مجانا لبريطانيا واظهروا انهم تواقون الى لعب دور في كسب الحرب، سيصبح نوالهم الدعم لتحقيق أهدافهم أكثر احتمالا. وهذا لم يكن أملا غير عقلاني أو غير رشيد في ضوء وعد بلفور. والحقيقة ان السلطات البريطانية رأت حيال عرض آرونسون، ان كل من يتقدم بعرض للتجسس بدون توقع أية مكافأة لا بد أن يكون مدسوسا من جانب العدو.

وكان على آرونسون ان يكافح لا الشكوك والارتيابات البريطانية فحسب، وانما عداء بعض الصهيونيين، فقد شعر هؤلاء

ان المسألة اليهودية تخدم خدمة أفضل عن طريق استخدام أية معلومات من أجل أهدافهم هم. ولكن آرون آرونسون عقد عزمه على المضي في خطته التي قبلها البريطانيون اخيراً. كان هذا عالم نبات يملك محطة تجريبية في عتليت على الساحل الفلسطيني، فأقام فيها مركز شبكته التجسسية. ومن الأفراد الآخرين البارزين فيها شقيقه اسكندر Alexander وشقيقته ساره Sara وافشالوم فينبيرغ Avshalom Feinberg، من مستعمرة الخضيرة، ونعمان بلكايند Na'aman Belkind من مستعمرة ريشون Rishon وقد اطلقت هذه الشبكة على نفسها نيلي Nili، وهي الحروف الأولى من جملة عبرية تقول: «الخالد من أبناء اسرائيل لا يكذب». وكانت لها رموزها السرية ونظام اتصالاتها، وسرعان ما اثبت هذا الفريق الشاب وغير المتمرس من الجواسيس انه ذو قيمة للبريطانيين لا تقدر بثمن. فقد حدث ان ضابط ركن ألماني منح مأوى في بيت آرونسون، واستطاع الابناء الثلاثة الحصول على ثروة كبرى من المعلومات عن طريق تفتيش أوراقه حين يكون خارج البيت او التوجه اليه بأسئلة بريئة حين يكون فيه. ويضاف الى هذه الثروة سيل دائم من المعلومات يبعث بها اصدقاء اتراب لهم. وقد نزلت بهم ضربة مروعة سنة ١٩١٦ م. حين قتل البدو أفشالوم فينبيرغ (وقد عثر على

قبره بعد حرب حزيران ١٩٦٧ م)، ولكن آرون آرونسون وجد طريقة لتطويق هذه المشكلة رغم انها الحقت دماراً بشبكة اتصالاتهم، فقد سار على الساحل حتى اصبح، بموازاة المواقع التركية ــ الالمانية ثم اندفع الى الشاطىء نحو الخطوط البريطانية، فأخذ الى ضباط الاستخبارات البريطانيين للاستجواب.

وفي تشرين الأول سنة ١٩١٧ م. ضلت حمامة زاجلة، دربت خصيصا لنقل الرسائل من «نيلي» الى البريطانيين، طريقها ووقعت في شراك الاتراك. وكانت سارة قد رتبت هذا الاتصال الزاجلي لتوفير المعلومات التي كان شقيقها يزود البريطانيين بها في رحلاته الخطرة بالقارب الصغير. وسرعان ما حامت الشكوك حول اليهود وسرى الارتياب بهم، وقام الأتراك بجمعهم. كانت سارة واحدة من المعتقلين الأوائل، فقد شك الأتراك بها لأن ضابط ركن المانياً سكن في بيتها، وارتابوا في أن تسريب المعلومات لا بد أن يكون من هذا المصدر. ورغم تعذيبها لم تفصح عن شيء. وقد قيل ان الأتراك قتلوها أو قتلت هي نفسها لئلا تنهار أثناء التعذيب. أما شقيقها الأكبر فظل على قيد الحياة ولعب دوراً كبيراً في الادارة البريطانية.

وهكذا، فإن اليهود، بطريقة أو باخرى، وفي بلد او في آخر، كانوا يكتسبون تدريبا ويحرزون خبرة في التجسس الذي اصبح ذا قيمة هائلة لهم حين أقيمت اسرائيل. صحيح ان القبائل الغجرية عملت، طيلة قرون، على أطراف العمليات التجسسية، ولكنها لم تشق طريقها الى قمة هذه المهنة مثل اليهود. وليس من قبيل الصدفة ان سيدني رايلي **Sidney Rieilly**، الذي هو ربما اهم جاسوس بريطاني خلال السنوات المائة الأخيرة، كان من أصل يهودي، واسمه الحقيقي سيغموند جورجيفيتش روزنبلوم **Segmond Georgievich Rosenblum** وهو ابن غير شرعي لطبيب يهودي. وقد تجاوز رايلي، جداً ميادين التجسس البحت، اذ كان في أكثر الأحيان يصوغ السياسات أيضا، فخلال أوائل العشرينات من هذا القرن كان داخل روسيا السوفييتية بوصفه عميلا بريطانيا يساعد فعلا على اختيار حكومة ظل وتشكيلها في حال الاطاحة بالبولشفيين. على ان كثيرا من مكائد رايلي ظل محاطا بالغموض، فمن المؤكد انه عمل لبلدان أخرى غير بريطانيا، حتى لو كان ولاؤه للمملكة المتحدة (والحقيقة انه ادعى دائما في أعوامه التالية انه ابن قبطان ارلندي) ومن بينها الولايات المتحدة وروسيا. ومن المعروف انه اشتغل عميلا لروسيا القيصرية على حين انه كان

يتجسس فعلا لبريطانيا في داخل روسيا. ولا يزال ثمة بعض الأدلة على أنه، بعد اختفائه سنة ١٩٢٥ م، ربما لا يكون قد قتل على ايدي حرس الحدود السوفييت وانما هرب فعلا الى الاتحاد السوفييتي. ومن المؤكد ان ثمة بعض الناس يزعمون انه كان لا يزال، بعد سنتين، على قيد الحياة.

ومهما يكن من امر فإن رايلي، حتى لو ظل حيا لبضع سنوات اخرى جاسوسا مزدوجا، قد صفي ولا شك في الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل. ففي العشرينات كانت الحملة اللا ــ سامية داخل الاتحاد السوفييتي قد بدأت، وذلك رغم ان عدداً كبيراً من اليهود الروس أصبح بولشفيا في السنوات الأولى للثورة وشغل بعضهم مناصب رسمية مسؤولة في الادارة، إلا انهم لم يتخذوا احتياطات لانهم اصبحوا أعضاء في الحزب الشيوعي. واستخدم ستالين، الذي كان شديد الانحياز ضد اليهود، حجة ان عدم الانضمام الى الحزب يجب ان يعتبر دليلاً على الموقف الفاتر تجاه النظام. وفي أواسط الثلاثينات حدثت موجة تطهير عنيفة ضد اليهود في مجالات الحياة كافة في الاتحاد السوفييتي. وقد ساعدت هذه الموجة، مع تزايد اضطهاد النازيين

لليهود، على تسريع الهجرة اليهودية من أوروبا الى فلسطين. وكان الموقف السوفييتي تجاه الصهيونية غير ملتزم قبل إقامة اسرائيل. والحقيقة أن الحزب الشيوعي في فلسطين رفض مبدأ الهجرة اليهودية، ولم يؤيد بأي شكل مقولة «الوطن القومي». ولكن عددا من اليهود، رغم هذا وحتى مع اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفييتي، ظل مخلصا للنظام السوفييتي، كما ان الاحزاب الموالية للماركسية في فلسطين ظلت تؤيد الاتحاد السوفييتي، وتتبنى الرأي القائل ان البلاشفة هم الذين خلصوا روسيا كلها من القمع القيصري. ومن الممكن ايضا وجود شعور بان الاتحاد السوفييتي، مع ما ابدته بريطانيا وفرنسا من ميل ضئيل الى الوقوف امام المانيا النازية، وفر الأمل الوحيد، على المدى البعيد، للخلاص من الاضطهاد الأوروبي. وكانت الولايات المتحدة آنذاك انعزالية كليا في نظرتها.

ان ما نشده اليهود عموما في فلسطين هو إقامة دولة صهيونية. وحتى أولئك الذين كانوا ثوريين في روسيا واشتراكيين متطرفين في بلدان اخرى غيرها رغبوا، رغبة صادقة، في إقامة دولة صهيونية، ومن مفارقات تلك الفترة ان بعض اليهود الذي آمن،

بإخلاص، بشكل من الديمقراطية الاجتماعية لوطنه ورغب فيه استطاع في الوقت نفسه ان يخدم قضية النظام الستاليني المستبد عن طريق العمل جاسوسا للاتحاد السوفييتي وبخاصة في الولايات المتحدة. وربما كان للخوف قدر كبير من المسؤولية عن هذه الأزدواجية العجيبة: ففي العشرينات والثلاثينات كان ثمة تيار تحتي شديد من الفاشية واللا ـــ سامية والاضطهاد في اميركا، مبرزا أشخاصا مريبين مثـل هوي لونـغ Huey Long، وانبعـاث منظمة كو كلوكس كلان Ku Klux Clan وقوى معادية لليهود في الحزب الجمهوري. فماذا كان على المهاجرين اليهود الى الولايات المتحدة، وهم المعتادون على الاضطهاد في أوروبا، أن يفعلوا تجاه هذه المظاهر حين كانت اميركا لا تظهر أية علامة على وقوفها أمام دكتاتوريي العالم الأوروبي؟ لقد لجأ بعضهم، وبشكل آلي تقريبا، الى غريزته القديمة... أي حماية نفسه بالطريقة نفسها التي حمى ايفنو آزيف نفسه بها.

ولكن لا بد، في الوقت نفسه، من توضيح ان العدد الأكبر من هؤلاء اليهود، الذين هاجروا الى فلسطين في العشرينات والثلاثينات ولهم بعض الخبرة في العمل التجسسي، كرس نفسه

كليا لاستخدام تلك الخبرة من أجل إقامة الدولة الصهيونيـة. فبالنسبة لهم لم يكن ثمة اي ولاء آخر. وليس من المبالغة القول ان الدور الذي قاموا به في إقامة اسرائيل كان أعظم جدا من أي دور قام به الاداريون أو الساسة. فإسرائيل، لولا ذلك الفيلق الصلب من رجال المخابرات العاملين من أجل الصهيونية، ربما ما كانت لتظهر الى الوجود.



الفصل الثاني

ظهور الإرغون زفاي ليئومي

« لا يمكن الاستيلاء على المرتفع اذا
كانت منحدراته خالية من الحفر ».

شلومو شولسكي

بدأت المخابرات الاسرائيلية فعلا ، وبشكل منظم ، بإقامة وحدات الدفاع اليهودية داخل حزب باولي زيون Poale Zion (حزب عمال صهيون) في القرن التاسع عشر . وكان هذا الحزب ، في داخل روسيا ، ثوريا ، اما في أجزاء اخرى من اوروبا فقد جمع المعلومات عن اعداء اليهود ووفر ، من خلال وحداته الدفاعية ، ما يستطيع من حماية للمواطنيين اليهود . وفيما بعد شكل حزب باولي زيون وحدات دفاع في فلسطين لمساندة المهاجرين اليهود من أوروبا واليهود المحليين وتقديم الدعم لهم .

كانت مسألة الاستيطان الاستعماري Colonization اليهودي في فلسطين قد عُزِّزت ، تعزيزاً هائلاً ، سنة ١٨٨٢ م .

حين قدم ادموند دي روتشيلد Edmond de Rotschild أحد أقل أفراد تلك الأسرة العالمية بروزاً، قرضاً صغيراً مقداره خمسة وعشرون ألف فرنك من أجل حفر آبار في مستعمرة يهودية، ومنذئذ كرّس هذا الشخص نفسه كلياً لتشجيع الاستيطان اليهودي، وانفق أكثر من مليون جنيه على شراء الأرض وبناء المنازل. ثم تجاوزت معوناته ذلك، ويقدر أن حوالي ثمانية ملايين جنيه استرليني قد انفقت، بشكل غير مباشر ومن خلال تأثيره على اناس آخرين، على التطوير وخطط التدريب ومشروعات المساعدة الذاتية.

وفي سنة ١٩٠٩ م أسست في فلسطين جمعية دفاع تحت اسم هاشومير (الحارس)، وهي، وكما يوحي اسمها، شكلت نواة منظمة مخابراتية. وقد أدار هذه الجمعية، أساسا، يهود ثوريو العقلية ذوو قناعات متفاوتة، ومتراوحون ما بين الراديكاليين اليمينيين، الى الاشتراكيين المعتدلين الذين قدموا من أوروبا الشرقية، ولكن الذين هيمنوا على مجالسها الأولى كانوا يهوداً روساً، وكانت تعمل على حماية المستعمرات اليهودية من الهجمات العربية وطرح سمتها الاشتراكية ـ الصهيونية. وفي سنة ١٩٢٥ م حُلّتْ هذه الجمعية، رغم آن نفوذها بقي، بسبب الاعتقاد ان الحكومة

البريطانية توفر خير فرصة، على المدى البعيد، لليهود كي يحصلوا على وطن قومي (بفضل وعد بلفور) ولأن بعض المسنين اليهود ضاق ذرعا بالحديث الثوري.

وفي أوائل العشرينات أصبح حاييم وايزمان ذا نفوذ قوي في فلسطين من أجل وضع سياسة للوطن القومي. وكان وايزمان قد غادر بيته قرب بينسك Pinsk(*) لدراسة الكيمياء سنة ١٩٠٣ م في لندن وليصبح، منذئذ، انكليزي المشاعر وليلح، إلحاحاً دائماً، على فكرة «اننا نحن اليهود، اذ اردنا الحصول على أية مساعدة من أية جهة، فلن تكون هذه الجهة سوى انكلترا التي ولا شك في ذلك، ستساعدنا في فلسطين». وقد اتبع حدسه القوي هذا بتقديم الدعم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، إذ أعطاهم صيغة عملية جديدة خففت، تخفيفاً كبيرا، سنة ١٩١٦ م من النقص الشديد في المتفجرات. وفي أوائل العشرينات أصبح وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية.

وكان وايزمان ايضا موضع ثقة ويليام ستيفنسون William

(*) في روسيا البيضاء، احدى دول الاتحاد السوفييتي.

(المترجم)

Stephenson الكندي الذي أصبح في الحرب العالمية الثانية الرجل الرئيسي في المخابرات البريطانية في الولايات المتحدة. وقد نصح وايزمان ستيفنسون في عدد كبير من الموضوعات، وأبقاه فيما بين الحربين مطّلِعاً، إطلاعاً وثيقاً، على التطورات العلمية الألمانية وبخاصة في الميدان العسكري. وكان ستيفنسون، آنذاك، مستشاراً شخصياً لونستون تشرتشل Winston Churchill في مختلف نواحي إعادة التسلح السري لألمانيا. وحين تولى النازيون السلطة وأصبح تشرتشل في ركود سياسي واصل عمله مقدما لهذا الرجل المحافظ الذخيرة الكبيرة لحملته ضد عملية «التهدئة». وقد تلقى ستيفنسون قدراً كبيراً من المعلومات من العلماء اليهود. وساعدت هذه العملية بالذات، رغم انها تبدو بعيدة عن قصة فلسطين، المخابرات الاسرائيلية على المدى الطويل في السنوات الأولى لقيام اسرائيل، فبعض هؤلاء العلماء الذين أصبحوا أصدقاء ستيفنسون قد تشجع على تطوير مواهبة في مخابرات الحلفاء ولم يعمل فقط لصالح بريطانيا في الحرب العالمية الثانية بل ساعد، فيما بعد، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري.

وقد جند وايزمان وستيفنسون، فيما بينهما، فريقاً لامعاً من

العلماء من أجل التجسس على الألمان في الميدان التكنولوجي، وكان بروتيوس شتاينميتز Proteus Steinmetz، ألمع معاوني ستيفنسون، والذي استخدمه في عمله الخاص، عالماً يهودياً، أرغم على مغادرة ألمانيا بسبب آرائه الديمقراطية ـ الاشتراكية، ومجليا في زمانه ولا سيما في ميدان الالكترونيات، ولم يكن ثمة من هو أقدر منه على تحليل التقارير عن التطورات العلمية الألمانية وعلى التنبؤ بما قد تعني على صعيد إمكانات الحرب والسلاح.

وتمتع اليهود في فلسطين بفترة ازدهار نسبي ما بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ م رغم ان عملاً شاقاً جداً ظل أمامهم لبناء مستعمراتهم. وفي الثلاثينات بدأ العرب الفلسطينيون يشنون هجماتهم على الأعمال والمنشآت اليهودية في تل أبيب والقدس، ثم شرعوا تدريجياً يشنون حرب استنزاف فدائية. وكان واضحاً تماماً آنذاك ان اليهود يطردون من ألمانيا والنمسا وأن بعض الزعماء العرب لم يكونوا يرحبون بهذا التيار فقط بل يسعون، سعيا حثيثاً، إلى دعم ألمانيا لهم في حملتها على اليهود. وفي هذا الجو انشئت نواة لجهاز مخابرات يهودي سري في فلسطين كمقدمة لاقامة اسرائيل.

وقد بدأ تنظيم المخابرات هذا داخل منظمة الهاغاناه، وهي

قوة الدفاع الذاتي للطائفة اليهودية في فلسطين، والتي ستصبح قوة الدفاع الاسرائيلية. وكان بعض أنصار المسألة الصهيونية قد تلقى تدريباً في الشرطة وفي أعمال المخابرات. ومن هؤلاء بيخور شالوم شتريت Bechor Shalom Shitrect الذي أصبح أول وزير داخلية لاسرائيل، وكان قد عين ملازماً في الشرطة في سن مبكر، وأوكلت اليه مسؤولية منطقة طبريا. وفي سنة ١٩٢١ م أصبح مدير مكتب البصمات في دائرة التحقيق الجنائي C. I. D. (المخابرات) في القدس، ثم مدير الشرطة في تل أبيب بعد ست سنوات، ثم تولى قيادة مدرسة الشرطة منذ سنة ١٩٣٣ م. ولكن، كان من بين اليهود الأصغر سنا والأكثر تطرفا، والذين عانوا من الاضطهاد في أوروبا، منظمو تشكيل استخبارات الهاغاناه، فقد أصبح هؤلاء أكثر سخطاً لعدم الرد عدوانياً على هجمات العرب، وهم، على خلاف المعتدلين، لم يؤمنوا ان البريطانيين سوف يفون بوعدهم اقامة وطن قومي لليهود. وعندما مال البريطانيون الى تهدئة كلا العرب واليهود ولم تبد منهم أية اشارة الى التخلي عن سلطات انتدابهم على فلسطين بدأ المتطرفون اليهود يحرزون المزيد من السلطة، وحدثت انشقاقات عديدة داخل الهاغاناه، وانضمت إحدى المجموعات المنشقة، الهاغاناه ب، اخيرا الى مجموعة

فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky لتشكلا منظمة ارغون زفاى ليئومي Irgun Zvai Leumi الارهابية التي كانت في الحقيقة منظمة شبه عسكرية لها شبكة مخابراتها الخاصة المدارة جيداً. وكان جابوتنسكي، مثل وايزمان، يعتقد دائما ان بريطانيا سوف تمنح اليهود اخيرا الاستقلال في فلسطين، ولكن أصبح واضحا له، في أواسط الثلاثينات، ان الحكومة البريطانية في تلك الفترة كانت قليلة العزم على فعل ذلك، اذ كان البريطانيون يلعبون آنذاك لعبتهم القديمة، لعبة فرق ــ تسد، وهم يهدفون الى كبح الهجرة اليهودية الى فلسطين، رغم القمع في ألمانيا النازية، من أجل محاولة اقامة توازن بين القوتين العربية واليهودية. وكان بعض الاداريين البريطانيين، مدنيين وعسكريين، يشجعون سرا الأماني القومية العربية، واذا اريد تقديم برهان على ذلك يمكن ان يوجد في شعار الحركة الوطنية العربية التي كانت تهمس من أقصى البلاد الى أقصاها: «الدولة معنا»[*]، والذي يعني أن الادارة البريطانية في صفها ولن تعمل على كبحها.

(*) هذا غير صحيح، فقد شهدت هذه الفترة اشد الثورات العربية عنفا على الادارة البريطانية في فلسطين، ومنها ثورة القسام، وثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ م.

(المترجم)

وفي هذا الوضع، وبينما كانت الهاغاناه تقوم بحملات انتقامية رداً على الهجمات العربية، قام دافيد رازييل David Raziel بتحويل الإرغون الى قوة عدوانية. وبينما كان وايزمان يعتز بجنسيته البريطانية، التي لم يتخل عنها ولم يسلم جواز سفره البريطاني الا بعد أن أصبح أول رئيس لاسرائيل، شك الشبان اليهود، ومعظمهم من ذوي الخلفيات الاشتراكية او حتى الشيوعية في أوروبا، في ان الطبقة الحاكمة البريطانية وسلطة الانتداب لا ـــ ساميتين في أعماقهما، وانهما تميلان الى كلا العرب والفاشيين. وحتى لو كان هذا غير صحيح فإن التصرفات البريطانية قدمت سببا قويا لعدم الثقة، ومنها التقارير المشوهة التي رفعها الجنرال واكهوب، المندوب السامي البريطاني، الى لندن. وبات دافيد رازييل على اقتناع بوقوع صدام مع البريطانيين عاجلا أو آجلا، وأن الاستسلام لدعواتهم يضبط النفس ضد العرب سوف يعتبر ضعفا ليس الا. وكان رازييل شخصاً متعلماً، درس في الجامعة العبرية الرياضيات والفلسفة، ولكنه كان جد مقتنع بأن اليهود سوف يقيمون وطناً قومياً بالوسائل العسكرية فقط، ولذا كرس وقت فراغه لدراسة التاريخ العسكري والتكتيك والاستراتيجية العسكريين. وسرعان ما اكتسب معلومات وفيرة عن العلم العسكري حتى أصبح بمقدوره

وضع كتيبات دراسية، بالتعاون مع ابراهام شتيرن، عن الأسلحة الصغيرة، وأخذ يدرِّسُ صفوفا في حركته السرية موضوع تكتيك حرب العصابات وكيفية صنع القنابل في المنازل. وقد استطاع رازييل، لبعض الوقت، تضليل المخابرات البريطانية، وأقام مقر قيادته في مدرسة خاصة للبنات، واستخدمها مركزاً لتدريب الإرغون ليلاً.

وتزامنت أولى الهجمات الانتقامية التي قامت بها الأرغون على العرب مع نشر تقرير «اللجنة الملكية البريطانية» الذي اقترح تقسيم فلسطين الى ثلاثة أجزاء: دولة عربية، ودولة يهودية، ومناطق أخرى معينة يحكمها البريطانيون. وأعلنت الزعامة اليهودية بقيادة وايزمان عن تأييدها لمشروع التقسيم هذا على أساس انه خطوة في الاتجاه الصحيح. ولكن العرب رفضوه على الفور. وما تجدر ملاحظته ان رد البريطانيين على هجمات الإرغون على العرب كان أشد من مقاتلتهم الثورة العربية(*). فقد جرت اعتقالات واسعة دون تمييز غالبا، وكانت الأحوال في السجون قاسية جدا.

(*) هذا غير صحيح ايضا. فقد كان امتلاك رصاصة يعرض العربي للاعدام، بينما كانت بريطانيا تقدم كل التسهيلات للصهاينة من اجل ان يتسلحوا ويعتدوا على العرب.

(المترجم)

ولكن كان ثمة صديق واحد على الأقل في الجانب البريطاني. ففي سنة ١٩٣٦ م وصل الى فلسطين ضابط بريطاني شاب هو الكابتن اورد تشارلز وينغيت Orde Charles Wingate. لقد ولد هذا الضابط في الهند لاسرة عسكرية، وهو ابن عم المندوب السامي البريطاني في مصر السير ريجنالد وينغيت Reginald Wingate. وسرعان ما أحاط بالوضع العسكري وساءه «اخفاق» البريطانيين في كبح جماح الغارات العربية على أنابيب شركة نفط العراق التي كانت مدفونة على عمق مترٍ واحد فقط، ولذا كان يسهل على الثوار العرب تحديد مكانها سريعا ومباغتتها في هجمات ليلية. فقرر وينغيت ان عملا ما يمكن اتخاذه ولا بد من القيام به، وأجرى محادثات مع ضباط الهاغاناه، وهو المتعاطف مع اليهود، ثم ذهب لمقابلة الجنرال ارشيبالد ويفل Archibald Wavell، القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط. ومن حسن حظ وينغيت واليهود ان ويفل وافق فوراً على خطة هذا الضابط البريطاني للتعاون مع الهاغاناه، وشكل مجموعات خاصة من اليهود لمقاتلة الثوار العرب. وقد أطلقت يد وينغيت لبعض الوقت، فأثارت تصرفاته اشمئزاز بعض كبار ضباط الجيش البريطاني. وكان قد لخص مشاعره بقوله: «حين قدمت الى

فلسطين وجدت شعبا ينظر اليه من أعلى ودُفِعَ الى أن يشعر ، طوال قرون ، أنه عير مرغوب فيه ، ولكنه مع ذلك ، لم ينهزم بل أخذ يبني « بلده » ، فأحسست أنني انتمي الى هذا الشعب » . ويعني بذلك اليهود .

وهكذا ، قدم اورد وينغيت المزيد من العون والتشجيع للمخابرات الاسرائيلية السرية ، فربط لفترة قصيرة السلطات البريطانية بالطائفة اليهودية ضمن قضية مشتركة ، وشكل دوريات ليلية يهودية لمعالجة مشكلة حراسة خط انابيب النفط ، وعلّمها كيف تحصل على معلومات عن التحركات العربية . لقد تجاوزت حماسة وينغيت وعاطفته القوية للصهيونية كل حد ، حتى أنه تجاوز ما تلقى من تعليمات ، فكان يقدم لاحاديثه مع الرقباء اليهود ، حين يلقي عليهم محاضرات ، ببضع كلمات باللغة العبرية معناها : « نحن هنا لتأسيس الجيش اليهودي » ، فيبهج ويثير بها مستمعيه ، ولكنها تدفع ضباط الجيش البريطانيين الى الصمت والسكوت[1] .

وببطء كُبِحت غارات الثوار العرب على خطوط أنابيب البترول . وكان أحد أدلاء هذه الدوريات موشه دايان الشاب الذي كان يعمل بأجر ثمانية جنيهات فلسطينية في الشهر بينما كان

ملتحقا بوحدة للجيش البريطاني. وكثيرا ما استعاد دايان مقابلته الأولى مع وينغيت والانطباع الهائل الذي خلفه هذا الضابط البريطاني عليه وعلى أفراد الهاغاناه الذين قابلوه. وبعد أن القى وينغيت احدى محاضراته وافق ان يقود هو نفسه الرجال من شيمرون في دورية ليلية الى جبال الناصرة. وقال دايان فيما بعد: «وخلقت هذه شعوراً قوياً مثيراً آنذاك، وقد شككت اذا كان سيستطيع مماشاة السير السريع لانه بدا هشاً ناعماً... ولكن تبخرت في الفجر شكوكي، فعلى أرض بلدي كان هذا الضابط البريطاني يعرف ما يفعله خيرا مني.. وفي المسائل العسكرية اعتقد ان وينغيت كان عبقرياً، مجداً.. مبتكرا وغير ملتزم بالقواعد التقليدية»[٢].

ان وينغيت هو الذي علم الهاغاناه ان الهجوم خير أشكال الدفاع، وغرس في أفرادها الروح العدوانية التي لم تكن لديهم من قبل، وأراهم كل أشكال القتال الليلي وخدعه، حتى لقد وضع أضواء خلفية على واقيات سيارات الدورية لخداع العدو. لقد كان لدى هذا الانكليزي حلم مزدوج، فقد ملأت نفسه حماسة دينية تعصبية للصهيونية ولاقامة دولة لليهود من ناحية، وايمان وطني

بالامبراطورية البريطانية . وهو لم يجد أي تناقض أو عدم اتساق بين هذين الحلمين ، فالأول ينسجم ، بالنسبة له ، مع الثاني . وكان رأيه قد استقر من قبل على ان ألمانيا هي عدو بريطانيا الحقيقي وتخيل قيام دولة يهودية قد ترتبط بالامبراطورية البريطانيـة بشكـل ما ، وتكون خير حليف لها لدى أية مواجهة مع الألمان في الشرق الأوسط . وقد قيل انه وضع مشروعا سرياً لتشكيل جيش يهودي يقاتل مع البريطانيين اذا اندلعت الحرب . ولكـن سرعـان ما استدعي وينغيت الى لندن ، وحلت دورياته الليلية . وهناك علم انه له أعداء كثيرين في فلسطين ليس بين العرب فقط بل بين زملائه الضباط ، وبعضهم ممن كان يتصرف ازاءه بقرف وازدراء .

انتقل وينغيت الى بورما حيث حاز على شهرته العالمية ، وكان برتبة عميد ، في الحرب العالمية الثانية قبل مقتله في حادث تحطيم طائرة سنة ١٩٤٤ م ، فلم يعش ليرى قيام اسرائيل .

واذا كان وينغيت هو المحرض على استخدام الوسائل التقنية الحديثة من أجل مقاتلة العرب وأتى بأفكار جديدة الى ضباط مخابرات الهاغاناه فإن السير ويليام ستيفنسون هو الذي مهد ، الى حد كبير ، الطريق لقيام منظمة مخابرات علمية يهودية متناسقة . ولم

يبدأ هذا على شكل خطة مدروسة بل مصادفة من خلال صداقات عرضية، ثم تشكلت، عن طريق ستيفنسون، نواة شبكة تجسس علمي يهودي غير رسمي استطاعت ان تحقق نجاحا عظيما خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، كما شكلت أساس شبكة التجسس العلمي اليهودي المقبل.

ان هذه الشبكة، التي بدأت تطوعية تقريبا، سرعان ما رهنت نفسها لقضية الحلفاء لا في أوروبا والشرق الأوسط فحسب، بل في الولايات المتحدة وكندا ايضا. والدكتور لويس سلوتين Louis Slotin، المولود سنة ١٩١٢ م لاسرة يهودية ثرية مقيمة في وينيبغ(*) Winnipeg هو البطل النسبي لضالة السلاح النووي المنشودة. وسلوتين الذي دخل جامعة مانيتوبا(**) في سن الخامسة عشرة، درس في جامعتي لندن وشيكاغو قبل أن يصبح مساعدا، دون أجر، في أعمال السيكوترون (جهاز تحطيم نوى الذرات) مدة سنتين. وكان يعرف شيئا عما يخطط له الألمان في

(*) في كندا.

(المترجم)

(**) في كندا.

(المترجم)

ميدان الأسلحة هذا، ثم أتت به المعيته الى مشروع منهاتن Manhattan السري للبحث الذري، وبعدئذ انتقل سنة ١٩٤٣ م الى مدينة لوس ألاموس Los Alamos، ورجا السلطات أن تسمح له بالذهاب كمراقب، مع الغارة التي ألقت القنبلتين الذريتين الأوليين على اليابان، ولكنها رفضت رجاءه. وفي أيار سنة ١٩٤٦ م تعرض لاشعاعات قوية أثناء تجربة نووية خطيرة كان يقوم بها. وقال الذين كانوا على مقربة منه انه كان يستطيع النجاة بنفسه، ولكنه فضل أن يضمن نجاة الآخرين في المخبر وقد توفي بعد بضعة أيام.

وقد أبقى عالمان يهوديان، يعملان في فرع البحوث العسكرية التابع لرئاسة الأركان الفرنسية، ستيفنسون مطلعا على كافة التطورات، وعرّضا نفسيهما لمخاطر جسيمة بالبقاء في باريس أثناء الاحتلال النازي. وهذان هما الفريد اشكنازي Alfred Eskenazy، المتخصص في المراقبة الالكترونية للطائرة بدون طيار، والبروفسور اندريه هيلبرونر André Heilbronner الخبير في وقود الصواريخ. ثم شكل هذان الرجلان فريق ماركو بولو للتجسس الذي اتخذ اعضاؤه اسماء رمزية أخذوها من الروايات العلمية الخيالية.

أما في داخل فلسطين نفسها فان مسألة ايجاد حل جديد للمشكلة العربية ــ اليهودية وضعت على الرف حين اعلنت الحرب العالمية الثانية في ايلول ١٩٣٩ م. وفي يوم اعلانها اذاع حاييم وايزمان، وبمبادرة سريعة، تأييد اليهود في فلسطين لجهود الحلفاء الحربي. وتبع ذلك، على الفور، تطوع أكثر من ٣٠ ألف يهودي للخدمة مع قوات الحلفاء، وبذلك تشكلت فرقة يهودية. وفي أوائل الحرب قرر اليهود ان قوة يهودية مسلحة، تعمل مع الحلفاء في الشرق الأوسط، سوف تكون أداة مساومة مفيدة مع بريطانيا من أجل إقامة دولة يهودية حين تنتهي الحرب. ولكن الاداريين البريطانيين المتتابعين اظهروا، في أحسن الأحوال، اهتماماً قليلاً بهذه الخطوة وفي أسوأها انحيازاً معادياً بعدم تشجيعهم هذه الخطوة. وكان من ألد أعداء بريطانيا مفتي فلسطين المتعاطف مع النازيين الحاج محمد أمين الحسيني. ولو كان وينغيت في فلسطين آنذاك لكان المفتي قد قُتِلَ. ولكن فترة ١٩٣٨ ــ ١٩٤٣ م شهدت عروضاً عديدة بالمساعدة من اليهود للحلفاء ورفضاً بريطانياً بإشراكهم في معالجة الشؤون في فلسطين. فانتقلت منظمة الأرغون زفاي ليئومي الى أشد أعمال الارهاب. ومن أهم الأسباب التي دفعتها الى ذلك اعدام شلومو تباخنيك

Shlomo Tabachnik اليهودي ابن الواحد والعشرين عاماً الذي دخل الى فلسطين بشكل غير شرعي قادماً من بولونيا. وكانت جريمته التي اعترف بها هي اطلاق النار على سيارة ركاب عربية.

وعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية أعلنت الحكومة البريطانية عن «كتاب أبيض» جديد يقترح السماح بإدخال ٧٥ ألف يهودي الى فلسطين، وبعد ذلك تتوقف الهجرة اليها. وقد هبّ شخص مثل فلاديمير جابوتنسكي لدعم منظمة الإرغون. وقامت الهاغاناه ببعض الهجمات المتفرقة على مبان بريطانية معينة في فلسطين، ولكنها جوبهت بقسوة شديدة، واعتقل كلا دافيد رازييل، رئيس الإرغون، ونائبه ابراهام شتيرن. وردت الإرغون بتوسيع حملتها الدعائية الى أوروبا، وأصدرت جريدة وزعت سرا في بولونيا وفي دول أوروبية أخرى.

وكثيراً ما يشار الى اغتيال اللورد موين Moyne، وزير المستعمرات البريطاني بعد اللورد لويد Loyd، على أنه أبشع الجرائم التي اقترفتها الإرغون. والحقيقة ان بعض الزعماء الصهيونيين المعتدلين، ومنهم حتى بن غوريون، انتهز تلك الفرصة ليشجب الإرغون والتعاون مع البريطانيين. ومع ذلك ليس ثمة من هو اكثر

من اللورد موين «تعكيرا» للعلاقات بين بريطانيا ويهود فلسطين، وقد امتدت حياته السياسية، وعين الوزير البريطاني المقيم في القاهرة. وهنالك مثلان على موقف اللورد موين المتصلب تجاه اليهود، واولهما تعطيله مشروع تشكيل وحدة يهودية داخل الجيش البريطاني (وكان كلا تشرتشل وايدن قد ايدا هذا المشروع مبدئيا) بعد ان تم تعيين ضابط فعلا لقيادتها، وثانيهما رفضه السماح لسفينة يهودية تحمل ٧٦٠ يهوديا من رومانيا بالرسو في ميناء فلسطين سنة ١٩٤٢ م. وقد رست هذه السفينة في ميناء استانبول، ثم امرتها السلطات التركية بالعودة الى رومانيا، وقطرتها بالقوة الى البحر الأسود، حيث انفجرت وغرقت. على أن هذين الحادثين لا يكفيان لاغتيال اللورد موين، ولكنهما قد يساهمان في توضيحه.

ليس ثمة ما يثير الدهشة كون يهود كثر في فلسطين وخارجها لا يزالون يتساءلون هل كانت الحكومة البريطانية تضم بعض المتعاطفين مع النازية. والحقيقة ان اللورد موين كان يعمل دائما بما يتعارض، تعارضاً مباشراً، ورغبات تشرتشل. والواقع ان

تشرتشل[*] نفسه كتب الى موين سنة ١٩٤٣ م موضحا له تماما انه، هو شخصيا، معاد للكتاب الأبيض الذي يحدُّ من الهجرة اليهودية الى فلسطين، والذي طرحته حكومة تشأمبرلين: «وقد اعتبرته دائما (الكتاب الأبيض) خرقا فاضحا للاخلاص... ولا يزال موقفي كما طرحته في خطبي التي القيتها في مجلس العموم اثناء مناقشة الكتاب الأبيض. وأنا واثق ان غالبية وزارة الحرب الحالية لن توافق على أية مصادقة ايجابية على الكتاب الأبيض».

لقد نفذت عملية اغتيال اللورد موين، بتخطيط معقد وهادىء، مجموعة متطرفة تعرف باسم ليحي (لوحامي حيروت اسرائيل Lohamei Herut Israel)، وهي مجموعة منشقة اطلق عليها البريطانيون اسم «عصابة شتيرن Stern» وكان يقودها ابراهام شتيرن. أما الضابط الاخر في الإرغون، دافيد رازييل، فقد افرج البريطانيون عنه من سجن عكا حين بدأت ثورة سنة ١٩٤١ م في العراق، وطلبوا منه ان يذهب الى هناك ويقود عمليات عصابات

(*) من المعروف ان ونستون تشرتشل، السياسي البريطاني ورئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، كان من أشد انصار الصهيونية ومن ألدّ أعداء القضية العربية عامة والفلسطينية خاصة.

(المترجم)

خلف الخطوط ، ولكنه قتل في قنبلة ألقيت عليه قبل أن يبدأ مهمته. أما ابراهام شتيرن فكان يحث دائما على مواصلة مقاتلة البريطانيين في أوج احتدام القتال مع هتلر ، ثم اصر بعد موت رازييل على أن العدو الحقيقي ليس ألمانيا النازية بل بريطانيا . واراد شتيرن، وهو الشاعر الذي وضع «الجنود المجهولون» ، نشيد الإرغون اثناء المعركة ، أن يضع نظرياته موضع الاختبار ، فبدأ ينفذ خطة ملتوية لعمل صفقة مع هتلر ، وتقوم على تحويل لا ـــ سامية هتلر لصالح اليهود : وقد اراد هتلر أن يتخلص من اليهود ، لذا فيهود فلسطين سيساعدونه على تحقيق ذلك ، وفي الوقت نفسه سيجعلون الأمور صعبة على البريطانيين ويربكونهم . وصفقة شتيرن هي أن يرسل هتلر اسطولاً يحمل عشرات آلاف اليهود لا للابحار فقط الى فلسطين بل لكسر الحصار البريطاني وافساد التنظيمات البحرية البريطانية . فاذا نجحت هذه الخطة فإن عشرات آلاف اليهود الآخرين ستصل الى فلسطين ، وإذا فشلت فإن القيمة الدعائية ضد قوة بريطانيا الهائلة قد ترغمها على اعادة النظر في أولوياتها .

وفي بادىء الأمر ارسلت شتيرن نفتالي لوبينتشيك Naftali

Lubentschik الى سورية، التي كانت، قوات حكومة فيشي Vichy تسيطر آنــذاك عليها، كي يقيم اتصالات مع الألمان والايطاليين ولكن لوبينتشيك اعتقل وفشلت هذه الخطة الأولية. على أن شتيرن ظل راسخ التصميم لأنه كان مقتنعا بقيمة الفكرة، فأرسل ناتان فريدمان يلين Natan Frisdman- Yellin، أقرب زملائه إليه، ليبدأ المفاوضات، فاعتقل هذا أيضا في سورية وهو في طريقه الى رومانيا. لقد تم تصور خطة شتيرن في وضع من المرارة الطائشة، ولم تأخذ في حسبانها الأمور اللوجستية زمن الحرب. وقد أوجز صموئيل كاتز Shmuel Katz لا جدواها حين كتب ان خطة شتيرن «كانت وليدة اليأس، فلم تر تهديد النازية الكاسح الشامل لشعبنا... ان أي اتفاق مع هتلر امر غير قابل للتنفيذ، ولا بد لهتلر، من أجل تسهيل هذه الخطة، أن ينقل السفن التي تعتمد عليها قواته في شمالي افريقيا من أجل تموينها، وهذا يعني ان عليه التخلي عن شمالي افريقيا كليا»[٣].

وطاردت القوات البريطانية شتيرن دون كلل، وفي شباط ١٩٤٢ م. حددت الشرطة البريطانية مكانه في شقة وسط تل أبيب، وذكر انه «قتل بإطلاق النار عليه بينما كان يحاول الهرب».

ومهما يكن من أمر فإن المعونة التي قدمها اليهود الى بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية كانت كبيرة، ولم تقتصر فقط على ما حققه العلماء اليهود في مجال التجسس والاستخبارات، بل على نشاطات هؤلاء في الخدمة الفعلية. وخلال هذه الحرب شكل العديد من اليهود أخيرا نواة المخابرات الاسرائيلية، فقد تعلم هؤلاء ماهية المخابرات وطوروا تقنية تضاهي باشكال عديدة، عما هو موجود لدى الدول العظمى. كما تعلموا اولاً كيفية التغلب على الصعوبات الهائلة.

ووضع اليهود أنفسهم في خدمة البريطانيين في ميادين المعارك اثناء تلك الحرب، وهنالك اثنان جديران بالذكر وهما جاك نيسنتال Jack Nissenthal وبيريتز روز Peretz Rose. والأول ابن خياط يهودي استوطن مدينة لندن بعد ان هرب من بولونيا، والتحق بعد دراسته بفريق بحوث الالكترونيات والرادار الذي كان السير روبرت واتسون ــ وات Robert Watson- Watt يرأسه، ثم ألحق، مؤقتا، بسلاح الجو الملكي برتبة رقيب واختير، بشكل خاص، للمشاركة في الغارة على مدينة دييب Dieppe لأنه كان على معرفة تفصيلية بشؤون الرادار. وكانت المهمة الموكلة اليه هي

الذهاب الى الساحل وأن يحدّد في وقت قصير نسبيا مساوىء فجوة المغنطرون(*) Magnerton الذي تعتمد عليه مرونة الرادار. وكان الهدف اجراء موازنة بين الرادار البريطاني والرادار الألماني.

وكان اسم هذه العملية الصغيرة، ضمن العملية الكبيرة، هو اليوبيل Jubilee، وكانت في أكثر من ناحية أهم من «غارة دييب» نفسها.

أما الرقيب روز فكان خبيراً في الالكترونيات والاتصالات وعاملا في «الوكالة اليهودية» وتنظيمها السري داخل الهاغاناه. وقد جاء من ألمانيا أصلا واستدعي للتحقيق مع خبير ألكترونيات ألماني أسير. فاستنتج من استجوابه ان الألمان أقاموا محطات رادار على امتداد «جدارهم» الساحلي الأوروبي وأن كبرى هذه المحطات موجودة في دييب. وقد ذكر علماء ألمان لاجئون آخرون للسير ويليام ستيفنسون ان الألمان قطعوا اشواطاً طويلة في ميدان الرادار. وفيما بعد، وحين تقاعد بيريتز روز واستقر في مستوطنة يهودية

(*)صمام مفرغ يكون تدفق الالكترونات فيه خاضعاً لتأثير مجال مغناطيسي خارجي (قاموس المورد، ١٩٧٤، ص ٥٥٠).

(المترجم)

قرب حيفا أعلن أن الاسم الرمزي «اليوبيل» قد اتخذ أثناء مناقشة بين ستيفنسون وحاييم وايزمان وزعماء يهود آخرين. ووايزمان، بوصفه عالما، كان على اطلاع على ما يقوم به الألمان في مسائل مثل القنبلة الذرية... وأنا اعتبرته الرجل الذي يعمل من أجل وطن قومي يهودي. وكنا نتحدث احيانا عن التقاليد التوراتية اليهودية. فإذا تم تدمير هتلر وتحرير اوروبا فسيكون ذلك مثيلا للفترة التوراتية حين تم تحرير العبيد واستعادة الأرض لأصحابها... هذه الفترة التي يدعوها اليهود، تقليديا، باليوبيل»[4].

وصحب روز ونيسنتال، في مهمتهما، عميلٌ «لمكتب التحقيقات الفدرالي» الأميركي وعددٌ من قناصة الجيش الكندي الذين كانوا يحملون تعليمات صارمة بقتل كلا الرجلين، روز ونيسنتال، في حال تعرضهما لخطر امساك العدو بهما. فقد ساد الشعور بأن معرفتهما المشتركة أهم من تعريضها للمخاطرة بأية فرصة من كلا الرجلين كي يتحدثا بعد أن يعذبهما آسروهما. وقد ظل الاثنان على قيد الحياة، فنزلا على الساحل، ووصلا الى محطة كشف الارسال الاذاعي فوق ميناء دييب. وكان الهدف تدمير الرادار بعد تفكيك القطع الرئيسية فيه.

ولعب اليهود في منظمة اللجنة التنفيذية للعمليات الخاصة

دوراً بارزاً، وقد روى البروفيسور م. ر. د. فوت M. R. D. Foot في تاريخه الرسمي لهذه المنظمة كيف ان بيتر تشرتشل Peter Churchill، حين أنزلته غواصة في فرنسا، «جند جورج ليفين Goorge Levin نائبا له في مدينة ليون، مركز محيط عمله. وليفين يهودي مثل تشرتشل هذا، ثم جنداً عدداً من الأصدقاء اليهود، وأبرزهم الاخوة راشلين Racheline. وقد تعرض هؤلاء لمخاطر جمة، وكانوا معادين جداً للنازية». وأوضح فوت أيضا ان بعض اعداء اللجنة التنفيذية للعمليات الخاصة احسوا، بسرور حاقد، ان قلة من مجلس ادارتها وعملائها كانت من جنسية العدو، وكتب أن «معظم هؤلاء كان في عروقهم بعض دم يهودي، وهذا ما جعلهم معادين تماما للنازية، ولم تكن كفاءتهم، في كل حالة، محط أي شك»(٥).

ان افرادا، كهؤلاء، وآخرين خدموا في شبكة ويليام ستيفنسون حاربوا وساعدوا على إقامة اسرائيل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وسرعان ما اخذت منظمة الإرغون تمد اذرعها في أميركا واوروبا. وفي سنة ١٩٤٤ م انتقل هيلل كوك Hillel Kook، وهو عضو فعال في هذه المنظمة، الى الولايات المتحدة تحت اسم

بيتر برغسون Peter Bergson كي يشكل لجنة طوارىء اميركيـة للشؤون الصهيونية. والأكثر من ذلك ان مجموعة برغسون، التي كانت دعائية من ناحية وجهاز مخابرات سري مصغر في الولايات المتحدة من ناحية اخرى، ساعدت عملاء الإرغون على التقاط الأسرار السياسية من كلا البيت الأبيض ووزارة الخارجية.

وما بين سنتي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ م اندلع ما يشبه الحرب الشاملة بين منظمات الإرغون والهاغاناه وليحـي (شتيرن) من ناحية، وبين السلطات البريطانية في فلسطين من ناحية أخرى، وكانت الإرغون هي التي بدأت القتال، وهدفها الرئيسي، بعد أولوية انشاء اسرائيل، كان زيادة الهجرة الى فلسطين. فتمت تقوية المنظمة التي أوكل اليها تهريب اليهود من أوروبا وشمالي افريقيا الى فلسطين. وفي الـوقت نفسه خربت الهاغانـاه السفـن التـي استخدمها البريطانيون لترحيل اليهود من الأرض الفلسطينية. وقد تم تهريب اليهود بعملية متقنة تبدأ في «معسكرات الأشخاص المشردين في أوروبا» حيث نفذ هرب اليهود منها، ثم يعتنى بهؤلاء في مراكز العبور ويؤتى بهم الى موانىء السفـر حيث ينقلـون الى فلسطين. لقد كانت خطة ربما تصيب بالقنوط اكثر المنظمات

تصميما، لأن سفينة مهاجرين واحدة قد تستطيع تضليل الدوريات البريطانية، ولكن الغالبية العظمى من سفن المهاجرين هذه كانت توقف ثم تقطر الى حيفا، ويعاد المهاجرون منها الى قبرص. وفي أثناء ذلك بنت الإرغون تنظيمها في اوروبا، فمهدت، بذلك، الطريق لشبكة مخابرات واسعة من أجل اسرائيل المقبلة.

وأصبحت فرنسا القاعدة المركزية لنشاط الإرغون، حيث ساعد الموقف المتعاطف للحكومات الفرنسية المتعاقبة اليهود في تطلعاتهم، كما تلقوا دعماً فعالاً من اليهود الفرنسيين الذين اكتسبوا معرفة من العمل السري المنظم في المقاومة. ومن البارزين بين هؤلاء السيدة كلير فيدا Claire Vayda المحاربة السابقة في المقاومة والتي ساندت الإرغون، رغم انها ليست عضوا فيها، وضغطت من أجل الصهيونية في الحكومة والأوساط الأخرى. وكان ضابط الإرغون الأعلى المسؤول في فرنسا هو الدكتور صموئيل اربيل Shmuel Ariel ورجلها الأول في ايطاليا هو يعقوب تافين Yaacov Tavin الذي حاز على درجة علمية في الفلسفة من الجامعة العبرية قبل أن يصبح رئيس دائرة مخابرات الإرغون في فلسطين. وقد عمل تافين تحت اسماء مستعارة عديدة، فكان يعرف احيانا باسم بيزاخ

او اليعازار او ايلي. وكان من نواح عديدة آبرز حتى من Pêsach مناحيم بيغن، منسق الإرغون، وبخاصة في اوروبا، فلم يكن منظم مخابرات الأرغون وعملياتهم في ايطاليا فحسب بل كان مجنداً للعملاء من الدرجة الأولى ومدربا لهم.

لقد كان تافين المحرض الرئيسي على هجوم عملاء الإرغون بالقنابل على السفارة البريطانية في روما والتي أصبحت رمزاً لمعارضة الهجرة اليهودية التي مر كثير منها عبر ايطاليا من اوروبا الشرقية والشمالية. وفور نسف السفارة أصدرت الإرغون بيانا أعلنت فيه عن بدء حملة جديدة في منتهى القسوة ضد البريطانيين، وأشارت الى ان هذه سوف تطور الى داخل بريطانيا.

وارعبت حملة الإرغون الارهابية يهودا كثرا بمقدار ما اغضبت الشعب البريطاني. وأدرك اليهود المعتدلون أن بريطانيا، بوصفها دولة منتدبة على فلسطين، قد ألقيت على عاتقها مهمة لا تحسد عليها وهي محاولة المحافظة على التوازن بين اليهود والعرب(*).

(*) لم تقم بريطانيا مثل هذا التوازن، بل ظلت منحازة للصهاينة في تنفيذ مخططاتهم وفي غض الطرف عن اعتداءاتهم على البريطانيين وعلى القرى العربية.

(المترجم)

ولكن الوقت كان قد فات على الاعتدال كي ينجح في فلسطين. فكما في ارلندة الشمالية كانت البلوى السياسية المتواصلة قد سمح لها أن تشتد جدا، فمن وجهة نظر اليهود كان العمل العدواني فقط

يستطيع، في هذه المرحلة، ضمان انشاء دولة صهيونية. ولم يكن ارنست بيفن Ernest Bevin لا ـــ ساميا بمقدار ما هو عنيد، وتدعمه كولسة Lobby مؤيدة للعرب وجدت دائما داخل وزارة الخارجية البريطانية نفسها.

وخلقت تهديدات الإرغون بتنفيذ حملة ارهابية في لندن ذعراً شديداً، وظهرت قصص هستيرية في الصحافة البريطانية. ولكن نشاطات الأرغون الارهابية كانت في الحقيقة جيدة الضبط والتنظيم. وحتى نسف فندق الملك داوود في القدس خطط بعناية ووجه ضد الجناح الجنوبي حيث تعمل الحكومة العسكرية، وقتل فيه نحو ثمانين شخصاً بعد ان تجاهل الرسميون البريطانيون انذاراً من عميل للإرغون قبل الانفجار. ومن العمليات الأخرى تدمير اثنتين وعشرين طائرة بريطانية على الأرض في مطار كاستينا Kastina.

كان قانون الإرغون هو العين بالعين والسن بالسن، كما انها

استخدمت الأساليب الهتلرية. فالنازيون يمكن أن يأخذوا عشرات الرهائن المدنيين الأبرياء ويطلقوا عليهم النار ويقتلوهم مقابل فقد فرد من الصاعقة النازية. وحين حكم على يهودي، يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، بالسجن ثمانية عشر عاماً، وبثماني عشرة جلدة حذرت الأرغون البريطانيين وطلبت منهم الامتناع عن تنفيذ الجلد، ولكنها لم تشر الى حكم السجن. وحين جلد هذا اليهودي اختطفت الأرغون، في خلال ٤٨ ساعة، ضابطين بريطانيين وجلدت كلا منهما ثماني عشرة جلدة وأخلت سبيلهما.

الفصل الثالث

تأسيس الشين بيت

«سيأتي عصر الأمم الصغيرة المستقلة التي سيكون خطها الدفاعي الأول هو المعرفة».

تشارلز بروتيوس شتاينميتز

Charles Proteus Steinmetz

كتب هذه العبارة المقتبسة عالم يهودي كان يعتقد، حتى في اواخر العشرينات من هذا القرن، ان الحرية تتمثل في الأمم الصغيرة التي تكافح من أجل الاستقلال. ولكنه كان يؤمن ايمانا أقوى ان بالتكريس المتفاني فقط للمعرفة، التي يعني بها الاستخبارات، يمكن لأمم كهذه أن تأمل بالبقاء. وقد كان شتاينميتز هذا هو الذي شجع العلماء اليهود في ألمانيا وغيرها على امتلاك هذه المعرفة المتخصصة عن طريق التجسس والحيل والخداع عند الضرورة اذا رغبوا في رؤية اليهود يعيشون أحراراً.

ان المثقفين اليهود، ومن خلال تعاليم شتاينميتز والحاحه المستمر على طلب المعرفة، عملوا على حل رموز اشارات العدو في

الحرب العالمية الثانية، وكانوا من بين الناس الذين حلوا رموز الاشارات الألمانية فيما يعرف «بسلسلة الألغاز».

ان الأدبيات العبرية مليئة بأمثلة عن أشكال قديمة من انظمة الرموز \ورسائل الشيفرة، والقائمة على استبدال الحروف، ويعود تاريخها الى قرون عديدة، فقد كانت الأرقام العبرية، وهي كالأرقام اللاتينية، تكتب بحروف من الأبجدية العبرية، وكانت الاستبدالات تختار من الحروف التسع الأولى من الأبجدية، وهكذا يمكن ان تضاف الى عشرة، وثمة امثلة لا حصر لها من رسائل الشيفرة في التوارة، ويعتقد أن الأسماء التي لا معنى لها، مثل شدراخ Shadrach وميشاخ Meshach وأبيد نيغو Abednego هي رموز لاسماء ملوك أو زعماء حقيقيين. وقد توارث مهارة تحليل الشيفرات والرموز جيل بعد جيل من اليهود، ولا ريب ان المحافظة على الرموز والشيفرات كان ذا قيمة كبيرة لمتعلميهم خلال مختلف القرون.

وخلال السنوات الأخيرة التي سبقت قيام اسرائيل تشكلت نواة للمخابرات السرية اليهودية، وتألفت من أقدر أولئك الصهيونيين الذين أخذوا على عاتقهم موضوع التجسس وشاركوا

في أعمال المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية، ولكنها بشكل عام ضمت منظمات تجميع المعلومات والمخابرات لكلتا الهاغاناه والإرغون زفاي لئومي.

وكما تطور جيش اسرائيل، المعروف باسم زاحال Zahal، عن الجيش السري للهاغاناه انبثق أيضا جهاز المخابرات الاسرائيلي عن منظمات مثل معهد الخدمات الخاصة والمخابرات (الموساد Mossad Le Aliyah Beth والشاي Shai وريخيش Rekhesh. أما الموساد لو ألياه بيت، التي نشأت عنها الموساد الحالية، فقد تأسست كجيش سري سنة ١٩٣٧ م، واوجدتها الهاغاناه من أجل تنفيذ الهجرة غير الشرعية الواسعة المعروفة بالعبرية باسم هاأبالا Ha'apala. وقد اسس الموساد هذه، والى حد كبير، كلا الياهو غولومب Eliahu Golomb وشاؤول افيغور Shaul Avigor، ثم تطورت المهام الموكلة اليها وتزايدت واشتملت على التجسس، وبخاصة فيما وراء البحار، وعلى الحصول على الأسلحة وعلى القيام بعمليات التجسس المضاد، كما ان الهيئة المشرفة على الموساد راقبت، مراقبة دقيقة، الحركات اليهودية المتطرفة والانشقاقية في فلسطين.

لقد تم التخطيط للموساد في بيت غولومب هذا في تل أبيب، وكانت في الأساس مؤسسة تابعة للهاغاناه. وفي وقت تأسيس الموساد اقيمت «قاعدة بحرية» صغيرة في بلدة قيسارية للباليام Palyam، التي أصبحت الذراع البحري للبالماخ Palmach التي هي بدورها الذراع الضارب للهاغاناه. وفيما بعد أصبحت «القاعدة» مركزاً لتدريب الأفراد من أجل تزويد السفن الحاملة للاجئين اليهود بالرجال، وقد توفي غولومب قبل أن تتطور الموساد القديمة الى جهاز المخابرات السري المصغر القوي، ولكن، ومنذ سنة ١٩٤٢ م، التحق حوالي اربعين من النساء والرجال المختارين بدورة سرية في ميكفه اسرائيل Mikveh Israel، وهي مدرسة زراعية خارج تل أبيب. وقد تلقى هؤلاء المتدربون، أعضاء الموساد، تدريبا على قراءة الخرائط والرماية والشيفرة والتخطيط لطرق الهرب والنجاة.

ولد شاؤول افيغور في دفينسك Dvinsk في دولة لاتفيا Latvia على شاطىء بحر البلطيق وهاجر الى فلسطين سنة ١٩١٢ م. وكان أحد مؤسسي الشاي Shai، سنة ١٩٤٠ م، أي «جهاز المخابرات السري التابع للهاغاناه». والكلمة شاي هي

تركـيب الحروف الأولى لمصطلـح عبري يعنـي «جهـاز الاستعلامات». وقد ساعد افيغور كلا يهودي أراتـزي Yehudi Aratzi، الذي أصبح بعدئذ قائد «الشاي» في اوروبا، ودافيـد شالتييـل David Shaltiel. واعتمـدت الموساد اعتمادا كبيرا على «الشاي»، ولا سيما من أجل اخفاء أعضاء الهاغاناه وانتقائهم والتدقيق في أوراقهم، ومراقبة العمـلاء العـرب، والاطـلاع على نشاطات شرطة الشعبة الخاصة البريطانيـة. ولم يلتحـق يهودي أراتزي نفسه بسلك الشرطة الفلسطينية فقط، فظل يراقب النوايا البريطانية، وانما اصبح مستشارا حول التحركات العربية مع الابقاء على تماس وثيـق بفـرع ريخيش Rekhesh، فرع الحصول على الأسلحة والذخائر في الهاغاناه. وفيما بعد أصبح شاؤول افيغور مستشارا لأول رئيس وزراء لاسرائيل.

وكانت «الشاي» على درجة كبيرة من الكفاءة، ولولاها لما استطاعت الموساد أن تحقق بهذا الشكل ما حققته. فقد كانت المراتب العليا فيها تضم بعض أفضل العقـول في ميـدان الاستخبارات، كما وسعت، في الـوقت نفسه، لتشمـل الاف المتطوعين والعملاء المرتزقة. والعادة أن أي جهاز استخبـارات

سري، عندما يوسع تنظيمه الى هذا الحد، يجازف بأن يتعرض للمشاكل. ولكن منظمي «الشاي» كانوا على درجة من المهارة فائقة فقللوا من هذه المجازفة عن طريق اقامة قسم الجاسوسية المضادة الخاصة بهم.

وبدون أية معونة من أية منظمات أخرى عملت «الشاي» على التدقيق في المخبرين العاملين لها وغربلتهم وفصلت غير الموثوقين منهم. وأقامت، في الوقت نفسه، دائرة بريطانية لم يوكل اليها فقط مسؤولية الحصول على المخططات البريطانية، بل ضمان غرس المعلومات الكاذبة في القيادة العامة البريطانية.

وانتشر عملاء «شاي» في كل مكان: في الجمارك والشرطة والبريد، والدوائر التي تدير المواصلات. وكانت النتيجة مصادرة أسلحة لقوات الثوار العرب تفوق ما صودر لليهود. وبقيت الشاي مطلعة تماما على مخابيء الأسلحة العربية. وحين ثارت مسألة تهريب الأسلحة الى فلسطين ساعدت الشاي منظمة ريخيش، وضمنت أن عملاءها في الجمارك يتغاضون، بل يتسترون على دخول الذخائر. ومن نشاطات «الشاي» الأخرى اقامة «صوت

اسرائيل» وهي محطة اذاعة سرية تابعة للهاغاناه، وكانت مصدر تحريض دائم على البريطانيين.

وخلال الحرب العالمية الثانية تعاونت الهاغاناه تعاوناً وثيقاً مع البريطانيين ضد الألمان في الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه، وفي أواخر الحرب العالمية الثانية حصلت سرا على كميات ضخمة من الأسلحة الصغيرة من الجيش البريطاني ومن الأسلحة المتروكة في شتى اجزاء الشرق الأوسط، وكان جهاز الأمن البريطاني، في تحوطِّهِ من مثل هذه التكتيكات، رخواً ليناً، ولكن ريخيش اندفعت بعد الحرب الى ابتياع الأسلحة الفائضة من البلدان الأوروبية، ويساعدها في ذلك كلتا الموساد و«الشاي». وفي غضون ذلك كانت «بايلام» (البحرية) تجند، من أجل تنفيذ مهام في أوروبا، بعض افرادها الذين اعتادوا ان يعلموا وكلاء الربابنة الأجانب لسفن الهجرة غير الشرعية، ومهمتهم الأساسية هي مراقبة هؤلاء الربابنة، مراقبة شديدة، لضمان عدم خداعهم، وفيما بعد شكلت الأساس لأول جهاز مخابرات بحرية لاسرائيل.

وحين أوشكت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء ساءت أوضاع اليهود في بعض الدول العربية مثل العراق، فكان على

الموساد أن تمد وتوسع شبكتها، وهكذا جرى استخدام الجنود اليهود في جيوش الحلفاء لتهريب اليهود في شاحناتهم، وقد دخل فلسطين بهذه الطريقة أكثر من ثمانية آلاف يهودي.

وقد ساعدت دبلوماسية بعض زعماء الإرغون زفاي لئومي، مع الموساد وريخيش، على ضمان استماع متعاطف من جانب السلطات الايطالية والفرنسية لمسألة اسرائيل، فأقيمت محطات بث سرية في باري Bari ونابلي وغيرهما في ايطاليا التي جعلت مركزا لعمليات الموساد. وقد اقيمت قيادة هذه العمليات سنة ١٩٤٥ م في الغرفة الخلفية لناد يهودي في ميلانو. وفي غضون ذلك اقيمت شبكة في فرنسا برئاسة شماريا زاميريت Shmarya Zameret الذي سيطر على شبكة كاملة من القواعد السرية على الساحل الفرنسي المتوسطي بدءا من مرسيليا.

وقبل انتهاء الحرب تقرر أن تكون ايطاليا هي المركز الرئيسي المرحلي للهجرة غير الشرعية الى فلسطين. ومن أجل هذه الغاية أُعطِيَ عميل شاب للموساد مبلغا صغيرا من المال وطُلِبَ منه أن يذهب الى اوروبا لتنظيم طرق الهرب من أوروبا، فاصطحب معه اثنين من المرافقين، وسافروا الى ايطاليا في سفينة بريطانية لنقل

الجنود بوصفهم أعضاء في اللواء اليهودي. ولدى وصولهم تلقوا مساعدة من يهود فلسطينيين آخرين، يعملون للحلفاء، ومن انصار ايطاليين منهمكين في تتبع الألمان. وحين انتهت الحرب في أوروبا كانت هذه المجموعة الصغيرة قد أقامت ونظمت طرق الهرب من رومانيا ويوغسلافيا الى فلورنسا وبيزا. واخيرا اشتروا هيكل سفينة صيد صغيرة غير منتهية وجعلوه سفينة صالحة للابحار. وقد كتب بيغال ألون: «وعاش الثلاثة على طعام معلب وبسكويت قدمهما لهم اللواء اليهودي، وهم يحتفظون بالمائة جنيه استرليني التي لم ينفقوها، ويعتمدون في تعريف هوياتهم على أوراق زوروها في مؤخرة سيارة حولوها ببراعة الى معمل تزييف متنقل، ثم شرعوا في الاعدادات النهائية: اذ لا بد من شراء محرك لقارب الصيد، ولا بد من الحصول على الماء وعلى القدر الأدنى من الطعام»[1].

ان هذا المركب، الذي اطلق عليه اسم دالين Dallin، وسماه افراد الموساد «الجوزة» تهكماً، اقلع اخيرا الى فلسطين وعليه خمسة وثلاثون لاجئا. لقد كان واحدا من مراكب عديدة نقلت عليها الموساد اكثر من اربعين الف يهودي الى فلسطين.

واقيم ايضا في ميلانو مخزن سري لمشتريات المواد الحربية

الفائضة، وقد هُرِّب معظم هذه الأسلحة الى فلسطين خلال سنة ١٩٤٧ م. وقُدِّر أن ما هُرِّب منها، حتى نهاية تلك السنة، ١٩٣ مدفعا رشاشا من طراز برن Bren و ١٥٠٠ بندقية، و٣٧٨ رشيشا واكثر من مليون طلقة، وتسلمها جميعها عملاء الهاغاناه والإرغون زفاي لئومي.

وكان دافيد بن غوريون يتنبأ ان اسرائيل، في حال قيامها سوف تواجه تهديدات مستمرة من بعض الدول العربية المجاورة وذلك منذ لحظة انشائها، وقد بدأ القتال قبل اعلان قيام اسرائيل. واحتاجت مواجهة ذلك الى كميات كبيرة من الأسلحة والى إقامة قوة جوية اسرائيلية. وقد استطاع بن غوريون اقناع شتى الصناعيين اليهود الأثرياء، ومعظمهم اميركيون، لا أن يجمعوا الأموال فقط بل أن يقدموا التجهيزات لاقامة صناعة أسلحة في فلسطين، وكانت احدى النتائج الجانبية لهذه الحملة اقامة مصنع بيديه الجوي، والذي تحول بعدئذ الى الصناعات الجوية الاسرائيلية.

لقد وُصِفت تشيكوسلوفاكيا، في المراحل الأولى، بأنها المصدر الرئيسي الواعد للأسلحة لا لأنها بلد منتج لها فحسب،

بل لأنها كانت آنذاك اكثر تحررا من الهيمنة السوفييتية من أي بلد آخر في اوروبا الشرقية .

ومع ذلك كان لا بد من نشاطات سرية لتنظيم شراء هذه الأسلحة ، وقد ساعد يهودي الماني يهودا من فلسطين ، وكان هذا واحدا من عدد من أولئك اليهود الذين جندهم الادميرال كاناريس Canaris كعملاء للمخابرات السرية الألمانية كي يساعدهم على الهرب الى بلدان اجنبية . وكان كاناريس لا يوافق على معاملة النازيين لليهود ، ورأى فيهم عملاء جيدين للمخابرات الألمانية ، ولكن بسخاءه الزائد كلفه حياته حين ألقى النازيون القبض اخيرا عليه . وكذلك ارسل فريق من أربعة رجال الى براغ في كانون الأول ١٩٤٧ م من أجل هدف واضح هو التفاوض على مشتريات أسلحة ، وقد رأسه ايحود افرييل Ehud Avriel ، الذي أعطي وثيقة هوية مزورة باسم الهر اوبرال Uberall العميل للحكومة السورية . وفي براغ اجرى افرييل اتصالا بعميلين مقيمين فيها للهاغاناه هما اورييل دورون Uriel Doron وبينو غينزبرغ Pino Ginsberg . وقد تقرب ثلاثتهم من وزيري الدفاع والتموين التشيكيين ، وعقدا في غضون شهرين أول صفقة رئيسية للأسلحة .

لقد كان التشيكيون تواقين الى مثل هذه الصفقة لأن الهاغاناه رتبت، من خلال شبكتها الاميركية، أن يكون الدفع بالدولار، وهو العملة التي كان كل فرد في أوروبا ما بعد الحرب يبتغيها. ولكن ما أدهش اليهود هو أن السوفييت وافقوا، موافقة خفية، على هذه الصفقة السرية. وقد كانت هذه هي الاشارة الأولى الى أن السوفييت ـــ الذين كانوا لا مبالين تجاه فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ان لم يكونوا معادين لها، على استعداد لتأييد مطلب الاستقلال لفلسطين. وكان الحزب الشيوعي في فلسطين يعارض الهجرة اليهودية، وجاء قرار السوفييت سنة ١٩٤٧ م بالتصويت في الأمم المتحدة الى جانب انشاء دولة مفاجأة لليهود أنفسهم. كما كان الاتحاد السوفييتي من اوائل الدول التي اعترفت باسرائيل. ولم يكن ثمة شيء أصلي في هذا التحول الذي بدا مفاجئاً، فقد كان فقط ان السوفييت استغلوا، عن عمد، هذا الوضع لاضعاف النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط ومحاولة دَقّ اسفين بين وجهتي النظر الحكوميتين الاميركية والبريطانية، واللتان كانتا على خلاف حول سياسة بريطانيا تجاه فلسطين. على ان «شهر العسل» مع الاتحاد السوفييتي لم يستمر طويلا، وجاءت الدلائل الأولية على ذلك حين ارسلت اسرائيل

سفيرتها الأولى ، غولدا مايير ، الى موسكو ، وحدثت مظاهرة عفوية قام بها اليهود الروس لدى وصولها . فلم يرتعب المسؤولون السوفييت لذلك فقط بل كانوا متلهفين لسحق اية اشارة من جانب اليهود الروس الى أنهم يختلفون عن مواطني الاتحاد السوفييتي .

وفي غضون أشهر شنت حملة جديدة ، واعلم اليهود الروس ان لا صلة تجمعهم باليهود في اسرائيل أو في أي مكان آخر ، وسرعان ، وبتشجيع من ستالين نفسه ، ما أدين الأفراد والمنظمات اليهودية صراحة ، وبشكل رسمي وشجبوا على انهم « اعداء الدولة » .

ان الكثير من نشاطات الهاغاناه السرية كرس لمشتريات الأسلحة وتهريبها في أواخر الأربعينات ، وعين منيا ماردور Munya Mardor مديرا للشبكة السرية العاملة على نقل الأسلحة من تشيكو سلوفاكيا ، وزوده بن غوريون « ببطاقة بيضاء » للسفر حيثما تستدعي الضرورة في اوروبا ولتنظيم الخط الطويل ، المحفوف بالمخاطر ، لتهريب الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، وذلك عبر المنطقة الاميركية في المانيا الى بلجيكا ثم عن طريق البحر الى فلسطين . وقد تطلب الابحار من بلجيكا الى فلسطين ، دون ان يعيقه ويوقفه الاسطول الملكي البريطاني المنهمك في حراسة البحر

المتوسط لمنع المهاجرين، حنكة بالغة من جانب عملاء الهاغاناه والارغون. وقد قام بأخطر النشاطات رجال من فرع ريخيش الذين ركزوا، في المراحل الأولى من جملة حصولهم على الأسلحة، على جلب المتفجرات بسبب رخصها وسهولة سرقتها او الحصول عليها عن طريق الرشوة، وبساطة حملها. وحين تشددت الحملة الأمنية بات الحصول على المتفجرات صعبا في فلسطين، فلجأ عملاء ريخيش فيها الى الرشوة كي يحصلوا على كميات بسيطة منها، واخيرا أقام اليهود مصانع سرية للمتفجرات في فلسطين.

وفي الخارج انهمك رجال ريخيش في بعض الأعمال الأخرى مثل نهب الأسلحة من القطارات المتحركة او الاغارات على المخازن لسرقة البنادق. وكانت ايطاليا هي مصدر قدر كبير من الأسلحة التي تم الحصول عليها، ومنها القذائف والمدافع التي استعيدت من السفن الغارقة قرب الشاطيء. وكان يهودي أراتزي **Yehudi Aratzi** أحد قادة الموساد الناجحين في ايطاليا، وقد اهتم اهتماما بالغا بترتيب شحنات الأسلحة، المكدسة بشكل رئيسي في ميلانو، مع خلايا مقامة في باري ونابلي واتصالات لاسلكية مع استانبول واثينا ومرسيليا وباريس. لقد هرب أراتزي هذا من فلسطين، بعد ان

طلبته السلطات البريطانية، الى ايطاليا حيث ارتدى بزة طيار بولوني، واقام مقره في مزرعة خارج ميلانو مستخدما الاسم المستعار ألون، وحصل على أوراق مزورة، وأقام مخيما عسكريا زائفا، بل افلح في الحصول على نفط من الجيش من اجل منظمته السرية وكان في ظاهره شخصية طائشة مجاملة يستطيع اكتساب الأصدقاء بسهولة، ولكنه كان في اعماقه شخصا مناوراً بارد الطبع حيسوباً يحتفظ باتصال لاسلكي مع فلسطين عبر بعض المسالك الملتوية، ورتب ان على كل وحدة يهودية من فلسطين متمركزة في ايطاليا ان تقدم له قدرا معينا من النفط ومن انواع الوقود الأخرى وان تساعده على أن يستولي على كل سيارة جيب أو شاحنة تخلفها وراءها حين يجري حلها.

لقد كان الحصول على الأسلحة لليهود محفوفاً أحياناً بالمخاطر والصعوبات، وخلال تلك الفترة كان مؤلف هذا الكتاب يعمل مراسلاً خارجياً يغطي كامل شمال غربي افريقيا ويقيم في منطقة طنجة الدولية. وقد رأيت، أثناء واجباتي الصحفية، قدراً كبيراً من العمل السري انهمك فيه عملاء سريون لاسرائيل في ضمان ممرٌ امين لكلا الأسلحة والمهاجرين.

وحتى في خريف سنة ١٩٤٦ م أصبحت طنجة، بخاصة، وشمالي أفريقيا، بعامة، مركزاً للهجرة غير الشرعية لليهود الأوروبيين، من ناحية، الذين وجدوا سهلا عليهم الحصول على اذن بالدخول الى المنطقة الدولية، وليهود شمالي افريقيا، من ناحية اخرى، الذين خشي بعضهم من منح عرب مراكش وتونس الاستقلال، وليهود آخرين تشجعوا على الهجرة خدمة للصهيونية. أما في الجزائر فإن الوضع كان أسهل على اليهود بسبب تغاضي مسؤولي الدرك والجمارك الذين كانوا يتعاطفون آنذاك مع أحزاب رجال الشرطة الفرنسيين.

ان احدى القصص التي اطلعت عليها آنذاك تروي كيف ان الطراد الملكي البريطاني، سنت برايدس بي St Bride's Bay. استجابة لطلب مستعجل لحماية الممتلكات البريطانية، وصل الى ميناء طنجة من جبل طارق وهو يحمل مفرزة من كتيبة ليفربول الاسكتلندية.... وقد جاء هذا الاجراء عقب مظاهرات عربية، دامت اسبوعا في المنطقة الدولية، وسببتها تعبئة القوات في «الريف الاسباني» من مراكش ووصول قوات غوم Goum الى طنجة.. فقد احتج اعضاء حركة الاستقلال المراكشي على وصول لاجئين يهود الى هذه المدينة[٢].

لقد نفت كلتا وزارتي الدفاع والخارجية البريطانيتين في لندن هذه القصة نفيا قاطعا، ولكنها مع ذلك ظهرت على صفحات الصندي تايمز Sunday Times. والحقيقة ان البريطانيين ظهروا حمقى لارسالهم سفينة حربية على حين لم يكن ثمة اي تهديد حقيقي لدار القنصلية او اية ممتلكات بريطانية اخرى. على ان ما حذف من القصة هو ان المخابرات البريطانية في المنطقة قد ارعبتها انباء كاذبة عن انتفاضة عربية قام العملاء اليهود بتسريبها الى البريطانيين للفت انتباههم عن سفن صغيرة معينة كانت، في الوقت نفسه، تتسلل عبر مضيق جبل طارق تحمل اسلحة للهاغاناه.

كان اميرال برتغالي يدير طنجة آنذاك، وتحكمها لجنة رقابة تتألف من ممثلين عن اسبانيا وفرنسا وهولندة وبلجيكا وبريطانيا. وخلال الحرب العالمية الثانية كانت أحد مراكز التجسس الرئيسية في العالم، وبعدها كانت واحدة من أسهل اماكن بث الشائعات الكاذبة بسبب وجود عدد كبير من جواسيس الخبر الواحد، ومعظمهم يعمل لأكثر من بلد، والذين كانوا يخشون ان يصبحوا وفرة لا ضرورة لها، ويتلهفون للافادة من أية حالة ذعر تجعل

الجاسوسية ذات شأن مرة أخرى . وقد استغل العملاء اليهود هذه الحالة استغلالاً كاملاً ، اذ كان لهم منظمة صغيرة في ميناء طنجة التي شكلت نقطة مرور حيوية في حركة مرور الأسلحة لوقوعها مقابل ميناء جبل طارق . وكان لهذه المنظمة هدفان رئيسيان اولهما ، وربما اكثرهما تأثيرا ، هو تضليل المخابرات البحرية البريطانية ، وثانيهما تسلم شحنات الأسلحة وإعادة ارسالها . وذات يوم صادر مسؤولو الجمارك في طنجة ، كمية كبيرة من سكاكين المغاوير محفور عليها .W. D (وزارة الحربية War Department) هربت اليها من انتويرب في بلجيكا . وقد كشفت تحريات الشرطة ان هذه السكاكين وشحنات أخرى من الأسلحة ، من بينها الرشاشات ، كانت مرسلة لأحد عملاء الموساد ، وليس لمنظمة الإرغون زفاي ليئومي كما قيل آنذاك .

وفي أواسط سنة ١٩٤٧ بلغت حركة نقل الأسلحة عبر مضيق جبل طارق نسبا هائلة . وقد كتبتُ في رسالة صحفية مستعجلة ، يوم الأول من حزيران سنة ١٩٤٧ ، ان المعلومات المتعلقة بحركة النقل « هي المسؤولة عن القانون المحلي الخاص الذي يسمح لحاكم جبل طارق ان يحتجز اية سفينة يشك في انها مشتركة

في الهجرة غير الشرعية ونقل الأسلحة الى فلسطين. وكان احتجاز السفينة كولوني تريد Colony Trade، التي ترفع علم كوستاريكا، هذا الاسبوع هو الخطوة الأولى في مخطط مرسوم بعناية لقمع حركة النقل هذه. وكانت الموانيء الرئيسية في هذا العمل هي جبل طارق وطنجة ووهران حيث كانت فيها مستعمرة مهاجرين يهود ينتظرون نقلهم الى فلسطين. وكان العديد من السفن الصغيرة المستخدمة لتهريب الأسلحة ونقل المهاجرين مراكب سابقة للبحرية الملكية البريطانية نسقتها الاميرالية مؤخرا، وتم شراء عدد منها عن طريق السوق الدولية للأوراق المالية (البورصة) في طنجة حيث دفعت أثمان هذه المراكب بالدولار. وقد بات لدى مصادر المخابرات البريطانية برهان مناسب على كيفية خداع المشترين لوكلاء الأميرالية، فالأسلحة وتشمل الرشاشات والذخائر والقنابل، كانت يؤتى بها من مقاطعة اير Eire وامريكا الوسطى وبلجيكا، ثم تشحن على مراكب شحن ساحلية عبر البحر الأبيض المتوسط، وبعدئذ تنقل هذه الأسلحة ليلا إلى سفينة في ميناء طنجة»[٣].

وكان هذا كله جزءا من خطة المنظمة، التي تتخذ طنجة

قاعدة لها، لخداع البحرية البريطانية التي كانت، حتى انذاك، تراقب السفن التي تبحر فعلا من الموانىء البلجيكية. وكان مخططو هذه العمليات، بنقلهم الأسلحة ليلاً من سفينة كبيرة الى مركبين صغيرين، او الى ثلاثة مراكب احيانا، يستطيعون ان يوزعوا اسلحتهم ويتسللوا، غالبا، عبر شبكة البحرية البريطانية.

وما عدا تشيكوسلوفاكيا وجدت الموساد والجيش صعبا جدا عليهما الحصول على أسلحة من الدول الاشتراكية. وقد ارسل ويلي كاتز Willy Katz، وهو عميل موساد، الى رومانيا في أواخر سنة ١٩٤٧ ليطلب العون من آنا بوكر Anna Pauker التي كانت آنذاك السكرتير الأول للحزب الشيوعي، وكل ما فيها خشن وقاس مثل أي من رؤساء الحكومات الاشتراكية في اوروبا الشرقية. وحدثت تأخيرات طويلة في المفاوضات وتلميحات غامضة الى انه ربما يحدث شيء في الأسبوع التالي، وفي النهاية لم يقدم له شيء. وينطبق هذا نفسه على بولونيا وبلغاريا وهنغاريا. وقد اقامت الموساد مقرا خاصا في اسطانبول لمحاولة اجراء ترتيبات خفية مع دول اشتراكية معينة.

وقد ثبت ان انشاء سلاح جوي اسرائيلي فعال عمل اكثر

صعوبة وبطئا ، فحين بدأت الحرب مع العرب كان لدى هؤلاء نحو مائة طائرة ، ولم يبدأ سلاح الجو الاسرائيلي حياته الا في كانون الثاني سنة ١٩٤٨ بثماني طائرات خفيفة تم الحصول عليها سرا . ومن المحاولات السرية ، لحشد القوة ، بَيْعُ سلاح الجو الملكي البريطاني ، في فلسطين ، اربعا وعشرين طائرة على انها خردة غير صالحة دون ان يعلم ان التاجر الذي اشتراها كان عميلا سريا للهاغاناه . وقد فكت هذه الطائرات، واستخدمت شتى القطع والأقسام فيها لاعادة تركيب ثماني عشرة طائرة جديدة[٤] .

وفي غضون ذلك كانت الشاي تعمل على انشاء تشكيل لمكافحة التجسس في فلسطين نفسها . وهي تدين في ذلك كثيرا ليهودي اراتزي قبل انتقاله الى اوروبا . وكان أحد اهم انجازاتها ، فيما يتعلق بالبريطانيين ، هو حصولها على « الكتاب الأسود » الخاص بدائرة التحقيقات الجنائية البريطانية C. I. D ، وهو الذي يحتوي على اسماء الاف المشبوهين من عملاء الموساد والإرغون والهاغاناه . وكان المقصود من هذا « الكتاب » المصنف جيدا هو الاستخدام الفوري حين تصدر الأوامر باعتقال الارهابيين اليهود . وقد استطاعت « الشاي » ، باستخدامها عملاء دستهم بعناية في داخل

الجهاز الكتابي للشرطة الفلسطينية، ان تحصل على بضع صفحات من هذا «الكتاب الأسود» في كل مرة، فتنسخها ثم تعيدها الى ملفات التحقيقات البريطانية.

وكانت هذه عملية بطيئة، ولكنها عنت ان البريطانيين لم يكونوا يعرفون ما يجري(*). وقد اقيمت غرفة سرية للمصورين ولضاربي الآلة الكاتبة لأجل التصرف بالمعلومات التي احتوى عليها الملف، ثم جرى تحذير كافة الذين وردت اسماؤهم في القائمة مما يجري، وطلب منهم الانتقال الى عناوين جديدة او ان يختفوا كليا.

لقد قال لي أحد عملاء الهاغاناه: «ما كنا لنحقق هذا النجاح الجيد لولا مساعدة صديق انكليزي داخل دائرة التحقيقات الجنائية في فلسطين. لقد كان عملاً بطيئاً، ولكننا انهيناه قبل ان يصدر البريطانيون الأوامر بملاحقة المطلوبين، والتي فشلت فشلاً ذريعاً».

(*) ان البريطانيين، وليس غيرهم، هم الذين كانوا يسهلون للصهاينة الحصول على مثل هذه الوثائق، من أجل ان يَمْضوا في مخططاتهم لانشاء الكيان الصهيوني تنفيذاً لوعد بلفور.

(المترجم)

استطاع بن غورريون، حين انشئت اسرائيل، ان يوحد جيش الهاغاناه السري وقوات العصابات جميعها في جيش الدفاع الاسرائيلي، كما جمع في الوقت نفسه منصبي رئيس الوزراء والدفاع في أول حكومة لاسرائيل، ثم اخذ، انطلاقا من هذا الموقع القوي جداً والفريد، ينشيء المخابرات السرية لاسرائيل. لقد عرف ايضا ان اسرائيل ستواجه معارضة عربية هائلة في السنوات الأولى من انشائها، ولذلك ركز على ضمان ان الجيش سوف يستقبل خير الأفراد من ضباط وكبار قادة، وكانت النتيجة ان وزارة الدفاع عانت من فقدان الرجال من ذوي الكفاءة والخبرة نفسها فقد كان معظم هؤلاء من الساسة، وخلق بعضهم لبن غورين مشاكل ادارية.

ولكن هذا لم يكن ليهم كثيرا ما بقي بن غوريون يدير دفة الحكم، لأنه لم يهيمن على وزارة الدفاع فقط، بل كانت له علاقاته الوثيقة جدا مع قادة الجيش، وكان أحد اهدافه منع الجيش من أن يصبح مُسيَّسا فكريا او ان تكون له أية صلة بالدسائس السياسية، فقد رأى كيف ان الجيش الفرنسي قد بات بلا معنويات وفسد من خلال المكائد السياسية التي حاكتها قلة من جنرالاته. وكان بن

غوريون نفسه هو الذي اصدر التعيينات كافة فيه من رتبة عقيد فما فوق حتى رئيس الأركان، وهو منصب اصبح اخيرا اهم واكثر تأثيرا ونفوذا من المدير العام لوزارة الدفاع.

ولم يكن أحد في اسرائيل اكثر توقا من بن غوريون لضمان ان صورة اسرائيل في العالم الخارجي ستظهر معتدلة متزنة، ورأى ان احدى الطرق لضمان ذلك هي الرقابة والهيمنة القوية على جهاز المخابرات المشكل حديثا، فالهجمات بالقنابل على البريطانيين لم تَستَعْدِ، بشكل خاص، الرأي العام العالمي، فكثير من الفرنسيين والايطاليين، وربما من الامريكيين الاكثر عددا، تعاطف صراحة وعلنا مع اليهود. على ان اغتيال الكونت برنادوت Count Bernadotte، الوسيط الدولي والذي شك فيه على أنه معاد لليهود، كانت مسألة مختلفة، فقد نقل اليه ان بعض اليهود يعتبرونه عميلا بريطانيا، وفي ايلول سنة ١٩٤٨ م أطلقت عليه النار فقتل بينما كان يسافر في سيارة عبر القدس. اما قتلته فلم يقبض عليهم قط، واعتقد البريطانيون ان بعض افراد عصابة ليحي (لومامي حيروت اسرائيل) هم المسؤولون، وكذلك يعتقد بعض الاسرائيليين. واعلن الدكتور دوف جوزيف Dov Joseph، الحاكم

العسكري للقدس ، انه لا بد من ملاحقة ليحي واعتقال افرادها ، وبعث الكولونيل موشيه دايان عددا من الجنود لتنفيذ هذه التعليمات ، والقي القبض على بعض هؤلاء.

لقد اعطى اغتيال برنادوت بن غوريون الفرصة التي كان ينتظرها لضرب عصابتي ليحي (شتيرن) والإرغون ، فعالج اولا عصابة ليحي ، ثم استدار الى الإرغون . وفي ٢٠ ايلول ١٩٤٨ م اصدر ييغال يادين ، رئيس الأركان آنذاك ، الأمر التالي :

«ان على الإرغون زفاي ليئومي ، في القدس ان تقبل قانون الدولة المتعلق بالجيش والتجنيد والأسلحة .

فعلى كافة اعضاء الإرغون الصالحين للتعبئة ان يلتحقوا بالهاغاناه ، جيش اسرائيل .

والقانون المطبق على الإرغون هو القانون المطبق على كل يهودي آخر .

فاذا قبلتم ، خلال اربع وعشرين ساعة ، تبدأ الساعة الثانية عشرة ظهرا هذا اليوم ، هذه الشروط ، وحللتم الإرغون زفاي ليئومي وكتائبها الخاصة ، وسلمتم الأسلحة ، والتحقتم بجيش الهاغاناه ، فلن

يعاني اي منكم بسبب الانتهاكات التي اقترفتموها حتى الآن ضد قانون اسرائيل، وسوف تعاملون كأي يهودي آخر.

«واذا لم تستجيبوا، خلال هذا الوقت المحدد، لطلبات الحكومة فان الجيش سيتصرف بكافة الوسائل التي في حوزته».

لقد كان هذا الأمر والاحاطة بعصابة ليحي هامين جداً لاسرائيل كي تبدو في صورة اكثر انضباطا امام بقية العالم وامام اليهود غير الصهيونيين فيما وراء البحار على الأقل، كما كانا ذوي اهمية قصوى لضمان انضباط لجهاز المخابرات الاسرائيلي الجديد الذي اوجده بن غوريون شخصيا في السنة التالية. وثمة خلاف حول اي من اقسام المخابرات وجدت اولا، فالموساد القديمة دمجت بالموساد الرسمية الجديدة، ولكن التوكيد في المراحل الأولى من المخابرات وضع على مكافحة التجسس، ولذلك انشئت الشين بيت (مختصر شيروت بيتاخون/ Sheruth Bitachon اي جهاز الأمن)، وكانت مهمتها الأساسية ملاحقة الجواسيس والامساك بهم، ولكنها سرعان ما تطورت الى أكفأ جهاز لجمع المعلومات عن العالم العربي، وكسبت احترام اجهزة المخابرات الأخرى التي وجدت ان الاسرائيليين اصبحوا، في غضون سنوات قليلة، اكثر اطلاعا

جدا على ما كان يجري فعلا في مصر والعراق وسورية والاردن والعربية السعودية من الدول العظمى نفسها.

وحين حلت الإرغون حُلَّتْ معها المجموعات غير الرسمية جميعها، وكانت النية اساسا ان «وحدات الإرغون اذا حلت، والتحق افرادها بالجيش الاسرائيلي، ستبقى سليمة متماسكة داخل الجيش، ولن تمس سلامتها وتكاملها». وقد سخطت، بالفعل، نسبة كبرى من السكان على حل الإرغون، فقد اعتقدت هذه ان الإرغون بقيادة مناحيم بيغن سوف تكسب معركة استقلالها. وخشي بن غوريون من انشاء مجموعة داخل مجموعة اخرى، ولا سيما في المخابرات، ولهذا السبب ارجأ انشاء اقسام جهاز المخابرات الجديد كافة حتى سنة ١٩٤٩ م، وبعد ان حلت الإرغون كليا، وحين لم يعد للافراد اي أمل في محاولة انشاء جيبهم المخابراتي في داخل المخابرات، فهذا قد يكون كارثة، فاستطاع بن غوريون، من ثمة، انشاء الشين بيت. وما خشيه بن غوريون ايضا لم يكن هيمنة متطرفي الإرغون وليحي على الشين بيت، بل استغلال بعض التأثيرات الخارجية، لهذه الأصوات المنشقة، ففي اوائل سنة ١٩٤٨ م كانت ثمة إشارة إلى ان الاتحاد السوفييتي كان يؤثر على

بعض المتعصبين اليهود، وان هذا ادى الى بعض التردد من جانب الولايات المتحدة في سياستها المؤيدة لليهود في الشرق الأوسط. وقد كانت ردة بعض الأفراد في البنتاغون، على هذه المعلومات، كبيرة وقرر ان دعم اليهود سيعني استجلاب النفع للروس والضرر للاميركيين. وألمح جون ف. فورستال(*) John V. Forrestal وزير الدفاع الاميركي، في احاديث خاصة الى انه قد يكون ضروريا التخلي عن دعم اليهود من اجل تركيز كافة الجهود ضد الروس. ولكنه عبر عن ذلك تعبيرا مختلفا في العلن، فقد اخبر لجنة في مجلس الشيوخ ان «تقسيم فلسطين سيعرض موارد النفط الاميركية للخطر».

وهكذا، فإن خطة بن غوريون في تجنيد معظم الأفراد، من الهاغاناه، لانشاء الشين بيت كان يقصد منها ضمان ان رجال الهاغاناه قد وضعوا في المراكز الرئيسية. كما عرف، في الوقت نفسه، ان ثمة قدراً كبيراً من النباهة والموهبة داخل الإرغون وحتى في ليحي والتي لا بد من تسخيرها من اجل الدولة الجديدة. وكان

(*) أعفي من منصبه بسبب الضغط الصهيوني، ثم دفع الى الانتحار.

(المترجم)

عازما على الا يفقد خدمات هؤلاء الناس ، ولذا بدأ «غربلة» منهجية لأفراد كلتا الإرغون وليحي من اجل تجنيد افضل عملائهما المنظمين واكثرهم موثوقية ، فيوضع بعضهم في الشين بيت والاخرون في شتى فروع المخابرات . ونتيجة لذلك يمكن القول ان الشيت بيت خاصة ، والمخابرات الاسرائيلية عامة ، ضمتا في غضون سنة او اثنتين من انشائهما المع فريق من الجواسيس ومنظمي اعمال الاستخبارات جاؤوا من بين صفوف الهاغاناه والارغون وليحي ، واشتمل على سلسلة متفاوتة من المواهب تتراوح بين المخربين المحترفين ومزوري الوثائق وجوازات السفر الى خبراء الاتصالات وحالّي رموز الشيفرة .



الفصل الرابع

ايسر هاريل والموساد

كان الأمن الداخلي ووجود حكومة حازمة هما الحاجتان الرئيسيتان لاسرائيل الجديدة، ولذا اكدت الاعتبارات المحلية على اقامة جهاز مخابرات. ولكن، ومع اندلاع القتال مع العرب بات ضروريا تطوير جهاز مخابرات فيما وراء البحار.

وكانت الاستجابة لهذه الحاجة جاهزة تقريبا، وذلك بتوسيع الموساد. فهذه، منذ انشائها، كفرع للهاغاناه، قد اتقنت دور جمع المعلومات الخارجية. صحيح ان الموساد كانت مهتمة، اهتماماً رئيسياً بالهجرة غير الشرعية وبدعم قضية الصهيونية، ولكن وجود جهاز مخابرات خارجية، من اي نوع، كان امراً هاماً جداً خلال عامي ١٩٤٨ــ ١٩٤٩ م. فالموساد

اقيمت عن عمد وبغاية تقريبا ، فقد كانت جناح المخابرات الخارجية للهاغاناه ، وكانت المشكلة الوحيدة هي توسيعها ، توسيعا سريعا وكفؤاً ، وتوجيهها نحو التجسس على اعداء اسرائيل الكثر .

وكان الاسرائيليون يعرفون ، تماما ، اهمية الحصول على معلومات من داخل الأقطار العربية التي كان لا يزال كثير منها آنذاك ، مثل الجزائر ومراكش وتونس وليبيا وعدن ، بشكل أو بآخر تحت الهيمنة او الحماية البريطانية او الفرنسية . وتطلب جهاز المخابرات الجديد ان يبقى مطلعا ، احدث اطلاع ، على شتى التحولات في الرأي والسياسة في الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، وان يكون له عملاء في لندن وباريس والرباط وتونس والجزائر ، ثم في القاهرة ودمشق وطهران . كما احتاج الى ابقاء عين راصدة على التطورات في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . ولكن كان لا بد اولا من ابعاد الموساد عن ان تكون اداة لحركة سرية هدفها الهجرة أو تحويل الوطنية الى خدمة تجسسية اكثر رسمية لدولة تهددها الحرب .

لقد احتاجت اسرائيل الى ما يبدو مستحيلا لاية دولة

جديدة، وهو جهاز مخابرات عدواني من الدرجة الأولى يستطيع ان يضع نفسه في جو من الاستعداد للحرب منذ نشأته. فحين استمر نشوب القتال لم تواجه اسرائيل عداء العالم العربي فحسب، بل عداء متناميا داخل الاتحاد السوفييتي. وفترة شهر العسل من الصداقة الظاهرية، التي ادهشت اسرائيل حين دعم قضيتها سنة ١٩٤٧ م في هيئة الأمم المتحدة، سرعان ما أصبحت مرة، فصُعِّدت حملة معادية للصهيونية في الصحافة السوفييتية، وأقصي اليهود في روسيا عن المراكز الهامة، وأبقيت قلة قليلة من التقنيين اليهود في مراكز لها بعض التأثير. والحقيقة ان اسرائيل لم يعد لها اية قيمة، فور انشائها، للاتحاد السوفييتي ما عدا انها منطقة يستطيع فيها ان يغذي المزيد من القلاقل ويزعج الدول الغربية في هذا السياق. وسرعان ما بات واضحا ان الاتحاد السوفييتي يضغط، ضغطا متزايدا، على اليهود الروس الذين ارادوا ان يهاجروا الى اسرائيل، وسمح لقلة قليلة منهم بالمغادرة. ولكن العديد من اليهود أفلح في مغادرة بلغاريا وهنغاريا وبولونيا ورومانيا.

وخلال عام ١٩٤٩ــ ١٩٥٠ م وصلت انباء الى الموساد، التي كان لها عملاء ممتازون في طهران واستانبول، عن

أعمال تجسس سوفييتية موجهة ضد اسرائيل، اذ كانت هنالك محاولات روسية للتسلل الى اسرائيل عن طريق بعض اليهود غير الصهيونيين من بلغاريا ورومانيا، فقد كان ثمة عدد من اليهود ينظر الى السوفييت على انهم منقذوهم من النازية وظلوا مخلصين للثورة البولشفية، وتم اقناعهم ان المستعمرات (الكيبوتز) الجماعية في اسرائيل ليست سوى «معسكرات عمل» وان بعض الصهيونيين تعاونوا مع النازيين اثناء الحرب، واستشهدوا بقضية ابراهام شتيرن. وفي تشرين الأول سنة ١٩٥٢ م القي القبض على هاغوب عنتريسيان Hagop Antaryessian الارمني البالغ من العمر ٢٨ عاما والمقيم في القدس القديمة، ووجهت اليه تهمة التجسس للاتحاد السوفييتي. وقد ذكر في المحضر الأولي ان عنتريسيان كان تحت رقابة سلطات الامن منذ عودته من ارمينيا السوفييتية قبل ثمانية عشر شهرا. وفي مناسبة سابقة القي القبض عليه واحتجز فترة قصيرة في اريحا لمحاولته عبور جسر اللنبي الى الاردن. وكشفت التحقيقات التالية انه كان يرسل معلومات سرية عن اسرائيل الى عميل في السفارة السوفييتية في بيروت التي سافر اليها في عدد من المناسبات[1]. وقد اتضح من المعلومات التي التقطت في استانبول ان بعض هذه المعلومات الاستخبارية الروسية نقلت الى العرب.

وهكذا، كان الاسرائيليون يخوضون حرب مخابرات على جبهتين: ضد العرب وضد الاتحاد السوفييتي. وكان هنالك ايضا جبهة ثالثة، وان كانت عدوا متخفيا الى حد ما، وهي جبهة النازيين السابقين الذين فروا الى اجزاء اخرى من العالم، ومعظمهم ذهب الى بلدان اميركا اللاتينية وقلة الى اسبانيا وارلندة وكثيرون الى الاتحاد السوفييتي. وقد تدفقت الأدلة، على قيادة الموساد، من شتى انحاء العالم، على ان مئات النازيين الذين كانوا اساسيين في سياسة تصفية اليهود قد انسلوا الى أماكن آمنة، وساد الخوف آنذاك من ان هؤلاء سيحصلون، بشكل ما، على قوة ونفوذ كافيين للاستمرار في مضايقة اليهود ومهاجمتهم وفي الحث على تدمير اسرائيل. وهذا، بالنسبة لآذان الانكليز والاميركيين، شبيه بجنون الشك والريبة بعد ان وضعت الحرب الآن اوزارها، اما بالنسبة لليهود والبلجيكيين والفرنسيين والتشيكيين — والبولونيين، الذين عانوا في معسكرات الاعتقال والذين يخشون نهوض النازية من جديد تحت اي قناع آخر في المانيا نفسها، فقد كان هذا الخوف حقيقيا. والى جانب هذا كان ثمة قصص مزعجة من واشنطن عن قادة عسكريين اميركيين معينين كان تصعيد الحرب الباردة

يزعجهم جدا ، ويسرهم ان يبرموا أية صفقة مع اي نازي سابق اذا كان سيدعمهم ضد السوفييت .

كان الرجل البارز في المخابرات الاسرائيلية آنذاك هو ايسر هاريل Isser Harel ، والمعروف عادة باسم ايسر الصغير لا لانه كان قصيرا نحيفا وذا نظرة ناعسة بل لتمييزه عن « ايسر الكبير » الذي اعتبر اصلا المرشح الأكثر احتمالا لمنصب رئيس الموساد ، وكان الثاني شخصية ديناميكية مندفعة ، اسمه الحقيقي ايسر بيعيري Isser Be'eri ، وكان مشربا بكل الخشونة والفظاظة اللتين تميزت بهما ايام ما قبل سنة ١٩٤٨ م ، ولكن قيل ان الدبلوماسية كانت تنقصه ، وكان قائد الشاي ما بين شباط ١٩٤٩ وحتى تشرين الثاني ١٩٤٩ م . وقد احاطت فضائح سياسية بايسر الذي كانت أساليبه ، عموما انتهازية فاضحة حتى بمقاييس عالم المخابرات غير الطبيعية . وقيل انه لفق ادلة ضد سياسي اسرائيلي على اساس ان هذا كان يشكل تهديدا للأمن القومي ، كما امر بإطلاق النار على شخص آخر وقتله لأنه اعتزم عبور خطوط الأعداء ليس الا . وبينما كان هذا يستعد لتولي منصب الرئيس سرعان ما استبدل به آخر باوامر من بن غوريون

نفسه، وكان الرجل الذي حل محله مرتبطاً ايضا بتأسيس الشين بيت وينتعل عادة صندلا خفيفا، وهو ايسر الصغير.

ولد ايسر هاريل، باسم ايسر هالبرين Isser Halperin، في بلدة فيتيبسك Vitebsk في روسيا الوسطى سنة ١٩١٢ م. وكانت اسرته، على نقيضٍ كثير من المهاجرين الآخرين من روسيا، غير منضمة لا الى البلاشفة او المناشفة، بل كانت اسرة يهودية متدينة تملك مؤسسة صناعية صغيرة ولكنها مزدهرة استولى عليها الثوريون بعد احداث سنة ١٩١٧ م. وفي سنة ١٩٢٢ م صودرت هذه المؤسسة باسم الدولة وانتقلت اسرة هالبرين الى مدينة دفينسك Dvinsk في دولة لاتفيا Latvia. وقد جعل هذا كله من ايسر صهيونيا متحمسا واعتبر تأميم المشروع الصناعي الصغير غطاء بولشفيا للاسامية.

هاجر بعض افراد هذه الأسرة الى فلسطين في أواخر العشرينات، وفي سنة ١٩٣١ غير اسم العائلة الى هاريل، والتحق ايسر باحدى الكيبوتسات، وسرعان ما برز بسبب ما كان يتمتع به من سرعة تفكير وطاقة وانهماك بالعمل. وقال عنه احد الذين عرفوه عاملاً زراعياً حاذقاً انه كان «يتمتع بطبع موثوق حتى وهو

شاب، وقد اعتدنا ان نضايقه بسبب جسمه الصغير وكتفيه العريضين، وكان «نابليون» واحدا من القاب السخرية التي اطلقناها عليه. فدعاه بعضهم نابليون هاريل، وآخرون اطلقوا عليه ايسر الصغير، وبعضهم سماه ايسر الرهيب على فرض انه جاء من روسيا وقورن، بشكل ساخر، بايفان الرهيب. لقد كان، دائما، يأخذ الحياة على محمل الجد، ولا يهذر بالكلام، بل كانت كل عبارة يقولها اشبه بالأمر المحكم. ولكن عليك الا تظن انه لم يكن محبوبا، فقد كانت له طريقة معينة تكسبه الاصدقاء، وكان، غالبا، يستطيع ان يجعلنا نفعل ما يريد، ولهذا اصبح فيما بعد رئيس الجواسيس».

وكان ايسر، ايضا، رجل اعمال جيد لانه انهمك في عمل كي يساعد به في دفع رسوم هجرة الأفراد الآخرين من عائلته الى فلسطين. التحق سنة ١٩٤٢ م بصفوف الهاغاناه التي أمرته أن ينضم الى سلك البوليس الاضافي في فلسطين. وقد طرده الانكليز منه بسبب تمرده، فالتحق بقوة شرطة المستوطنات اليهودية. وترأس، منذ سنة ١٩٤٤ م، الدائرة الداخلية للشاي، فوطد نفسه على انه عضو ممتاز في اللجنة التنفيذية لجهاز المخابرات هذا،

وسرعان ما رقي الى منصب رئيس منطقة تل ابيب في جهاز الشاي، واكسبه عمله فيها احترام بن غوريون وصداقته. لقد كان «ايسر الصغير» هو الذي نظم العديد من مجموعات المخابرات ضد البريطانيين واعمالها ومنها سرقة ملفات دائرة التحقيقات الجنائية C. I. D. البريطانية. واعلن بن غوريون، ذات يوم، ان «ايسر يضع قواعده واحكامه الخاصة مع مواصلته مسيرته، ولكنه، على اية حال، يحترم قانون اسرائيل». ومن المؤكد ان ايسر هاريل، وخلال عمله الطويل مع شاي، كثيرا ما شق اخدودا وحيدا، واقام اتصالات وثيقة مع كلا العرب والبريطانيين من اجل دفع عمله الاستخباري الى الأمام. وكثيرا ما كان يقوم بغارات داخل التجمعات العربية لحسابه هو، وكان يعرف، معرفة ماكرة، دخائل الفكر العربي وتعقيداته، وكثيرا ما كان يستطيع ان يتوقع مسبقا، الى درجة كبيرة الدقة، ما ستكون خطوتهم التالية. وكان قبل انشاء اسرائيل وبعده مهتما، اهتماماً رئيسياً، بالاستخبارات العسكرية، وحصل على دلائل موثوقة عن النوايا المصرية العسكرية والسياسية على حد سواء.

ولم يجد بن غوريون في هاريل جامع معلومات استخبارية

جيداً فحسب ، بل مفسرا لامعا لها. وبناء على هذه الصفة الثانية اختاره وعينه رئيسا للشين بيت المسؤولة عن مكافحة التجسس. وقد أحيط العمل العملياتي Operational الحقيقي ، لهذه الدائرة ، واسماء لجنتها التنفيذية بكتمان ما يزيد على ما أحيطت به الموساد من كتمان. وليس في هذا ما يثير الدهشة اذ كان على الموساد ان تقوم بمخاطر تثير الشهرة على حين ان الشين بيت استطاعت ان تحتفظ بتسترها وتحفظ هوية رؤسائها بشكل اكثر فعالية. وقبل ان يصبح هاريل رئيسا للموساد سنة ١٩٥٢ م ويمنح رتبة عميد العسكرية ترأس روفين شيلواح Reuven Shiloah ، (الذي كان يعرف سابقا باسم زاسلاني Zaslani) الموظف الرفيع في وزارة الخارجية الذي توفي سنة ١٩٥٩ م في حادثة سيارة، ترأس شكلا من مؤسسة غير رسمية على نمط الموساد.

لقد اخرت حرب سنة ١٩٤٨ م بين العرب واليهود خطط بن غوريون لاعادة تنظيم جهاز المخابرات في اسرائيل، فلم تنفذ هذه تماما الا سنة ١٩٥٣ م، حين قرر رئيس الوزراء ان بنية هذا الجهاز كلها تحتاج الى ان تضبط وتشد وتحدد تحديدا اكثر وضوحاً.

كان لجهاز المخابرات ثلاثة فروع رئيسية رغم انه كان له

عدد من «المجسات» غير الرسمية التي كانت تمتد، فيما رواء البحار، وتصل الى كافة مجالات الحياة العلمية والصناعية والعسكرية والمعلوماتية المحضة. وقد استبقيت اقدم حلقات المخابرات، وهي الموساد، سليمة تقريبا لان جذورها مرتبطة بالهاغاناه على الأغلب. وتولت الموساد، لبعض الوقت، تماما مهام ريخيش التي سبق وجودها قيام اسرائيل، ولكن وظيفتها الرئيسية كانت تنظيم شبكة مخابرات على النطاق العالمي خارج اسرائيل. ولا تزال الموساد، حتى الآن، هي الجهاز الأكثر اخافة من بين فروع المخابرات الاسرائيلية كافة.

وتقع الشين بيت، الى حد ما، في القمة الادارية وتتجمع حولها كلتا امان والموساد. فقد اراد بن غوريون ان يبقيها على هذه الصورة، ولذا أمر بن غوريون ايسر هاريل، حين عينه رئيسا للموساد، ان يبقي عينيه مفتحتين على الأمن الداخلي ومكافحة التجسس ايضا. فالشين بيت، وكما ذكر من قبل، هي مؤسسة مكافحة التجسس بشكل رئيسي رغم انها، كعنوان، قد تطبق خطأ احيانا على المخابرات الاسرائيلية ككل فتخلط وظائفها بوظائف الموساد. وهذا يعود، من ناحية، الى أن اسم الشين بيت

نفسه يعتبر عنوان الكفاءة الأمنية فيما وراء البحار، والى عادة الاسرائيليين في استخدام الأشكال المختصرة والألفاظ المفخمة في القاب منظماتهم المؤسساتية مما يقود الأجانب الى الوقـوع في اخطاء التفسير. فالشين بيت ليست هيئة مكافحة التجسس فحسب، مثل مكتب التحقيقات الفدرالي الاميركـي او ادارة المباحث الخامسة البريطانية، بل يوكل اليها ايضا جمع قدر معين من المعلومات العسكرية، فهي من هذه الناحية ترتبـط بادارة المخابرات العسكرية التي تقيم وتفسر كل اشكال المعلومات. على ان قسم مكافحة التجسس فقط من الشين بيت هو شيروت بيتاخون كلالي Sheruth Bitachon Klali والمعـروف عادة باسم شاباك Shabak.

كان بن غوريون نفسه من اقدر رؤساء الوزراء في تقدير قيمة المخابرات وتقييم ما تقوم به. ولا يعرف عموما اذا كان قد قام، هو نفسه بدراسة مكامن القوة او الضعف في اجهزة مخابرات الدول الأخرى. وهو لم يرد مؤسسة موحدة تجمع ما بين التجسس ومكافحة التجسس مثل المخابرات السوفييتية، كما لم يرد الفصل الكلي بين مهام التجسس ومكافحة التجسس كما هي الحال في

بريطانيا. فقد هدف الى الحل الوسط، وهذا هو السبب الذي منح ايسر هاريل، سنة ١٩٥٢ م، رقابة قليلة على دائرة وهيمنة كاملة على الدوائر الأخرى.

وهكذا، ففي اعادة تنظيم للمخابرات خلال عامي ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ م تم انشاء وحدتين منفصلتين تتمتع الواحدة منهما باستقلال كامل عن الأخرى مع السماح بتبادل المعلومات وبقدر معين من التعاون والعلاقات المتبادلة، وركز علنا وبشكل صحيح على مديرية المخابرات العسكرية، اما الوحدة الأخرى ــ الشين بيت ــ ووكالاتها المرتبطة بها ومنها الموساد فقد بقيت تعمل في الظل وتولت عددا وفيرا من المهام. ويمكن مقارنة الموساد بدائرة المباحث السادسة البريطانية او وكالة المخابرات المركزية الاميركية، بينما امان Aman ليست في الواقع سوى جامعة معلومات عسكرية محضة من البلدان الخارجية وترتبط بمديرية المخابرات العسكرية. على ان كلتا الموساد والأمان تتعاونان الى حد ما وبخاصة في جمع المعلومات عن الاسلحة والسوقيات ــ الأمور اللوجستية ــ والأشغال الدفاعية للعدو.

واشترط بن غوريون، في الخطط التي وضعها لبنية

المخابرات، قيام استقلال ذاتي لفروعها العسكرية وغير العسكرية، مع السماح بمرونة كافية للتعاون الفعال، وهذا ما اربك معظم الدول العظمى بين وقت وآخر.

لم يحقق بن غوريون الكمال في خططه، فحدثت صدامات بين القسمين المدني والعسكري بين وقت لآخر، ولكن هذه كانت اقل جدا مما كانت ستحدث لولا قدرة بن غوريون. فقد القيت المسؤولية على رجلين: مدير المخابرات العسكرية والميمونه Memuneh الذي هو الرئيس الأسمي للقسم المدني من المخابرات العسكرية. هذا هو المنصب الذي ملأه ايسر هاريل بامتياز طيلة خمسة عشر عاما. والواقع ان الميمونه هو الرئيس التنفيذي للمخابرات السرية ورئيس الموساد ورئيس اللجنة التي تتألف من رؤساء كافة اقسام المخابرات والمسؤول مباشرة امام رئيس الوزراء. وفي هذه الناحية قرر بن غوريون انه سوف يستعير من عرف الديمقراطية البريطانية، ففيها رئيس دائرة المباحث السادسة مسؤول شخصيا امام رئيس الوزراء. وقد حاول بعض رؤساء الوزارة البريطانيين، في السنوات الأخيرة، ان يلقوا هذه المسؤولية على

وزارة الداخلية في وزاراتهم، وكانت النتائج كارثية، وقد فضل بن غوريون ان لا يلقي هذه المسؤولية على اي من وزراء الداخلية.

وأصبح مركز الميمونه أقوى من منصب مدير المخابرات العسكرية لأن الرجل الذي تولاه استطاع ان يمد سلطته الى كلا التجسس ومكافحة التجسس، والى جمع المعلومات العسكرية والتنسيق بين كافة الأجهزة الأمنية. والحقيقة أن الميمونه كان، تقريبا، قانونا في حد ذاته، ويتمتع بسلطات غير معلنة لخرق الأحكام والقواعد من وقت لآخر. ولكن اسرائيل دبرت، عموما، حل مشكلة البقاء عن طريق التظاهر بالديمقراطية مع منح رؤساء الأجهزة الأمنية فيها سلطات استبدادية. وكانت القاعدة، عموما، ان الرئيس يترك منصبه اذا خرق القواعد وامسك به الكنيست دون أن يستطيع تبرئة نفسه أمامه. ومع ان السرية حوفظ عليها قدر الإمكان الا ان منصب الميمونه تعرض للنقد الشديد، اكثر من مرة، من جانب الساسة وحتى من بعض القادة العسكريين. وقد راقب اعضاء الكنيست، دائما، رقابة وثيقة هذا المنصب، وقد فصل، اكثر من مرة، رؤساء اداريون له أو ارغموا على الاستقالة.

لقد استطاع ايسر هاريل، طيلة سنوات، ان يقوم

بنشاطات غير رشيدة، بل كانت موضع تساؤل وريبة، أثناء عمله في المخابرات، بسبب صداقته الوثيقة مع رئيس الوزراء، وبدا دائما انه يعرف حدوده وكيفية استخدام مواهبه الدبلوماسية في الرد على الأسئلة العريضة الموجهة من اللجنة البرلمانية المسؤولة عن تدقيق نفقات المخابرات.

وفي غضون ذلك بدأت «الموساد» و«أمان» تطوران اتصالاتهما في ما وراء البحار تاركتين «لشاباك» ان تعالج مشكلات الأمن الداخلي. وكانت خطة هاريل ضمان ان لدى المخابرات نظرة عالمية، ومنعها من ان تعتبر مؤسسة ضيقة صغيرة في الشرق الأوسط. ومن هذه الناحية فإن لهاريل في عنق اسرائيل ديناً كبيراً، اذ انه منذ البداية رأى ان مشكلات اسرائيل هي مشكلات عالمية، وجعل المخابرات الاسرائيلية مؤسسة كبرى. وقد اجاب مرة احد ناقديه بما يلي: «انت تقول لي ان عملنا هو مراقبة العرب، وانا اقول لك ان عملنا هو مراقبة من هم حلفاء العرب. وهنالك العديد منهم في شتى انحاء العالم، في اميركا اللاتينية كما هي الحال في موسكو».

ومَدَّت «أمان» شبكتها ايضا الى ما وراء البحار، وركزت

على تنظيم شبكة تجسس صناعي على نطاق عالمي ثبتت تفاهتها في السنوات التالية. واسم «أمان» هو ايضا اختصار آخر للفظين هما آغاف مودين Agaf Modiin اي مكتب الاستعلامات. والواقع انها جهاز المخابرات الخارجية للجيش الاسرائيلي رغم انها اكثر جرأة ومجازفة من أجهزة المخابرات العسكرية لمعظم الدول الأخرى. ولكن لن يكون من قبيل التملق اجراء مقارنة بينها وبين المكتب الرابع الروسي الذي هو أساسا مؤسسة المخابرات الخاصة بالجيش السوفييتي. «فأمان» تضم كافة الملحقين العسكريين وغيرهم في الدول الأجنبية، ولها صحافتها وجهاز استعلاماتها، كما انها المسؤولة عن فرض أنظمة الرقابة المتعلقة بأي شيء له علاقة بالجيش والأمن الداخلي. وعلى كل مراسل أجنبي في اسرائيل ان يعمل من خلال «أمان» رغم ان تدخلها عموما قليل. وهنالك نقطة جديرة بالملاحظة وهي ان المخابرات الاسرائيلية، ككل، و«أمان»، بخاصة، تنظر الى الملحقين، التابعين للمخابرات، في السفارات الاسرائيلية بشكل اكثر جدية من رؤية اجهزة المخابرات البريطانية والأميركية لهم. ففي اسرائيل يعتبر كل من يصبح ملحقا «مخابراتيا» في السفارات شخصا جديرا بالترقية لمنصب أعلى في جهاز المخابرات. وهنالك عدد من الأفراد الذين حازوا على

مناصب في قمة أجهزة المخابرات في السنوات الأخيرة عملوا ملحقين في السفارات، ومنهم البريغادير جنرال حاييم هيرتزوغ(*)، الذي كان ملحقا عسكريا في واشنطن، والبريغادير جنرال أهارون ياريف، الذي كان في واشنطن ايضا، والبريغادير جنرال زفي زامير، الملحق العسكري في بريطانيا، ويوفال نيعمان من بينهم.

وتدين الشين بيت وكافة اجهزة مكافحة التجسس كثيرا، في قوتها، للموساد و«أمان»، فليس ثمة جهاز لمكافحة التجسس في العالم يعاني من مشكلة أكبر من اسرائيل، اذ ان سياسة الهجرة التي تطورت من خلالها، شكلت لها مشكلة امنية، فقد كان ممكنا دائما للجواسيس ان يتسللوا اليها بوصفهم مهاجرين، وافلح السوفييت في القيام بذلك. وفي الوقت نفسه هنالك نحو نصف مليون عربي في اسرائيل يتحدثون جميعا، تقريبا، اللغة العبرية الصحيحة ويتيحون كل فرصة للجواسيس العرب كي يتسللوا. ولكن، ولهذا السبب، شكلت الشين بيت ثلاثة اقسام اولها قسم عربي لمعالجة مسائل التسلل ويهتم بشكل رئيسي بالأمن بين العرب

(*) اصبح رئيس اسرائيل بعد انتهاء مدة اسحاق نافون سنة ١٩٨٢ م.

(المترجم)

في اسرائيل، وثانيها قسم اوروبا الشرقية ويراقب، بشكل رئيسي، الجواسيس السوفييت، وثالثها قسم مكافحة الارهاب، وهو مستنفر دائما للتدقيق في التقارير عن الارهاب او الوجود المشبوه للارهابيين. ويرتبط بالشين بيت ايضا جهاز «ريشود» Reshud الذي يشبه جدا الشعبة الخاصة في سكوتلاند يارد البريطانية واقيم، الى حد كبير، على القواعد التي قامت عليها هذه الشعبة. ويقوم «ريشود» بالوظائف نفسها التي تقوم بها الشعبة الخاصة لدائرة المباحث الخامسة البريطانية، اي مراقبة المنظمات الارهابية السرية واجراء الاعتقالات بناء على الأدلة التي يجمعها عملاء الشين بيت.



الفصل الخامس

قضية لافون

«سببت عمليات مؤسسات التجسس حوادث خطيرة الى حد ان الحكومات، التي أقامت هذه المؤسسات لخدمتها، ترنحت على حافة الكارثة أو أنها سقطت فعلا.... وفي اسرائيل، وخلال حملة انتخابات سنة ١٩٦٥ م، كان دافيد بن غوريون وليفي اشكول لا يزالان يتقاتلان حول فضيحة مخابراتية عمرها عشر سنوات وعرفت بقضية لافون».

ديفيد وايز وتوماس ب. روس

David Wise and Thomas B. Ross

في «مؤسسة التجسس»

The Espianage Establishment

في تموز ١٩٥٢م اطاحت ثورة، برئاسة اللواء محمد نجيب، بالنظام الملكي في مصر، ونفى الملك فاروق، ثم اعلن البلاد جمهورية سنة ١٩٥٣م وأصبح هو نفسه رئيسا لها. ولم يمض طويل وقت قبل ان تتلقى وكالات المخابرات في الدول الغربية معلومات من خير عملائها (الذين كان «غطاؤهم»، وللعجب، احدى شركات النفط الغربية) من ان اللواء نجيب لن يبقى في الحكم وان الرجل الذي عليها ان تدعمه هو البكباشي جمال عبد الناصر. وكانت هذه واحدة من الأعمال الدعاوية الماهرة جدا في السنوات الأخيرة اذ انها جعلت من المخابرات أجهزة غبية وساعدت على تمهيد الطريق

للاطاحة باللواء نجيب في اوائل سنة ١٩٥٤ م وعلى نقل السلطة بهدوء الى جمال عبد الناصر الطموح.

على أن تبدد التوهّم كان سريعا، ولكنه جاء متأخراً جداً في بريطانيا والولايات المتحدة، فسافر ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا الهرم الذي تجاوز منذ وقت طويل خير سنوات عمره، مع وزير خارجيته أنطوني ايدن الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس ايزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس بطل الحرب الباردة في الدبلوماسية الاميركية. وكان دالاس قد انخدع، الى حد كبير، بالدعاية الموالية لعبد الناصر، واخذ يعتبر عبد الناصر حاجزا للعالم الغربي امام الشيوعية، شريطة ان يسحب «البريطانيون الامبرياليون» قواتهم من مصر. وفي غضون بضعة اسابيع تم التوصل الى اتفاق بعد محادثات اجريت في القاهرة، وهكذا قدمت حكومة تشرشل للاسرائيليين سببا حقيقيا لخلق القلق عندهم بوعدها سحب قواتها كافة من منطقة قناة السويس.

وكانت علاقات اسرائيل ببريطانيا قد تحسنت جدا عما كانت عليه في سنة ١٩٤٨ م، فالعدو القديم — ايرنست بيفن Ernest Bevin — وزير الخارجية المؤيد للعرب في حكومة العمال

كان قد توفي، كما أصبح لاسرائيل، بعودة ونستون تشرشل للسلطة، حليف متعاطف ومتفهم في مقر رئاسة الوزارة البريطانية. ولكن ظهرت الان علامات تهدئة عامة للرأي العام في الغرب على أمل ان الحرب الباردة أخذت تقترب من نهايتها، ونقل عملاء الموساد من القاهرة ان الرأي العام الاميركي قد تحول الى تأييد عبد الناصر، وان الرئيس عبد الناصر، مع مغادرة القوات البريطانية منطقة قناة السويس، سوف يستولي على القناة ويغلقها بوجه اسرائيل والغرب في وقت غير بعيد.

وظلت تل أبيب مطلعة تماما على التطورات الجارية، ولم يداخلها أدنى شك في أن أزمة شرق ـ أوسطية جديدة أخذت تتجمع. وكان واضحا، في الوقت نفسه، ان المعونة المقدمة الى الثوار التونسيين والجزائريين، الذين يحاربون من اجل الاستقلال، كانت تأتي من مصر، وان اذاعة القاهرة كانت تحثهم، عن عمد، على مواصلة القتال. وقد كانت هذه المعلومات متوفرة في باريس طيلة السنوات الثلاث الماضية دون ان يتخذ أي شيء بشأنها، فقد تابعت الحكومات الفرنسية سياستها الاستعمارية وهي تضع احدى عينيها على الولايات المتحدة، كما ان دعم وزارة الخارجية

الاميركية للحكومة المصرية أرعب الوزارات الفرنسية ودفعها الى تجاهل الأعمال العدائية المصرية التي كانت تتطلب الرد الحازم. على أن منديس فرانس Mande's France، رئيس وزراء فرنسا الجديد، وهو نفسه يهودي، لم تكن لديه مثل هذه الكوابح على رغم تعاطفه مع الأماني العربية، واستطاع، بوصفه رئيسا للحكومة ووزيرا للخارجية، ان يعالج هذه المشكلة بسلطة أكبر، ولم يضع أي وقت لالقاء المسؤولية تماما على القاهرة، فاستدعى السفير المصري الى كي دورسي Quai d'orsay (مقر رئاسة الوزارة) حيث سلمه مذكرة احتجاج قوية على ما تذيعه اذاعة القاهرة، وأعلن أن اذاعة «صوت العرب» من القاهرة قد حثت سكان شمالي أفريقية على التمرد والثورة حتى القتل.

وقد كان لهذا بعض التأثير، فأصدر الرئيس جمال عبد الناصر تعليماته الى اذاعة القاهرة الحكومية بأن تخفف من حملتها على السياسة الفرنسية في شمالي أفريقية، ولكن، وكما كان الاسرائيليون يعرفون جيدا، لم يفعل عبد الناصر ذلك الا لتشجيع منديس فرانس على منح تونس ومراكش الاستقلال. وهكذا أقلق اسرائيل ان الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بدت ثلاثتها، على

رغم الاحتجاجات الرسمية العريضة، تميل الى استرضاء العرب، والنتيجة هي ضمان بقاء نظام حكم عبد الناصر. ولذا كان لا بد من القيام بعمل ما سريعا، وكان أحد الاقتراحات هو أن المخابرات قد تكون قادرة على فعل ذلك بشكل أشد تأثيرا من الوزراء والدبلوماسيين. وعلى الصعيد الدبلوماسي عجزت اسرائيل عن احراز أي تقدم لوجود جيفرسون كافري Jefferson Caffery، السفير الاميركي العنيد، في القاهرة مع مستشاره لشؤون الشرق الأوسط المؤيد جدا لعبد الناصر، السيد هيكتور بايرود Hector Byroade من وزارة الخارجية. وقد اعتمدت اسرائيل على ان البريطانيين سوف يبقون قواتهم في منطقة القناة، ولكن بدا الآن ان الاميركيين استطاعوا ان يقنعوا تشرشل المستضعف ان كل شيء سيكون جيدا اذا انسحبت هذه القوات. لقد كان هذا وضعا آخر على نمط ميونيخ، والمأساة ان تشرشل كان هو الذي يوافق عليه.

ان من غير الواضح، حتى الآن، كيف نشأت فكرة استخدام جهاز المخابرات من اجل تقويض ثقة الاميركيين بعبد الناصر. ولكن من المؤكد انها لم تكن اساسا فكرة رجل واحد، بل

انبثقت اثناء المناقشات في شتى فروع اجهزة الأمن، فعلى حين ان بن غوريون قد خفف من حدة منظمتي الهاغاناه والإرغون الارهابيتين باجرائه تغييرات حذرة، لكن بقيت روح تلك الأيام السابقة، ولذا تم التوصل، في لحظة الحماسة التآمرية، الى وضع خطة لشن هجمات ارهابية على الممتلكات البريطانية والاميركية ثم القاء اللوم فيها على المصريين.

وقد منح هذه الفكرة المجنونة زخماً مفاجئاً كلا انسحاب القوات البريطانية من قناة السويس واخفاق مبعوثين اسرائيليين الى الولايات المتحدة لاقناع الاميركيين ان دعم عبد الناصر امر خطير جدا. وعموما يعتقد ان الشين بيت قد أيدت الخطة، كما ان هنالك أيضا دلائل عديدة على ان الجيش قد ايدها ايضا. ومن المؤكد إيضا ان بنحاس لافون Pinhas Lavon، وزير الدفاع الجديد، تورط ايضا فيها الى حد ما. ولافون الذي عين وزيرا للدفاع سنة ١٩٥٣ م، ولد في بولندة سنة ١٩٠٤ م، وتلقى تعليمه في جامعة لفوف Lvov، وكان من الرواد الأوائل المهاجرين الى فلسطين. وقد بدأ حياته السياسية عضوا متطرفا في حركة شبان الماباي التي أصبح رئيسا لها اخيرا. ثم اختير قبل سنة

١٩٤٨ م امينا عاما لاتحاد نقابات العمال (الهستدروت). وخلال هذه الفترة تعرف على موشه دايان، ولوحظ منذئذ انهما لم يقيما اية علاقة حسنة بينهما.

وبعد ان تولى لافون وزارة الزراعة ما بين ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ م اختير وزيرا للدفاع في حكومة موشه شاريت. وفي سنة ١٩٥٣ م استقال بن غوريون من رئاسة الوزارة ومن وزارة الدفاع، وللمرة الأولى تولى رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع شخصان مختلفان. وكان شاريت، وزير الخارجية السابق، تواقاً الى سلوك القنوات الدبلوماسية لكسب الدعم الاميركي لاسرائيل في وجه العداء المصري، فمصر تجاهلت قرار مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة، الصادر سنة ١٩٥١ م، الذي طلب منها ايقاف قيودها على الملاحة الاسرائيلية عبر قناة السويس، ثم صَعَّدت فعلا حصارها على اسرائيل. وفي اواخر سنة ١٩٥٣ م فرضت حصارا كاملا على كافة الحمولات من اسرائيل واليها، كما اخذ المصريون، في الوقت نفسه، يشنون هجمات فدائية وتخريبية داخل اسرائيل نفسها.

وأخذت بعض مظاهر التطرف السابقة لدى بنحاس لافون

تتبدى من خلال تصريحاته عن نفاذ صبره على اعتماد شاريت على الضغط الدبلوماسي. وهذا ليس امرا مفاجئا في ظل تلك الظروف، فقد كشفت تقارير عملاء الموساد كافة ان بين الرجال المحيطين بالرئيس ايزنهاور، وبين القريبين من السفير الاميركي الى مصر وعملاء وكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط، شيئا قريب الصلة مما سماه احدهم «بالناصرية». وربما كان عملاء الموساد هم أول من اقترح ان تكتيك الصدمة، ليس الا، هو الذي سيحدث تغييرا سريعا في سياسة الاميركيين. وهكذا وضعت خطة وطورت لتحميل عبد الناصر مسؤولية مؤامرة معادية للاميركيين وفقا للقواعد التي وضعها عملاء التحريض الروس في زمن ايفنو آزيف Ievno Azeff.

وكانت الخطة هي ارسال وحدة مهمات خاصة انشأتها سنة ١٩٤٨ م دائرة مرتبطة بوزارة الخارجية من أجل القيام بأعمال سرية داخل الاراضي العربية، وقد أهملت هذه الوحدة، فتولى الجيش امرها، وثمة تساؤل حول دور بنحاس لافون في هذه الخطة، وهل هو الذي حاكها كليا، وهذا قد يكون مطابقا لانتهازيته في تلك الفترة ورغبته في فرض سلطته على الجيش. وقد قال موشه

دايان، رئيس الأركان آنذاك، حول هذا الموضوع ما يلي: «كان لافون تواقا لاستخدامها (أي وحدة المهمات الخاصة)، وكنت أرى انها يجب ان تستخدم فقط زمن الحرب وتبقى بلا عمل وساكنة زمن السلم. ولما كان وزيرا وأصر على حقه في الاجتماع بكبار الضباط بدون مشاركتي، وبدون معرفتي أحيانا، قمت بتحذير الضباط المسؤولين في هذه الوحدة بأن يكونوا حذرين من توق لافون الى تنشيطها»[1].

ربما يكون دايان قد كتب هذا بطبيعة من الادراك المتأخر، ولكن الرأي السائد في تلك الفترة وفي شتى التحقيقات التي جرت منذئذ هو ان لافون كان تواقا الى تولي صنع السياسة العسكرية بنفسه والى تجاوز القيادة العليا، قالبا بذلك التوازن الدقيق بين السياسيين وبين الجيش، ذلك التوازن الذي رعاه بن غوريون بعناية كبرى. وقد أدى هذا الى صدامات شخصية متعددة لا بين لافون وشاريت، الذي انتقد وزير الدفاع تكتيكاتِهِ، فحسب، بل بين الوزير والمدير العام لوزارة الدفاع ورئيس الأركان ايضا. فلافون كان دائما يريد اتخاذ القرارات بدون أن يستشير حتى رئيس الأركان،

وفي احدى المناسبات قدم دايان استقالته ولكنه أُقنِعَ بسحبها فسحبها .

لم تكن لدى لافون اية خبرة بشؤون الدفاع حين أصبح وزيرا . وربما احس ان عليه توطيد سلطته منذ البداية لانه ادرك انه محاط بيدين قديمتين قويتين هما موشه دايان، رئيس الأركان، وشمعون بيريز المدير العام لوزارة الدفاع . ولكن الاخطاء جميعها لم تكن اخطاءه، بل ان اكثر التحقيقات سرية ودقة في تسييره الأمور كشفت ان اناسا عديدين، لا واحدا فقط، ساهموا في كوارث سنة ١٩٥٤ م التي اثبتت انها ضربة قاصمة لجهاز المخابرات . وربما كانت أعدل الخلاصات للمسألة كلها هي خلاصة عاموس برلموتر Amos Perlmutter الذي علق قائلا : « ان لافون لم يقم ارتباطا جيدا بالجيش، بل تورط في المحن والكوارث الأمنية التي لم تكن له يد فيها، وكلفته أخيرا عمله وسيرة حياته »[٢] .

والحقيقة ان وزارة الدفاع لم تكن هي وحدها المتورطة في « المحن الأمنية » رغم ان لافون كان ولا ريب هو المسؤول عن استخدام « وحدة المهمات الخاصة » وتكثيف غارات الحدود على

المصريين ، اذ ان الشين بيت كانت مسؤولة ايضا . وكان لا بد من قيام تعاون وثيق بين الشين بيت ووزارة الدفاع مع هيمنة سياسية شديدة ومحكمة على العملية الخطرة جدا كلها . ففي زمن بن غوريون ، وحين كان رئيس الوزراء هو أيضا وزير الدفاع ، تحققت هذه الأمور ولا ريب ، ولكن مع وجود لافون وراء وزارة الدفاع كان ثمة مجال لوقوع كارثة لأنه كان يميل الى اتخاذ قراراته بدون ان يستشير الآخرين، على حين ان بعض من كان يمكن له ان يستشيرهم حجبوا الثقة عنه . وقد فشل أيضا في ان يتحالف مع قادة الجيش مع ان دايان وبيريز حبذا سياسة التطرف ضد العرب ، وهي تشتمل على غارات الحدود ، بينما كان شاريت يميل كليا الى المصالحة والى الحذر . وربما نشد لافون حلفاء له داخل الشين بيت او الموساد أو الفروع الأخرى من المخابرات .

حدثت ، خلال سنة ١٩٥٤ م ، سلسلة من عمليات التخريب قام بها عملاء لاسرائيل داخل مصر وانتهت بكارثة ماحقة واعتقال شبكة الجواسيس الاسرائيلية التي أنشئت ، بعناية فائقة ، في مصر . وبذلك دمر كليا عمل السنوات الأربع السابقة ، وكان لا بد من بناء شبكات جديدة بتكلفة ضخمة جدا بالزمن والمال .

لقد أراد دايان، شخصيا، ضبط غارات الحدود وأية عمليات تخريبية اخرى يفترض انها ترتبط بها، اما لافون فلم يرد فقط ان يوجه هذه الغارات هو نفسه، بل أراد الوصول الى ملفات التخريب التي أعدها ضباط مخابرات الجيش. وكانت هذه الملفات قد جمعت اساسا بموافقة بن غوريون التامة. وفي غضون ذلك وضعت خطة لتشويه صورة عبد الناصر وسمعته في عيون الاميركيين والبريطانيين عن طريق القيام بسلسلة من الهجمات بالقنابل على مبان مثل مكتب المعلومات الاميركي في القاهرة والقنصلية البريطانية وشتى مكاتب المؤسسات الاميركية والبريطانية، وسيقوم بها فريق خاص من العملاء السريين الاسرائيليين يتألفون كلية من اليهود المصريين، وأطلق عليهم الاسم الرمزي «الوحدة ١٣١»، ويتخفون كارهابيين عرب، وسيتم اتخاذ كل شيء ومن ذلك تزوير الوثائق للدلالة ضمنا على ان المصريين هم المجرمون الحقيقيون للمؤامرة كلها، وستُسَرَّبُ هذه الوثائق الى وكالة المخابرات المركزية الاميركية. وربما كانت هذه العملية الاجرامية الجريئة سياسيا والخطيرة جدا، الموجهة ضد دولتين صديقتين

لاسرائيل، هي اكثر مفهومات نشاطات المخابرات ماكيافيلية(*) تنفذ زمن السلم.

وتقرر أن تكون الأهداف، التي اختيرت لهجمات القنابل، اميركية لا بريطانية، فقد بدا أن لا فائدة من خوض مغامرة استعداء دولتين صديقتين اذا تم، ولسوء الحظ، اكتشاف المؤامرة. كما ساد الشعور بأن الجهاز البريطاني لمكافحة التجسس ربما يكون أكثر قدرة على اكتشاف التكتيكات الاسرائيلية السرية التخريبية من الاميركيين. ولكن ما شجع الإسرائيليين فعلا على المضي قدما في تلك الخطة كان وعود المساعدة والسلامة المطلقة التي قطعها على نفسه أحد رجالهم الذي كان يعمل مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية.

ومن المؤكد أن كلتا الموساد والشين بيت كانتا متورطتين في المؤامرة، وقد يصعب على نظرة سطحية الى الوضع معرفة كيف ان الجيش تورط بشكل مباشر. ولكن اللوم التالي عن سلسلة الكوارث التالية ألقى على وزارة الدفاع، فالمخابرات أفلحت

(*) أي الغاية تبرر الواسطة.

(المترجم)

في الابقاء على عدم الزج بها في المسألة كلها. على ان هذه كانت عملية تخريبية يقوم بها الجواسيس لا الجنود في بزاتهم الرسمية أو جنود يرتدون ملابس مدنية من اجل هذه الغاية. وقال موشه دايان حول هذا الموضوع: «في النصف الثاني من تموز سنة ١٩٥٤ م، وبينما كنت في زيارة لقواعد الجيش في الولايات المتحدة قامت المخابرات بعملية يشار اليها دائما باسم «الكارثة الأمنية»، فقد نفذت مجموعة بضع عمليات تخريبية، على نطاق ضيق، في القاهرة والاسكندرية. وكانت النتيجة اعتقال احد عشر من اعضائها ومحاكمتهم، فحكم على بعضهم بالسجن مدداً طويلة، وكانت قمة المأساة انتحار أحدهم واعدام اثنين منهم في الأول من كانون الثاني سنة ١٩٥٥ م»[٣].

ويبدو ان الرجل الذي أيد، تأييدا قويا جدا، خطة التخريب هذه هو بنحاس لافون الذي دفع أخيرا جزاء خطيئة اقترفت على صعيد المخابرات السرية لا على صعيد المخابرات العسكرية. وأيد خصومه، في الكنيست ووزارة الدفاع، كسب التعاون مع فرنسا ردا على الصد الذي بدا من واشنطن. وكان لافون يعتقد انه ليس ثمة شيء يمكن ربحه من هذه السياسة على المدى الطويل، وأشار الى تزعزع الحكومة الفرنسية وعدم استقرارها آنذاك.

لقد كان لافون يعتقد ان الأكثر أهمية هو بذل كل شيء ممكن لعكس تيار السياسة الانكلو ــ اميركية ولوقف انسحاب القوات البريطانية من قناة السويس ووضع حد لغزل الاميركيين مع عبد الناصر . وكان لدى وزارة الدفاع سبب قوي لطرح هذه المقولة لأن عملاء الموساد بعثوا بتقارير عن جلاء القوات البريطانية عن مصر قبل اعلان ذلك بوقت طويل . ولكن لافون لم يكن على علاقات جيدة مع ايسر هاريل ، فكانت المعونة التي تلقاها منه جد ضئيلة . ولهذا استدار لافون الى وحدة المهمات الخاصة والى التعاون الخفي مع الكولونيل بنيامين جيفلي Benjamin Givli من « أمان » .

اوكلت مهمة قيادة خطة التخريب الى الكولونيل ابراهام دار Abraham Dar الذي استخدم اسم جون دارلنغ John Darling خارج اسرائيل مدعيا انه ممثّل لمصالح تجارية بريطانية شتى . لقد كانت له شبكة واسعة في مصر وبعض الدول العربية ، ولكن يبدو انه تجاهل اشارات تحذير من حملة ستشنها الدول العربية كافة لملاحقة الجواسيس الاسرائيليين منذ سنة ١٩٥١ م . وكانت هنالك محاولة من السلطات العراقية لاخافة العديد من اليهود المهنيين في العراق ودفعهم للهجرة الى فلسطين . ثم ألقى العراقيون

القبض على عميلين للموساد في بغداد هما سليم شالح ويوسف بازري، كما اعتقل آخرون كثر فيما بعد. وفي سنة ١٩٥٤ م اصبحت شبكة «دار» جد مكشوفة وواسعة جدا، فإلى جانب خيانة أحد العملاء الرئيسيين الاسرائيليين كان ثمة انحلال بين العملاء الآخرين. فإيلي كوهين Elie Cohen، مثلا، الذي أصبح فيما بعد جاسوس الموساد الرئيس في سورية، لكنه آنذاك كان يعمل كاتب حسابات في الاسكندرية أُطْلِع على المؤامرة ضد المصريين، بل أُعطي بعض الوثائق المتعلقة بها. وفي تلك المناسبة أظهر كوهين احساسا امنيا يفوق المحترفين، وأدرك، حتى بوصفه مواطنا عاديا، ان الشبكة اليهودية المصرية على وشك ان تتعرض لخطر شديد.

تألفت «الوحدة ١٣١» من «دار» نفسه، ومن بول فرانك Paul Frank، الرجل الثاني، والدكتور موسى مرزوق، رئيس فرع القاهرة، الطبيب في المستشفى اليهودي في القاهرة. وكان على رأس فرع الاسكندرية صموئيل عازار. فهؤلاء هم الأعضاء الرئيسيون في هذه الوحدة، وكان ضابط الاتصال بين الفرعين، والذي يربطهما مع «دار»، ممرضة شابة جذابة تعمل مع مؤسسة

انكليزية في هليوبوليس هي فكتوريو نينو Victorio Nino ، وكان دار نفسه عميلا «لأمان» يعمل بتوجيه من الكولونيل بنيامين جيفلي الذي كان رئيسا للمخابرات العسكرية ما بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٥٥ م. وجيفلي ضابط صغير السن، ابن فلاح يهودي مقيم في فلسطين، ولد بسنة ١٩١٩ م. وكان أحد ضباط مدرسة المخابرات الجديدة الصاعدة، وبدا مرجحا أنه سيرقّى الى قمة مهنته. وحين كان صغيرا انضم الى الهاغاناه، وعمل في شرطة المستوطنات اليهودية وانضم الى «الشاي» في الاربعينات. وفي سنة ١٩٤٨ م أصبح قائد الشاي لمنطقة القدس.

كان جيفلي أحد قضاة المحكمة الميدانية التي قضت باعدام الميجور مايير توبيانسكي Meir Tubiansky سنة ١٩٤٨ م، ونفذ به الحكم فورا بتهمة نقل معلومات عسكرية الى أعضاء هيئة الادارة البريطانيين في شركة كهرباء القدس والذين قيل انهم كانوا يعملون لصالح العرب. وقد رأس تلك المحكمة آنذاك ايسر بيعيري الذي حكمت عليه بعد عام محكمة عسكرية بالسجن يوما واحد اثر مراجعة القضية وثبوت براءة توبيانسكي، وقد اوقف رئيس اسرائيل جاييم وايزمان على الفور تنفيذ هذا الحكم. وفي سنة ١٩٤٩ م

أصبح جيفلي نائب رئيس أمان، وأرسل بعد وقت قصير الى بريطانيا للقيام بدراسات عسكرية، ثم الى جامعة برنستون في الولايات المتحدة للقيام بدراسات اكاديمية. وبعدها أصبح تقدمه سريعا، وفي سنة ١٩٥٤ م. أصبح رئيسا لأمان برتبة عميد، فبات معنيا مباشرة بمؤامرة التخريب السرية. على ان العلاقة بين «أمان» والشبكة التخريبية، برئاسة دار، كانت مفككة، ويصعب معرفة أين انتهى دور العسكريين تماما وأين بدأ دور عملاء المخابرات السريين. كما ان من غير الواضح ماذا حدث بعد ان بعث دار اشارة الى تل ابيب ان كل شيء اصبح جاهزاً لتنفيذ الخطة.

وفي هذه الفترة أُرسِلَ عِملاء اسرائيليون آخرون، مدربون خصيصا على أعمال التخريب ومعالجة المتفجرات، الى مصر لتعزيز «الوحدة ١٣١». وأمر شخص ما، في مكان ما، بتنفيذ الخطة. ولكن هذه تكشفت عن كارثة ماحقة كلية، فبعض القنابل وضعت في مكتبي المعلومات الأميركيين في الاسكندرية والقاهرة الا أن أيا منها لم ينفجر، كما ان بقية الخطة لم تنفذ. لقد كان من الواضح أن عمل الفريق كان عمل هواة غير محترفين، ولكن كان هنالك ايضا خيانة في صفوفه. وعلم فيما بعد ان بول

فرانك Paul Frank الرجل الرئيس ممثل الكولونيل دار في القاهرة ، قد سرب تفاصيل الخطة كافة الى المصريين ، وقد تم الامساك بشبكة اليهود المصريين جميعهم في كلتا القاهرة والاسكندرية . وأعدم اثنان منهم شنقا ، هما المعلم صموئيل عازار وفتاة يهودية ، على حين سجن ثمانية آخرون بينهم فكتوريو نينو ، ولم يسمع عن بعضهم أي شيء فيما بعد .

ولكن هنالك اصابة اشد خطورة وقعت في صفوف المخابرات ، اذ أن ماكس بينيت Max Bennett ، وهو أحد الفعالين في «أمان» وذو خبرة كبرى بوصفه جاسوسا في أوروبا والشرق الأوسط ، اعتقلته الشرطة المصرية لأن أحد أعضاء الشبكة أعطاهم اسمه . وبعد تعذيب طويل في احد سجون القاهرة انتحر بينيت خشية ان يدلي للمصريين بأية معلومات ، لقد كان موت هذا العميل ، الذي ولد في المانيا ، خسارة كبرى للمخابرات الاسرائيلية . وكان قد هاجر الى فلسطين ، مع أسرته ، في الثلاثينات ، ودرس هندسة الكهرباء ثم انضم الى الهاغاناه . كان يتكلم اللغتين الانكليزية والألمانية ، ولذا تخفى في فترات مختلفة كواحد من ابناء هاتين اللغتين ، واحد غطاءاته المحببة كان السفر

لغايات تجارية. لقد عمل بينيت جاسوسا اسرائيليا في النمسا والعراق وسورية ومصر، وكان نشطا في الحصول على المعلومات العسكرية. وكانت احدى ضرباته الموفقة إقامة علاقات صداقة مع اللواء نجيب، فسرب نتيجة لها معلومات عسكرية كثيرة مفيدة الى تل أبيب. وكان بينيت أحد أوائل الأشخاص الذين حذروا اسرائيل من ارتقاء عبد الناصر السلطة، كما حذروها من التغيرات في السياسة الدبلوماسية الأميركية في الشرق الأوسط ومن وجود جواسيس للسوفييت في وزارة خارجية بريطانيا وفي جهاز مخابراتها. وكان على وشك تنبيه تل ابيب الى كيم فيلبي، ولكنه اعتقل قبيل ساعات من فعله هذا.

أما بول فرانك، كما كان يعرف في مصر حسب الاسم الذي استخدمه في جواز سفره البريطاني، فقد كان، سابقا، عضوا في البالماخ. على ان ماضيه لا يزال حتى الآن غامضاً احاطته الشين بيت بالسرية. فبعضهم قال ان اسمه هانز هوفمان Hans Hoffman، وميزة آخرون باسم أفني فايزنفيلد Avni Weisenfeld رغم ان هذا الاسم الثاني هو واحد من اسماء عديدة انتحلها وتنقل بها. وخلال اقامته في مصر كسبه الى جانب

المصريين العقيد عثمان نوري رئيس هيئة المخابرات العسكرية في القاهرة، والخبير اللامع في شؤون مكافحة التجسس، والذي أصبح فيما بعد سفير مصر الى نيجيريا، وكان خير نشط في ميدان المخابرات في مصر آنذاك، وامتدت صلاته الى بغداد ودمشق وبون وفينا؛ وهو ايضا المهندس الرئيسي لشبكة المخابرات المصرية في أوروبا. وقد شارك، مشاركة هامة، في تنظيم الانقلاب الثوري على امام اليمن (البدر) وغزو المصريين لتلك البلاد.

لم تكن ثمة أية دلائل، زمن هذه الكارثة في مصر — التي عرفت عموما بعد ذاك بقضية لافون، على ان بول فرانك كان خائنا، فهو والكولونيل دار كانا، فقط، الاثنين اللذين أفلحا في الهرب من مصر في الوقت المناسب، فقد ذهب فرانك الى فينا مع الابقاء على ما بدا آنذاك قصة تغطية سليمة. والحقيقة انه لعب لعبة خطيرة جدا ببرودة ملحوظة، فالشرطة المصريون تنبهوا الى مؤامرة القنابل حين وجدوا أحد المتآمرين يخبىء قنبلة حارقة، ينبعث منها الدخان، في أحد جيوبه. وتسارعت الحوادث حتى ان فرانك نفسه سحب الى احد مخافر الشرطة لاستجوابه، ولكن أفرج عنه في اليوم التالي ربما بدعم من العقيد النوري. ولا ريب انه

قدم نفسه كي يعتقل، الا انّ هذه كانت مقامرة متهورة على أية حال.

وحين بات، أو ارتيب انه بات، معروفا ان مجموعة العقيد نوري قد كشفت الشبكة الاسرائيلية في مصر انفجرت العملية كلها على شكل شجار سياسي عنيف في اسرائيل، فطالب أعضاء في الكنيست بتحقيق فوري في ما اعتبروه خطأ فاضحا هائلا ارتكبته المخابرات، كما أدانه آخرون على أنه عمل من أعمال الحماقة الاجرامية. بيد أن لغز «من هو المسؤول» لم يحل بسهولة، فالشين بيت لزمت جانب الصمت، الا ان وزارة الدفاع لم تستطع تجنب هذه القضية اذ ان الحقائق، على تناقضها، بدت ان ضابط الجيش الكبير، المسؤول عن ارسال الاشارة الى القاهرة بتنفيذ الخطة، أصر على أنه تلقى الأوامر شفويا من وزير الدفاع في اجتماع لم يحضره أحد، كما ان لافون نفسه شهد ان هذا الضابط الكبير تصرف، تصرفا كليا، على مسؤوليته الخاصة.

وشَكَّلَ رئيس الوزراء لجنة مؤقتة من شخصين للتحقيق في الكارثة وفي مسألة «من أصدر الأمر» الهامة. وقد أيد لافون رئيسَ الوزراء هذه الخطوة لأن هذين الشخصين كانا رئيس المحكمة

العليا السابق وأول رئيس للأركان الاسرائيلية. وفي غضون ذلك بدأت قضية لافون تأخذ شيئا من الجو الذي أحاط بمسألة تجسس أخرى مثيرة للجدل وتتعلق بيهودي آخر هي قضيـة دريفـوس Dreyfus . لقد ظلت هذه القضية سرا مغلقا على الناس كافة ما عدا أولئك الذين كانوا في الحكومة أو في أوساط وزارة الدفاع لفترة طويلة، الا انها شقت الاسرائيليين سياسيا اخيرا، فقطعت اوصال الحزب (حزب ماباي) وخلقت حِدَّةً هائلة، وبات لافون ومؤيدوه في جانب وشمعون بيريز وموشه دايان وآخرون في جانب آخر حظي بتأييد بعض انصار بن غوريون لا جميعهم. واندلع الخلاف عنيفا داخل الوزارة ووزارة الدفاع وفي البيوت والمقاهي. وتعرضت سياسات بن غوريون للهجوم لانه كان مشاركاً في استراتيجية الغارات الانتقامية على العرب.

وادعى لافون انه قام بتحقيق مستقل في ما جرى، ولكن لم يبد ان هذه اللجنة اعارت ذلك اي اهتمام، اذ من المؤكد انها لم تناصر وزير الدفاع، واتخذت بدل ذلك موقفا حياديا غير مساعد، وأعربت عن رأيها بأن من غير الممكن بشكل أكيد، معرفة من أصدر الأمر الأصلي للمجموعة التخريبية في القاهرة، وهذا ما ترك

لافون في وضع يستحيل الدفاع عنه. وحاول لافون ان يتغلب على هذه المشكلة بالطلب من رئيس الوزراء أن يوافق على إعادة تنظيم وزارة الدفاع، والتي ستعني طرد مديرها العام وبعض ضباط المخابرات المتورطين في المشكلة، ولكن موشه شاريت رفض هذا الاقتراح.

وأخيراً أصبح الضغط على لافون هائلاً، فاستقال في شباط سنة ١٩٥٥ م، واستدعي بن غوريون، المحارب القديم، من مستعمرته، التي عزل نفسه فيها، ليتولى حقيبة وزارة الدفاع مرة أخرى، وأفلح شاريت في أن يبقى سالما لم يصبه أي أذى، واحتفظ برئاسة الحكومة. وأبقيت التفاصيل الكاملة لهذه الفضيحة بعيدة عن عيون الجمهور، ولكن عرف آنذاك ان ثمة خطأ فاضحا، وصنفت قضية لافون على انها «سرية جدا»، اذ ان عددا كبيرا من اعضاء السلطة كان متورطا فيها.

وفيما بعد، أجريت سنة ١٩٥٥ م انتخابات عامة في اسرائيل، وأصبح بن غوريون، نتيجة لها، مرة أخرى رئيسا للوزراء واحتفظ بوزارة الدفاع لنفسه أيضا. وكان أول أعماله ازاحة ضابط المخابرات الكبير المتورط في قضية لافون عن منصبه. ثم اخذ المزيد

من المعلومات عن الفضيحة يتكشف، فالعقيد النوري، رئيس المخابرات العسكرية المصرية، ارسل الى بون حيث بذل نشاطا كبيرا في تسيير نشاطات المخابرات السرية المصرية بموافقة الجنرال رينهارد جيهلن Reinhard Gehlen، رئيس مخابرات ألمانيا الغربية، وبمساعدته. وكان فرانك، العميل الاسرائيلي الخائن لا يزال يعمل مع العقيد النوري، الا ان الموساد والشين بيت كانتا تلاحقانه. وفي سنة ١٩٥٧ م تجمع عندها ملف كامل عن نشاطاته، ثم التقى عملاؤهما به في فينا، واقنعوه بالعودة الى تل ابيب وفيها قدم الى المحاكمة، وحكم عليه بالسجن اثني عشر عاما، وهي عقوبة اعتبرت خفيفة. ان هذه المحاكمة، التي جرت سنة ١٩٦٠ م، لم تُلقِ ضوءا جديدا فقط على قضية لافون، بل أثارت في السنة التالية جدلا شديدا في الكنيست، كان له تأثير كبير على الساحة السياسية، حتى انه طال رجل دولة كبير مثل بن غوريون وآذاه الى حد أنه أرغم على حل الكنيست وعقد انتخابات جديدة. وارتدت الفضيحة على رئيس الوزراء لان حزبه خسر خمسة مقاعد.

وفي أواخر صيف سنة ١٩٦٠ م طلب بنحاس لافون مقابلة مع بن غوريون ليتحادثا عن كارثة سنة ١٩٥٤ م، وادّعى

انه ثمة دليلا جديدا سيثبت، اثباتا قاطعا، انه لم يصدر أمر تنفيذ خطة التخريب، وطالب ان تبرأ ساحته. ولكن بن غوريون رفض ان يفعل ذلك، فنشبت خلافات حادة بين الاثنين، وقال لافون ان بن غوريون كان، شخصيا، معاديا له. على ان بن غوريون وافق على ان يعيد المسألة الى تحقيق غير رسمي، تقريبا، في دليل لافون الجديد الذي تضمن اختبار موثوقية ضابط مخابرات آخر، فقد كان رئيس الوزراء محجما تماما عن فعل أي شيء يجعل من هذه القضية مسألة عامة مرة أخرى. وقد ووفق على محاولة الحصول على رأي ايجابي في من أصدر الأمر، وطلب من الجنرال حاييم لاسكوف، رئيس الأركان الجديد، ان يحقق في الاتهامات الموجهة الى عدد من ضباط المخابرات.

وأوجز بن غوريون المسألة كما يلي: «لقد وجدت لافون متورطا، وليس واجبي ان ابرئه. ولو وجده شخص آخر غيري كذلك فان مسؤوليته ليست ضمن سلطتي»[٤]. وقد يبدو هذا القول لبعضهم مجرد مغالطة، ولكن بن غوريون كان في وضع صعب جدا، اذ لم يكن ثمة أي شخص، حتى رئيس الأركان نفسه، تواقا الى ان يدلي برأي ايجابي. وأخيرا أحيلت المسألة الى

لجنة وزارية. وقررت غالبية الوزراء عدم تشكيل لجنة تحقيق قضائية، بل تعيين لجنة من سبعة وزراء لتقديم تقرير حول الموضوع. وفي أواخر كانون الأول ١٩٦٠ م قدمت هذه اللجنة تقريرها، وتضمن آراء ثلاثة: ١ــ بنحاس لافون لم يصدر الأمر الأصلي، وقد نُفِّذَ العمل التخريبي بدون علمه او اذنه به. ٢ــ لم تستطع اللجنة ان تحدد صلات العمل الدقيقة في وزارة الدفاع سنة ١٩٥٤ م. ٣ــ قبلت اللجنة تقرير المدعي العام القائل ان وثائق معينة، قدمتِ الى لجنة سنة ١٩٥٤ م، كانت مزورة.

وقبلت الوزارة هذا التقرير بعد مناقشة حامية وامتنع عن التصويت، في نهايتها، أربعة وزراء منهم بن غوريون ودايان (كان آنذاك في الوزارة). قال بن غوريون انه لن يقبل ان يكون ملزما بتقرير اللجنة الوزارية اذ اعتبر ان ثمة سوء تطبيق للعدالة، وقال انه يقبل فقط قرار لجنة قضائية. وسرعان ما تلا ذلك تقديم استقالته.

وهكذا، انتهت قضية لافون بشكل غير مُرْضٍ، ولم يخرج أي شخص منها برصيد كبير من حسن السمعة، وأدت الى هزة في كلتا وزارة الدفاع والشين بيت ما بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٦١ م، فاستقال عدد كبير من كبار الضباط من بينهم مدير

المخابرات العسكرية. وربما كانت آتعس نتيجة هي الطريقة التي اجتزئت بها مسيرة الكولونيل جيفلي في المخابرات، فقد عين قائداً للمنطقة الشمالية ثم قائد لواء جولاني في حملة السويس سنة ١٩٥٦ م. وفي سنة ١٩٥٩ م كان قائما بأعمال قائد المنطقة الوسطى، وقيل ان بن غوريون رفض ان يرقيه الى رتبة لواء بسبب قضية لافون. وبعيد ذلك عين ملحقا عسكريا في المملكة المتحدة وفي الدول الاسكندنافية. وحين تقاعد من الجيش واصل حياة ناجحة جدا في التجارة وفي الأعمال، ثم أصبح المدير الاداري لشركة نفط شيمن الاسرائيلية.

ومن بين انقاض حكاية قضية لافون التعيسة انبثق نمط اصلاحات بَيِّن وواضح في ادارة المخابرات الاسرائيلية ككل، فقد كان جليا ان العلاقات مزعزعة جدا بين وزارة الدفاع من ناحية وبين قوى المخابرات الخارجية وفروع المخابرات الأخرى. وكان ثمة الكثير من اصدار الأوامر عن طريق الاشارات والتلميحات، ومن غض الطرف، ومن القيام بمجازفات خطيرة، ومزج السياسة بالتخريب. ولو ان «مغامرة» سنة ١٩٥٤ م. نجحت، ولم تحم حولها اية شكوك، لربما سار كل شيء سيرا حسنا رغم ان من

المشكوك فيه تغير السياسة الاميركية تغيرا ملحوظا بسبب هجمات القنابل على المنشآت الاميركية. ولهذا السبب وحده لم تكن خطة التخريب سوى عمل مجنون ولا تستحق المخاطرة. ولكن، وربما لانها اكتشفت، كبحت واوقفت مغامرات اخرى كثيرة جداً، كانت قد تقود الى اضطراب أكثر خطورة.

لقد تحدد، أخيرا وبوضوح، التعاون بين وزارة الدفاع وبين «أمان»، ومنح الميمونه Memuneh سلطات أكبر للتنسيق والهيمنة على فروع المخابرات الأخرى، ووضع زمام أكثر احكاما على كافة اوجه التجسس ومكافحة التجسس. فالمخابرات الاسرائيلية بدأت حياتها بدفقة من الحماسة المطلقة غير المقيدة، وحين أمسك بها بالجرم المشهود في أعمال غير مخولة بها تصرف بعض الاشخاص فيها تصرفا منكرا جدا في محاولتهم القاء اللوم على الآخرين. وقد كتب عاموس بيرلموتر Amos Perlmutter، في مؤلفه «الثقة بالتاريخ العسكري الاسرائيلي»، ان الجهود بذلت لالقاء مسؤولية الكارثة على لافون: «بل ان بعض ضباط المخابرات زوروا الوثائق وشهدوا ضده امام اللجنة. وفي الوقت نفسه ركز شمعون بيريز، في شهادته امام اللجنة على عجز لافون وعدم أهليته لاشغال منصب

وزير الدفاع. وبهذه الطريقة حولت الافادات والجلسات من تحد لكفاءة فرع المخابرات في الجيش ومسؤوليته عن الكارثة الى محاكمة للافون. وفي شهادتيهما الحقودتين زاغ بيريز ودايان وابتعدا عن الكارثة ليعلقا على عدم أهلية لافون كوزير للدفاع .... ان لجنة سنة ١٩٥٤ م لم تصل الى أية نتيجة، ولم تدن أي شخص حتى عصبة ضباط المخابرات الذين تآمروا فعلا على الاطاحة بلافون، رغم انها خلصت فعلا الى أن بعض الوثائق قد زورت، وأن أحد ضباط المخابرات كذب على اللجنة»[٥].

الفصل السادس

جاسوس المليون دولار

«ولدى الاسرائيليين نظام استخبارات دقيق على مصر ، فهم يعرفون الشيفرة السرية لقوتنا الجوية وسلاحنا المدرّع».

محمد حسنين هيكل

رئيس تحرير صحيفة الأهرام

في أواخر الخمسينات أصيبت اسرائيل بالصدمة لكشف سلسلة من مؤامرات التخريب العربية عليها . ومع ان فرق مكافحة التجسس قامت بعملها بإتقان الا ان الرأي استقر على ان خير أشكال الدفاع هو الهجوم ، وعلى ان خير الأمكنة لشن الهجوم هي قلب عدوها العربي ... أي القاهرة ودمشق .

لقد احتاج الاسرائيليون ، من اجل تحقيق أي نجاح بارز في هاتين العاصمتين ، الى عملاء من الدرجة الأولى لا يستطيعون فقط ان يجتازوا الحدود اليهما ، بوصفهم عربا ، بل ان يتمتعوا بمواهب خارقة فيقبلون في الأوساط الحكومية . وهذا امر ليس صعبا جدا كما قد يبدو لغير الممارس لان الاسرائيليين انفسهم ، ما عدا المولودين في

البلاد، قدموا من نحو اثنين وستين بلدا مختلفا وتزاوجوا من الأنماط الشمالية شقر الشعور زرق العيون، الذين يستطيعون دخول القاهرة بوصفهم المانيين، الى اليهود عقف الانوف ذوي البشرة السمراء الذين عاشوا في بلدان مثل مراكش وتونس ومصر وعدن ويتكلمون اللهجات العربية لهذه البلدان بطلاقة. وهكذا، فلدى اسرائيل احتياطي من العملاء يستطيعون ان يتسللوا الى بلدان عديدة من غير ان يلحظهم أحد.

لقد تحرقت الموساد، في أواخر سنة ١٩٥٩ م، الى تجنيد عميل جد ذكي وداهية ذي خلفية تساعده على العيش متسترا غير مكشوف في الاراضي العربية، لذا أخذت هيئة التعبئة فيها تبحث عن ذلك الشخص الذي يستطيع ان يعطي نتائج رائعة سريعة، وكانت على استعداد لان تنتظر سنة او سنتين، ولكنها توقعت بل طلبت خرقا رئيسيا في هذا المجال.

وكان السعي وراء مثل هذا الرجل حثيثا مديدا جدا ودقيقاً قبل ان تتم مقاربته، وقد وقع الاختيار على محاسب يتولى عملا ثانويا في دائرة التموين لاحدى المؤسسات في تل ابيب، بعد ان ترك هذا

!انطباعا جيدا في نفوس ضباط الموساد، واسمه ايلي كوهين Elie Cohen .

ولد كوهين في الاسكندرية سنة ١٩٢٤ م لابوين هاجرا اليها من حلب، في سورية، قبل الحرب العالمية الأولى هما شاؤول وصوفيا كوهين، ونشأ في الحي اليهودي في الاسكندرية. كان ابواه فقيرين نسبيا، ولكن ايلي لم يكن فقط تلميذا نبيها واعـدا في مدرسته بالحي اليهودي، بل تابع دراسته في مدرسة فرنسية عليا في الاسكندرية بمساعدة من منحة دراسية، ثم التحق بجامعة فاروق في الاسكندرية مدة سنتين. على انه لم يتعلم اللغة العبرية الا بعد ان أخذ يعمل بائعا في مخزن للملابس كي يساعد في اعالة أسرته.

وحين انشئت اسرائيل غادرت أسرته مصر وانتقلت الى اسرائيل، ولكن ايلي بقي في الاسكندرية على افتراض انه سيواصل دراسته. وقد عمل محاسبا حتى حملة السويس سنة ١٩٥٦ م. وحين اتخذ المصريون خطـا عنيفـا تجاه اليهود المصريين عقب انسحاب القوات الانجليزية ـــ الفرنسية هاجر كوهين، وهو في أعماقه الصهيوني المتفاني، الى اسرائيل، بيد أنه لم يجد الاستقرار الجيد في موطنه الجديد. وما يثير الدهشة ان هذا الشخص، رغم

ذكائه وسرعة بديهته، كثيراً ما بقي عاطلاً عن العمل. لقد كان يتكلم العربية بطلاقة ويكتبها جيدا، فكان في المحيط العربي مثله في المحيط اليهودي. ولوحظ ايضا انه شديد الملاحظة ويتمتع بذاكرة جد قوية.

بعث أحد عملاء الموساد بتقرير الى رئيسه يقول فيه:

«هنالك كاتب في مكتب في الشارع هو الشخص الذي نبحث عنه تماما».

ــ «ولِمَ وجدته رائعا جدا؟».

ــ «انه امين جدا، وذو ذهن وقاد، وذاكرته تشبه مخزن الحاسبة الالكترونية. وفوق هذا كله هو ما تدعوه «بالوطني»، وليس واحدا من الأشخاص الصاخبين عندك الذين يطالبون بالامتيازات. فاذا رأيته او استمعت اليه خيل اليك انه عربي آخر تسلل الى اسرائيل».

ــ «ربما يكون كذلك».

ــ «لا، فمع أنه قد يبدو سورياً في أي وقت، ويتكلم كأحد السوريين الا انه يهودي مائة بالمائة. وهو إضافة الى ذلك،

وأحد من القلة التي لم تقبض عليها الشرطة المصرية في عملنا الكارثي ذاك في الاسكندرية والقاهرة سنة ١٩٥٤ م».

ــ «زدني، كيف هرب؟»

ــ «حسناً، ان هذا الشخص لم يكن في تنظيمنا، الا انه كان يعرف كل شيء عنه... كان يعرف خطط نسف المكتبات والمؤسسات الأخرى. ولا ريب انه ظن، على الأقل، ان هذه الخطط كانت نصف ناضجة، وكان يرتاب فيما يمكن ان تحققه. الا انه حافظ على ايمانه، وتصرف ببرودة أعصاب وبكفاءة حين أخبره أحد أصدقائه من رجال الشرطة المصرية ان قادة حلقة التخريب قد اعتقلوا. فلم يطش لبه، ولم يخش من أن يزج به ويخبر عن اصدقائه، بل مضى توا الى بيته وأتلف بعض الأدلة على الجريمة، فلم تجد المخابرات المصرية شيئا حين داهمت بيته أخيرا واستجوبته فأخلت سبيله. والامر الهام هو انه صمد أمام الاستجواب».

ــ «ولكنه قد يكون في سجلات الشرطة المصرية».

ــ «نعم! ولكن يمكن تغيير هويته، فهو قد تزوج حديثا،

ولكنني لا أظن ان هذا يهم . على أن ثمة عقبة واحدة ، فهو لا يريد تغيير عمله حتى من أجل المزيد من المال ، اذ ان كل ما يبغيه هو الاستقرار » .

ان ما جرى بعدئذ غير واضح ، ولكن من المؤكد ان ايلي كوهين فصل من عمله ، بعد فترة وجيزة ، مع عدد من الكتبة الآخرين على أساس ان المؤسسة ستجري بعض التوفيرات . ومن غير المؤكد ما إذا كانت الموساد قد دبرت هذا الفصل من عمله ، ولكن ايلي كوهين جُنِّدَ ، بعد ذلك مباشرة ، عميلا سريا لوزارة الدفاع ظاهريا وللموساد بالفعل . ولا ريب ان علاقته السابقة بالعملاء الاسرائيليين في الاسكندرية ، على هشاشتها ، دفعت الموساد الى تجنيده ، فقد ساد الشعور بأن أي يهودي مَسَّتْهُ حملة الارهاب الكارثية تلك وأفلح في البقاء سليما لا بد أن يكون رابط الجأش ويتمتع بذلك النوع من الحظ الذي يحتاج اليه العملاء الجيدون كافة .

تلقى ايلي كوهين ، طيلة أشهر عديدة ، تدريبا مكثفا ، على مهمة تجسسية رئيسية ، وتَمَيَّزَ بالقساوة والواقعية والناحية العملية ، واهتم بتفاصيل حياة العميل السرية اليومية أكثر من اهتمامه بنوع

النظرية التي يطرحها بعض مدربي المخابرات. لقد ازداد مرتب كوهين، فبات سعيدا وفي مقدوره ان يوفر لزوجته الشابة ناديا من الكماليات والرفاه أكثر مما كان يحلم به من قبل. أما بالنسبة لزوجته فكانت تعرف ان زوجها ايلي قد اصبح له عمل في وزارة الدفاع، ولم يناقش أي من الزوجين هذا العمل.

لقد كان تدريبه واقعيا الى حد اختبار ردود فعله على الدرجة العظمى من احتماله الجسماني. والعملاء السريون الاسرائيليون هم اكثر احترافا وأشد خشونة وأعظم مرونة وتكيفا من العملاء السريين للديمقراطيات الغربية. ويستطيع المرء ان يقارنهم بعملاء المخابرات السرية السوفييتية K. G. B لا بعملاء المخابرات البريطانية أو وكالة المخابرات المركزية الأميركية.

كانت الموساد، آنداك، في حاجة ماسة الى عميل في دمشق، وسرعان ما قررت ان كوهين هو الرجل المهيأ لهذا المركز، فقد أحست ان سورية آمن له، في مهمته الأولى، من مصر التي كان فيها من قبل وحققت معه الشرطة السرية المصرية بالفعل. ولكن كبار الجواسيس، الذين دربوا كوهين، تذكروا كيف ان شبكة العملاء كلها في مصر اعتقلت سنة ١٩٥٤ م ثم اعترف

افرادها تحت التعذيب، لذا كانوا حذرين جدا قبل ان يرسلوه في مهمة رئيسية، فكلفوه بمهمات محلية أولا.

كانت غاية الموساد هي ان على ايلي كوهين ان يقيم صداقات مع أكثر أفراد المجتمع السوري نفوذاً. وسرعان ما أُوضِحَ له ان عليه الظهور مسلماً وسورياً. وقد رجا ان يسمح له بالعودة الى مصر التي شعر انه يعرفها معرفة أفضل، ولكن دون جدوى.

وقضى كوهين الأشهر الأخيرة من فترة تدريبه في تحسين معرفته بالعالم الاسلامي، وطور نحو الكمال لهجته السورية، وتعلم هويته الجديدة، بوصفه كامل أمين ثابت أحد الرعايا السوريين[1]. ثم زود بأوراق مزورة، ونُسِجتَ حكاية مطولة مفصلة حول هويته الجديدة، فأبوه هو أمين ثابت واسم امه سعيدة ابراهيم، وكلاهما سوري، ولكنه هو نفسه ولد في بيروت حيث كان والده يعمل في النسيج. ومن اجل جعل الأمور اكثر صعوبة على التدقيق، وكجزء من حكاية التغطية، خطط ان خاله هاجر الى الارجنتين فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وسرعان ما طلب من «ايلي» ان يتولى عملا معه. وهكذا هاجر كامل أمين ثابت الى الارجنتين مع أبيه، وتولى الاتجار بالمنسوجات في بيونس أيرس. ولكن سرعان ما أفلس ذلك

العمل، فعمل كامل، بعض الوقت في وكالة سفريات على حسابه الخاص، وكانت مهمة كوهين المباشرة هي السفر الى الارجنتين وبناء قصة التغطية هذه وسيرة عمله من هناك.

وقد يقال، وعلى نقيض التخطيط السوفييتي طويل المدى للتجسس، ان حالة ايلي كوهين جرى ترتيبها بتعجل أرعن. فالسوفييت يرسلون شخصاً الى ما وراء البحار ويتركونه هناك متخفيا ساكنا كي يبني هو نفسه تغطيته خلال عشر سنوات أو عشرين سنة كما فعلوا في مسألة غوردون لونسديل Gordon Lonsdale، ولكن الزمن، بالنسبة للاسرائيليين، لم يكن في صالحهم، فهم في حاجة الى تغطية، قريبة ما امكن من الكمال، والى نتائج، مهما كان الثمن، في غضون سنة أو سنتين كحد أقصى. كما ان التدريب المكثف على محاولة الاستخبار «العاجل» هذه كان متقنا بمقدار ما سمحت به الظروف القائمة، ولكنه لم يمتد الى التعليم التفصيلي في القرآن وفي الديانة الاسلامية. على ان كوهين بات خبيرا تماما، قبل ان يترك تل أبيب، في فنون حل الرموز (الشيفرة) وفي تركيب الرسائل الرمزية، وفي التصوير الدقيق جدا Micro والارسال الاذاعي.

وفيما يتعلق بالزوجة قال كوهين ان عليه ان يذهب الى الارجنتين للقيام بمشتريات لأجل وزارتي الدفاع والخارجية الاسرائيليتين. ولكي يكمل كوهين صورة السوري أطلق شاربين كثين. ثم غادر الى زوريخ، في سويسرة، بجواز سفر مزور، ومنها الى العاصمة بيونس آيرس.

كانت شبكة الموساد في بيونس آيرس، بل في الارجنتين كلها، على درجة عالية من الكفاءة واستطاعت ان تتعامل مع كافة اشكال مسائل التجسس رغم انها كانت معدة اساسا لملاحقة النازيين السابقين ومراقبتهم. وقد كلفت عميلا لها مقيما في الارجنتين ان يساعد، بتكتم وحذر، وينصح كوهين حول دوره بوصفه فردا في الجالية السورية المقيمة في العاصمة الارجنتينية، كما استأجرت له شقة في بيونس أيرس. وبشكل حذر اولا شرع كوهين يقيم صداقات مع الأفراد المتنفذين في الجالية السورية.

وفي اوائل سنة ١٩٦٢ م. وضعت الموساد خططا لايلي كي يبدأ مهمته التجسسية، فطلب منه ان يذهب الى سورية. وقد قام ايلي كوهين برحلته عن طريق الجو الى ايطاليا، ثم الى بيروت عن طريق البحر. ثم الى دمشق عن طريق البر.

أقام كوهين في شقة فاخرة في دمشق، وأخذ يتحدث عن صفقات تجارية أكثر مما كان يقوم بها، كما حافظ على اتصاله الدائم بإسرائيل عن طريق جهاز الارسال الذي خبأه في غرفة نومه. ولكن هذا أثبت في النهاية، أنه خطيئته القاتلة اذ يجب على أي عميل ألا يحتفظ بجهازي ارساله واستقباله في مكان واحد لفترة طويلة، فهذا يجر الكارثة عاجلا أو آجلا.

لقد أدى كوهين قدرا معينا من العمل حين كان في الارجنتين، فقد ساعد عملاء الموساد على اقتفاء اثر مجرمي الحرب النازيين المختبئين في تلك البلاد. وكان هذا عملا مفيدا قدرته تل ابيب له تقديرا حسنا، وتقول بعض الحكايات[1] انه طُلِبَ منه ايضا القيام بتحريات مماثلة عن مجرم حرب سابق يعيش في سورية باسم مستعار ولكن لم تؤكد هذه الحكاية مصادر اخرى.

وجاءت لحظة تكدست فيها لدى كوهين كمية من المعلومات التفصيلية، وهذا ما أثار أسئلة عديدة معقدة احتاج رؤساءه في تل أبيب الى ان يسألوه عنها، فطلبوا منه ان يعود لاسرائيل. فطار الى بيونس أيرس، ومكث فيها بضعة أيام اتصل

خلالها بضباط الموساد فيها، ثم عاد الى اوروبا، ومنها الى اسرائيل.
ثم عاد الى سورية سنة ١٩٦٣ عن طريق طويلة.

لقد كان كوهين أحد الذين سمح لهم بالتجوال في بعض المواقع العسكرية على امتداد الحدود السورية ــ الاسرائيلية خلال زيارة الفريق علي علي عامر القائد العام لقيادة الجمهوريات العربية المتحدة. وخلال احدى هذه الجولات على المواقع سمح ايلي كوهين، وبطيش، ان تؤخذ له صورة بوصفه احد افراد الفريق الرسمي. صحيح انه فعل ذلك معتقدا انه يستطيع الافادة من كونه صور ضمن مثل هذه المجموعة المرموقة، ولكنه أغفل حقيقة ان هذه الصور وجدت طريقها الى مصر حيث دققت فيها دائرة مكافحة التجسس. ولا ريب ان ثقة كوهين قد تجاوزت هذه المرة تَعَقُّله، فبعد أشهر ذكر احد أصدقائه القدامى للشرطة السرية المصرية انه يعتقد ان الصورة هي ليهودي مصري كان واياه في مدرسة واحدة منذ ثلاثين سنة. أما الغلطة الأخيرة فلم يرتكبها كوهين بل شخص ما في تل ابيب كان هو أيضا بالغ الثقة. فبعض نتف من معلومات ايلي كوهين سربتها الموساد الى صوت اسرائيل، وعرف السوريون ان ثمة جاسوساً صهيونياً في دمشق.

وأخذ الخناق يضيق حول كوهين ، فالسوريون كانوا ، طيلة أشهر ، يبحثون بحثا دقيقا لا يعرف الكلل عن هذا الجاسوس. وبدأ بعض كبار الضباط يرتابون في سلوك كامل أمين ثابت الاجتماعي ، ثم وصل اليهم تقرير من المصريين عن الصورة التي حددت هوية صاحبها انه ايلي كوهين على رغم شاربيه اللذين اطلقهما . وفي الصباح الباكر لاحد الأيام ، وبينما كان يبث احدى رسائله الى تل أبيب اقتحم رجال الأمن شقته ، وامسكوا به بالجرم المشهود .

كان كوهين سريعاً جداً في تنبيه تل أبيب الى أنه قد تم القبض عليه بأن ضاعف المسافات في رسالته الاذاعية الأخيرة ، وهي اشارة متفق عليها في حال الامساك به . واعلنت اذاعة دمشق ايضا عن اعتقال كامل امين ثابت ، ودعته أحد كبار عملاء اسرائيل .

وعرضت اسرائيل ، من خلال الوسطاء ، على سورية ، دون جدوى ، شيكا بمبلغ يزيد على مليون دولار ، اضافة الى شاحنات عسكرية وجرارات زراعية وكمية كبيرة من المواد الطبية مقابل حياة

كوهين ولكن الجانب السوري رفض جميع هذه العروض وقدم كوهين للمحاكمة.

وأعدم ايلي كوهين، شنقا في ساحة المرجة في دمشق، صباح ١٨ أيار ١٩٦٥ م، ودفن بعد ظهر ذلك اليوم في المقبرة اليهودية فيها بعد ان رفضت السلطات السورية نداءات لاعادة جثته الى اسرائيل.

الفصل السابع

مطاردة عالمية للنازيين

«ان كل ما فعلوه يبقى في الحاضر وليس مسألة تاريخ قديم، ولا يمكن أن يكون كذلك. ربما تستطيع أن تقول مرة ان القاتل الجماعي هو رجل مريض، ولكن لدينا الآن نموذجاً يتجاوز حكمنا... انه القاتل من وراء مكتبه. لقد حطوا من شأن الحياة الانسانية، ولهذا اريد السجن المؤبد لهم من أجل اصلاح الميزان الاخلاقي»(*).

سيمون فيزنتال

Simon Weisenthal

(*)ان هذا القول ينطبق أولاً على الصهاينة مقترفي الجرائم والمذابح الجماعية في قسم فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ (ودير ياسين وقبية ونحالين وكفر قاسم)، والضفة الغربية وقطاع غزة، وفي لبنان بعد الاجتياح في حزيران ١٩٨٢، وقبله كما حدث في الغارات الجوية البربرية على التجمعات السكنية المدنية. (المترجم)

ذات ليلة في تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ م القي كيس ثقيل في مياه خليج طنجة، المتألقة بضوء القمر، من بيت يشرف على الميناء، وفيه كانت جثة الكونتيسة مارغريت داندوريان Countess Marguerite d'Andurian ارملة الفيكونت بيير داندوريان Vicomte Pierre d'Andurian المتآمر وحائك المكائد الشهير في شؤون الشرق الأوسط.

وبعد شهرين سمعت شرطة الدار البيضاء القصة الغريبة لنهاية الكونتيسة من هانز ايبل Hanz Abel الذي كان يعيش باسم ريناتو بونشيني Renato Poncini، وهو عميل سابق شاب للغستابو. وقد قال ايبل انه هو الذي تخلص من الكونتيسة بعد ان

ركلها ودحرجها على الدرج في فيلتها. لقد كان آخر رجال كثيرين في حياتها، ولكن ما حير اناسا عديدين هو لِمَ كان على ايبل ان يعترف بهذه الجريمة على حين ان جثة الكونتيسة لم يعثر عليها قط.

كان ايبل وصديقته هيلين كولتز Helene Kultz مشرفين يعملان على جيلان Djeilan يخت الكونتيسة. وقال ايبل انها جاءت الى مراكش كي تساعد على تهريب النازيين السابقين الذين يعيشون في اسبانيا، عن طريق طنجة. وأظهرت تحقيقات الشرطة الفرنسية ان الكونتيسة كانت ايضا متورطة في عمليات تهريب الذهب الكونغولي. وقد اختلف هانز ايبل ومستخدميه حين اكتشفت الكونتيسة، التي هي في أواسط عمرها، ان حبيبها يهتم بصديقته هيلين كولتز، الشابة الأشد جاذبية، اكثر من اهتمامه بها. وبعد ان قتل ايبل الكونتيسة باع مستودعات اليخت وبعض تجهيزاته الى تاجر من طنجة ثم فر مع هيلين الى الدار البيضاء.

لقد استطاعت المخابرات الاسرائيلية، من خلال هذه القصة الى حد ما، ان تفتح الثغرة الأولى في عملية اقتفاء آثار النازيين السابقين ومجرمي الحرب حتى اميركا الجنوبية، فالكونتيسة

مارغريت داندوريان هي ابنة قاض فرنسي، ونالت، حتى وهي في السابعة عشرة، شهرة جسنة بسبب جمالها وذكائها. ثم تزوجت الكونت بيير داندوريان، وهو نبيل فرنسي مولع بالشرق الأوسط. وفي سنة ١٩٢٨ م سافرا الى لبنان واخذا يتاجران باللؤلؤ. وتعلمت مارغا، كما كان يدعوها اصدقاؤها، اللغة العربية واحبت ارتداء الملابس العربية. وعاشت حياة غامضة غريبة وحيدة غالبا في أقصى اقاصي الأرض، تهيمن دائما على الرجال الذين تلتقي بهم سواء أكانوا عربا أو اوروبيين. لقد ابتاعت الفندق الكبير في تدمر، في البادية السورية، على بعد ١٢٠ ميلا من دمشق واصبحت معروفة لدى البدو على انها الملكة زنوبيا.

وفي وقت ما بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٥ م زجت مارغا داندوريان بنفسها في عالم التجسس ربما عميلة للفرنسيين في المقام الأول. وقد قابلت لورنس العرب وقيل انها، عن عمد، حاولت اغراءه وجذبه اليها، ولكن ذلك الماسوشي Masochist الخجل من النساء فر منها مذعورا. ثم كانت لها حكاية غرام مع الكولونيل سينكلير Sinclaire من المخابرات البريطانية الذي وجد بعدئذ ميتا في دمشق، وعزى موته الى الانتحار. وفي سنة ١٩٢٥ م. طلقت

مارغو زوجها وتزوجت من شيخ وهابي إسمه سليمان ، اخذها سرا ، متخفية كرجل ، الى مكة لترى الكعبة والحجر الأسود المقدس فيه . وهنالك روايات شتى عما حصل نتيجة تلك الرحلة ، واحداها تقول انها اكتشفت اثناء الحج واعتقلت وحكم عليها بالرجم حتى الموت ، ولكن تدخل الملك ابن سعود انقذ حياتها . وقيل ايضا انها تمردت حين اغلق عليها الشيخ سليمان الابواب مع حريمه في جدة ، وان زوجها توفي مسموماً بعد بضعة ايام . ومن المؤكد ان سليمان قد توفي ، ولكن ليس واضحا هل انقذها ابن سعود من الاعدام لتسميمها زوجها او لسفرها الى مكة .

ان هذه الأمور قد تبدو غريبة ، فحياة مارغا داندوريان سارت على نحو عجيب ، اذ بعد وقت قصير عادت الى تدمر وتزوجت الكونت ثانية سنة ١٩٣٧ م . ولكن الكونت ، وبعد شهرين من زواجهما وجد ميتا في الأرض المحيطة بفندق الملكة زنوبيا وفي ظهره سبع عشرة طعنة . أعتقل رجلان ، ولكن احدهما طعن حتى الموت في السجن قبل ان يتكلم . ومزجت الكونتيسة الأرملة ، المحتفظة بجمالها ، ما بين التجسس والصفقات التجارية المشبوهة ، فقد هربت الذهب الى فرنسا ، وتاجرت بجوازات السفر المزورة ،

وترددت على افخم الفنادق ما بين نيس (فرنسا) والقاهرة. وفي سنة ١٩٤٥ م كانت تعيش مع ابن شقيقها، المحامي الباريسي الشاب واسمه ريمون كليريسي Raimond Clérisse، في شقة اعارها اياها. وحين اراد كليريسي استرداد شقته، حدث شجار بينهما، وبعد فترة وجيزة وجد المحامي الشاب يتلوى من الألم واتهم، بحضور عدة أشهر قبل موتها. ولا ريب ان ما دعا عدداً من اجهزة المخابرات توفي وفرت مارغا من باريس. وبعد بضعة أشهر اعتقلت في نيس واتهمت بالاشتراك في قتله، ولكن المحكمة برأتها.

واعتبرت مارغا، منذئذ، انها على قوائم المحكوم عليهم بالموت والتي وضعتها شتى القوى والمنظمات، فقد كان لها اعداء كثيرون، من بينهم عميل سوفييتي قيل انه كان يقتفي اثرها طيلة مارغا وخادم الكونتيسة، بدس السم له في قطعة شوكولاته، ثم لعدد من البلدان الى الاهتمام بها كان دورها كصديقة للنازيين السابقين ومحاولاتها تهريبهم من اوروبا. وقد استطاع عميل اسرائيلي في طنجة، بقيامه بتحقيقات واستيضاحات عن هذه الكونتيسة ان يكتشف اولا طريق مرور النازيين وعدد الذين مروا فيه الى اميركا اللاتينية، وهو الان صيرفي يعيش في اوروبا، ولم ينل جزاءه الكامل

على دوره الأولي في المساعدة على ان يقوم الاسرائيليون بمطاردة عالمية للنازيين . ولكن بدون عمله الأولي هذا وتحقيقه الدقيق لم يكن ممكنا القبض على ايخمان وكثيرين غيره.

والواقع ان اسرائيليين كثيرا لم يحملوا، على محمل الجد، التقارير بأن نازيين سابقين بارزين قد هُرِّبوا، باسماء مستعارة، من اوروبا الى الارجنتين والباراغوي والارغواي وحتى الى البرازيل وبيرو . وكان س، اي العميل الاسرائيلي في طنجة، هو الذي اقتفى اثر هانز ايبل Hanz Abel في الدار البيضاء، ولولا يقظته ومساعيه ربما كان من المشكوك فيه حدوث اية اعتقالات بسبب اغتيال مارغا، فقد كان هنالك من يعتقدون انها لا تزال على قيد الحياة لان جثتها لم يعثر عليها وانها قد قامت هي نفسها بتمثيلية موتها . ومهما يكن من امر فان هانز ايبل ارسل الى السجن ليقضي فيه عشرين عاما، ولا يبدو ان ثمة اي شك، مهما كان، في ارتكابه الجريمة، فهو وهيلين كولتز Helene Kultz كانا قد زورا جوازي سفر سويسريين حين القي القبض عليهما .

كانت الكونتيسة داندوريان قد تقدمت، قبيل اختفائها، بطلب تأشيرة لزيارة جبل طارق في يختها جيلان، ولكن طلبها هذا

رفض بسبب علاقاتها مع النازيين. ولكن س، الذي كانت له اتصالات رائعة مع قوى الأمن البريطانية، عَبَرَ مضيق جبل طارق من طنجة وعلم ان تلك المرأة كانت متورطة جدا في النزاع الفلسطيني وتقف في الجانب العربي. وبرهانا عل ذلك اعطي صورا لعدد من الوثائق زُعِمَ انها سرقت من الكونتيسة، ومن بينها رسالة اتهام بجريمة جد سرية موجهة اليها من عبد الله، ملك الاردن. وبناء على ذلك قام س. بمزيد من التحقيقات، ثم قابل في تطوان شريكا اسبانيا للكونتيسة داندوريان وحصل منه على قائمة باسماء اكثر من ثلاثين نازيا مروا، عبر شبكة الكونتيسة، الى اميركا اللاتينية.

ومر بعض الوقت قبل ان تنقح هذه المعلومات وترسل الى تل ابيب، ولكن الطلبات جاءت منها تلح على اجراء المزيد من التدقيق قبل اتخاذ اي عمل، وذلك لان س. لم يكن عميلا للموساد. وما كان يهم مسؤولي المخابرت الاسرائيلية، اكثر من أي شيء آخر، هو هل ستكشف شبكة تهريب النازيين اية دلائل على انبعاث النازية والفاشية في اوروبا نفسها او اذا كان ثمة اي دليل على حزب نازي جديد سري في المانيا او اي مكان آخر. ولهذا

السبب كان الاسرائيليون بطيئين في اقتفاء آثار النازيين السابقين والقاء القبض عليهم، اذ كانوا يخشون ان اية حركة قبل أوانها من جانبهم قد تمنعهم من العثور على من كانوا يقدمون العون لهؤلاء.

وربما يبدو هذا، في ضوء الثلاثين سنة الماضية، هو حال الاسرائيليين الذين تملكهم هاجس النازية وسيطر عليهم هلع، لا مبرر له، من انبعاث تلك العقيدة. ولكن كان ثمة آنذاك عدد من الاسباب دعت لا الاسرائيليين فحسب بل عروقا اخرى لان يكونوا حذرين من هذه الناحية، فتحت غطاء سحق الشيوعية، وباسم الحرب الباردة، كان عدد من البلدان الغربية تقيم بعض العلاقات الوثيقة، محط الريبة، مع نازيين سابقين. واحدى هذه العلاقات الغربية، التي اقلقت الاسرائيليين بشكل خاص، كانت علاقة الجنرال رينهارد جيهلن Reinhard Gehlen، رئيس مخابرات هتلر، مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية. فجيهلن، بوصفه قائداً عسكرياً برتبة فريق والخبير بالمخابرات العسكرية في الحرب العالمية الثانية، جمع معطيات ومعلومات وبيانات وفيرة عن روسيا. وحين ادرك ان الحرب على وشك ان تخسر حزم هذه المعلومات والبيانات في متاعه وغادر برلين الى بفاريا حيث انتظر الى ان وصل اول

ضابط مخابرات اميركي لاستجوابه، وسرعان ما استطاع جيهلن ان يعقد صفقة مع الاميركيين وترك انطباعا لديهم انه يستطيع انشاء مؤسسة مخابرات جديدة معادية للشيوعية تمولها وكالة المخابرات المركزية بمقدار مائتي مليون جنيه استرليني.

لقد جاء في أحد اوائل التقارير التي تلقاها الاسرائيليون عن امكنة وجود النازيين السابقين البارزين ان مارتن بورمان Martin Borman هرب الى اميركا اللاتينية، وازدادوا اقتناعا اولا بصحة هذا التقرير لان جيهلن روى للاميركيين حكاية مختلفة دققها احد عملاء الموساد في المانيا. وقد ادعى جيهلن اولا انه سيقدم «دليلا» على ان مارتن بورمان قتل في برلين سنة ١٩٤٥ م، فهل كان جيهلن يكذب ليحمي بورمان؟ وقد أصبح الاسرائيليون أكثر ارتيابا حين اعلن جيهلن، فيما بعد، ان بورمان كان جاسوساً سوفييتياً لا يزال يعيش في موسكو. ثم اقسم جيهلن ان بورمان اصبح فعلا جاسوسا روسيا منذ سنة ١٩٤١ م، وانه بعد نهاية الحرب هرب الى الروس. ولكن الأكثر من هذا ان الاسرائيليين قلقوا، قلقا شديداً، بسبب البيّنة، التي بعث بها اليهم عملاء الموساد، على ان جيهلن كان يعقد صفقات سرية مع النازيين الذين كانوا يختبئون في

شتى انحاء الشرق الأوسط : في القاهرة ودمشق وبغداد . وفوق هذا كله كان ثمة الفكرة المريعة وهي ان أحد كبار قادة هتلر العسكريين احرز، باسم الدفاع عن الحضارة الغربية ضد الشيوعية، مركزا ذا سلطة كبيرة ليس فقط مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية بل اصبح خبيرا للمخابرات الالمانية الغربية في حكومة الدكتور اديناور، ثم افلح في القاء الشك على الدكتور اوتو جون Otto John الذي اصبح بعد الحرب، وبموافقة البريطانيين التامة، رئيس قسم مكافحة التجسس في المانيا الغربية. وما ساعد جيهلن على العودة الى موقع السلطة التامة في المانيا الغربية هو ذهاب الدكتور جون سنة ١٩٥٤ م من برلين الغربية الى برلين الشرقية بارادته بعد ان اعطاه حقنة مخدرات عميل سوفييتي، وفي رواية اخرى ذهب اليها كهارب. وفي كانون الأول ١٩٥٥ م. هرب الى الغرب فحوكم وحكم عليه بالسجن اربع سنوات لتزييفه الخياني. وقد افرج عنه سنة ١٩٥٨ م بعد ان اوقف تنفيذ باقي محكوميته، وثمة شك قليل في انه قد ربي وصيغت شخصيته طيلة فترة طويلة.

انه القلق السياسي الراهن، اكثر منه الذعر الشديد من

النازيين، هو الذي قاد الصهاينة، في اوائل الخمسينات الى القيام بمطاردة عالمية للنازيين ومجرمي الحرب. ولم يدخل عنصر الانتقام هذه المطاردة الا بعد ان شنت هذه تماما، ولكن كان لدى الصهاينة آنذاك ملفات كاملة عن هؤلاء النازيين وقد اصابتهم صدمة شديدة بسبب ما عرفوه.

لقد قال لي العميل س: «بل قد صدمنا اكثر عندما علمنا ان هرب هؤلاء المجرمين قد اعان عليها، اعانة فعالة، لا المغامرون مثل الكونتيسة داندوريان او بعض افراد حاشية فرانكو وشتى الفرنسيين من اتباع فيشي، بل اناس من مدينة الفاتيكان. وكان احد الخيوط التي التقطتها حين تفحصي قضية داندوريان ان بعض هؤلاء النازيين الهاربين قد حصل فعلا على جوازات سفر للاجئين من مراكز الاغاثة الفاتيكانية.

«ان اسم ايخمان برز، بروزاً مبكراً، في محاكمات الحرب في نورمبرغ Nuremberg، وتلقينا تدريجيا تقارير من اناس، هربوا من معسكرات الاعتقال النازية، تحدثوا فيها عن عمليات قتله الجماعي. ولكن العالم، خارج اسرائيل، قلما سمع عنه، فقد كان لمعظم الدول الغربية المعنية، وهو اسوأ مجرمي الحرب، الرجل

المنسي. ويبدو مضحكا ان هيس، الذي امضى فترة طويلة من الحرب سجينا في انكلترا، حكم عليه بالسجن المؤبد على حين ان وحشا مثل ايخمان، بقي طليقا».

ولد اوتو ادولف ايخمان في منطقة الراين سنة ١٩٠٦ م لأب كاتب حسابات مسيحي انجيلي متدين. وقد انتقلت اسرته الى النمسا، وانضم سنة ١٩٣٢ م الى الحزب النازي وسرعان ما أصبح عضوا في فرقة الصاعقة النمساوية. وقبل الحرب عين مسؤولا عن مكتب الهجرة اليهودي في فينا حين كان النازيون يطردون اليهود من المناطق، التي استولوا عليها، بعد تجريدهم من نقودهم وممتلكاتهم. ومن فينا، حيث اكسبته كفاءته القاسية الثناء من المسؤولين النازيين، ارسل ايخمان الى براغ ليقوم بهذا العمل نفسه. وحين اندلعت الحرب، فيما بعد، اوكلت اليه مهمة ترحيل اليهود من الرايخ الكبير الى المنغلقات (غيتو ghettos) في بولندة، ثم تولى اخيرا المسؤولية الكاملة لتنفيذ ما دعاه النازيون تلطيفا «الحل النهائي» بابادة اليهود. وقد تمتع ايخمان، رغم انه عقيد فقط في قوات الصاعقة، بسلطات استثنائية تمتد حتى فرنسا وايطاليا وهنغاريا ورومانيا، وخلق حوله مجموعة كبيرة من البيروقراطيين.

لقد كان هو ايضا الذي نظم افران الغاز واسرع الطرق لتنفيذ عمليات القتل الجماعي لليهود، ولكنه كان حريصا دائماً على تغطية نشاطاته واخفائها وضمان ان اللوم يقع على شخص اخر ما. وقد اورد جيرالد ريتلنجر Gerald Reitlinger مثالا عن ذلك حدث يوم ١٦ تموز ١٩٤٢ م في ستاد باريس الرياضي، حين «كان حوالي سبعة آلاف شخص فيه، ومعظمهم من النساء والأطفال، لم يستطيعوا الافلات من اعتقال جماعي لليهود، فقد ابقوا هناك خمسة ايام بدون طعام، وكان هناك صنبور مياه واحد وطبيبان. وقد جن اثنا عشر شخصا منهم، وتوفي ثلاثون ووضعت نساء عديدات اطفالهن»[1].

ان ايخمان، الحريص في معظم الأشياء وفي كل الأوقات على ضمان ان السلطات العليا قد وافقت على ما يقوم به، عمل على ان يبقي نفسه بعيدا دائما. ولكن ديتر فيسليسيني Dieter Wicliceny قدم الدليل على ان ايخمان كان يستمتع «بعمله»، وديتر هذا منفذ آخر لعمليات القتل الجماعي اعدم في تشيكوسلوفاكيا. فقد قال، وهو يصف ايخمان، رئيسه المراوغ غير المعروف تقريباً: «اخبرني انه لن يأبه بما يحدث اذا خسرت

المانيا الحرب، فقد قال انه سيقفز الى جوف قبره ضاحكا لشعوره ان ثمة خمسة ملايين يهودي يحملهم ضميره ويملأون قلبه بالسعادة »[٢].

على أن ايخمان اخفى جيدا كل اثر له حتى ان بعض افراد المخابرات الاسرائيلية اعتقدوا انه قد مات، واعلن س. نفسه ان ايخمان موجود، بالتأكيد، في اميركا اللاتينية، وأن من المعروف ان سلوكه ذلك الطريق قد قوبل بالشك.

ان كل ما كان معروفا، بشكل مؤكد، هو ان القوات الاميركية في النمسا القت القبض على ايخمان في ٨ ايار سنة ١٩٤٥م، ولكنه كان آنذاك قد القى بزة الصاعقة الالمانية ووثائقه الشخصية وارتدى بزة جندي عادي في الجيش الألماني وانتحل اسما آخر دعا به نفسه امام الاميركيين، ولكن ذلك لم يكتشف في حينه وبعدئذ انقطعت اخباره. وقالت بعض التقارير التي وصلت الى اسرائيل انه مات، بينما جاء في تقارير اخرى انه هرب من معسكر اميركي. على ان كل ما كان جليا هو ان ثمة اخفاقا مريعا من جانب الاميركيين سواء في كشف ايخمان او على الأقل في التدقيق بهوية هذا «الجندي الالماني» الذي يمسكون به.

وقال س: «وحتى منذ سنة ١٩٤٥ كان ثمة وحدة يهودية في اوروبا تحاول ان تتقفى آثار مجرمي الحرب، وكان ايخمان هدفها الأول. والمشكلة هي ورود عديد من التقارير المتناقضة حتى اصبحت تل ابيب في ريبة من امرها. وقد اهمل التقرير الذي بعثت به من اميركا اللاتينية لان بعضهم اعتقد آنذاك ان ايخمان قد استخدم تماما صلاته بالعرب، اذ كان حليفا حميما لمفتي القدس، ووجد مأوى له في الكويت».

لقد كان ثمة، بالطبع، نازيون آخرون كثيرون تجري مطاردتهم، وقام بالقسط الأوفر منها شخص من خارج المخابرات الاسرائيلية، ولكنه قدم لها، مع ذلك، خدمات كبرى، وهو الدكتور سيمون فيزنتال Simon Wiesenthal الذي كان هو نفسه الناجي الوحيد من اسرته من «الحل النهائي»، وقد كان والده ضابط خيالة في جيش الامبراطور فرانز جوزيف Franz Joseph، وهذا شرف نادر يناله يهودي في تلك الأيام. وفي الحرب العالمية الثانية قتل الألمان بعض افراد اسرة فيزنتال، كما قتل الروس آخرين منها. وقد وضع هو نفسه في معسكر اعتقال، وفي نيسان ١٩٤٣ م عُرِّيَ ونقله جنود الصاعقة الى حفرة الرمل حيث تنفذ

الاعدامات ، ولكنه انقذ في اللحظة الأخيرة . وفي سنة ١٩٤٥ م ، وحين دخل الاميركيون معسكر اعتقال موتهاوزن Mauthausen كانت الجثث متناثرة حيث سقطت ، وكان فيزنتال ، حين انقاذه ، في ثلث وزنه الطبيعي .

اعتبر فيزنتال انه الشخص الذي اقتفى أثر ايخمان ، ولكنه هو نفسه لم يدّعِ ذلك رغم انه عمل دون ملل او انقطاع من مكتبه في لينز Linz ، حيث اقام مركزاً لمساعدة اللاجئين وجمع الادلة لمطاردة مجرمي الحرب ، للحصول على وسيلة تقوده الى ايخمان . وربما كانت اهم مساهمة لتحديد مكان ايخمان بشكل نهائي ، هي مراقبة زوجة ايخمان واسرته ، فاستطاع نتيجة لذلك ان يثبت ان ايخمان لا يزال على قيد الحياة ويتمتع بصحة جيدة في مكان ما ، وانه على اتصال بزوجته ، وان ادعاء السيدة ايخمان انها ارمله قد نفته رسميا حكومة النمسا .

وأصبح مركز التوثيق اليهودي ، الخاص بفيزنتال ، في فينا نواة مخابرات سرية اوكل اليها الاتيان بمجرمي الحرب والنازيين السابقين أمام العدالة . وأخذ فيزنتال يجمع الملفات عنهم ، منذ انتهاء الحرب ، من اجل مكتب جرائم الحرب الاميركي اولا ثم لمركزه هو

الذي دعمه بالمال اليهود النمساويون. وفي غضون سنوات عين فيزنتال مخبرين له في شتى انحاء العالم. وقد قال مرة «من اسكتلندة الى اميركا الجنوبية كنت اتلقى كل يوم ما بين خمس وعشرين وثلاثين رسالة تحتوي على معلومات لم ادفع عنها اية اموال. فاذا دفعت مقابلها فلن تبقى معلومات، بل تصبح عملا»[٣].

وتلقى فيزنتال عونا غير رسمي من عدد من الحكومات، وكانت حكومة هولندة هي الأكثر عونا له رغم ان بعض الساسة الهولنديين حموا في سنوات ما بعد الحرب فعلا كثيرين من النازيين. لقد كان فيزنتال هوالذي اقتفى اثر ايريخ راجاكوفيتش Erich Rajakovic، ضابط الصاعقة الالمانية السابق، الذي عرف «بايخمان هولندة»، كما كان المسؤول شخصيا عن جلب ٣٥٠٠ نازي الى المحاكم مباشرة في فترة ما بعد الحرب. وتابع منذئذ هذا العمل رغم ان تشريع المهلة القانونية، الذي يمنع ملاحقة مجرمي الحرب اصبح، بشكل آلي، ساري المفعول سنة ١٩٦٥ م، فقبل سنة قال: «لدي، في ملفاتي، مصنفات كاملة لنحو ٢٢٥٠٠ قاتل ومعذب آخر لا بد من جلبهم أمام المحاكم»[٤].

ان هذا كله قد يوحي ان سيمون فيزنتال جاد غير هازل

ومتعصب مهتم بالانتقام فقط، وتجمد فكره كليا عند الماضي.
ومن المؤكد ان ثمة هدفا واحدا يتحكم به لانه ضحى بسيرته، بوصفه مهندسا معماريا، ليقوم بحملة الرجل الواحد هذا ضد النازيين السابقين. وربما بسبب نفوذه جرى تمديد تشريع المهلة القانونية الى ما بعد سنة ١٩٦٥ كي يساعده ذلك على ان يجلب الى العدالة اشخاص مثل فرانز شتانغل Franz Stangle، قائد الصاعقة الالمانية السابق لمعسكر الاعتقال البولندي في تريبلينكا Treblinka، الذي استعيد من البرازيل سنة ١٩٦٧. وهو يهتم حاليا، اهتماما كثيرا، بأن الاتحاد السوفييتي، وبعض حلفائه الاشتراكيين في اوروبا، لم يوفرا المأوى فقط لمجرمي الحرب بل وضعوهم في اعمال رئيسية. وهو الذي كشف ان تسعة وثلاثين دعاويا نازيا سابقا كانوا يشغلون، سنة ١٩٦٩ م، مراكز رئيسية في المانيا الشرقية، وانهم اشرفوا على شن حملة ضارية معادية لليهود في صحافة تلك البلاد. وقد كشفت تحقيقات اخرى ان اكثر من ستمائة نازي سابق يشغلون أعمالا في المانيا الشرقية، وان الشرطة السرية البولندية قامت طيلة سنوات مضت بحملة مطاردة عنيفة لليهود.

لم يقم الدكتور فيزنتال بعمله هذا دون ان يعرض نفسه

للمخاطر ، فقد تلقى اكثر من مائة تهديد بالقتل اثناء حملته على النازيين بعد الحرب ، ولكنه لم يطلب حماية من الشرطة . وفي تشرين الثاني ١٩٧٥ م اتهمه الدكتور برونو كرايسكي Bruno Kreisky ، مستشار النمسا ، انه كان هو نفسه نازيا في العهد الهتلري وانه استخدم « اساليب المافيا في تقفيه آثار النازيين » . بل لقد اشار ضمنا الى ان فيزنتال كان متورطا في قضية تجسس تتعلق بمسؤول سابق في الشرطة السرية النمساوية وانه تجسس للتشيكيين . وقد جاء هجوم كرايسكي المذهل هذا عقب اتهام فيزنتال لضابط سابق في الصاعقة الهتلرية ، هو الدكتور فريدريش بيتر ، Friederich Peter ، الذي كان رئيس حزب الحرية النمساوي اليميني . وكان بيتر قد تلقى عرضا بأن يصبح نائب المستشار مقابل الوعد بدعم الاشتراكيين ، الذي يرأسهم كرايسكي ، اذا فشلوا في احراز الاكثرية ، وعندئذ كشف فيزنتال يوميات الحرب الالمانية التي اظهرت ان الدكتور بيتر خدم في لواء الصاعقة الخاصة الذي شكله هملر Himmler لحصر اليهود واحتجازهم وقتلهم .

وقد رد فيزنتال على ادعاءات كرايسكي بأن هدد برفع دعوى ، واخيرا سويت القضية خارج المحاكم ، ولكن شجاره مع

المستشار كان مدمرا اذ سرعان ما أعلن مطارد النازيين هذا انه يفكر بالتقاعد. ولكنه يصعب تصديق انه سيتخلى عن عمله بينما مجرمو حرب عتاة، مثل جوزيف منجلي Joseph Mengele الذي يعيش الان في الارجنتين(*)، وولتر روف Walther Rouff، رئيس فرقة الاعدام بالغاز والذي يعيش الآن في تشيلي، لا يزالون آمنين بعيدين عن ايدي العدالة.

ربما كان القاء القبض على شتانغل هو أكبر انتصارات فيزنتال رغم ان المخابرات الاسرائيلية عاونته. على ان اعتقال هذا النازي كلف فيزنتال مبلغا كبيرا من المال، وغالبا ما اعتمد على ان النازيين سوف يتشاجرون، عاجلا او آجلا، وسوف يأتي اليه احدهم ويعطيه ملفا عن الاخر. وهذا ما حدث مع شتانغل، فموظف الغستابو السابق في اميركا الجنوبية قدم اليه الاشارة الاولى الى ان رئيس معسكر اعتقال تريبلينكا Treblinka السابق يعمل في مصنع تجميع سيارات فولكس واغن في العاصمة البرازيلية سان باولو. وقد رتب فيزنتال مكالمة تليفونية كاذبة اجرتها ممرضة في

(*)ثبت انه توفي غرقاً في الارجنتين في اواخر السبعينات.

(المترجم)

مستشفى محلية مع مصنع السيارات تطلبان من شتانغل ان يأتي على الفور الى جناح الحوادث في المستشفى اذ ان ابنته اصيبت في حادث صدام سيارة . وحين وصل شتانغل كان المخبرون البرازيليون ينتظرونه لالقاء القبض عليه . ولكن الى جانب هذه الذريعة النهائية لايقاع شتانغل في الفخ قبل ان يحذره احد من الشراك المنصوبة حوله وتوشك ان تطبق عليه اجرى فيزنتال كل اشكال الاتصالات الدبلوماسية مع كلتا حكومتي البرازيل والولايات المتحدة .

ان آحذ العوامل التي ابطأت المطاردة الطويلة لأدولف ايخمان هو الغموض الذي احاط بمكان وجود مارتن بورمان ، فقد سيطرت على الاسرائيليين فكرة انهم ، اذا استطاعوا ايجاد نائب الفوهرر ، اي مارتن بورمان ، سوف يستطيعون ايجاد ايخمان ، اذ كان من المشكوك فيه عموما ان الأول ساعد الثاني على الهرب . ولكن الحكايات المتناقضة عن مكان بورمان جعلت من ذلك امرا مطرد الصعوبة . وادعى س . انه علم ان الكونتيسة داندوريان كانت احدى الشخصيات الرئيسية في الشبكة التي نقلت بورمان من مخبئه في اوروبا الى مكان آمن في اميركا اللاتينية ، بيد ان تل

ايبب كانت تشك آنذاك في هذه الحكاية بسبب نظرية انه انتقل الى السوفييت .

ويقول س . : « واخيرا اصبحت انا نفسي مرتابا ، فقد كنت واثقا تماما ان هنالك دربا للهرب ، ومما جمعته من بحار سابق كان يعمل على جيلان ، يخت الكونتيسة ، بت مقتنعا ان قصة كون بورمان لا يزال حيا قد رواها اناسا عديدون لاسباب مختلفة . وقد أخبرني هذا البحار ان الافراد الذي نظموا درب الهرب استخدموا اسم مارتن بورمان كنوع من السمك الثمين الأحمر لتبديد الانتباه عن نازيين آخرين كانوا يقعون فعلا في الشبكة . وقد ناسب هذا النازيين الباقين القلة لانهم اعتقدوا ان حكاية زعيم نازي حي في المنفى ، على استعداد للعودة في اللحظة المناسبة ، ستُبقي الامال حية بين اعضاء تنظيمهم الاخذ بالتقلص . اما الروس فقد وجدوا ابقاء بورمان على قيد الحياة ، كجزء من دعايتهم في الحرب الباردة ، حكاية مفيدة . اما الجنرال جيهلن فلا يزال يعيش حتى الان في موسكو ، ولكن ما الذي جعله يقدم ، « الدليل » على ان بورمان قتل سنة ١٩٤٥ ، ثم ادعى بعد سنوات انه جاسوس سوفييتي ؟ .

لقد تراكمت التقارير الكاذبة عن بورمان ، حتى ان فيزنتال

الذي تتبع مطاردة بورمان طيلة سنوات بأشد درجات الاهتمام، كان واثقا في وقت ما انه ذهب الى اميركا الجنوبية. فقد ساد الظن اولا انه انتقل الى الارجنتين ثم، وحين ازدادت مطاردته واشتدت، بات الخبراء مقتنعين انه انتقل الى دولة اميركية ــ لاتينية اخرى. وفي سنة ١٩٦٧ م قال فيزنتال: «ان اقتفاء اثر رجل فرد يستخدم تسعة اسماء مستعارة او عشرة، ويملك اموالا طائلة لا حصر لها ويحيط به اصدقاء تواقون الى حمايته، في بقعة شاسعة مثل اميركا اللاتينية، امر لا سابقة له ما عدا حالة ايخمان. ولكنني سأقول لا بد من البحث بين مزارع البن الضخمة في منطقة الغابات الشاسعة... منطقة تينغو ماريا Tingo Maria في البيرو»[٥].

على ان فيزنتال غير رأيه تغييرا كليا سنة ١٩٧٤ م، فحين سئل عما حدث لبورمان اجاب: «من المؤكد انه ميت، فقد انتحر في الثاني او الثالث من ايار سنة ١٩٤٥ م».

اما توفياه فريدمان Tuviah Friedman، مدير مركز جرائم الحرب النازية في اسرائيل والذي امضى خمسة عشر عاما يقتفي اثر بورمان وايخمان، فادعى في مقابلة سنة ١٩٦٠ م ان ادولف ايخمان، مستخدما كل الاستخدام صلاته الواسعة في العالم

العربي، هرب اولا الى الكويت معتقدا انه سيكون اكثر أمنا فيها من اي مكان آخر في العالم. ولكن اعتقاده هذا كان اعتقاداً أحمق، فانتقل من بلد الى آخر في الشرق الأوسط وهو يعيش في رعب دائم من امكان اعتقاله وتهريبه عبر الحدود الى اسرائيل. والحقيقة ان ايخمان كان يخشى ايضا العملاء الاسرائيليين الذين كانوا يطاردونه. وقال فريدمان، الذي اغفل معظم الذين كتبوا حول هذا الموضوع، الى حد ما دوره، «ان ايخمان كان في حوزته اكثر من سبعين جواز سفر لجنسيات مختلفة، بعضها بأسماء يهودية، فقد كان يجيد التحدث باللغتين العبرية واليديشية، وكان يستخدم جواز السفر الذي يناسب ظروفه وغايته. وكانت الصعوبة الكبرى، التي عانينا منها في تحديد هوية الرجل الذي اعتقدنا انه ايخمان، هي ان هذا الرجل لم تؤخذ له، منذ سنة ١٩٤٢، أية صورة فوتغرافية، كما ان كافة مسودات صوره او صوره نفسها قد اتلفت. ويضاف الى ذلك ان توقيعه لم يظهر على أية وثيقة، فقد كان ايخمان يصدر اوامره دائما عن طريق الهاتف»[٦].

ومن الضروري هنا تفحص الأسباب القوية التي دفعت الشرطة السرية الاسرائيلية الى اقتفاء اثر ايخمان والقبض عليه أكثر من

اي مجرم حرب آخر . فهذا لم يكن مجرم الحرب الأعلى بينهم بالنسبة لاسرائيل، بل كان غير معروف فعلا لباقي العالم. لقد عمل ايخمان كليا تقريبا بشكل مستتر، بل ان الاشارة اليه في محاكمات نورمبرغ لم تجتذب سوى اهتمام عابر بين غير اليهود . ولكن، كان هنالك، قبل اي شيء آخر، الحقيقة التي لا يمكن نكرانها وهي ان التطورات السياسية كانت سنة ١٩٦٠ م تماما عكس ما تريدها اسرائيل، فمغامرة السويس قد جعلتها معزولة بعد ان تخلت عنها بريطانيا وفرنسا حين تقهقرتا، تقهقرا شائنا، أمام تهديدات الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . وكان عبد الناصر قد وطد نفسه في مصر وبات يحمل رؤى اقامة امبراطورية عربية شاسعة، وفوق هذا كله اخذ العالم ينسى جرائم الحرب ومعسكرات الاعتقال، واخذ بعض الساسة والكتاب يهونون من هذه الأعمال ويقولون ان ثمة مبالغة هائلة في عدد قتلى اليهود في اوروبا، لذا كان لازما اجراء محاكمة كبرى لرجل مثل ايخمان من اجل ان يصور للعالم عموما ان حجم الجرائم النازية يفوق الخيال(*) .

(*) تماثل هذه الجرائم، بل تتفوق عليها أحيانا، الجرائم التي اقترفها الصهاينة منذ انشاء كيانهم سنة ١٩٤٨ م في فلسطين. وأوضح دليل ما جرى في لبنان ضد القرى اللبنانية والمخيمات الفلسطينية منذ حزيران ١٩٨٢ م وحتى الآن. (المترجم)

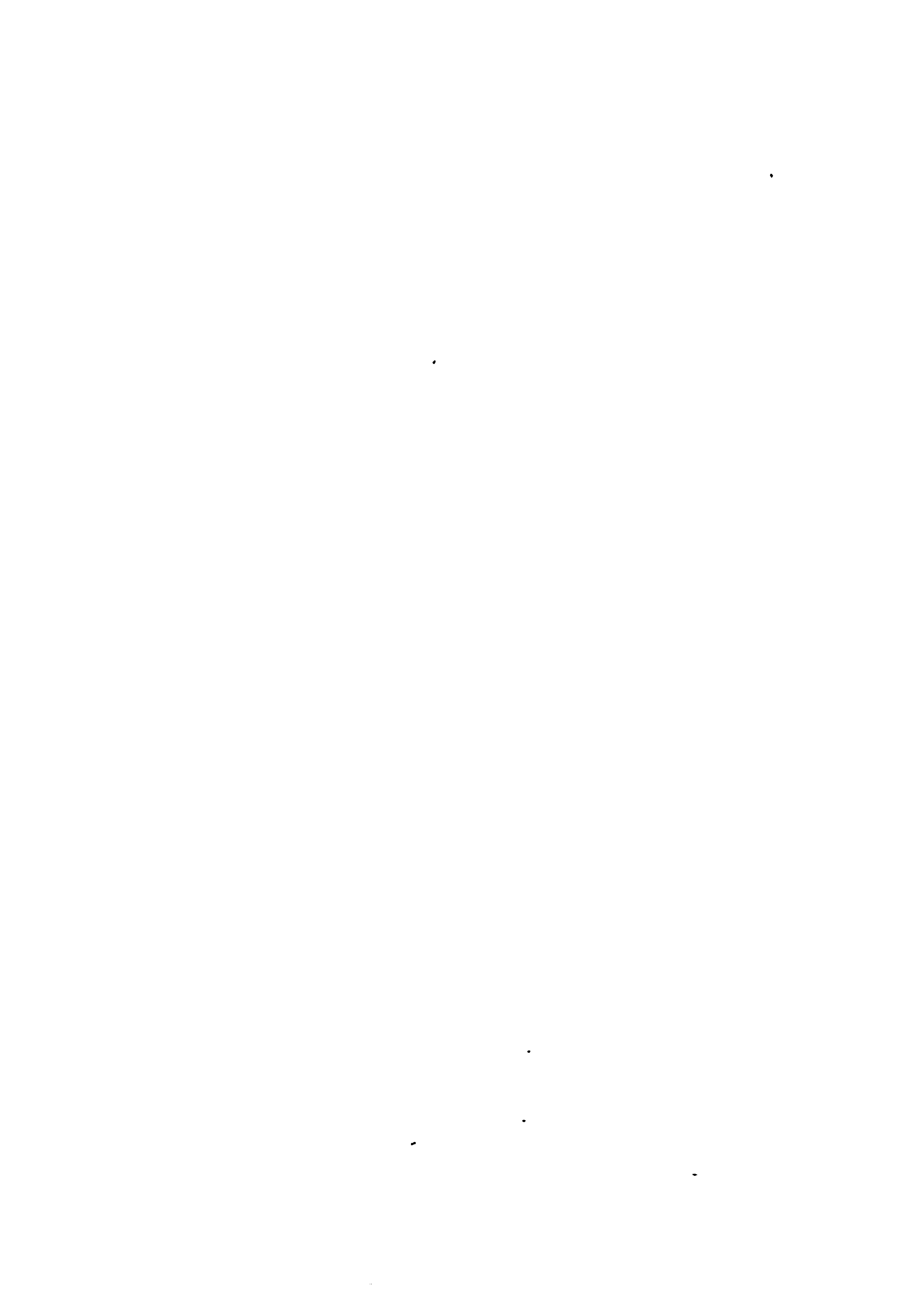
كانت المخابرات الاسرائيلية، بمعونة شتى الوكالات الخاصة مثل منظمة فيزنتال ذات الشخص الواحد ومركز جرائم الحرب الخاص بالبروفيسور فريدمان، قد جمعت الأدلة اللازمة جميعها لادانة ايخمان وكثيرين آخرين. وكانت خطيئة محاكم نورمبرغ ان اناسا كثيرين جدا، لم يكن ثمة ما يدعو الى محاكمتهم، حكموا بالاعدام على حين ان المجرمين الحقيقيين بقوا احرارا. وقد حدثت منذئذ ردة فعل على سوء مجريات محاكمات نورمبرغ التي مالت الى اخفاء الأمور المروعة التي ارتكبت في معسكرات الاعتقال. اذ ان النازيين حين وجدوا ان احراق القبور الجماعية يستغرق وقتا طويلا وان غرف غاز الفحم تتطلب مباني كثيرة جدا كان ايخمان هو الذي اقترح الحل النهائي للتعجيل في القضاء على ضحاياه، فكانت بدعته هي غرف زايكلون بي Zyklon B المتصلة بالأفران التي تحيل الجثث الى رماد، يستخدم سمادا، وتبخر ٢٤ الف شخص يوميا.

وكانت النظرية السائدة في تل ابيب هي ان الاعلام الناتج عن تقديم ايخمان الى المحاكمة سيكون ذا فائدة هائلة لاسرائيل. وقال فريدمان: «وما ان يتم هذا فان اللا ـــ سامية سوف تبقى ميتة

في اوروبا طيلة السنوات الخمس والعشرين القادمة، اذ ليس من المعقول ان قتل عشرين مليون شخص، بينهم ستة ملايين يهودي في ثمانية عشر بلدا محتلا هو عمل حوالي مائتين فقط من كبار ضباط الغستابو والصاعقة الألمانية يرأسهم ايخمان وموللر Muller »[٧].

ان كلا فيزنتال وفريدمان، اللذين اقتفيا اثر ايخمان طيلة خمسة عشر عاما، كانا عند اجراء الحساب النهائي غير محظوظين ولم يكن لهما اي دور في الامساك به. فالمثابرة الصبورة لوحدة الموساد الخاصة، التي تابعت العمل الذي بدأت به وحدة الهاغاناه السرية الموكل اليها سنة ١٩٤٥ م تتبع آثار مجرمي الحرب، هي التي احدثت الاختراق اخيرا.

وفي النهاية كشفت سر ايخمان وفضحته اثنتان: خليلته وصديقة ابنه، ولكن موظفا كبيرا في حكومة المانيا الغربية هو الذي ساعد المخابرات الاسرائيلية اخيرا على التخطيط لاختطاف ايخمان.



الفصل الثامن

اختطاف ايخمان

«لا بد من تنفيذ «عملية ايخمان» .
لقد سبب لنا وجوب اخراج ايخمان من
الارجنتين قدرا كبيرا من النزاع الداخلي ،
وكان عقلي مرتاحا الى ضرورة تنفيذ عمل
سري في منطقة ذات سيادة لبلد صديق» .

ايسر هاريل[١]

قدّم جول ليموان Jules Lemoine ، البحـار السابـق على اليخت « جيلان » ، المفتاح الأول لوجهة ايخمان الأخيرة ، فقـد غادر ليموان هذا اليخت في ميناء طنجة ، واختفى في داخـل مراكش لانه خشى ان ايبل والكونتيسة كانا يتآمران لقتله في البحر على أساس انه يعرف الشيء الكثير . وذكر ليموان ان « نازيا هاما جدا » كان ينتظر في مدينة الفاتيكان كي يحصل على جواز سفر لاجيء يذهب به للأرجنتين باسم ريكـاردو كليمنتـي Ricardo Clementi .

وقال س . : « اقسم هذا الرجـل على ان هذا هو اسمه الحقيقي ، وانه مؤيد بورقة تحديد هوية صادرة عن الفاتيكان ، ولهذا

لم امل الى ان آخذ هذه المسألة على مآخذ الجد، فنحن لم ندرك آنذاك عدد المتعاطفين السريين مع النازيين والموجودين آنذاك في مدينة الفاتيكان. وقد علمنا بعدئذ أن ثمة «وحدة» متعاطفة مع النازيين داخل المدينة المقدسة هذه وان البابا نفسه أغمض عن عمد عينيه على نشاطاتها. لقد كان هذا عملاً فاتيكانيا كبيرا، وان بيروقراطييه كانوا يتقاضون عمولة على تهريب «السمك النازي» الذي يهربونه عبر الفاتيكان. واخيرا حصلت الموساد على ملف كامل عن عمليات الفاتيكان السرية في أواخر الاربعينات واوائل الخمسينات حَول تهريب النازيين السابقين من اوروبا الى دول فاشية، اكثر امانا لهم، في اميركا اللاتينية».

ومهما يكن من أمر فان اسم ريكاردو كليمنتي، الذي ذكر، لم يكن دقيقا تماما، فالاسم المستعار الذي استخدمه ايخمان، حين هرب من النمسا الى ايطاليا، كان ريكاردو كليمنت Ricardo Klement، ورسم هكذا على جواز سفره اللاجىء، الذي صادق عليه الفاتيكان، وحدد هويته على انه ميكانيكي ولد في بولزانو Bolzano، بإيطاليا، من ابوين المانيين. وبعد سنوات ربط اسم ريكاردو كليمنت بريكاردو كليمنتي.

ولكن مسؤولا رفيعا في حكومة المانيا الاتحادية هو الذي ساعد المخابرات الأسرائيلية ، اخيرا ، على اختطاف ادولف ايخمان . فالمعلومات النهائية عن مكان وجود هذا النازي قدمها الدكتور فريتز بوير Fritz Bauer المدعي العام في مقاطعة هيس Hesse ، والذي حصل عليها بشكل سري جدا من المخابرات الالمانية الغربية عقب استجوابها اثنين من عملاء منظمة هرب نازية قدما كل المعلومات عن شبكات الهرب والمبالغ السرية وأماكن اختباء بعض مجرمي الحرب . وقد قرر الدكتور بوير ، وهو نفسه يهودي ، نقل هذه المعلومات بسرية كاملة الى المخابرات الاسرائيلية ، ولكنه اصر ايضا على عدم كشف اسماء ناقلي هذه المعلومات مما عنى ان على الاسرائيليين ان يسيروا وفق معلوماته . عمل بوير قاضيا في شتوتغارت Stuttgart الى ان تولى النازيون السلطة ، فسجنوه عاما ، وانتقل بعده الى الدنمارك . وفي سنة ١٩٤٠ م ، وحين احتل النازيون تلك البلاد اعتقل ثانية وسجن ثلاث سنوات ، واخيرا هرب الى السويد . وحين عاد الى المانيا بعد الحرب كان طبيعيا ان يرغب في رؤية العدد الأكبر من النازيين يحاكم على الجرائم التي اقترفها ، فالمعلومات التي حصل عليها عن ايخمان هي ، من ثمة ، ما ارادها تماما .

نقلت معلومات الدكتور بوير الى وزارة الخارجية في تل ابيب عن طريق وسيط هو الدكتور شينار Shinar الذي كان رئيس بعثة التعويضات في المانيا الغربية . وكان ولتر ايتان Walter Eytan ، المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية ، هو الذي خابر ايسر هاريل هاتفيا ، وانبأه ان هناك « مفتاحا » لحل لغز مكان ايخمان .

لقد مرت حالات يأس عديدة اثناء السعي وراء ايخمان ، ففي مناسبات ، لا حصر لها ، قدم الى ايسر هاريل ما قيل انه المفتاح الأكيد لمكان وجوده ، ولكن حين كانت الموساد تتبع هذا المفتاح تصل الى نهاية مسدودة . وكما قال هاريل نفسه . « بقينا نحصل على اشارات الى امكنة افترض انه يختبىء فيها ، ولكن البحث كان ينتهي ، في كل حالة ، الى اليأس ، والأكثر من ذلك اننا لم نجد برهانا اكيدا على انه لا يزال على قيد الحياة »[٢] .

ولكن في أواخر سنة ١٩٥٧ م نقلت معلومة الدكتور بوير الى تل ابيب ، وفورا الى هاريل الذي قالت له غريزته المهنية ان هنالك الان « مفتاحا » هاما . ان مساوىء عمل الموساد وحسناته سيناقشها المؤرخون والساسة ، وسيكون بينهم من يدين هذا العمل ويشجبه ، واولئك الذين يؤيدونه ، وهاريل نفسه قال انه احس

بالخشية من عدم شرعية العمل وليس من المسائل الأخلاقية، «فالاجراء الصحيح كان انباء السلطات الارجنتينية بشكّنا في ان مهاجرا المانيا مقيما في ضاحية بيونس ايرس هو مجرم الحرب ادولف ايخمان، ثم ننتظر الاجراءات القانونية الطويلة لاسترداده إما الى المانيا وإما الى احدى الدول الاخرى التي تطلبه. ولكن كيف نستطيع ان نعرف ان ايخمان نفسه سوف ينتظر»[٣].

لقد كان هذا هو صلب المسألة، فإلى جانب التجادل القانوني المديد مع وجود عنصر الشك في امكان عدم تسليمه فعلا كان هنالك الاحتمال، القريب من المؤكد تماما، ان ايخمان نفسه قد يختفي ويهرب الى مكان آخر قبل ان يتم تنفيذ تسليمه فايخمان، الذي اتخذ هذه الاحتياطات الهائلة كي يهرب من اوروبا ويتخذ لنفسه هوية جديدة في الارجنتين، لن ينتظر، صاغرا، الاعتقال. وعلى اية حال هنالك درب لفرار النازيين لا تزال نشطة، وسوف يكفل اصدقاؤه الألمان في الارجنتين انه خصل على مخبأ جديد في البارغواي او الاورغواي او البيرو او اي مكان آخر. وهكذا صمم هاريل على انه سيدير، هو شخصيا، هذه العملية كلها بدءا بالتدقيق في تقرير بوير، وتحديد المكان الحقيقي

لايخمان، حتى اختطافه ونقله الى تل ابيب. وهكذا كان هاريل الرجل المثالي لتنفيذ مهمة كهذه، لا بسبب سجله بوصفه مدير مخابرات من الطراز الأول بل لانه كان صديقا حميما لبن غوريون.

كان هاريل مزيجا من عدم الرحمة، والقسوة المفرطة، والمكر، والدبلوماسية، ولكن تم، في معظم روايات اختطاف ايخمان، تجاوز دبلوماسيه الاسرائيليين التي لاحقت منذ سنة ١٩٥٠ م وحتى ١٩٦٠ م كل اشارة الى مكان ايخمان، غير انه حين جاءت ساعة القرار تمكنت من اكتساب ثقة فريق من الارجنتينيين حلفاء لها، فقللت بذلك من خطر أية مشكلة دبلوماسية حادة مع الحكومة الارجنتينية اثناء الاختطاف وبعده.

وصل ايخمان الى بيونيس آيرس في أواخر صيف ١٩٥٠ م، ومنحته الشرطة الارجنتينية بطاقة هويته في ٣ آب من تلك السنة. ومع ان ايخمان ابتعد الآن آلاف الاميال عن اوروبا الا انه ظل يعيش حياة غير اجتماعية، ويكثر من تغيير عنوانه، وبقي دائم الارتياب في اي غريب يقيم بجواره. وفي سنة ١٩٥٢ م انتقل ليعيش في مقاطعة سان ميجويل دي توكومان **San Miguel de Tucuman** الارجنتينية، ويبدو انه غيَّر مهنته في تلك الفترة، فقال عن نفسه

انه رسام خرائط. وقد كان تغيير مهنته هو الذي اجتذب انتباه الشرطة السرية الارجنتينية التي سرعان ما اكتشف ان الرجل الذي يدعو نفسه ريكاردو كليمنتي هو ادولف ايخمان. وقد عرفت هذا السر قلة من الأفراد، ولم تبذل اية محاولة لاستغلال هذا الكشف منذئذ الى ان اخضع ايخمان للمراقبة.

وحاول ايخمان، وهو يعي انه ليس في مأمن من الاعتقال، ان يقيم في اماكن اخرى في اميركا اللاتينية، واستطاع الى حين، ان يراوغ مراقبيه، ولكن ما لم يدر في حسبانه ان واحدا او اثنين من الديمقراطيين الارجنتينيين شاركوا الشرطة سرّه. وحين عاد الى الارجنتين بعد بضع سنوات، معتقدا انه ربما ضلل الى الابد مراقبيه وملاحقيه تطلع الى اعادة لم شمل اسرته، اذ ان زوجته فيرا Vera وصلت بعد سنتين الى الارجنتين، بعد ان تسللت من بيتها في فينا وذهبت الى بيونيس آيريس عن طريق رحلة طويلة متعرجة.

كان الاسرائيليون تواقين الى تحديد مكان فيرا ايخمان منذ وقت طويل، فدققوا، دون جدوى، في عدد كبير من التقارير، وكانت قصة تغطيتها التي اشاعها اصدقاؤها لصالحها انها تزوجت من اميركي وغادرت اوروبا. وقد ارتاب الاسرائيليون في ان هذه

قصة تغطية وان «الزوج الثاني» سيكون هو زوجها الأول. ولذا كانت اهم مهمات الموساد في فينا واكثرها حيوية هي الابقاء على رقابة دائمة فيها من اجل عودة فيرا اخيرا، فقد علمت ان جواز سفرها، الذي صدر يحمل اسمها قبل الزواج وهو فيرونيكا ليبل، يتطلب التجديد قريبا، وان عليها، التزاما بالرسميات الارجنتينية والنمساوية ان تتقدم هي شخصيا بطلب التجديد.

وحين ظهرت فيرا ايخمان في العاصمة النمساوية لاحقها عملاء الموساد، كظلها، ليل نهار، ثم تبعها احدهم الى الارجنتين، وكان هذا اول نجاح للموساد في اتباع معلومات بوير السرية. وكانت احدى الصعوبات التي واجهت العملاء الاسرائيليين هي ان يضمنوا تحديد هوية ايخمان تماما، وهذا عائد الى ان الصور المتوفرة له قليلة جدا، فقد كان دائما يبتعد عن آلات التصوير حتى في ايام الحركة النازية، ثم اتلف في اواخر الحرب كل صورة له او لاسرته. وقد قال احد عملاء الموساد. «كان السعي وراء ايخمان مثل ارسال رجل اعمى ليحدد موقع العدو».

كانت المعلومات التي حصل عليها هاريل موجزة ومتناثرة،

ولكنها، من ناحية اخرى وكما بَيَّنَ هو نفسه، كانت ايجابية وواضحة، على ان مخبري الدكتور بوير لم يذكروا الاسم المستعار الذي يستخدمه ايخمان، بل نقلوا العنوان التالي: ٤٢٦١ شارع شاكابوكو، اوليفوس ــ ضاحية بيونيس ايرس.

وارسل هاريل احد كبار عملائه المحترفين الى بيونيس ايرس، واطلق يده في التصرف مع الوضع. وقد وصف هاريل، في روايته للعملية كلها، هذا الرجل بأنه « يوئيل غورين Yoel Goren، رجل العمليات المتمرس، الذي أمضى قبل التحاقه بالمخابرات الاسرائيلية وقتا طويلا في بلدان اميركا اللاتينية ممثلا لشركة خاصة، وهو يتكلم شيئا من اللغة الاسبانية »[٤]. والحقيقة، وكما اوضح هاريل نفسه في مقدمة كتابه، انه كان امرا اساسيا، لاسباب امنية، الابقاء على سرية الفريق المنهمك في ملاحقة ايخمان، وان اسم يوئيل غورين مستعار. وقد كشف في كتابه اسما واحدا هو شالوم داني Shalom Dani الذي مات بعد ذاك، وانضم الى فريق المحققين والباحثين بوصفه خبيرا هاما جدا في تزوير الوثائق وجوازات السفر.

ان احد الاسباب الهامة للابقاء على سرية هوية افراد الفريق

الاسرائيلي هو ان لعدد منهم اعمالا وثيقة وارتباطات اخرى بالارجنتين وبأجزاء اخرى من اميركا اللاتينية . كما كان عدم كشف هوياتهم على قدر مساو من الأهمية ، لان هذا الكشف سوف يلقي الضوء على صداقتهم مع مواطنين ارجنتينيين معينين لعبوا دورا في القبض على ايخمان ، ثم ان الانتقام النازي ما زال موجها الى كل من يحاول ان يجوس في مستعمرتهم الواسعة في اميركا اللاتينية . وقد استخدم رئيس الفريق الاسرائيلي اسم زيمرمان Zimmerman نتيجة الاشارة الى الوحدة العاملة في الارجنتين احيانا « الفريق ز Z » ، وهو شهير بمهارته في التخفي والحنكة في ادارة التحقيقات حتى قيل انه يستطيع ان يتكلم الانكليزية بلكنة ويلزية ، وكأنه درس في مستعمرة بتاغونيا Patagonia الويلزية الارجنتينية .

كان فريق العاملين هذا صغيرا ومندفعا ، وسرعان ما وصلوا الى العنوان الذي قيل ان ايخمان يسكن فيه واكدوا ان المرأة التي افترض انها زوجته الثانية كانت ، بلا ادنى شك ، فيرا ايخمان ، كما ان اولاد اسرة كليمنت كانوا ، بلا ريب ، اولاد ايخمان . ولكن ما لم يكن مؤكدا هو : هل ريكاردو كليمنت هو فعلا ادولف ايخمان . ولكن بعد ان لوحقت فيرا ، وهي عائدة من فينا الى بيونيس آيرس

لم يعد ثمة من شك في انها زوجة ادولف ايخمان. على ان فرصة ضئيلة ظلت أمام كون قصة تغطيتها صحيحة وان هذا الرجل هو زوجها الثاني رغم ان كل جزء من الدليل المجموع بيّنت ان كليمنت هو نفسه ايخمان. وظل هنالك شك واحد: فقد ظهر ريكاردو كليمنت اكبر سنا جدا مما يفترض ان يكون عليه ايخمان.

ان محاولة التحقيق من هوية كليمنت قد عنت ان على العملاء ان يأخذوا له صورا كثيرة بآلات تصوير مخفية وبعيدة المدى كي يتجنبوا اكتشافهم وضبطهم. وقد «حمضت» هذه الصور، التي اخذت من كل زاوية ممكنة، وارسلت الى تل ابيب حيث عرضت على السجناء السابقين في معسكرات الاعتقال النازية والذين رأوا فعلا ايخمان، وارسلت نسخ اخرى منها الى فينا والى اماكن اخرى في المانيا في محاولة لتحديد هوية صاحبها هناك. وقد كان الاخفاق في التعرف على صاحب الصورة تاما في حالات كثيرة، فبعض من رآها اكد انه ليس ايخمان لانه اكبر سنا جدا منه، ولم يكن آخرون واثقين منه، ولكن قلة اعلنت انه هو، ومع

ذلك بقي هنالك عنصر شك، اذ ان كثيرين ممن ادعوا انهم تعرفوا عليه قد رأوه دقائق قليلة فقط في حياتهم.

ان الخوف الشديد من الاخلال بالعملية كلها واختطاف رجل آخر جعلت ايسر هاريل يحجم عن التنفيذ حتى اللحظة الأخيرة. ولكن حدث، فجأة وعلى غير ما هو متوقع، احد تلك الاختراقات الجيدة التي تضع او تفسد عمل المخابرات السرية، فالعملاء الذين كلفوا بتصوير كليمنت طلب اليهم ان يسجلوا كل التفاصيل غير العادية وينقلوا كل حدث صغير مهما كان تافها. وقد صوره بعض العملاء، خفية، وهو عائد سيرا على الأقدام من عمله في معمل سيارات مرسيدس بنز في منطقة سواريس Suarez، في بيونيس ايرس، الى بيته، والتقط له آخر صورة وهو يخرج من احد الدكاكين يحمل في يده طاقة ازهار.

اهتم رئيس الفريق بهذه الصورة واراد، على الفور، ان يعرف هل هي هامة او ذات دلالة. ثم نقل اليه عميل اسرائيلي آخر، اتخذ من شقة، في الطابق العلوي لمبنى مواجه لسكن كليمنت، مكانا له يراقب منه بمنظار هذا السكن، ان كليمنت اخذ هذه الطاقة الى داخل بيته. نظر قائد الفريق هذا الى التاريخ في المفكرة

فاذا هو ٢١ آذار، اي الذكرى السنوية لزواج ايخمان من فيرا. وهنا أعلن لزملائه من العملاء «هذا هو، ان هذا اثبات خير جدا من تحديد هوية صاحب الصور. والجواب بسيط جدا، فلم يتوجب على الزوج الثاني ان يحتفل بالذكرى السنوية لزواجها الأول، ليس ثمة من شك في ان هذا هو الرجل الذي نبحث عنه».

ارسلت هذه الأخبار على الفور، بالشيفرة المتفق عليها، الى تل ابيب. وفي غضون ذلك ناقش الفريق، في الارجنتين، خير طريقة لاختطاف ايخمان. وكانت هنالك مشكلة الزمن الذي يستطيعون ان يضمنوا فيه السرية المطلقة لخططهم وعدم وصول اي شيء له او حتى تخمين ما ينتظره، اذ ان هذا الفريق ارتكب، من قبل، خطيئة او اثنتين لا يجوز لأي عَميل محترف ان يرتكبها، واحداها انه كان على الفريق، حين ادرك مدى عملية التصوير اللازمة لتحديد هوية ايخمان والتعرف عليه، ان يقيم ترتيباته الخاصة لتحميض الصور لاسباب أمنية، ولكنه بدل ذلك، وهو قليل الخبرة جدا بشؤون التصوير، اعطى الافلام لاحدى المؤسسات كي تقوم هي بتحميضها وطبع نسخ عنها، غير ان هذه بعثت بها

الى مصور آخر لم تطلب منه فقط تحميض الافلام بل طبع نسخ عليها وتكبيرها ايضا. وقد شك العملاء الاسرائيليون، لبضع ساعات، ان الفيلم ربما يكون قد وقع في ايدي الخصوم. على ان الامور سارت سيرا حسنا ما عدا الاختراق المحظوظ لحادثة طاقة الزهر، وسرعان ما تم الحصول على دليل اوثق عن طريق الدليل المصور، وما جعل ذلك ممكنا هو «تكبير» صور كليمنت كي تؤخذ في الحسبان مقاييس الوجه والخصائص الصغيرة، ثم مقارنة هذه مع نسخ مكبرة للصور القليلة، التي تم الحصول عليها، لايخمان قبل عشرين سنة.

وحصلت المخابرات الاسرائيلية على مفتاح آخر للغز هويته عن طريق لوثر هيرمان Luther Hermann وهو الماني نصف يهودي كف بصره في معسكر اعتقال داشاو Dacau وكان يعيش آنذاك في الارجنتين. فقد اصبحت ابنته صديقة لنيكولاوس ايخمان Nikolaus Eichmann، وهو ابن ادولف. وكان هذا يتحدث صراحة وعلنا عن كراهيته لليهود ويدلي بتعليقات مثل: «كان على هتلر ان يقضي على اليهود كافة»، وقد ذكرت الفتاة هذا لوالدها الذي طلب منها بدوره ان تصف له كليمنت، والد الفتى ومن

وصفها اقتنع الأب هيرمان ان هذا هو، ولا ريب، ادولف ايخمان، وجاءت عن هذا المصدر معلومات الدكتور بوير الأولى.

وجاءت معلومات أخرى من خليلة المانية سابقة لادولف ايخمان تبعته فعلا حتى الارجنتين حيث نبذت بوحشية وقبلت العمل في مطعم مجاور لمعمل مرسيدس بنز. ووفقا لما قاله الصحفي الاسرائيلي، فكتور الكسندروف Victor Alexandarov «كشفت هذه الامرأة عنوان ايخمان ليهودي من جورجيا هو ادولف توبير Adolf Tauber ويعرف بالاسم المستعار انستاس بريدز Anstasse Beridze[٥]»، وكان عميلا اسرائيليا. وكانت هذه الامرأة الالمانية مخبرة لدى فريق ارجنتيني معاد للنازية.

لقد كان هذا الفريق الارجنتيني هو الذي قدم مساعدات كبرى للعملاء الاسرائيليين حين ذهبوا الى بيونيس آيرس. والحقيقة ربما يكون من العدل القول انه، رغم مهارة العملاء الاسرائيليين وصبرهم، ماكانت عملية القبض على ايخمان ان تتم بهذه السهولة، بل ربما ما كانت لتنجح لولا المساعدة الارجنتينية ولولا، قبل أي شيء آخر، التعاون غير الرسمي من جانب المخابرات والشرطة السرية الارجنتينية التي كانت تراقب، مراقبة شديدة،

النازيين السابقين المعروفين، الذين يعيشون في الارجنتين، منذ أواسط الخمسينات، رغم ان هذه المراقبة كانت لاسباب تتعلق بالأمن الداخلي. ومنذ انتهاء نظام حكم بيرون كانت ثمة مطالبة قوية في اوساط الشرطة والمخابرات بوجوب ضبط اعضاء رابطة لا ارانا La Arana وهي منظمة سياسية، وكبح جماح الفاشيين الايطاليين والنازيين السابقين. وكشفت التحقيقات ان من بين هؤلاء النازيين السابقين الرجل الذي يحمل اسم ريكاردو كليمنت.

وكان الفريق الاسرائيلي قد سمع عن اكتشافات المخابرات الارجنتينية قبل ان يذهب الى بيونيس آيرس رغم انه لم يتلق رسميا اية معلومات عنها. ولكنه، حتى سنة ١٩٦٠ م. كان يعتقد ان الارجنتينيين قد دفعوا ايخمان الى مغادرة بلادهم فانتقل الى بوليفيا. ولكن ما لم يعرفه ان ايخمان، بعد ان انتحل عددا من الاسماء المستعارة في بوليفيا والباراغواي، عاد الى الارجنتين. وحين اقام الاسرائيليون اتصالا مكتوما وغير رسمي مع الارجنتينيين سرعان ما توصلوا الى استنتاج ان ريكاردو كليمنت المقيم في بيونيس آيرس ورودولفو سبي Rudolfo Spee الذي كان في بوليفيا، هما الشخص

نفسه. ومن الطبيعي ان جهاز المخابرات الارجنتينية سرعان ما آعْلِمَ ان الاسرائيليين اقاموا اتصالا معه وان العمل تم توجيهه منذئذ بناء على ذلك، وليس عبر القنوات الوزارية او السفارة: اي عن طريق جهازي المخابرات.

ولم يكن صعبا القيام بالعمل، فوجود ايخمان في الارجنتين كان مصدر اقلاق للحكومة الارجنتينية. وعلى حين كان آمنا نسبيا في ظل نظام بيرون، الذي اطيح به سنة ١٩٥٥ م، بات وجوده في الارجنتين، الى حد ما، محفوفاً بالمخاطر، ولهذا قرر ان يجرب حظه في باراغواي او بوليفيا. فالشخص الذي يصله بشرطة بيرون، وهو انتي بافليش Ante Pavelic النازي السابق من كرواتيا، لم يعد في وضع يستطيع معه ان يساعده. كما ان نظام فرونديزي Frondizi، في الارجنتين، كان يمقت البوليس السري السابق في عهد بيرون، وفضلت الحكومة الارجنتينية الا يطلب منها تسليم ايخمان، فقد كانت تدرك ان هذا لن يسبب مشكلات سياسية داخلية فحسب بل ان اصدقاء ايخمان سوف يهربونه فعلا الى مكان آمن قبل ان يتم هذا التسليم. ولهذا الح الى المخابرات الارجنتينية ان تراقب تماما الفريق الاسرائيلي، وطلب منها في مذكرة

سرية جدا، اشارت الى وجود كوماندوس اسرائيليين في جمهورية الارجنتين، ان تحجم «عن القيام بأي عمل ضدهم ما عدا ابقاء الوضع مسيطرا عليه».

ظل الارجنتينيون، وفقا لشروط البروتوكول الصارمة، محايدين، فلم يقدموا للاسرائيليين اية مساعدة ايجابية كي يتعقبوا طريدتهم او يعرقلوهم، ولكن هذا الحياد كان، في الواقع، ذا عون كبير للفريق الاسرائيلي. وليس ثمة من شك في ان دبلوماسية هاريل السرية وقدرا معينا من المساومة على المسائل المخابراتية وموقف الرئيس فروندیزي كانت جميعها عوامل مؤدية الى نجاح «عملية ايخمان».

ان ما خشيه الارجنتينيون، والاسرائيليون على حد سواء، هو ان ايخمان سوف يتلقى معلومات عن وجود الاسرائيليين ويختفي فجأة. ولهذا أصدرت المخابرات الارجنتينية امرا، في ايلول ١٩٥٩ م، بأن يلاحق عملاؤها ريكاردو كليمنت، كظله، ليل نهار. وفي التاسع من ذلك الشهر بيّن القائد خورفي مسينا Jorge Messina، المدير العام لهيئة «المخابرات المركزية الارجنتينية، في مذكرة اخرى ان ريكاردو كليمنت «قد شوهد، برفقة نازي آخر

ذي رتبة عالية»، في جوار لا غالاريتا La Gallareta في مقاطعة سانتا في Santa Fe. وينطبق وصف ذلك الرجل الآخر على جوزيف منجلي Joseph Mengele».

وهكذا يتبين ان الارجنتينيين كانوا متنبهين لا الى وجود ايخمان فحسب بل الى وجود نازيين آخرين في مرحلة مبكرة وقبل ان يرسل ايسر هاريل فريق الكوماندوس الى بيونيس آيرس. ومن المحتمل ان الدكتور بوير تلقى توكيدا ما غير رسمي من الارجنتين ان معلوماته الأخرى، عن مكان ايخمان، صحيحة.

ولكن يجب الا يتبادر الى الذهن، كما تردد في بعض الأوساط، أن الارجنتينيين جديرون بكل الثناء بسبب ايجاد ايخمان. بل من المشكوك فيه انهم لم يكونوا جد تواقين الى مراقبته لولا وجود الفريق الاسرائيلي. ولا بد ايضا من تذكر ان العملاء الاسرائيليين في الارجنتين كانوا نشيطين، ولكن بهدوء، قبل ان يرسل ايسر هاريل فريق تحقيقه الخاص. ولا ريب ان الصلات الدبلوماسية بين بن غوريون وفرونديزي، مع التعاون النشط من جانب هاريل مع المخابرات الارجنتينية، هي التي، من ناحية اخرى، مهدت الطريق امام تنفيذ ناجح للعملية كلها.

وقرر هاريل ان من الضروري ان يذهب هو نفسه الى الارجنتين كي يشرف على عملية اختطاف ايخمان ونقلـه الى اسرائيل. وفي غضون ذلك اختار، بعناية كبرى، قوة العمل من كوماندوس المخابرات معتمدا على الرجال الذين اثبتوا، من قبل، مبادرتهم اثناء خدمتهم في صفوف الهاغاناه والبالماخ والتنظيمات الاخرى التي سبقت قيام اسرائيل. وتولى قيادة هذه المجموعـة شخص تمرس في صفوف البالماخ منذ كان في الثامنة عشرة، وتولى شخصيا مسؤولية تدمير جهاز الرادار البريطاني على جبل الكرمل، اما في العمليات الأخرى فقد برز في قيادة الجنود في العمليات الليلية بمناطق القتال. وكان عدد فريق الكوماندوس هذا يتألف من احد عشر فردا بينهم طبيب وشالوم داني الخبير في التزوير.

ودرست شتى الوسائل لنقل ايخمان الى اسرائيل، وقد فكر هاريل اولا ان يرسل سفينة اسرائيلية الى بيونيس آيرس، ولكن هذه الخطة الغيت اخيرا لان الرحلة سوف تستغرق وقتا طويلا وتتوقف السفينة في بعض الموانىء مما يخلق مشكلات أمنية. وحدث ان الارجنتين كانت ستحتفل في ايار ١٩٦٠ م بالعيد السنوي المائة والخمسين لاستقلالها، وتلقت اسرائيل، مع بلدان اخرى، دعوة

لارسال وفد عنها بتلك المناسبة، وهكذا ابتكر هاريل خطة ارسلت اسرائيل بموجبها طائرة خاصة الى بيونيس آيرس تحمل الوفد مع بعض افراد فريق الكوماندوس الذين تخفوا كمستخدمين على الطائرة او موظفين ملحقين بالوفد.

وليس ثمة من شك في ان المخابرات الارجنتينية قدرت ان الاسرائيليين سوف يحاولون تهريب ايخمان، حين يختطفونه، الى طائرة العال، ولكنها لم تبذل اية محاولة لتتدخل. بل لقد بدت كأنها تعرف، على الأقل، بعض أسماء قوة العمل الاسرائيلية التي دعتها، هذه المخابرات، باسم «لواء الصقور الزرق الخاص»، لأنها سجّلت في تقاريرها أن قائد هذه القوة هو يهودا سيموني[٦].

كانت طائرة العال هي طائرة لشركة بريتانيا Britannia ومن صنع بريطاني، وقد غادرت تل ابيب في ١١ أيار ووصلت الى بيونيس آيرس في اليوم التالي. وكان مقرراً لها ان تعود في ١٣ أو ١٤ ايار مع الادعاء ان اصلاحات طفيفة قد تؤخرها، في حالة الضرورة القصوى، يوماً آخر. وفي غضون ذلك كان الأفراد الرئيسيون في فريق الكوماندوس يقيمون في بيونيس آيرس ينتظرون الاشارة التي تطلب منهم ان يختطفوا ايخمان. وكان من بينهم الرجل الذي

يستطيع بموثوقية كبرى، ان يميّزه، ولم تكن المسألة هي هل الرجل الذي يختطفونه هو فعلا ايخمان بمقدار ان رجلا آخر قد يحل محله في اللحظة الأخيرة، فاذا رغب شخص ما في ان يُلْحِقَ بالاسرائيليين اي اذى فان كل ما عليه ان يفعله هو ان يستخدم رجلا ليكون «بديلاً» عن ايخمان، فيسبب من ثمة فضيحة ذات أبعاد دولية. ولذلك كان الكوماندوس مزودين بأدق تفاصيل أوصاف ايخمان وحتى مقياس حذائه ومحيط رأسه، وبعض العلامات الفارقة مثل ندبة فوق حاجبه الأيسر، ووشم أحمر تحت ابطه الأيسر الذي هو اجراء رسمي لضباط الصاعقة الألمانية، وندبة عملية استئصال الزائدة. وكانت أوامر هاريل ان يجري فحص دقيق لايخمان، فور القاء القبض عليه، من اجل تحديد هويته تماما.

كان التاريخ الذي حدد لالقاء القبض على ايخمان هو العاشر من أيار، اي قبل يومين من وصول طائرة العال. وكان شالوم داني قد وصل، من قبل، الى بيونيس آيرس مع كامل معداته متخفياً كفنان، وكانت الفراشي واقمشة القنب الخشن تبدو من بين امتعته، فاستطاع بذلك ان يمر عبر الجمارك دون اية صعوبة رغم انه دفع مبلغا اضافيا بسبب زيادة وزن امتعته. وشالوم

داني هذا ولد في هنغارية سنة ١٩٢٨ م، ورأى الألمان يستولون على بلده بالتعاون مع الاميرال هورتي Horthy ، كما شاهد والده وهو يساق الى معسكر اعتقال بلسن Belsen حيث مات. وقد افلح شالوم نفسه في الهرب الى النمسا حيث اقام الى ان استطاع الانتقال الى فلسطين في سفينة تنقل مهاجرين غير شرعيين اليها. وقد التحق بالمخابرات الاسرائيلية، وامضى فيها وقتاً طويلاً، وكان لا مثيل له في تزوير الوثائق. وقال عنه ايسر هاريل انه «فرد اساسي في فريق الاختطاف، وهو حِرَفي جد ماهر في ذلك الفن الدقيق، اي في تزوير الوثائق الرسمية من كافة الانواع ولا سيما وثائق الهوية.... لقد جعلته قدرته على القيام بهذا العمل في اي وقت، وفي اية ظروف، مثالاً بارزاً لزملائه العاملين»[٧].

نصب داني معداته، خلال بضع ساعات من وصوله الى بيونيس آيرس، في مخبأ سري واخذ يعمل بنشاط، فقد كان عاملاً مجداً في كل ما يكلف به، واستخدمته الموساد في اماكن مختلفة من اوروبا. وكان، حين لا ينهمك في تزوير اوراق الهوية المزيفة يكرس نفسه لهوايته في الرسم الملون على الزجاج. وفي ذلك الوقت تقرر جعل موعد القاء القبض على ايخمان في الحادي عشر من ايار

على امل تقليص فترة احتجازه في الأراضي الارجنتينية قبل وضعه في الطائرة الاسرائيلية. واختير المخبأ، الذي سيحتجز فيه، بعناية كبرى، وكان مكانا آمنا تماما.

غادر ايخمان منزله في شارع غاريبالدي Garibaldi، كعادته، صباح الحادي عشر من ايار ليذهب الى عمله، فراقب تحركاته، منذ تلك اللحظة، ثلاثة من افراد الفريق الاسرائيلي. وقبيل الغسق غادر عمله ليعود بالباص الى منزله، وكان الافراد الرئيسيون في فريق الكوماندوس يجلسون في سيارة وينتظرون قرب موقف الباص عند بيت ايخمان.

وقبيل السادسة والنصف تماما ظهر الباص، وتجاوز ببطء السيارة المتوقفة وتوقف في المكان المخصص لوقوفه. وقد كان الحظ الى جانب الفريق المنتظر، اذ كان ايخمان هو الراكب الوحيد في الباص. وبينما ادار احد هؤلاء محرك السيارة اقترب ثان من ايخمان وهو يسير على الرصيف باتجاه بيته... وخرج الثالث من السيارة وتقدم منه مسرعاً. وكان الاختطاف مهمة الثاني، وقد ضمن له نجاح ذلك تدريبه على الجودو في الكوماندوس. وصدرت عن ايخمان صرخة واحدة مبتسرة حين تم الامساك به، ثم صمت حين

كومه مختطفوه في السيارة. وخدم الحظ هؤلاء مرة أخرى، اذ لم يكن هناك احد حولهم آنذاك.

استغرقت العملية كلها نحو نصف دقيقة،وقد القى اثنان بايخمان على ارض السيارة وامسكا به جيدا بينما قاد الثالث السيارة الى المخبأ. وخلال الطريق توقفوا لفترة وجيزة من اجل تبديل لوحتي ارقام السيارة، ثم تابعوا السير الى مرآب البيت «الآمن»، ونقل ايخمان الى داخل المنزل عبر ممر فيه.

عرى ايخمان من ملابسه، وفحص طبيا، ولم يسأل عن هويته الا بعد اتمام فحصه بدقة. فلم يحاول ان يراوغ، فاعترف انه ادولف ايخمان، وانه جاء الى الارجنتين سنة ١٩٥٠ م باسم ريكاردو كليمنت. وفي غضون دقائق نقلت هذه الانباء الى تل ابيب عن طريق شيفرة متفق عليها.

وكان ايسر هاريل قد اتخذ، في تخطيطه، كل احتياط ضد عقبات الدقيقة الاخيرة وعراقيلها. بل لقد تنبأ بالحاجة المحتملة الى نقل ايخمان لمخبأ اخر، وقد اعد مكان مناسب لذلك فعلا، بيد ان كل شيء سار وفق الخطة الموضوعة. على ان اسوأ مراحل العملية كانت بانتظار اللحظة المناسبة لنقل ايخمان، بأمان، الى

طائرة العال ، فقد استغرق ذلك ، ولاسباب شتى ، انتظار اسبوع كامل كان اطول جدا مما رغب فيه هاريل ، فماذا كان سيحدث اذا اخبرت زوجة ايخمان واسرته الشرطة باختفائه او اذا اعلمت الصحافة نبأ الاختفاء؟ وماذا سيحدث إذا حاول النازيون لآخرون، المقيمون في الإرجنتين، القيام بانقلاب مضاد وربما بهجوم بالقنابل على السفارة الاسرائيلية؟ او هل يمكنِ الاعتماد على المخابرات الارجنتينية؟ وهل سينقل احد عملائها المعلومات الى النازيين؟ .

والحقيقة ان المخابرات الارجنتيئية راقبت ، مراقبة شديدة جدا ، العملية الاسرائيلية حتى انها حددت البيت «الامن» الذي احتجز فيه ايخمان ، وفي مقابلة تالية مع المجلة الالمانية الاسبوعية كويك Quick قال نيكولاوس ايخمان ، الابن الاكبر لادولف : (لقد بحثنا طوال يومين عنه في مراكز الشرطة والمستشفيات واماكن حفظ الجثث ، ولكن دون جدوى، ثم فهمنا انه محتجز وسجين . لقد وضعت مجموعة من الشبان البيرونيين نفسها بتصرفنا .. وازددنا مرارة ، وخلال تلك الساعات خطط للقيام بأشد الأعمال تطرفا ، وقال قائد هذه المجموعة : «لنخطف السفير الاسرائيلي ،

لنخرجه من المدينة ونعذبه الى ان يعود ابوك الى البيت». ولكن هذه الخطة رفضت، واقترح بعضهم نسف السفارة الاسرائيلية».

وهكذا، كانت مخاوف هاريل في مكانها، وبدا اسبوع الانتظار طويلا كشهر لفريق الكوماندوس الذي امضى بعض افراده الوقت في محاولة لاقتفاء اثر المراوغ الدكتور جوزيف منجلي ــ طبيب معسكر اوشفيتز، ولكن دون نجاح. وبعد ظهر يوم المغادرة حقن ايخمان بدواء جعله يشعر بنعاس شديد، ولفقت حكاية تغطية بتوثيق من شالوم داني: فهذا المسافر المريض اصيب، قبل ايام، اصابات خطرة في حادث سيارة، بل كانت هناك شهادة طبية لتبين انه يستطيع السفر جوا، ولكن يجب عدم ازعاجه اكثر من اللازم بسبب الاصابات في رأسه. وكان كل ما على شالوم داني ان يفعله هو توفير بعض الوثائق الاضافية مع نقل صور ايخمان الى هذه الأوراق.

حمل ايخمان الى سيارة متوقفة تنتظر، انطلقت نحو مطار بيونيس- آيرس. وقد اتخذ بعض افراد الفريق وضعية الممرضين والاخرون صفة اقارب المسافر المريض، وسرعان ما نقل ايخمان الى طائرة العال التي اقلعت في تلك الليلة الى تل ابيب، ولم تتوقف الا

في مطار دكار، بالسنغال، لتتزود بالوقود. وفي الثالث والعشرين من ايار اعلن بن غوريون، رئيس الوزراء، في الكنيست المكتظ، انه «قد تم العثور على ادولف ايخمان، وهو الان معتقل في اسرائيل، وسيقدم قريبا الى المحاكمة بموجب قانون عقوبات النازيين والمتعاونين مع النازيين، الصادر سنة ١٩٥٠ م». وكتب موشه بيرلمان، المستشار السابق لرئيس الوزراء الاسرائيلي في الشؤون العامة. «تكهرب الكنيست، وساده صمت تام بضع ثوان، وفجأة انفجر التصفيق من كل جهة»[٨].

ومهما يكن من امر فان اختطاف ايخمان، لولا تعاون المخابرات الارجنتينية السري، سيكون اصعب جدا، إذ من المؤكد انه ما كان لينفذ بدون طائرة اسرائيلية، وكان على فريق الكوماندوس ان ينتظر فرصة مناسبة لتهريبه على قارب مستأجر في غياهب الليل. ومع ذلك فان وجود طائرة وزير الخارجية، أبا ايبان، هذه مع الجنرال مايير زوريا، من الجيش الاسرائيلي، ويهودا يعابي، من دائرة الشؤون الثقافية، كان عونا كبيرا لذلك النوع من دبلوماسية المخابرات التي برع بها الاسرائيليون. وحين اعلن بن غوريون لاول مرة ان ايخمان قد اعتقل، وانه «معتقل في اسرائيل»، لم يقل كيف

تم الامساك به واين. ولم تخبر اسرائيل الارجنتين رسميا، الا في حزيران ١٩٦٠ م. ان بعض «المتطوعين» الاسرائيليين قد اختطفوا ايخمان في بيونيس آيرس. وقد تم هذا الكشف في مذكرة جوابية لطلب ارجنتيني توضيح التقارير عن ان عملاء المخابرات الاسرائيلية قد اختطفوا ايخمان. ومع ان تنبؤات ظهرت عن قطع العلاقات بين الارجنتين واسرائيل الا ان المسألة كلها سرعان ما طمست، وربما كان هذا دلالة على ان الاحتجاجات، التي ظهرت في بريطانيا وبعض الدول الاوروبية، على العمل الاسرائيلي كانت اعنف جدا واشد صخبا منها في الارجنتين.

قدم ايخمان الى المحاكمة، وفي ١٣ كانون الأول ١٩٦١ م. ادين بالاتهامات الخمسة عشر التي وجهت اليه، وهي تتضمن ترحيل اكثر من نصف مليون يهودي بولوني واربعة عشر الف يهودي سلوفيني، والتسبب في قتل ملايين اليهود، وكونه شريكا في قتل عشرات آلاف الغجر وتسعين طفلا في ليديس. وقد حكم عليه بالاعدام شنقا، ونفذ به الحكم في الأول من حزيران ١٩٦٣ م. بعد ان رفضت المحكمة العليا الاسرائيلية استئنافا تقدم به اليها.



الفصل التاسع

انجازات يوفال نيعمان التقنية

«لأن اسرائيل بلد صغير يحيطه الأعداء، وتعتمد على الاحتياط العسكري سريع التعبئة، لا على الجنود المحترفين، كان عليها ان تعتمد على المعلومات والمخابرات الدقيقة وعلى تقييمها، فالعملية باهظة التكاليف، بدعوة قوات الاحتياط، تربك الحياة الاقتصادية العادية ويمكن تجنبها ما لم يكن هنالك خطر داهم».

سي. ل. سولزبيرغ[1]

C. L. Sulzberger

خلال الخمسينات حافظت اسرائيل على علاقات ممتازة مع فرنسا، كانت قد تطورت وتنامت خلال سنوات ما بعد الحرب حين اتخذت الهاغانا من فرنسا قاعدة لبعض نشاطاتها السرية. وقد امتد هذا التعاون الى ميادين المخابرات، وكان مفيدا جدا في ميدان المخابرات البحرية بفضل الترتيب المتعاطف، الذي وضعه ضابط الباليام السابق مع الاميرال بيير بارجو Perre Barjot. وذا قيمة ضخمة لأسرائيل اثناء حملتها العسكرية ضد مصر سنة ١٩٥٦ م. وقد استمرت هذه العلاقة بين المخابرات الاسرائيلية والفرنسية طيلة سنوات عديدة.

لقد كانت صلات المخابرات الاسرائيلية مع كلتا المخابرات الفرنسية ووكالة المخابرات المركزية الاميركية هي التي ابقت الاسرائيليين مطلعين على المخططات البريطانية زمن ازمة السويس سنة ١٩٥٦ م. وقد اعلن احد عملاء الموساد: «كنا نعرف دائما ان البريطانيين سوف يفقدون اعصابهم لان الوزارة البريطانية كانت تتصرف طيلة الوقت لا كما لو انها تخاف ظلها فقط بل لان افرادها يخشى الواحد منهم الآخر. والحقيقة انه كان في تلك الوزارة العديد من المخادعين والدجالين والمنافقين الذين يسرهم جدا الفوز بكامل

الفضل اذا سار غزو السويس سيرا حسنا ، ولكنهم سيتخلون عن رئيس الوزراء في اللحظة التي تسوء الامور فيها . ولذا علمنا من اتصالاتنا مع وكالة المخابرات المركزية ان بعض اعضاء الوزارة البريطانية لم يخبروا بمخططات الغزو ، فقد كانت وكالة المخابرات المركزية تعلم عن الخطط البريطانية ، من خلال اتصالاتها بجهاز المخابرات البريطاني ، اكثر مما يعرفه بعض الوزراء في لندن . وكانت المعونة التي تلقيناها ، بشكل غير رسمي ، من وكالة المخابرات المركزية الاميركية هي المعونة الوحيدة التي تلقيناها في ذلك الوقت من الولايات المتحدة ، فقد كان ايزنهاور يغتنم كل فرصة ليقول لنا الا نعرض السلام للخطر ، ولكنه ادان الانتفاضة في المجر » .

على ان وكالة المخابرات المركزية ، رغم معاداة ادارة ايزنهاور « لمغامرة السويس » ، تعاطفت آنذاك سراً مع اسرائيل ولا سيما أولئك الأفراد الذين عانوا من التجربة المباشرة للتسربات المريعة ومظاهر الخيانة في صفوف المخابرات البريطانية .

ولكن كارثة السويس التي سببها الانسحاب البريطاني ــ الفرنسي من منطقة القناة بعد الانزال الفاشل عَلَّم اسرائيل درس ان عليها ان تقوم بكل شيء لوحدها وان تعتمد كليا على جهودها

الخاصة. وثمة قليل شك في ان الفرنسيين، لو لم تفقد الحكومة البريطانية اعصابها، كان من الممكن اقناعهم ليواصلوا الضغط فترة تكفي للاطاحة بعبد الناصر الذي كان، بالنسبة لاسرائيل، الرجل الذي تجب الاطاحة به.

لقد كان الساسة البريطانيون، وبخاصة اولئك الذين ينتمون الى حزب المحافظين في تلك السنوات العصيبة المصيرية، حين نثرت بذور الكارثة والانحطاط في بريطانيا، يكذبون دائما محاولين ان يتظاهروا بعدم وجود تواطؤ مع اسرائيل زمن ازمة السويس. وقد اوضح موشه دايان في سيرته انه هو ايضا قد اغضبته الاكاذيب المنكرة التي قالها الساسة البريطانيون عن هذا الموضوع، فقد كتب معلقا على مخادعة البريطانيين الجبانة اثناء المحادثات مع الفرنسيين، قبل القيام بغزو السويس، ما يلي: «قد يكون وزير خارجية بريطانيا ـــ سلوين لويد Selwyn Lloyd رجلا صديقا لطيفا جذابا محببا، الا انه اظهر ما يقرب من العبقرية في اخفائه هذه الصفات»[٢]. لقد كان على دايان ان يعرف انه هناك ليلحظ سلوك البريطانيين الغدار.

استحوذت المخابرات الاسرائيلية، وفي تلك السنة نفسها، على خدمات رجل قام بتثوير مخابراتها العسكرية، كما وفر المزيد من

الأمن الحيوي لاسرائيل. انه يوفال نيعمان Yuval Ne'eman المولود في تل ابيب سنة ١٩٢٥ م، ودرس في حيفا ثم في الكلية الامبراطورية بلندن حيث حاز على دكتوراه في العلوم. وقد التحق نيعمان بمدرسة الحرب في باريس بعد ان خدم في جيش الدفاع الاسرائيلي وشارك في حرب سنة ١٩٤٨ م، ثم اخذ يبدي اهتماما كبيرا بالمظاهر التقنية للحرب العسكرية وبخاصة لعلم الحاسوبات(*) الالكترونية Computorology الجديد. وتولى نيعمان منصب نائب قائد لواء جيفاتي Givati وانضم الى امان سنة ١٩٥٤ م. وكانت المخابرات العسكرية تعتمد الى حد كبير آنذاك على عملية انتظار التقارير التي يبعث بها العملاء الأفراد. فقد وجد نيعمان ذلك غير مناسب لاسرائيل المحاطة من كل جانب بدول صريحة العداء لها، والتي تواجه الرئيس عبد الناصر الذي رأى التقهقر المهين للفرنسيين والانكليز من السويس، ويعد الآن صراحة لحرب شاملة معها، ثم اعلن ان «مصر قد تكون تلقت ضربة منا وهزمت سنة ١٩٥٦ م، ولكنها تستعيد قوتها باسرع مما نظن. ونحن نستطيع ان

(*) اقرت هذه التسمية اخيرا للحاسب الالكتروني او الكومبيوتر، وسنستعملها، وقد نستعمل احيانا التسمية السائدة «الحاسب الالكتروني».

(المترجم)

نتعامل مع هذا الخطر الحقيقي جدا فقط بان نكون اكثر اطلاعا، وان تطلعنا المخابرات العسكرية وتنقل الينا المعلومات اكثر مما يفعل العرب، فنحن لا نستطيع الانتظار الى ان يهرّب الينا شخص ما شيئا في تقرير من القاهرة او دمشق رغم ان ذلك يكون مفيدا ولا شك، فبقاؤنا قد يعتمد، يوما ما، على حصولنا على معلومات فورية عن موضوع معين. تذكّرْ ان مصر او سورية تستطيع الواحدة منها ان توجه الينا ضربة عن طريق الجو في غضون دقائق وعن طريق البر في غضون ساعات».

ربما لم تكن اية دولة، في العصر الحديث، في حاجة الى سيل دائم من «المعلومات الفورية» كما تصور نيعمان في اواسط الخمسينات. ومع ان الموساد قدمت قدرا وجيزا من المعلومات داخل الدول العربية، الا ان الجيش الاسرائيلي ظل في حاجة لا الى المعلومات الفورية عن التحركات العربية ذات الطبيعة العسكرية فقط بل الى وسائل تحليلها وتفسيرها بالسرعة المطلوبة. ونتيجة لحث نيعمان ومطالباته إتسع مدى «امان»(*) اتساعا كبيرا حتى

(*)اي المخابرات العسكرية الاسرائيلية.

(المترجم)

انها لعبت خلال الستينات والسبعينات دورا متزايد الاهمية والحيوية ، وكان عليها ان تتعامل فقط مع عدو محتمل طوال الوقت ، وهو ائتلاف الدول العربية المؤيد للتدخل المصري ضد اسرائيل ، تاركة الموساد وهيئات المخابرات الأخرى ان تراقب مكائد موسكو . على ان امان ، رغم توسيعها تقنيات تجسسها ومدها الى علم الحاسوبات الالكترونية ، لم تهمل قط الاجراءات القديمة هذه مثل المعلومات التي يتم الحصول عليها عن طريق العملاء ، وهي هامة ايضا ، وعن طريق اسرى الحرب . وكانت الاساليب الاسرائيلية في استجواب اسرى الحرب من البلدان العربية كفؤة تماما ، وبنيت على دراسة دقيقة للعمليات النفسية العربية .

لقد صمم الدكتور نيعمان على اعادة تنظيم « امان » حتى تصبح ، من الناحية التقنية ، على قدم المساواة مع هيئات المخابرات الاميركية رغم انها ليست ، بالطبع ، على المستوى العالمي نفسه . ولم يكن سهلا على عالم ان يختصم والجنرالات لا سيما ان « امان » معروفة بانها احتياطي الجنود . ومع ذلك فان اسرائيل كانت تختار ، بعناية كلية دائما ، قادتها العسكريين الذين عينوا في مراكز عالية في المخابرات ، وكانوا جميعهم من الرجال المهرة الذين اثبتوا ايضا

انهم أكفاء في دنى الاعمال والاذاعة والادب. واحد هؤلاء هو الجنرال يهوشفاط هاركابي Y. Harkabi المتخصص في الفلسفة والادب العربي في الجامعة العبرية في القدس، وثمة آخر هو البيريغادير جنرال حاييم هيرتزوغ(*) الذي صنع لنفسه، فيما بعد، اسما في الأوساط القانونية، بوصفه مذيعا ومؤلفا، وفي دنيا الاعمال. أما نيعمان نفسه فلم يتول قط رئاسة امان، ولكنه كان شخصا بارزا والمع عقل ارتبط بتلك الهيئة، كما كان ايضا مبتكراً مرموقا.

اظهر يوفال نيعمان وعدا مبكرا بوصفه تلميذا لامعا في الرياضيات في مدرسة هرصليا Herzlya في تل ابيب، واستطاع في سن الرابعة عشرة اجتياز اشد الامتحانات صعوبة واكثرها تقدما، وفي سن التاسعة عشرة حاز على شهادة عالية من حيفا. وكان زملاؤه يلقبونه «الدماغ»، ولكنهم كانوا يهونون من شأن الشجاعة الهادئة وقوة الارادة الطبيعية لهذا الرجل الضئيل الجسم الخجول الصامت النحيف، وقد ضحكوا حين قرر الانضمام الى القوات

(*)اختير رئيساً لاسرائيل بعد انتهاء مدة اسحاق نافون سنة ١٩٨٢ م.

(المترجم)

الاسرائيلية في حرب سنة ١٩٤٨ م. وتساءلوا: بِمَ سيحارب؟ ابمسطرته الحاسبة؟ ولكنه فاجأهم جميعا، فقد ارتقى الى رتبة عقيد، وكان ضابطا على درجة عالية من الكفاءة. على ان نيعمان كان يعود الى كتبه كلما حدث توقف في القتال، ويسجل ملاحظات وفيرة ولا يضيع اية لحظة. ثم اخذ، بوصفه رياضيا، يرى التكتيكات العسكرية ضمن شروط المسطرة الحاسبة والحاسوبات. وكان ايضا على معرفة بالعرب، فقد امضى شطرا من طفولته مع عائلته في القاهرة حيث التحق بمدرسة فرنسية. ووسع نيعمان آفاقه ايضا بأن ذهب الى فرنسا للدراسة في المدرسة الحربية بعد انضمامه الى «امان»، واصبح سنة ١٩٥٤ م الرجل الثاني فيها بعد الكولونيل بنيامين جيفلي Benjamin Givli، وبقي بعد ذهاب جيفلي ليصبح نائب رئيس «أمان» الجديد، وهو يهوشفاط هاركابي.

اصر الدكتور نيعمان على ان وزارة الدفاع تحتاج الى حاسوبات الكترونية لجمع المعلومات العسكرية وتحليلها، وكانت المعارضة الرئيسية لتركيب هذه الحاسوبات تقوم على اساس من كلفتها رغم ان بعض القادة العسكريين، ذوي العقلية القديمة، كانوا يحاجون في ان الطرق التقليدية في الحصول على المعلومات

العسكرية كافية تماما. وقد اجاب نيعمان: «قد تكون هذه كافية اليوم، وربما تكون كذلك غدا او في السنة القادمة، ولكن سيحكم علينا بالهلاك اذا لم نحصل، في غضون عشر سنوات، على الحاسوبات الالكترونية ومحطات المراقبة الالكترونية في سيناء».

على ان كلا نيعمان والرئيس الجديد «لامان» كانا متفقين في الرأي، فيهوشفاط هاركابي هو ابن احد القضاة، ودرس الفلسفة والتاريخ واللغة والادب العبريين في القدس. وفي سنة ١٩٤٣ م التحق بالكتيبة اليهودية الثانية في الجيش البريطاني برتبة مساعد يتولى التدريس. ثم تابع دراساته الاكاديمية بعد تسريحه، وتدرب ضمن الكادر الأول لدبلوماسيي اسرائيل المقبلين، وتولى اخيرا رئيس القسم الآسيوي في وزارة الخارجية الاسرائيلية ثم اصبح ضابط الاتصال بين وزارة الخارجية والجيش. وقد اشترك هاركابي في الوفد الرئيسي الى محادثات الهدنة في رودس سنة ١٩٤٩ م، كما شارك في المحادثات السرية مع الملك عبد الله. وبعد ان تخصص في الدراسات العلمية في فرنسا عين رئيسا «لامان»، وظل في منصبه هذا حتى سنة ١٩٥٩ م.

ربما كان من سوء حظ نيعمان انه لم يكن فقط قارئا مثابرا

للمسلسلات الهزلية المصورة، وهذه واحدة من حالات الاسترخاء القليلة التي اتاحها لنفسه، بل انه جامع متفان لها. وقد امسك نقاده بهوايته هذه واعتبروها دليلا على غرابة اطواره وعدم اهتمامه بالقضايا العالمية، وكانت المسلسلات الهزلية الخيالية العلمية في اوجها آنذاك، واتهموه انه يستعير الافكار من العقول الخصيبة لكتاب هذه المسلسلات. وكان في ذلك ظلم له لان نيعمان، بدراسته المجدة، قد اختط الحاسوب التقليدي والاساليب الالكترونية في ميدان المعلومات الذي كان آنذاك لا يزال يخضع للتجربة. لقد اراد تقييما يوميا للتوزيعات والانتشارات البحرية والعسكرية لاعداء اسرائيل المحتملين مما يمنحها ميزة هامة جدا في الزمن بميدان المخابرات. وكانت لديه حجة واحدة لم ترق فقط للعسكريين بل للوزراء المدنيين ايضا الذين كانوا مهتمين بالتقدم الاقتصادي لاسرائيل، فقد استطاع ان يبين ان سبع سكان اسرائيل، وعددهم حوالي مليونين ونصف المليون، كان من قوات الاحتياط وعرضة لان يستدعى للخدمة، رغم ان الجيش العامل هو فقط ثمانون الفا. وهكذا اقر الفكرة التي تضمنتها الفقرة المقتبسة من س. ل. سولزبيرغر في صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون التي سجلت في بداية هذا الفصل. وكانت نقطة نيعمان الحاسمة

هي ان استدعاء قوات الاحتياط، المبني على معلومات او استخبارات قديمة او تحليلات غير دقيقة، حين يشك في تحركات العدو، يمكن ان يكون اكثر تكلفة على اقتصاد اسرائيل، لتعطيله الانتاج، من تركيب الحاسوبات الالكترونية.

واثبتت هذه الحجج انها حاسمة في كسب بعض الوزراء، ولكن نيعمان تلقى دعما حازما من موشه دايان، وكان آنذاك رئيسا للأركان، فقد ملك هذا مخيلة كي يرى ما يمكن للحاسوبات ان تقدمه في ميدان الدفاع عن اسرائيل. واستطاع دايان ان يتغلب على المعارضة داخل وزارة الدفاع عن طريق كسب معونة بن غوريون لتأييد قضية نيعمان. كما افلح في تعيين نيعمان، مؤقتا، ملحقا عسكريا في لندن سنة ١٩٥٨ م. حتى يستطيع تكريس المزيد من الوقت للبحث العلمي ويحوز على درجة الدكتوراة في الفيزياء. لقد كان دعم دايان لنيعمان احدى خدماته لاسرائيل حين كان في وزارة الدفاع.

وعلى حين كان نيعمان يكسب معركته لتركيب حاسوبات الكترونية لتوثيق المعلومات وتحليلها يوميا، ولاقامة اجهزة استخبارات الكترونية، ابدى ايضا اهتماما كبيرا ببحوث اسرائيل

في القوة النووية. وسرعان ما عين مديرا للفرع الصناعي في لجنة الطاقة الذرية ومشرفا على مختبر للبحوث (في ناحال سوريك) لتطبيق الفيزياء النووية من اجل الاغراض العسكرية. وفي مستعمرة ناحال سوريك هذه، المتاخمة لبلدة ديمونا في شمالي صحراء النقب، طورت اسرائيل امكانيتها النووية، فقد اقيم فيها مفاعل نووي صغير استخدم مكانا لتدريب العلماء والتقنيين رغم انه ليس ذا شأن ضمن معايير القيمة العسكرية، اذ ان قدرته ستة ميغا واط حراري.

واقامت اسرائيل، بفضل مبادرة يوفال نيعمان، مفاعلا اكبر، فيما بعد، في بلدة ديمونا ايضا قدرته اربعة وعشرون ميغا واط حراري، وبذا يستطيع انتاج ما يكفي من البلوتونيوم لانتاج قنبلة ذرية سنويا طاقتها تساوي تلك التي استخدمت في ناغازاكي. لقد كان هذا هو الوضع سنة ١٩٧٢ م. وفقا لاكثر التنبوءات العلمية حذرا وتدقيقا، وليس ثمة من شك الآن في ان دراسة اسرائيل النووية متفوقة على العرب، وهكذا يمكن ان يعزى هذا النجاح الى نفوذ «امان» على التفكير العسكري، وربما يكون هذا هو اول مثال في العصور الحديثة على تمهيد المخابرات الطريق امام التجريب العسكري، ولكنه كان ايضا ثمرة ذلك التعاون الوثيق، بين اسرائيل

والمخابرات الفرنسية ، الذي استمر فترة طويلة . لقد صور الجنرال ديغول مرارا على انه معاد لاسرائيل ومنحاز للعرب ، ولكن لا شيء يمكن ان يكون ابعد من هذا عن الحقيقة ، وليس هذا من اجل القول ان الجنرال ديغول ، ولا سيما في الفترة الاخيرة من رئاسته ، لم ير نفسه حكما نزيها بين العرب واليهود ، ولكن تعاطفه مع اسرائيل ومع اليهود الفرنسيين كان واضحا دائما . وحين تولى بيير منديس ــ فرانس Pierre Mandés France رئاسة فرنسا لفترة قصيرة من الزمن كان الجنرال ديغول هو الذي قدم له ، في الخفاء ، الدعم والمشورة . لقد بني مفاعل ديمونا بتعاون فرنسي ، وظلت الترتيبات الثنائية بين فرنسا واسرائيل سرية منذئذ .

لقد قيل ان اسرائيل ابدت موقفين متضادين حول مسألة الحرب النووية ، وانها كانت كتومة جدا حول موضوع بحوثها النووية ، فهي تقول انها محاطة بدول عربية معادية تتلقى الدعم من دولة نووية هي الاتحاد السوفييتي . لقد كان على اسرائيل ان تدرس ايضا لا احتمال الحاجة الى حيازة سلاح ذري ، بل شحنات المواد الخام اللازمة لصنعها ، ولذا أجرت محادثات سرية جدا مع الفرنسيين والبلجيكيين لضمان شحنات البلوتونيوم من الغابون

والكونغو، وكان نشدان البلوتونيـوم واليورانيـوم هو ايضا سبب العلاقات الدبلوماسية الوثيقة مع جنوبي افريقيا.

اعتمد الدكتور نيعمان، منذ بدء عمله مع «امان» على تنظيم كبير من التكنوقراطيين الموهوبين للقيام بالبحث اللازم والعمل الاولي لبدء مشروع معلومات قائم على الحاسوبات الالكترونية، لذا كان عليه ان يعتمد على فريق من طلبة السيبرناتيك Cybernetics من الولايات المتحدة، ومعظمهم ممن درس في جامعة هارفارد. ولكن يمكن القول ان تقنية نيعمان كانت اكثر تعقيدا من اي شيء وصلت اليه مؤسسات الأعمال البريطانية، في اعلى مستوياتها، في ميدان الثورة التكنولوجية بأواخر الخمسينات. والحقيقة انها كانت اكثر تقدما مما تحقق لدى الدول الاوروبية في ميدان المعلومات القائمة على الحاسوبات الالكترونية، وهي موازية، بمقياس متواضع، لتطور التجسس الالكتروني لدى البنتاغون ووكالة الفضاء الاميركية والمخابرات البحرية في الولايات المتحدة الاميركية.

لقد استطاع نيعمان، بعد حرب سنة ١٩٥٦ م مع مصر حين تقدمت اسرائيل في شبه جزيرة سيناء واسرت عددا كبيرا من

المصريين، ان يجرب حاسوباته الالكترونية، لاول مرة، تجربة فعالة، فكل المعلومات التي اخذت عن طريق استجواب آلاف الأسرى المصريين اختزنت في هذه الحاسوبات وحللت. وكتب ستيف ايتان Steve Eytan في كتابه «عين تل أبيب L'oeil de Telaviv» ما يلي: «الحقت هذه المعلومات التي تم ترميزها ويمكن تناولها على الفور، بمعطيات حديثة جدا سهلت تسهيلا كبيرا الاستعدادات لنزاع سنة ١٩٦٧ م. وبعد حرب الايام الستة كانت هنالك كميات هائلة من المعلومات لا بد للحاسوبات الالكترونية ان تستوعبها... ان اسرى سنة ١٩٥٦ م ضخموا، تضخيما هائلا، خزائن المعلومات الاسرائيلية. ان الضباط وضباط الصف المصريين لم يكونوا جبناء أو خونة، وقلة منهم هي التي قدمت معلومات عسكرية حقيقية، ولكن بدا ان ما يخشاه المرء قليل من زميل جذاب يوجه عددا من الاسئلة التي لا تحمل في ظاهرها اي اذى بينما هما يثرثران حول ابريق من الشاي.. وعادة يكون الاسير سعيدا تماما وهو يغتنم هذه الفترة الفاصلة ضمن رتابة حياة الاعتقال. اما هذه المعلومات فيتم هضمها في الحاسوبات الالكترونية النهمة، ثم ان ضغطة على مفتاح في الحاسوبات يجعلها

تنبيء المختص هل هذا الجندي لين وسهل، ام هو هالة صعبة، ام محترس ومتعقل، ام عنيد؟ وهل هو شريف ام فاسد؟».

وباختصار، فان تحليل معلومات اسرى الحرب وُسِّعَ من ميدان الحقائق الى الميدان النفسي على اساس المقولة السليمة تماما وهي انِ من الضروري ان يعرف المرء عدوه. وعلى ذلك لم تضع «امان» ملفا لكل اسير تَمَّ استجوابه فقط، بل ملفا ايضاً لكل ضابط مصري منذ تخرجه من الكلية العسكرية، مع خزن كل شيء وكل معلومة عنه في الحاسوبات الالكترونية، ومن ذلك: اين عُيِّن، وكيف رُقِّي، وما هو اختصاصه.... الخ. وكان معظم هذه المعلومات يؤخذ من الصحف المصرية أو من المجلات العسكرية. وهذا يفيد عند تقييم هؤلاء الضباط وفي حسبان تحركات قواتهم.

لقد جنت وزارة الدفاع الاسرائيلية فوائد كبرى، وعلى مدى واسع من الأهداف، من مشروعات المعلومات العلمية «لامان». وما بدأه نيعمان تابعه الآخرون ربما بافكار أشد إذهالا، فالى جانب مصرف الحاسوبات الالكترونية، الذي يحتوي على آخر المعلومات الفورية مرتبة ومحللة بعناية، هنالك محطات المراقبة

الالكترونية وتبني «نظم الرقابة» الالكترونية المتحركة لجس مناطق «العدو». كما ارسلت دوريات اسرائيلية الى الصحراء والمناطق المنزوعة السلاح، بين اسرائيل والدول العربية، وهي تحمل اجهزة تسجيل الكترونية تربط سرا بخطوط الهاتف العربية مما يساعدها على تسجيل المخابرات فيها. وهذا يشبه الى حد كبير التكتِيك نفسه الذي استخدمه الثوار العرب، قبل سنة ١٩٣٩ م، والذين قطعوا انابيب البترول المدفونة على عمق عدة اقدام من الأرض. وكانت الاشرطة المربوطة على هذه الأجهزة الموضوعة على خطوط الهاتف تسجل ما يمر عبر هذه الخطوط، ثم تقوم دوريات اخرى بجمعها. كما ان «امان» وضعت في الفتحات الاستراتيجية اجهزة حساسة جدا تستطيع ان تلتقط المحادثات في معسكرات العدو من على بعد نصف ميل تقريبا.

ان ابتكارات نيعمان ثَوّرت عملية جمع المعلومات العسكرية في اسرائيل، كما انها وفرت لها، دون ان تجعل من جاسوس النمط القديم غير ضروري، مهمات اكثر واهدافا للتجسس محددة تحديدا ادق، لقد طُوِّرَتْ المعلومات المصورة والرادارية بالتوازي مع نظم محطات المراقبة في الولايات المتحدة،

وخلال السنوات العشرين الاخيرة كانت ثمة امثلة قدمت فيها اسرائيل مثل هذه المعلومات الى الولايات المتحدة، كما حدث العكس. ومن المعروف تماما ان صور الأقمار الصناعية الاميركية لقناة السويس وقطاعات اخرى في الشرق الأوسط قد ساعدت البنتاغون ووزارة الخارجية الاميركية على أن يخطرا مسبقا باقتراب ازمة جديدة في الشرق الأوسط. وعنت الكمية الضخمة من المعطيات التي حصلت عليها «امان»، من خلال المعلومات المصورة والمعلومات الالكترونية والمعلومات الرادارية، إن وزارة الدفاع قد احتاجت الى احتياط مدرب من الافراد متمرسين كمحللي معطيات ومعالجيها، ومحللي الالغاز والرموز، ومحللي حركة المرور، ودارسي الصور ومفسريها، واختصاصيين في الاتصالات والرادار وقياس البعد الذين يستطيعون ان يدركوا المقصود من خليط الكلمات والأرقام. وتلقى الاسرائيليون، في الوقت نفسه، معونة غير رسمية من وكالة المخابرات المركزية الاميركية التي تمتلك معطيات مُسَرَّبةً اليها جمعتها آلات التصوير واسعة الزوايا المركبة على اقمار التصوير الصناعية.

لا تزال اسرائيل، حتى يومنا هذا، تفيد من المعونة التي

تلقتها في محطات الرقابة الاميركية الالكترونية، في سينـاء، من الاختصاصيين الاميركيين الذين تساعدهم كلتا وكالة الفضاء الاميركيه، ووكالة المخابرات المركزية. وقد كان العرب بطيئين في تقدير المدى الذي بلغته اسرائيل في ميدان علـم الحاسوبـات الالكترونية، ولكن بعض الـدول العربيـة اخـذ يطـور اجهزتـه الالكترونية المضادة، فالسادات، وهو نفسه عميل مخابرات سابق، أعاد تنظيم «المخابرات العامة» و«المخابرات الحربية»، واطلق العنان لزميله السابق ومستشاره الموثوق، الفريق حسني مبارك، ومنحه المسؤولية الكاملة عنهما.. ومبارك مهتم، اهتماما كبير، بتطوير اجهزة التجسس الالكترونية. وافادت المخابرات السعودية، على صغرها، من الثروة التي تدفقت على هذه الدولة النفطية الصغيرة، فجهزت نفسها بكل اشكال الاجهزة الالكترونية والحاسوبات التي قدمتها الولايات المتحدة.

ان احد آخر ابتكارات المخابرات العسكرية الاسرائيلية هو تدريب الحمائم من قبل علماء النفس الاسرائيليين كي تساعد على تحديد مواقع الانشاءات العسكرية العربية.

فتزود هذه الطيور بأجهزة اشارة الكترونيـة، ويستطيـع

التقنيون في اسرائيل مراقبة الأمكنة التي تحط عليها. وقد نُفِّذَ هذا المشروع، الذي كان موضوع بحث مكثف، في وحدة اسست خصيصا في جامعة تل ابيب باشراف الدكتور روبرت لوبو Robert Lobow الذي عمل في برامج مماثلة لتدريب الحيوانات في مختبر انعاش الأرض في ولاية ماريلاند بالولايات المتحدة. وقد تمَّ تمويل المشروع الاسرائيلي هذا بعقد خاص مع سلاح الجو الاسرائيلي.

تُحْجَزُ الحمائم بدون طعام الى ان تفقد حوالي ٢٠٪ من وزنها فبهذا الوزن تكون جائعة جدا وتواقة تماما الى البحث عن طعام في الوقت الذي تحتفظ فيه بكفاءتها. والنظرية هي انها، حين تطلق لتطير، ستعتمد عند بحثها عن طعامها على كونها قادرة على التمييز ما بين العلامات عبر الصحراء، وما هي اجزاء طبيعية من البيئة وما هي من صنع الانسان، فهذه تكون محاذية لمخازن الطعام. وقد يبدو القول هذا محط نقاش كبير، ولكن، وفقا لتقرير الدكتور لوبو وعنوانه «مفهوم متغيرات النظام العالمي للحمام»، «تستطيع الطيور ان تحدد، بسهولة، الفرق بين الخطوط المستقيمة والانحناءات المتناسقة للانشاءات، التي يقيمها الانسان، من الخطوط العفوية التي تصنعها الطبيعة. وتصبح الغاية، بناء على

هذا الفرق الاساسي، هي تدريب الحمائم على تحديد أنماط معينة من المنشآت العسكرية مثل مدارج الطائرات وصهاريج الوقود ومستودعات الذخيرة»[٣].

وهكذا، فاذا رأت حمامة التجسس في سيناء منشأة كهذه وهي في السماء، تحوم على الفور فوقها طلبا للغذاء، ويكون طيران الحمامة وحركاتها مراقبا على شاشة، وعندئذ يفترض متتبعها ان الحمامة قد اكتشفت موضع شيء ذي أهمية مثل الطرق التي تشق، والمباني التي تشاد، او مواقع الصواريخ التي تطور، فيحدد الموضع المضبوط على خارطة، ويقارن بأحدث خرائط المنطقة نفسها. فاذا حومت الحمامة في منطقة كانت خالية، من قبل، من اية انشاءات من صنع الانسان يتم عندئذ استنفار المخابرات كي تقوم بالمزيد من التحقيقات والبحوث او لتأمر، في الحالات الاستثنائية، بتوجيه «ضربة جوية» تعتمد على الوضع العسكري السائد آنذاك.

وكان الدكتور لوبو قد عمل من قبل على استخدام الكلاب لاغراض عسكرية، والاسرائيليون فخورون جدا بفصيل كلابهم

كاشفة الألغام. كما عمل أيضا مع الدكتور ي. كار ــ هاريس E. Carr- Harris، الثقة العالمي المعترف به في حقل تدريب الحيوانات لاغراض عسكرية، في مختبر الكترونيات الطيران التابع لسلاح الجو الاميركي.

ان الأسلوب العلمي لم يهمل قط في معالجة مشكلات مكافحة التجسس، فالأمن الداخلي كان دائماً مشكلة رئيسية للاسرائيليين، اذ يسهل تماما على عملاء اعدائهم ان يتسللوا لينضموا الى ثلاثمائة الف عربي يعيشون داخل اسرائيل، وجميعهم يتكلمون اللغة العبرية. كما ان التدقيق في وثائق اكثر من مليون عربي في الضفة الغربية وقطاع غزة هو امر جد صعب بسبب سياسة «الباب المفتوح» للجنرال دايان. ولكن اختُبِر جهاز جديد، وُضِع على تلة صغيرة تشرف على جسر اللنبي، في اوائل السبعينات، وهو اكثر اجهزة كشف الكذب تعقيداً[٤].

وهذا الجهاز، بناء على وصفه التقني، هو جهاز مراقبة تنفسي على الموجة الصغيرة، وقد صمم كي يُراقَب على شاشته العرب العديدون الذين يعبرون الجسر، فيوجه الشرطي السري الاسرائيلي هذا الجهاز الى منطقة الضفيرة الشمسية (شبكة

الأعصاب في فم المعدة) لأي مهاجر، فيسجل الجهاز، بينما الجنود في نقطة العبور يستجوبون العرب، بالموجة الصغيرة المسلطة على المعدة معدل تنفس كل فرد. فاذا بيَّنَ الجهاز ان اي عربي يتنفس اسرع مما هو معتاد يخابر الشرطي السري الجنود كي يقبضوا عليه لمزيد من الاستجواب. لقد ساعد تطوير جهاز كشف الكذب هذا الاسرائيليين، مساعدة كبرى، على تسريع عمليات تحقيقهم وتقويتها عن طريق استبعاد الاكثرية التي ربما بدونه، كانت تبدد اوقات الجنود، وعلى كشف المشبوهين المحتملين.

واستطاع الاسرائيليون ان يقوموا فيما وراء الستار الحديدي بما قد يكون خرقا اهم في تجسسهم العلمي، فالمحللون العاملون لدى المخابرات الاسرائيلية يستطيعون، غالباً، ان يقوموا بتنبؤات بما يحتمل ان يفعله الاتحاد السوفييتي في الخطوة التالية بهذا الخصوص، ويبني بعضهم استنتاجاته على اقصر تقارير الموساد او العملاء الآخرين. وقد جاء في أحد التقارير، من رومانيا، كيف ان الروس يجرون تجارب على ضفادع اخضعت للموجات الكهربائية الصغرى، ثم نظمت نبضات الضفادع على اشارات بهذه

الموجات ، ثم سلط الاشعاع على منطقة الصدر وتم قتل الضفادع .

وفي تل أبيب نقل هذا الخبر الى عدد من الخبراء الذين خرجوا بأجوبة مختلفة بوصفهم فريقا ، ولكنهم اجمعوا على أن هذه التجارب قد تدل على اتجاهين :

ـ الأول: ان العلماء السوفييت كانوا يعون التأثيرات البيولوجية لاشعاع الموجات الكهربائية الصغيرة وتطبيقها كسلاح دفاعي .

ـ الثاني : ان الروس ربما كانوا يجربون تطوير نظام لارباك سلوك الأفراد وصرفهم عن الطريق السوي او يعطلون هذا السلوك ، ربما كأمر مساعد للاستجواب .

وعلى الفور درس الاسرائيليون التقارير التي توزع في واشنطن وفي البنتاغون عن استخدام السوفييت المزعوم للموجات الكهربائية الصغرى وتسليطها على السفارة الاميركية في موسكو . ومن هذه انتبهوا الى تهديد مميت ، وهو منظور ان الموجات الصغرى هذه يمكن ، اخيرا ، ان يسيطر عليها وتكيف لغرس الأفكار في عقل الانسان .

ربما كان في هذا عودة الى مملكة الرواية الخيالية العلمية التي ذكرت في أول هذا الفصل. ولكن الحقيقة القاسية هي ان هذه باتت الآن واقعاً ملموساً وليس خيالا، والذي يتأخر في السباق سيكون، مؤكدا، هو الخاسر. اما بالنسبة ليوفال نيعمان فقد نَحَتَ لنفسه ولاسرائيل مكانة خاصة في أعلى الأوساط العلمية في العالم. فاستاذ الفيزياء هذا ورئيس دائرة الفيزياء في جامعة تل ابيب قد اقام لنفسه شهرة في العالم الغربي، فعمله في البحوث حظي بالاعجاب الكبير في كلتا اوروبا والولايات المتحدة حيث كان مدير مركز نظرية الجزئيات في تكساس والاستاذ الزائر في معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا والذي ربما يعتبر واحدا من ابرز المعاهد، من نوعه، في العالم. وفي سنة ١٩٦٩ م منح جائزة البرت اينشتاين Albert Einstein على انجازاته في ميدان الفيزياء النظرية، فكان أول عالم غير اميركي يفوز بالجائزة.



الفصل العاشر

الحلقة الألمانية لدى الرئيس عبد الناصر

«صناعة الطائرات في شمالي افريقيا في حاجة الى مستشارين فنيين».

(اعلان ظهر في الصحف الألمانية سنة ١٩٥٨م)

بعيد أن أُمِّمَ الرئيس عبد الناصر شركة قناة السويس نما الى عِلْمِ المخابرات الاسرائيلية ان التكنوقراطيين النازيين السابقين يجندون للعمل في مصر، وهو عمل موجه ضد اسرائيل.

وقد وردت أولى المعلومات عن ذلك نتيجة لتحريات الموساد عن النازيين الذين يهربون من اوروبا، وكانت صدمة لهذه المخابرات حين علمت ان بعض النازيين قد تعهد مرة اخرى بمهاجمة اليهود، اعدائهم السابقين، على حين ان بعضهم الآخر قد مال الى العيش، باسماء مستعارة، في مخابىء باميركا اللاتينية. وقد كانت المعلومات، في بادىء الأمر، غامضة هزيلة، فكل ما عرف، على وجه التأكيد، هو إن بعض النازيين، ممن كانوا في

الغستابو وفي بحوث الفضاء قد اختفوا في بلدان عربية وباسماء عربية ، وانهم يساعدون الحكومة والجيش المصريين .

امر ايسر هاريل بإجراء تحقيق فوري في هذه التقارير في كل من القاهرة وبون ، ومن الأولى جاءت انباء ان عددا من الألمان كان يلتقي يوميا تقريبا في حانة بشارع ٢٦ يوليو /تموز / في القاهرة ، فطُلِبَ من العميل الذي نقل ذلك ان يراقب المكان ويعمل على اللحاق بالألمان حتى بيوتهم . ونتيجة لذلك علم ان المانياً يدعى الدكتور ويلهلم فوس Wilhelm Voss قد وصل الى القاهرة ، قبيل الاطاحة بالملك فاروق بحثا عن عمل في ميدان الذخائر الحربية . ومنذئذ أُوكَلَ اليه الرئيس عبد الناصر مهمة الاشراف على انتاج المقذوفات ذات العيار الصغير ، ثم تردد الهمس انه قد اوكلت اليه مهام أكبر .

ان فوس هذا كان مديرا تنفيذيا في معامل الذخائر التابعة لهيرمان غورنغ Herman Goering في المانيا ومديراً لمعامل سكودا Skoda في تشيكوسلوفاكيا ابان الاحتلال الالماني لها ، لذا فهو شخص ذو شأن ويحسب حسابه . وقد يعني هذا شيئا واحدا ، هو ان الرئيس عبد الناصر كان عن عمد يستدعي النازيين السابقين

لأغراض عسكرية . وسرعان ما ورد اثبات لذلك، فالرئيس عبد الناصر قد عين فوس مديراً للهيئة المصرية المقامة لصنع الصواريخ التكتيكية، واختار معاونا له البروفيسور بول غوركه Poul goercke المتخصص بالالكترونيات والذي عمل على انتاج الصاروخ ف ــ ١٥ V- 15 .

لقد كانت المعاني التي تضمنتها هذه المعلومة البسيطة نذير خطر فعلي للاسرائيليين، فقد اشارت الى ان الرئيس عبد الناصر اخذ يحوز على ذلك النوع من الدراية والخبرة، اللتين لم تمتلكها مصر قط من قبل، والى حملة جديدة ضد اسرائيل، اذ ليس ثمة تساؤل حول الغاية التي ستسخدم من اجلها هذه الصواريخ، انها فقط تدمير اسرائيل. وقد كان هاريل مصمما على اقتفاء آثار النازيين المرتبطين بمصر، وعلى استخدام كل وسيلة لتعطيل خطط الرئيس عبد الناصر في استخدام الألمان. وكانت المخابرات الاسرائيلية ذات صلات جيدة ويعمل عملاؤها في اجهزة مخابرات اجنبية عديدة، وكان هؤلاء عملاء مزدوجين، ولكنهم في معظم الحالات متعاطفون مع الصهيونية وفي الوقت نفسه مواطنون مخلصون لبلدانهم. ويمكن ان يوجد هؤلاء العملاء المزدوجون،

بشكل رئيسي، في الولايات المتحدة وفرنسا والمانيا، وهنالك قلة منهم في ايطاليا والنمسا، وثمة عملاء اخرون كثيرون لها في الدول الاشتراكية، ولكن موسكو هي الوحيدة المحترسة جيدا. وهذه بالطبع ناحية اخرى، فحين يخدم هؤلاء العملاء اسرائيل فانهم، مؤكدا، يغامرون بخيانة المصالح السوفييتية.

لقد كان على الاسرائيليين، كي يُقيّموا القدرة التقنية لهؤلاء الاختصاصيين النازيين في ميادين الذخائر الحربية وابحاث الفضاء، ان يحصلوا على تقارير، عن طريق اتصالاتهم في الولايات المتحدة، من اناس يستطيعون الوصول الى العلماء الألمان المشايعيين للغرب، والعاملين فيه، والذين يعرفون كل شيء عن رجال مثل فوس وغوركه. وقد كان هنالك قدر معين من مقايضة المعلومات، والاسرائيليون يجيدون لعبة تبادل المعلومات.

ان كلتا الشين بيت والموساد احرزتا، خلال حشد ازمة السويس سنة ١٩٥٦ م. حين كانت اسرائيل تخطط لغزو شبه جزيرة سيناء، كسبا غير متوقع، فقد كان هنالك مستشار الماني مرتبط بالمخابرات التي ترتبط بالرئيس عبد الناصر شخصيا، يعمل لمؤسسة جيهلن، وهي كتلة المخابرات المختلطة التي تشكلت بعد

الحرب العالمية الثانية ، ويقودها الجنرال رينهارد جيهلن وتحظى بدعم قوي من وكالة المخابرات المركزية الاميركية . وقد كان هذا المستشار الألماني يعمل فعلا في تقييم التحركات العسكرية الاسرائيلية حين تلقى من مؤسسة جيهلن استمارة استفتاء تطلب معلومات عن بعض المسائل المصرية ، فأجاب على كافة الأسئلة وبعث بالاستمارة ثانية الى المانيا وهو يعتقد ان مؤسسة جيهلن والرئيس عبد الناصر يشتركان في المثل والأهداف نفسها . ولكنه لم يكنِ يعلم ان من ارسل اليه الاستمارة كان ضابطا اميركيا طلب تلك المعلومات فقط كي يبعث بها الى اسرائيل ، فقد كان عميلا للموساد .

وعزمت الموساد على التحري عن النازيين السابقين في مصر عن طريق المزيد من التغلغل في مؤسسة جيهلن والافادة من اتصالاتها بالقاهرةِ . وقد وعى بعض من في هذه المؤسسة ، لبعض الوقت ، الصلات الاسرائيلية ، ولكن الأناس في القاهرة لم يكونوا يعون تماما ما كان يحدث . وأُجْرِيَ سبرٌ آخر في باريس عن طريق تجنيد اكبر عميل للموساد داخل المخابرات الفرنسية ، وكانت فرنسا لا تزال آنذاك عضوا في حلف شمالي الأطلسي (الناتو) ، وكان رجل

الموساد هذا يستطيع الوصول الى تبادل المعلومات العسكرية التي توزع بين اعضاء حلف الأطلسي هذا.

كانت اسرائيل، بمعايير الحرب التقليدية ما بين ١٩٥٦ و١٩٥٨ م، متفوقة جدا على مصر، وكانت تبذل جهودا يائسة لاحباط مخططات الرئيس عبد الناصر من اجل صنع صواريخه الخاصة واسلحته النووية اذا كان ذلك ممكنا. ومن المانيا الغربية وردت قصاصات عدد من الصحف تحمل الاعلان الذي استشهد به في بداية هذا الفصل: «صناعة الطائرات في شمالي افريقيا في حاجة الى مستشارين فنيين». فارتابت تل ابيب على الفور في ان هذه الصناعة ربما كانت صناعة صواريخ، وان هذا الاعلان قد صدر عن فوس وغوركه. وسرعان ما حصلت الموساد على قائمة طويلة من اسماء النازيين السابقين الذين كانوا اما «مستشارين فنيين» للجيش المصري واما «اختصاصيين» مرتبطين بمخابرات الرئيس عبد الناصر.

وكان بعض هؤلاء يُعْتبر عربا وحمل اسماء عربية وتبنى العادات العربية، فرجل يدعى محمد حسين تبين انه جورجن كنيتش Jorgen Knetch ضابط الثقافة النازية السابق في

مونتيفيديو (يوغوسلافيا)، واخر يدعو نفسه محمد اكبر لم يكن الا الملازم في الصاعقة اولريخ كراوس Ulrich Kraus. وكان ليوبولد غليم Leopold gleim هو رئيس الغستابو في وارسو، بينما كان اوسكار ديرلفانجر Oscar Dirlwanger وويلي برينر Willie Brenner هما المسؤولين عن معسكر الاعتقال في موتهاوزن Mauthausen. وكان هؤلاء الرجال وآخرون قد تجمعوا في احدى ضواحي القاهرة حيث كان الشخص الذي يتحلقون حوله هو الدكتور يوهانيس فون ليرز Johannes Von Leers احد كبار مساعدي الدكتور غوبلز Goebbels في وزارة الدعاية واحد أشد اللا ـ ساميين حماسة واندفاعا. وكانت الشبكة، التي اقامتها الكونتيسة داندوريان قد هربت بعض هؤلاء الى مصر، ولكن لم يبدأ الألمان يصلون جماعات الى مصر الا في اوائل الخمسينات، ومن هؤلاء اشخاص مثل الجنرال ويلهلم فاهر مباخر Wilhelm Fahrmbacher. وفي حوالي سنة ١٩٥٦ م ظهر الدكتور فون ليرز ثانية في القاهرة تحت اسم البروفيسور عمر امين، وكان العمل، الذي يؤديه للرئيس عبد الناصر، دعاويا في بعضه واستخباريا في بعضه الاخر. وكان عمر امين هذا هو الذي صعد الحملة على التجارة والمؤسسات الاسرائيلية، ثم وسع تكتيكاته الاتهامية الى المؤسسات اليهودية في

كافة انحاء العالم. وقد خططت هذه الحملة من اجل التوجه، بخاصة، الى الدول الافريقية الجديدة الصاعدة.

تحدث دينيس سيفتون ديلمر Denis Sefton Delmer، وهو أحد أقدر مراسلي الصحف البريطانية في المانية خلال سنوات ما بين الحربين والذي انهمك في التصدي للدعاية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، عن تحرياته حول «نشاطات تلك المجموعة الصغيرة من الغلاة النازيين الذين هربوا الى الشرق الأوسط بعد انهيار هتلر»، وعملوا مع الرئيس عبد الناصر. وفي سنة ١٩٦٢ م كتب ما يلي: «جَهَّزَ اصدقائي الاسرائيليون ملفا يتضمن تفاصيل كاملة عن النازيين الذين يحملون الان اسماء عربية، ويعيشون في القاهرة، ويدربون المصريين في تقنيات الغستابو والجيش الألماني النازي، بل ان المسؤولين الاسرائيليين زودوني بصور عن مراسلات كانت تجري، طيلة اربع سنوات، بين أحد النازيين في القاهرة وآخر في فيسبادن بألمانيا. ونازي القاهرة هو الدكتور يوهانيس فون ليرز الذي قابلته، لأول مرة، في برلين منذ سنوات طويلة حين كان «خبيرا» في وزارة الدكتور غوبلز ... اما النازي في برلين فهو كارل هينز بريستر Karl Heinz Preister. وهو ناشر ينشر كتبا وكراسات عن النازيين الجدد في هذه الأيام.

«بدأت هذه المراسلات فور الاستيلاء على شركة قناة السويس سنة ١٩٥٦ م. واستمرت طيلة سنتي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ م. وحتى صيف سنة ١٩٥٩ م، وتوقفت بسبب وفاة بريستر.. وقد صعقت حين رأيت هذه المادة، فهي تعني ان هنالك شخصا ما يعمل من أجل اسرائيل كان، ولا يزال دون ريب، في مركز يستطيع منه ان يعترض الرسائل المتبادلة بين مصر وجمهورية المانيا الاتحادية، وهما دولتان لم تكن لاسرائيل اية علاقة دبلوماسية معهما، ويصور الرسائل التي تهمه منها، ثم يدع الرسائل تسير الى وجهتها دون ان ينتبه المرسلون لأي شيء»[1].

لقد استشهدت بهذا القول من ديلمر ليكون دليلاً مسانداً لادعائي ان الاسرائيليين تسللوا الى أي مصدر ممكن يقودهم الى كشف النازيين، من العلماء والجنود والمغامرين، الذين يعلمون في مصر. وسواء أكانوا يعترضون البريد في مصر أو في بون وبولاخ Pullach حيث جعل جيهلن مقر عمله. وللحقيقة اوضح ديلمر ان هذه الاعتراضات كان يمررها لأسرائيل ضابط مخابرات، ذو عواطف صهيونية، من احدى الدول الحليفة لألمانيا والعضو في حلف الأطلسي، والأكثر احتمالاً انه فرنسي، والذي من خلال

تأديته واجبه كان يستطيع الوصول الى اعتراضات المراسلات، والتي يقوم بها جهاز الأمن الألماني من اجل مراقبة البريد والهواتف في المانيا»[٣].

ان إحدى الحجج التي كان يستخدمها مسترضو الرئيس عبد الناصر الغربيون هي ان اية حركة لمعارضته سوف تدفع به تماما الى المعسكر السوفييتي. وكان عبد الناصر آنذاك بعيدا جدا عن ان يكون متعاطفا مع السوفييت، ولذا استدار، غريزياً نحو الألمان. وما لم يدركه الغرب هو ان عبد الناصر كان مختلفا عن مفتي القدس، الحاج امين الحسيني، الذي كان حليفا ثابتا لهتلر. وقد كان احد الذين استجابوا للاعلانات في الصحف الألمانية، وكانت الأجوبة توجه الى عنوان سكن في زوريخ، هو فرديناند براندنر Ferdinand Brandner، الكولونيل السابق في الصاعقة الألمانية الذي كان مختصا بالصناعات الجوية، وقبله المصريون على الفور على أساس انه سيجند اختصاصيين ألمانا اخرين للعمل معهم. وسرعان ما اخذ الاسرائيليون يقتفون اثر الوسطاء الذين استخدمهم المصريون لهذه الصفقات السرية، فوصلوا الى مكاتب رجل أعمال لا تلفت الانظار في زوريخ، هو سويسري من طرف ومصري من طرف آخر.

وكشفت مراقبة شديدة على تحركات كُلٍّ من هذا الوسيط ومن فرديناند براندنر ان مصر كانت تستخدم الألمان لا بالعشرات بل بالعشرينات، وان براندنر وحده قابل مالا يقل عن ٢٢٠ المانيا للعمل فيها. وقد اثار هذا كله بعض القلق من ان حركة نازية جديدة يجري تشكيلها على اساس تحالف سري مع الرئيس عبد الناصر. وقد يبدو ذلك، اذا نظر الآن اليه، خياليا، ولكنه كان احتمالا واضحا في سنتي ١٩٥٨ ـــ ١٩٥٩ م. فآنذاك لم يكن ثمة اي تقارب تام بين اسرائيل وألمانيا الغربية، وكان ثمة علامة سؤال كبيرة حول الطريق التي سوف تسلكها المانيا، كما ان كافة استنتاجات مؤسسة جيهلن لم تُسبَر تماما، فقد خُشي في تل ابيب من وجود عنصر لا سامي، بسبب وجود جيهلن على رأس المخابرات الألمانية الغربية، يؤثر في السياسة داخل جهاز المخابرات هذا، لا سيما انه قد بات معروفاً آنذاك ان جيهلن قدم لعبد الناصر المشورة حول تنظيم اجهزة المخابرات المصرية. لقد كان هنالك بالفعل اكثر من سبب يدعو اسرائيل الى التسلل لمؤسسة جيهلن لا للحصول على معلومات عن مصر فقط بل لتراقب عن كثب كيف تعمل المخابرات الألمانية الغربية وما هي قوة صلاتها بوكالة المخابرات المركزية الأميركية.

وما يدعو الى السخرية ان جيهلن استطاع، بعد وقت طويل، لا ان يتباهى فقط بتقديمه المشورة الى الرئيس عبد الناصر حول مسائل المخابرات بل بتسريبه جاسوساً اسرائيلياً الى مصر، ولكن الموساد هي التي سرّبت هذا الجاسوس وليس هو. لقد كان من غير اللائق على جيهلن ان يتباهى بانتصاراته المخابراتية، اذ بينما كانت هذه مشهودة لفترة قصيرة سرعان ما تحولت الى كارثة شاملة حين اخفق في تحقيق غايته، ففي الخمسينات كان جيهلن اداة الاميركيين الرئيسية في شن الحرب الباردة، ونجح في توجيه ضربات كبيرة مثل المساعدة على تنظيم انتفاضة برلين سنة ١٩٥٣ م، وتمرد المجر سنة ١٩٥٦ م، كما دفع بمئات الجواسيس الى داخل الاتحاد السوفييتي، ولكن رينهارد جيهلن لم يكشف في مذكراته عن الاخفاقات التي مني بها. والحقيقة ان رئيس المُسَلِّلين (بكسر اللام الأولى) كان هو نفسه مُخْتَرَقا (بفتح الراء) لا من قلة من الاسرائيليين فحسب (لم تلحق هذه اي اذى به) بل من قبل السوفييت. لقد كان جيهلن مبالغا في الثقة بنفسه، فدفع متسللين كثيرين جدا الى الطرف الآخر، فذهب أحدهم الى المخابرات الروسية K. G. B. وبعدها ترك السوفييت عملاء جيهلن يتدفقون الى الاتحاد السوفييتي ثم ومنذ سنة ١٩٥١ م، «نسفوا» بهدوء

مؤسسة جيهلن، وضموا اليهم عملاءها، ثم استخدموهم، استخداما بطيئاً، ضد جيهلن، ووضعوا اهم رجالهم في المراكز الحيوية داخل مؤسسته.

ووسع المصريون شبكتهم الألمانية في أواخر الخمسينات، وفي تشرين الثاني ١٩٥٩ م. وقّعت الحكومة المصرية عقدا مع ويلي ميسر شميت Willy Messerschmitt في ميونيخ. وكان الرجلَ الذي وقع هذا العقد السري، باسم مصر، هو علاء الدين محمود خليل رئيس مخابرات القوى الجوية المصرية. وعلى حين كانت مصانع ميسر شميت تبني طائرة لحلف شمالي الأطلسي كان للعبقرية الفضائية لألمانيا مصالح في اسبانيا وسويسرة، وكانت راغبة تماما في مَدِّ هذه المصالح الى الشرق الأوسط ايضا. ومن العلماء الذين اجتذبتهم القاهرة آنذاك البروفيسور يوجين سانغر Eugene Sanger، مدير معهد دراسات الدفع النفاث في شتوتغارت، والذي كان يقوم منذ وقت طويل ببحوث في ميدان الصواريخ، فهو من ثمة أحد أوائل رواد صناعة الصواريخ المستخدمة في اطلاق اقمار صناعية تدور حول الأرض. وهكذا، كانت مصر في سنة ١٩٦٠ م تكتظ بالألمان: علماء وفنيين ومهندسين. ومؤسسة ميسر شميت وحدها ارسلت اكثر من اثني عشر مهندسا، كما

اصطحب سانغر معه عددا من ألمع تلامذته في معهد شتوتغارت. وكانت كافة المشروعات التي اضطلع بها العلماء والفنيون الألمان سرية جدا وأعطيت ارقاما رمزية استخدمت بغموض تام حتى انها بدت في الرسائل، التي اعترضها الاسرائيليون، اشبه برموز الشيفرة، وكان على عملاء الموساد ان يجدوا ماذا تعنية ارقام ٣٦ و١٣٥ و٣٣٣ الغامضة.

لقد كان هؤلاء يعرفون ان هيئة صناعة الصواريخ المصرية قد ماتت لان القيادة العليا المصرية رفضت تزويد الجيش بالصواريخ، ولكنهم علموا ايضا، من عملاء لهم في المانيا، ان شركة، باسم انترا INTRA قد تأسست في ميونيخ لشراء معدات الكترونية ومحركات من النوع الذي قد يستخدم لنمط معين من الصواريخ. وكان لدى «أمان» اختصاصيون يستطيعون تقدير ذلك. وما كان اكثر اهمية من ذلك هو ان بول غوركة كان على صلة بهذه الشركة، وكانت ارقام ٣٦ و١٣٥ و٣٣٣ ترتبط، بشكل ما، بما كانت انترا تفعله.

وذكرت تقارير اخرى من زوريخ وبازل وباريس والقاهرة ان المصريين قد أسسوا شركة مشتريات سرية جدا لابتياع قطع تركيب

الطائرات . وقد بدا ان المفتاح لكشفها يكمن في معهد غامض اشار اليه احد المصريين الثرثارين باسم **Caballistics** .

وقد سأله احد عملاء الموساد ، الذي تظاهر امام هذا المصري بأنه يعمل في التنجيم :

ـ « هل انت مثلي تدرس التنجيم ؟ »

فأجابه المصري :

ـ « لا ، ابدا ، فانا احاول ان اصوغ اسما مركبا باللغة الانكليزية ، وانا اخشى انها ليست صياغة جيدة جدا » .

ـ « ماذا تعني ؟ »

ـ « آه ! هذا لا يهم ، فأنا فقط مزجت بين كلمتين : Cabal (جمعية سرية) وBallistics (القذف الذاتي) » .

ولم يزد عميل الموساد في استجواباته على هذا الرجل المصري ، فهذا كان قد تلقى دراسته في انكلترا ، وهو ولا ريب شخص مثقف متحذلق سرعان ما سيرتاب في اية اسئلة سبرية . وفيما بعد ناقش مع احد زملائه ما قد يعنيه هذا الاسم المركب .

فقال الزميل:

ـــ «حبسنا، تستطيع ان تراهن تماما على انه يشير الى القذف الباليستي الذاتي، وعلى الأرجح الى معنى المقذوفات القديم. اما كلمة Cabal فقد تعني منظمة سرية تعمل في القذف الباليستي، والذي قد يعني الصواريخ او «القذف الباليستي الغامض». ويبدو لي انه كان في كلتا الحالتين يتحدث بالمعنى الواسع، بيد انني عثرت على مفتاح اخر، فبعض المصريين الذين قدموا من ضاحية هليوبوليس ـــ بجوار القاهرة، يتحدثون عن «الثلاثات»، كما يستخدمون هذه الكلمة في المقامرة، وانني اعتقد الان ان هناك صلة ما بين «الثلاثات» وهذا الاسم المركب الذي ذكرته».

ردّ عميل الموساد:

ـــ «اعتقد اننا بدأنا نصل الآن الى شيء ما، فالثلاثات قد تكون ٣٣٣، وهي قد تعني شكلا من الأرقام الرمزية لمركز صواريخ. لنفكر في ذلك، فهنالك ثلاثة في كل من هذه الرموز: ٣٦ و١٣٥ و٣٣٣، فلنَرَ الآن ما المعنى الذي يمكن ان يستخلص بالاشارة الى الرسائل التي تم اعتراض سبيلها».

ولم يستغرق حل هذا اللغز في تل أبيب وقتاً طويلاً ، فالرقم ٣٣٣ حدد اخيرا على انه ارض التجارب لصاروخ سري جداً في الصحراء غير بعيدة عن هليوبوليس . وتبين ان ١٣٥ هو المؤسسة التي اقامها خارج القاهرة فرديناند براندنر Ferdinand Bradner ، على حين ان ٣٦ هو مصنع خارج القاهرة تصنع فيه ، بإشراف وتوجيه من فنيي ويلي ميسر شميت ، اجزاء الطائرة فوق ـــ الصوتية . وسرعان ما كشفت هذه المعلومات للاسرائيليين مدى المعونة الألمانية ، ولكنها جلبت لهم ايضا القليل من الراحة ، فعلى رغم كافة الجهود لم يكن لدى المصريين حتى آنذاك صناعة شاملة لاجزاء الطائرة ، فقد كانوا يعتمدون كليا على المعونة الاجنبية .

لم يعد صعبا على الموساد منذئذ ان تُكوِّن صورة تفصيلية عما كان الألمان يفعلونه في مصر ، فعلى حين كانت الغالبية العظمى من المصريين ، ومنها الطبقات الوسطى العليا ، تتقاضى اجورا قليلة ، كان العلماء الألمان يتلقون رواتب عالية ويسكنون في فيلات فخمة . وكانت الوفرة التي يتمتعون بها واضحة لكل ذي عينين ـــ وكانت كذلك ايضا حفلاتهم ولهاثُهم وراء المتعة في القاهرة وفي نادي هليوبوليس الرياضي ، فكانت مراقبتهم غير صعبة . والى

جانب ذلك كانت ترى بوضوح بين حين وآخر، الصواريخ الصاعدة المنطلقة على الأقل في ضواحي القاهرة وفي جوار المستعمرة الألمانية.

الفصل الحادي عشر

اليهودي الذي اتخذ صفة النازي

«ما فعله فعله براحة كبرى، فكان
طبيعيا ان يُسِرَّ نفسه وحدها».

جون درايدن

Ihon Drysen

هنالك جاسوس اسرائيلي آخر استطاع، بنجاح، ان يتسلل الى مكاتب الحكومة والمنشآت العسكرية العربية واحرز قبولاً في الأرض العربية، وهو ولفغانغ لوتز Wolfgang Lutz الذي لقبه زملاؤه «بجاسوس الشمبانيا» على اساس توزيعه هذا المشروب من اجل فك عقد الألسن.

ان ولفغانغ لوتز، مثل جاسوس شهير آخر سبقه هو العميل البريطاني سيدني رايلي Sydney Reilly، كان نصف يهودي ونصف مسيحي. وقد ولد في مدينة مانهايم Manheim، في منطقة بادن ــ ورتنبرغ Baden- Wurttenberg بألمانيا الغربية، سنة ١٩٢١ م لاب يعمل مديراً لأحد المسارح، توفي وهو شاب، وأم

يهودية خاب أملها بعد تغير ظروف الحياة عقب ان تسلم النازيون السلطة. ولا ريب ان مشاعرها هذه نقلتها الى ابنها الصغير الذي يبدو انه اعتنق الأفكار الصهيونية عندما كان في العقد الثاني من عمره. وفي سنة ١٩٣٣ م هاجر الاثنان الى فلسطين حيث انضم الابن، وهو في السادسة عشرة من عمره، الى عصابة الهاغاناه، وتعلم بعض فنون القتال السري، ودرس في الوقت نفسه في مدرسة زراعية ونال شهادتها، كما اتخذ لنفسه اسما عبريا اول هو زيف Zeev، وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية تطوع في الجيش البريطاني، ودرب فيه ليكون مغواراً Commando. وقد اظهر فيه شجاعة ومبادرة وتكيفا، وسرعان ما رقي الى رتبة رقيب، واشترك في حرب الصحراء في مصر.

أتقن ولفغانغ، خلال هذه المدة، لغته الانكليزية، وبات في نهاية الحرب يتكلم، بطلاقة، الألمانية والانكليزية والعربية والعبرية، وهذا جمع رائع للغات لدى عميل اسرائيلي في أواخر الخمسينات. ثم عمل بعض الوقت في مصفاة النفط في حيفا، ولكنه التحق، خلال الحرب العربية ــ الصهيونية الأولى، بالجيش الاسرائيلي، وأصبح فيه ملازماً. وكان سجله خلال تلك الفترة ممتازاً، فقد

خدم في لواء جولاني الـذي دافـع عن الجبهة الشماليـة ، وتلقـى أكثر من مرة ثناءات على خدماته الرائعة. وبعد انتهاء الحرب حاز على ترقيات سريعة ، واخيراً نال رتبة رائد واصبح ضابط المخابرات في كتيبته .

لفتت مواهب لوتز اللغوية النظر ، وكذلك شعره الأشقر ومظهره الاوروبي الشمالي ، وكان يمكن اعتباره واحداً من نماذج هتلر الآرية الكاملة. واخذ قسم المخابرات العسكرية في اعتباره ايضا شجاعة لوتز وحبه للمغامرة، وفي الوقت المناسب وجد ملف عنه طريقه الى مكتب رئيس الموساد ، وقد كان ولفغانغ لوتز هو الرجل الذي يبحثون عنه ، اذ انه الشخص الذي يستطيع أن يتسلل الى مستعمرة العلماء الألمان في مصر ، ويبعث بتقارير عما كانوا يقومون به الى تل أبيب .

لقد حدث ، لدى اختيار ولفغانغ لوتز لهذه المهمة ، تعاون وثيق ما بين الموساد وأمان ، ولو كان لوتز في المخابرات العسكرية البريطانية ، وبخاصة في زمن السلم ، لربما ظل هذا الملـف على المكتب بضع سنوات دون ان يعرف هذا الفرع العميل الرائع ، فيما وراء البحار ، والذي أضاعه. وفي وقت ما عقب حرب

السويس سنة ١٩٥٦ م. حدثت مقابلة مع لوتز من اجل هذه المهمة، وهي تعني ان ينتحل صفة نازي سابق.

ان هنالك شيئاً فريداً في سجلِ احداث التجسس عن قصة التغطية التي حيكت للوتز، فقد طلب اليه ان يحتفظ باسمه، وأن يُبْقِيَ تاريخ حياته الأولى اقرب ما يكون الى الحقيقة، وعنى ذلك انه سيزوَّدُ بشهادة ميلاده الاصلية وبوثائق اثبات الشخصية الأصلية ايضا، ولكن يمحي منها اصل امه اليهودي، كما طمست حكاية هجرته الى فلسطين، ولكن زودته الموساد بقصة تغطية مناسبة، وهي انه كان ضابطا في فصيل ايدلفـايس Edelweiss خلال حرب الصحراء. وقد كان بمقدور لوتز ان يتكلم موضوعيا عن طبيعة حرب الصحراء ومناطقها اذ انه خاضها في الجانب البريطاني. وزود ايضا بقصة تغطية اخرى يستعملهـا في حال مواجهته صعوبات غير متوقعة، وهي انه حارب مع الألمان في الجبهة الروسية، وقد يفسر تغيبه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بأنه، وهو النازي، وجد صعوبة في ان يقبل في ألمانيا الجديدة، وانه لم تكن لديه اية رغبة في ان يتحول الى ديمقراطي. ولذا هاجر الى استراليا، ولكن لم يستمتع بالحياة فيها، فصمم على العودة الى الوطن.

لقد كانت هذه تغطية معقدة من نواحي عديدة، ولا يستطيع أن يستخدمها، بنجاح، هذه الفترة الطويلة سوى ممثل ماهر جدا وشخص جد حذر. ومع ذلك كان صعباً جداً عليه ان يتغلغل عميقاً جداً في الأوساط العسكرية المصرية العليا وأن يكتسب ثقة علماء الألمان لولا معونة مؤسسة جيهلن في ألمانيا الغربية. فالاسرائيليون اقاموا اتصالات، من الدرجة الأولى، مع هذه المؤسسة نفسها التي ارتابوا، في البدء، أنها قد تكون موجهة ضدهم. لقد احرزت اسرائيل مكانة متميزة في عالم المخابرات بسبب مزجها الماهر ما بين التجسس والدبلوماسية وبإقناعها مخابرات الدول الغربية انها جميعا تشترك في مصلحة واحدة. ولهذا لم تعد تل ابيب مكان تبادل دولي للمعلومات السرية للدول الغربية فحسب، بل ان رؤساء اجهزة المخابرات الغربية نظروا اليها على أنها حليف سري تجب مساعدته، بشكل غير رسمي، حين يكون ذلك ممكنا، رغم انهم ادعوا ظاهرياً انهم يتخذون موقف الحياد الصارم تجاه اسرائيل. وفي أواخر الخمسينات جاءت هذه المساعدة، وبشكل وفير، من كلتا وكالة المخابرات المركزية الاميركية ومخابرات المانيا الغربية، مع موافقة خفية من الجنرال جيهلن نفسه.

أُرسِلَ لوتز، المُسَلَّحُ بأوراق ووثائق شتى، أولاً الى معسكر

تدريب خاص في بفاريا يقع تحت امرة جيهلن. وقد ساعدته ملامحه البيضاء على أن ينجح، بوصفه ألمانيا، دون أية صعوبة. وبعد أن درس تقنيات التجسس ارسل الى مصر وهو يحمل اوراق تعريف من ضباط ألمان كبار سابقين زوده بها الجنرال جيهلن نفسه. وحين وصل الى القاهرة قدم نفسه رجلاً رياضياً محباً للتسلية جمع مبلغاً كبيراً من المال في استراليا، وأراد أن ينفق الآن بعضه. وقد اقتنعت سلطات مكافحة التجسس والشرطة في مصر بذلك، واستطاع لوتز ان يجتاز كافة الاختبارات والتحقيقات دون أية مشكلة. وكان أحد السبل المؤكدة لاكتساب اصدقاء في المستعمرة الألمانية في مصر هو من خلال الاهتمامات المشتركة بركوب الخيل والسباق، فاستخدم لوتز المبالغ الوفيرة، التي زوّدَ بها، كي يبدأ بمدرسة لتعلم ركوب الخيل وبمزرعة الخيول في ضاحية الزمالك عالية المستوى. وكان هو فارساً مجيداً، رغم ان ركوب الخيل كان متعة بدنية لم يظهر أية حماسة لها من قبل نتيجة كبوة حصان به. ولكنه أحرز بعض المعرفة في تربية الخيول حين كان في المدرسة الزراعية.

وعلى خلاف ايلي كوهين الذي طُلِبَ منه تحقيق نتائج سريعة منح لوتز عاماً كاملاً يبقى خلاله غير بارز ويركز على

اكتساب العدد الأكبر من الأصدقاء في وسط الضباط والعلماء السابقين. واعطى انطباع انه نازي متعصب يملأ نفسه الحنين الى الرايخ الثالث، وانه معجب جداً بالرئيس عبد الناصر. ورغم ان لوتز قام بدور «العميل الخامل» ولم يشارك آنذاك في التجسس النشط، الا انه افلح في جمع معلومات وفيرة خلال تلك السنة، والتي عاد في نهايتها الى ألمانيا حيث تلقى تعليمات جديدة من ضابط موساد.

وحين كان في مصر اقام لوتز صداقات حميمة لا مع بعض العلماء النازيين السابقين، في مؤسسات بحوث الصواريخ والطائرات، فحسب، بل مع العديد من كبار الضباط في الجيش المصري وفي هيئة أركان الرئيس عبد الناصر نفسه. وقد أثار اهتمامه اتساع نشاطات شبكة المخابرات المصرية في ألمانيا وسويسرة، اذ انه تتبع الصلات بين فرديناند براندنر وبين حسن كامل السويسري المصري في زوريخ، واكتشف ان عدداً من الألمان غادروا الأرجنتين، منذ الأطاحة بالرئيس بيرون، وطلبوا الأمان في مصر. ومن بين هؤلاء كيرت تانك Kurt Tank الذي عاد اولا الى المانيا ولكنه اخفق في ايجاد عمل له فيها، فانتقل الى الهند لمساعدتها على

صنع اول طائرة مقاتلة نفاثة فيها . على ان خطط انتاج الصواريخ في الجمهورية العربية المتحدة عانت من صعوبة بالغة في أواخر سنة ١٩٥٩ م. على رغم تدفق هؤلاء الاختصاصيين الى مصر ، فقد حدثت مشكلات في مؤسسة ميسر شميدت سرح على أثرها عدد من الفنيين والغيت عقود بعض الخبراء الألمان على الفور ، فأخذ المصريون يَغُذُّونَ السعي وراء المواهب في ألمانيا وسويسرة لانهم كانوا يبذلون جهوداً يائسة للحاق بإسرائيل في القوة الجوية . وكان أحد اسباب عودة لوتز الى المانيا هو مساعدة عملاء الموساد الاوروبيين على تتبع الحلقات العديدة في السلسلة التي تمتد من القاهرة الى معهد شتوتغارت والشركات السرية في سويسرة .

ورأى خبراء الموساد في تقييم مستلزمات تطوير قصص التغطية ان زواج لوتز من سيدة ذات مظهر آري كامل سيكون لصالحه وسيمنحه رصيداً كبيراً وتقبلاً أكثر لوضعه . لقد أظهرت المخابرات الاسرائيلية قدرة حقيقية في اختلاق قصص التغطية لعملائها ، وهي توازي المخابرات السوفييتية في هذه الناحية ، بيد ان السوفييت ، الذين يعتقدون ان العالم الغربي محكوم عليه ، على استعداد للانتظار سنوات من اجل تحقيق نتائج ، ولذا فهم حذرون

جدا في صياغة التغطية للعميل. أما المخابرات الاسرائيلية فقد طَوَّرت قدرة الحصول سريعا على أهم الأسرار، فأرسلت بأقصى سرعة، كما رأينا في حالة ايلي كوهين، عميلاً الى أعلى الأوساط في دولة معادية. صحيح انها كانت مستعدة للانتظار سنة كاملة على لوتز كي «يدخل نفسه»، ولكن هذه السنة هي كل شيء.

وهكذا اعتُبِرَتْ زوجة لوتز احدى وسائل تقوية يده، ولكن ثمة مشكلة، فهو متزوج لا من ألمانية ذات شكل آري، بل من فتاة اسرائيلية تتكلم اللغة العبرية، وله منها طفلان. فوضعت بعض الترتيبات، وذكرت مستلزمات امن اسرائيل، وتقبلت زوجة لوتز الوضع اخيرا، ووافق الزوج على أن «يزوج» من شقراء شمالية اسمها والدروت نيومان Waldraut Neumann. وتم الزواج في ميونيخ، وانتقل الزوجان، وهما مظهرا السعادة، الى القاهرة ليعيشا في فيلا جميلة في ضاحية هيليو بوليس. وخلال الأشهر الستة التالية اكتسب ولفغانغ، في الأوساط السرية، لنفسه لقب «جاسوس الشمبانيا». لقد تميزت حفلاته بكمية الشمبانيا الموزعة، ولم يخف لوتز نفسه ان هذا هو شرابه المفضل سواء في البيت أو نادي الجزيرة الرياضي قرب الأهرام او في نادي الفروسية.

ولكن اذا كانت حياة لوتز قد تبدو مثل حياة جاسوس في القصص الخيالية القديمة فانها كانت، على اية حال، عملا صعباً تماماً، فقد توقع الاسرائيليون آنذاك، وبسبب مقدار المال الذي منحوه اياه لينفقه، منه نتائج سريعة، وهم لم يريدوا فقط تفاصيل كافة خطط الصواريخ المصرية بل خرائط لشتى المنشآت السرية واسماء الفنيين، ثم تقديم دليل كاف على انه قادر على شن حملة دبلوماسية لارغام الفنيين الألمان على الخروج من مصر.

ان ولفغانغ لوتز، مثل ايلي كوهين، لم يضع أية خطة، بل سارع الى اتخاذ اصدقاء بين كبار الضباط المصريين، ومن هؤلاء العميد عبد الرحمن، نائب رئيس المخابرات العسكرية المصرية، والاميرال فوزي منعم والفريق فؤاد عثمان، ومدير امن مراكز الصواريخ في مصر، والفريق سليمان ومدير الشرطة يوسف غراب. وقد حضر كثير من كبار الضباط مدرسة الفروسية، التي انشأها، وتلقوا دروساً فيها: وكانت الرسوم بسيطة، وكان هنالك اغراء حفلات الشمبانيا بعدها. وقد تلقى لوتز مساعدة كبرى من «زوجته» الألمانية في تلك المناسبات، اذ انها تملقت الضباط المصريين وابهجتهم. وهنالك ضابط كان يحضر، بين حين واخر،

هذه الحفلات وكان يفضل بعدئذ نسيان هذه الحقيقة وهو آنور السادات رئيس مجلس الشعب آنذاك ثم اصبح رئيسا لمصر. فقد كان السادات شديد الاعجاب بالقائد الألماني رومل، وكان ولفغانغ لوتز يتفوه ببعض الذكريات عن هذا الجنرال الألماني حين يتحدث معه.

زود لوتز بجهاز بث اذاعي قيل انه اخفاه في جهاز للوزن في حمام مسكنه، وحالما توطد وضعه كجاسوس وبات يملك قدراً كبيراً من المعلومات أبقى تل أبيب على اتصال دائم به. ويجب هنا ألا يتبادر الى الذهن ان مؤسسة جيهلن كلها كانت تدري بتخفي لوتز، فهذا سر لم يطلع عليه سوى بضعة افراد هم ايضا عملاء للموساد. والرجل الأول في مخابرات المانيا الغربية بالقاهرة كان هو نفسه جاهلاً بهوية لوتز الحقيقية، فقد ارتاب في أن لوتز قد يكون عميلاً، ولكنه ظن انه ربما يكون بريطانيا او اميركيا يستخدم اسما المانيا غربيا للتغطية والتمويه. لقد استطاع لوتز، عن طريق اتصالاته الواسعة، ان يزود الموساد بمعلومات سياسية واقتصادية وبملف مفصل عمّا يفعله النازيون السابقون والفنيون الألمان الآخرون. وقد اتخذ هذا العميل الاسرائيلي من الفريق فؤاد عثمان صديقا حميماً

حتى انه استطاع الوصول الى كافة اشكال الأسرار العسكرية. وفيما بعد، وحين بات جلياً أن مصر تسعى وراء المعونة السوفييتية لتطوير برنامج صواريخها، استطاع لوتز أن يؤكد هذا عن طريق حصوله على دعوة من الفريق عثمان للتجول في قواعد صواريخ سام ورؤية منصات الاطلاق في سيناء وعلى حدود النقب. وفي تلك المناسبة قام لوتز بمغامرة هائلة ولكنها افادت، فقد جعل اصدقاءه كافة يفهمون انه مصور هاو جداً، وسأل الفريق عثمان هل يزعجه أن يقف أمام واحد من هذه الصواريخ الجديدة المنصوبة فوق منصات اطلاقها، فحصل على الأذن وعلى الصورة.

على أن الأمر الأهم هو ان لوتز مَسَحَ التسهيلات البريدية الممنوحة للمستعمرة الألمانية قرب مواقع الصواريخ، ووُضِعَتْ، نتيجة لذلك، رقابة، خطط لها بعناية شديدة، على البريد المرسل من هذه المستعمرة في مصر وبين شتى العناوين في ألمانيا، فكانت الرسائل والطرود البريدية تُعْتَرَضُ في أحد البلدين أحيانا وفي البلد الآخر أحياناً أخرى، فتصور الرسائل ثم يعاد ارسال الرسائل والطرود وكأن شيئا لم يحدث. وهذا لم يقدم للاسرائيليين كافة المعلومات التي ارادوها فحسب، بل زودهم بعناوين اقارب العلماء

الألمان. ثم هُيِّئت المرحلة لمواجهة حكومة المانيا الغربية بملف مثير وبطلب استدعاء هؤلاء الفنيين، أو استخدام اساليب اقسى اذا فشل هذا التكتيك، فالزمن لما يعد في جانب الاسرائيليين، وقد حقق عبد الناصر بمعونة المانية، ما لم يكن يستطيع قط ان يفعله وحيداً، وهو انتاج صاروخ فعال لسلاحه المدرع. ولكن هذا لم يكن كل شيء، اذ وردت منذ سنة ١٩٦٢ تقارير إلى الموساد عن ان العلماء الألمان كانوا يعملون على سلاح اشد هولاً لاستخدامه ضد اسرائيل، ومن ذلك الحرب الجرثومية والكيماوية.

فقد جاء في احد التقارير ان كيماوية المانية شابة وصلت الى القاهرة، وان الدكتور هانس ايسليه Hans Eisele، الذي كان طبيبا في معسكرات الاعتقال، يقيم في المنشأة ١٣٥ وانه ربما كان منهمكا في اجراء بحوث على الحرب الجرثومية. لقد كانت هذه الأخبار تبعث على الشؤم، ولكنها ما زالت غامضة تخمينية. ولكن جاءت في تلك السنة نفسها ادلة، اكثر واقعية وانذاراً بالخطر، من ضابط نمساوي سابق في الجيش الألماني كان يعيش في القاهرة، اذ نقل هذا الى المخابرات الإسرائيلية انه يملك دليلاً على ان العلماء الألمان كانوايكملون «قنبلة الرعب» وهي سلاح نووي صغير

رخيص، غير انها تحتوي على عنصري سترونتيوم ٩٠ Strontium 90 وكوبالت ٦٠ Cobalt 60 المرعبين، وانها، اذا اسقطت على اسرائيل، سوف تلوث الجو والتربة بطريقة بطيئة خداعة تسبب آلاف الوفيات[1].

وعلى حين كان الاسرائيليون راضين كليا عن هذه المعلومات الدقيقة الواقعية كليا، التي بعث بها لوتز من. القاهرة، اظهروا تحفظا وحذرا ازاء هذه التقارير الاخرى. وانقسم الرأي داخل الوزارة الاسرائيلية وشتى فروع اجهزة المخابرات، فهل تؤخذ هذه المعلومات على انها صحيحة بدون المزيد من التحقق والتثبت ثم مجابهة حكومة المانيا الغربية ام الانتظار حتى يتوفر البرهان القاطع في حال وجود مؤامرة محبوكة لخداع الاسرائيليين ودفعهم الى التقدم بمطالب يمكن رفضها بسهولة؟ واصبحت هذه قضية سياسية رئيسية في تل ابيب.

الفصل الثاني عشر

انتقادات سويسرية عنيفة لهاريل

«ايبيس» و«كليوباطرة» مشروعان يهدفان الى تدمير اسرائيل، ولذا كان علينا ان نتصرف».

(ايسر هاريل)

«حياة العميل السري خطرة جدا، ولكن حياة العميل المزدوج اكثر جدا تعرضا للخطر، فاذا كان شخص ما يتوازن على حبل مشدود فهو هذا، وأية زلة ترسله مهشما الى الهلاك».

« ايبيس » و« كليوباطرة » هما الاسمان الرمزيان لاثنين من المشروعات التي كان العلماء الألمان يديرونها في مصر في اوائل الستينات ، وكان هذان معنيين ، بشكل خاص ، بالخطط السرية جدا لصنع اسلحة الرعب التي أُمِلَ ان يتم استخدامها لدفع اسرائيل نحو الاستسلام . و« ايبيس » مشروع ابتكر من اجل حقن الصواريخ بالفضلات الذرية للكوبالت ٦٠ وسترونتيوم ٩٠ ، على حين ان « كليوباطرة » سلاح ذَرِّيٌّ بسيط . والحقيقة ان كثيراً من عمل بحوث العلماء الالمان كان قد اخفق انذاك ، وسجل العديد من حالات الفشل ، ولم يكن لأي من هذه المشروعين ـــ باعتراف ايسر هاريل فيما بعد ـــ اية اهمية تقنية كبيرة . ولكنه لم يكن يعرف

ذلك في حينه، فهما بالنسبة اليه «مشروعان يهدفان الى تدمير اسرائيل، ولهذا كان علينا ان نتصرف»[1].

كان هاريل يتبنى فكرة القيام بعمل مخابراتي منظم بعناية يخيف العلماء الألمان ويدفعهم الى مغادرة مصر، بينما كان الأعضاء المعتدلون في الوزارة الاسرائيلية تواقين، آنذاك، الى استعادة العلاقات الطبيعية مع المانيا الغربية والى دفن الماضي وخلق اتفاق مع جمهورية المانيا الغربية الديمقراطية، فلم يريدوا القيام بأي شيء قد يعرقل هذا التطور، وأملوا في ان الدبلوماسية يمكن استخدامها لاقناع حكومة المانيا الغربية باستدعاء العلماء من مصر.

ولكن هاريل كان يحاجج ان حكومة المانيا الغربية تتمتع بسلطة واهية على هؤلاء العلماء، ولذا لا تستطيع استدعاءهم، فهنا يكمن تهديد خطير لوجود اسرائيل نفسه، ولا بد من القيام بشيء. وقد وردت تقارير اخرى عن ان زجاجات من غاز الأعصاب، تابون Tabun، الذي طوره النازيون خلال الحرب العالمية الثانية قد تمت تجربتها في مصر رغم انه لم يقم توكيد على ذلك خلال الستينات.

وثار السؤال القديم، وهو هل يمكن تبرير التكتيكات

الميكيافيلية؟، وفي هذا الوضع يمكن ان يحاجج بوجود سبب قَوِيٍّ لاتخاذ هذه الاجراءات . ولكن ما حدث ان بعض تكتيكات هاريل العدوانية زاغت عن هدفها، وثبت اخيراً ان «تهديد اسرائيل» لم يكن سوى سخرية أليمة، ولكن هذا لم يتم الا بعد ان وقع ما وقع. ففي عام ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ بدا هذا التهديد حقيقياً، وظن هاريل، وقد شد من ازره ولا ريب نجاحه في اختطاف ايخمان، انه يستطيع ان يقوم باجراءات الذراع القوية دون ان يرتد عليه ذلك بأي ضرر، كما كان مدققا جدا، بطريقته الخاصة، في هذا المركز جد الصعب، ولو كان غير ذلك لما استطاع ان يحتفظ بثقه بن غوريون تلك السنوات الطويلة. وأحد الأمثلة على تدقيقه واصراره على عدم القيام بأي انتهاك للنظام هو طرده عميلاً لانه استخدم اجازة دخول مجاني للسينما من اجل تسلية صديقته بينما كان هذا مُكَلَّفاً بتعقب بعض الروس ومراقبتهم في الصف الخلفي من كراسي السينما. وقد تقبل هاريل، دون أي نقاش، انه محط استجواب السلطة المدنية، ورفض في مناسبات عديدة الافادة من شتى الامتيازات التي اسبغها مركزه عليه، ولكنه، في الوقت نفسه، عمل دون رحمة، وفي سنة ١٩٦٣ م. مضى الى ما هو أبعد من أعمال المغامرة الارجنتينية في تصرفات هي، مؤكَّداً، غير شرعية بل

اجرامية في بعض الحالات وفقا لمعايير القانون الدولي . ولكنه رأى ان اسرائيل كانت تعاني فعلاً من كافة اضرار حرب غير معلنة من جانب مصر ، وان على المرء في حالات كهذه أن « يخرق القانون ، ولكن بالحد الأدنى » .

كانت الحكومة الاسرائيلية قد قامت من قبل بلفت نظر حكومة المانيا الغربية الى العلماء الألمان في مصر وقدمت اليها دليلاً وافرا كي تُقَيِّمَ الوضع على أساسه ، وربما يكون ايسر هاريل قد تخطى حدود صلاحياته حين لم يُسلِّمْ بما تستطيع حكومة المانيا الغربية ان تقوم به ، فقد ردت هذه بشكل ودود ، ومارست بالفعل ضغطاً هائلاً على معهد شتوتغارت الذي تساعده حكومة بون ماليا . وكانت حكومة المانيا الاتحادية قد امرت يوجين سانغر Eugene Sanger وطلابه الباحثين بالعودة الى المانيا والاعلان عن الغاء عقودهم . فاستجاب سانغر ، وعين مديراً لمركز الدراسات الفضائية في المانيا الغربية . ولكن بعض مساعديه رفض ، من ناحية أخرى ، ان يغادر مصر ، ثم ملأ المان اخرون امكنة سانغر والاخرين الذين استجابوا لطلب بون . وهكذا كان تأثير حكومة المانيا الغربية في الواقع قليلاً ، ولم يكن الاسرائيليون عموماً سعيدين بموقف شتراوس Strauss وزير الدفاع في المانيا الغربية . وقد ضايقت

هاريل، بخاصة، العملية البطيئة لما اعتبره، الى حد ما، الدبلوماسية غير ذات الجدوى، واستقر رأيه في ٢٦ تموز ١٩٦٢ م. حين اطلقت مصر، في تظاهرة، صاروخين امام الرئيس عبد الناصر، وذكر بيان رسمي ان مصر اطلقت صاروخين جديدين بعيدي المدى هما «القاهر» ومداه ٣٧٥ ميلاً و«الظافر» ومداه ١٧٥ ميلاً. ولم يكن هنالك أي خطأ في معرفة ما يعنيه ذلك، فانطلقت منذئذ المخابرات الاسرائيلية نحو العمل.

لم يكن هاريل قد انتظر، كي يضع خططه، اعلان المصريين عن صواريخهم الجديدة، فقد اعتبر حسن كامل، المصري ـ السويسري، احد أخطر إعداء اسرائيل واكثرهم روغاناً، وراقبه طيلة اشهر مراقبة شديدة. وكانت علاقات اسرائيل بسويسرة مضطربة وغير مستقرة دائما، وبدت السلطات السويسرية احيانا، وتحت ستار الحياد، اشد عداء للاسرائيليين من اية دولة اخرى في العالم.

وقد يكون هنالك اخطاء من كلا الجانبين في تطور هذا الوضع، ولكن الحقائق تتحدث عن نفسها، ففي مناسبات لا حصر لها قبض السويسريون على اسرائيليين او اتخذوا اجراءات ضد

المواطنين الاسرائيليين بينما ظلوا غير فعالين امام الارهاب العربي او التهديدات العربية. ويعود جزء من عدم تبادل الود هذا الى الحرب العالمية الثانية حين تلقى النازيون، في اجزاء من سويسرة، قدراً كبيراً من الدعم. والحقيقة انه قيل عن السويسريين الألمان انهم اكثر نازية من النازيين، وقد ذكر صموئيل كاتز Shmuel Katz ان «ممثل الارغون في سويسرة كان رامي Rammy (ديفيد دنون David Danon) وهو طالب طب في جنيف، تم تهريبه من فلسطين سنة ١٩٤٣ م. بعد ادائه الخدمة العسكرية فيها. وهناك عضو آخر في الإرغون، هو روبن هشت Reuben Hecht، وكان مقيماً في بال. وقد جرى التخلي أخيراً عن خطة مهاجمة المنشآت البريطانية في سويسرة، اذ اقنعتني مناقشاتي مع رامي، باستعراض الأحوال في جنيف، وبال، مع تحقيق قام به لمدة يومين هشت في برن، ان اية عملية فيها ستكون معقدة ومحفوفة بالمخاطر»[٢].

وفي سنة ١٩٦٢ م وقعت سلسلة من الحوادث الغامضة في سويسرة ومصر وألمانيا اشارت جميعها الى مكائد المخابرات الاسرائيلية. ووقعت الحادثة الأولى في تموز حين استأجر حسن كامل طائرة لنقله هو وزوجته من جزيرة سيلت القريبة من الحدود

الدانماركية ــ الألمانية الى دوسلدورف ، ولكن حسن كامل الغى رحلته قبيل اقلاع الطائرة ، فسافرت زوجته وحدها ، وقد تحطمت الطائرة بوستفاليا بعد ساعات قليلة فقتل الطيار وزوجة حسن كامل كلاهما .

وقد اثار هذا الحادث قليل اهتمام خارج اوساط اجهزة المخابرات رغم ان سببه لم يعرف قط على وجه اليقين . ولكن الحادث التالي وقع في ميونيخ في ١٠ ايلول ١٩٦٢ م . وكان مختلفا ، فقد تقدمت زوجة هاينز ــ كروغ Heinz Krug ، مدير مكتب شركة انتر(*) INTRA في شارع شيلر Schiller Strasse الذي ارتيب في ان المصريين استخدموه وكالة مشتريات للمعدات الالكترونية ومحركات الصواريخ ، ببلاغ الى شرطة ميونيخ بان زوجها مفقود . واجريت تحقيقات ، وثبت ان كروغ قد شوهد قبيل ذلك ، في اليوم نفسه ، يغادر غرفته مع رجل اخر ذكرت مضيفة في شركة مصر للطيران انه يبدو كاسرائيلي . وبعد ثمان واربعين

(*) شركة اقيمت في ميونيخ لشراء المعدات الالكترونية والمحركات المستخدمة في نوع معين من الصواريخ ، ولها علاقة مع مصر .

(المترجم)

ساعة وجدت سيارة كروغ مهجورة في مكان ناء خارج المدينة، وسرت شائعات على انه اختطف.

ووقعت الحوادث التالية متتابعة تفصل ايام قلائل بين الواحد والآخر. وكان ولفغانغ بيلز Wolfgang Pilz، أحد التقنيين الألمان في مصر، قد حل محل سانغر في ادارة البحوث، وفي ٢٧ تشرين الثاني فتحت سكرتيرته البريد المرسل اليه وشاهدت طرداً قرأت على غلافه عنوان المرسل المزعوم وهو محام في هامبورغ، واخذت تفتحه بدون اي تردد، فانفجر في وجهها، ونقلت الى احدى مستشفيات القاهرة حيث امضت اسابيع عديدة.

لقد كان هذا الطرد هو الأول في سلسلة من الرسائل الملغومة، ففي اليوم التالي وصل طرد اخر، ظاهرياً من مكتبة في مدينة شتوتغارت، الى أحد المكاتب السرية للباحثين في الصواريخ، وانفجر ايضا وقتل خمسة من المصريين. لقد كانت الرسالة التي تحملها هذه الطرود الملغومة واضحة: فالعلماء الألمان مهددون بالموت اذا لم يغادروا مصر. ووصلت الى القاهرة طرود اخرى خلال اليومين التاليين، ولكنها سُلِّمَتْ الى الخبراء لفحصها قبل فتحها، فوجدوها تحتوي على كتب مليئة بالأجهزة المتفجرة.

لم تصدر السلطات المصرية اي بيانات حول هذا الموضوع على رغم التكهنات حول من هو مرسل الطرود المغلومة، بل اكتفت باستنفار اجهزة مخابراتها، ثم اتت تقارير اخرى من مصر والمانيا عن ان اسر العلماء الألمان تلقوا مخابرات هاتفية لم يعلن اصحابها عن انفسهم تحذرهم من ان عملاً ما سوف يتخذ ضدهم اذا لم يغادر الفنيون وخبراء الصواريخ مصر. ولكن تهامس الناس في بيروت، وهي أحد خير مراكز الاستماع عن التعقيدات الشرق اوسطية في هذه الفترة، ان المخابرات السوفييتية تدخلت في هذه العملية الاسرائيلية وكانت تواقة الى تحويلها لصالحها، وقد يكون هذا صحيحا لأن من الصعب معرفة هل صدرت هذه المخابرات الهاتفية المغفلة جميعها من عملاء اسرائيليين، وقد يكون لصالح السوفييت خروج الخبراء الألمان من مصر حتى يستطيعوا زيادة نفوذهم في تلك المنطقة.

وكانت الضحية الثانية في حرب الاعصاب هذه هي الدكتور هانز كلاينفاختر Hans Kleinwachter، فني المخابر الذي كان ثقة في تركيب الصواريخ. ففي شباط ١٩٦٣ م. غادر مصر في زيارة قصيرة الى المانيا حيث كان لا يزال يحتفظ بمخبر بحوثه في

مدينة لوراخ Lorrach القريبة من الحدود السويسرية . وذات يوم ، وبينما كان يقود سيارته في زقاق ضيق على مقربة من بيته انحرفت ، على حين غرة ، سيارة أمامه وارغمته على ان يتوقف ، وكان الزقاق خالياً من المارة . وقد وصف الدكتور كلاينفاختر الحادث ، فيما بعد ، كما يلي : «استطعت ان ارى ثلاثة أشخاص في السيارة الأخرى ، وقد نزل احدهم منها وتقدم مني ، وكنت غير مرتاح لمنظره فقد بدا ان ثمة شيئاً شريراً فيه ، اما الاثنان الآخران فقد ظلا في السيارة لا يتكلمان . وحين اصبح هذا محاذيا لي قال فقط : «اتستطيع ان تخبرني اين يعيش الدكتور شنكر Schenker ؟ » انني اظن ان هذا السؤال كان من اجل دفعي الى التفكير ان المسألة هي استيضاح بريء . ولكن قبل ان اتفوه بكلمة اخرج مسدساً ركب عليه كاتم للصوت وضغط على الزناد ، كنت محظوظاً ، اذ حطمت الرصاصة زجاج السيارة الامامي غير انها لم تصبني بأي اذى لانها ، وللصدفة العجيبة ، دفنت نفسها في لفاح رقبتي الشتوي السميك» .

اسرع هذا الرجل الى السيارة الأخرى التي انطلقت على الفور ، وقد وجدتها الشرطة ، فيما بعد ، مهجورة على مسافة قصيرة

من موقع الهجوم . وأفترِضَ ان الرجال الثلاثة انطلقوا الى سيارة أخرى ، ومن المرجح انهم عبروا الحدود السويسرية . وكان الشيء الوحيد ، الذي خلفوه وراءهم ، هو جواز سفر باسم علي سمير الذي قيل عنه انه عضو في المخابرات المصرية . ولكن من المؤكد أن هذا الجواز مزور ، فقد ثبت بعدئذ ان علي سمير هذا كان في القاهرة حين وقوع الحادث . وهكذا ، لم يأبه المحققون بذلك ، وكان بينهم رجال أمن ألمان وسويسريون وبعض رجال المخابرات المصرية . ولا ريب ان ايا من الناس لم يصدق ان المخابرات المصرية قد رتبت هذه العملية ضد الدكتور كلاينفاختر لان المصريين لم يكونوا على اي خلاف معه ، رغم ان بعض الصحف ابرزت قصة جواز سفر علي سمير . ويبدو ان من غير المحتمل تماما ، ان « فريق قتل » متمرس سوف يخطيء الرجل ، الذي يقصدونه ، من مدى قريب جدا رغم ان الانطباع ان اطلاق النار لم يكن متقنا ، لذا فلا بد ان يكون الافتراض هو ان الاسرائيليين ارادوا فقط ارعاب الدكتور كلاينفاختر وتذكيره أنه رجل مُسْتَهْدَف ومطلوب إذا لم يترك مصر نهائياً ، اي ان الارعاب هو ، بإختصار ، خير من القتل . ولكن دليل جواز السفر المزور بدا عملا اخرق ، فَلِمَ لَمْ يختاروا اسما

مصريا زائفا وليس اسم رجل يمكن اثبات انه كان في القاهرة ساعة وقوع الهجوم؟.

وبينما كانت الشرطة الألمانية تحقق في هذه القضية وقع حادث اخر ادى الى قدر كبير من الاعلان عن مسألة العلماء الألمان كلها في مصر ــ وجعل اسلحة الرعب المصرية السرية، المصممة لتستخدم ضد اسرائيل، تتصدر انباء الصفحات الأولى في صحف معظم انحاء العالم. وقد وقع الحادث هذه المرة داخل سويسرة حيث تم استنفار جهاز المخابرات الصغير، ولكن الكفوء، وتنبيهه، من قبل، الى ما كان يجري لا عبر الحدود في ألمانيا بل في شتى المكاتب المتخفية التي اقامها في سويسرة افراد يعملون لصالح المصريين. ولم يقتض اثبات الصلات، بين الحوادث الاخيرة في ألمانيا وبين ما كان يجري في سويسرة، طويل وقت من الشرطة السويسرية، فقد شك هؤلاء ان السيارة المستخدمة بعد محاولة الاعتداء على حياة كلاينفاختر قد دخلت الى سويسرة، وربما تكون قد عبرت الحدود قبل تبليغ الشرطة الألمانية بقضية كلاينفاختر بوقت طويل. ثم وقبل ثلاثاء المرفع* سنة ١٩٦٣ م. تلقت الشرطة

(*)المرفع: ايام معدودة تتقدم الصوم عند المسيحيين.

(المترجم)

السويسرية اشارة من المانيا تتضمن الاشتباه بان العملاء الاسرائيليين قد انتقلوا الى سويسرة، وقد بني هذا الظن لا على حادثة كلاينفاختر فقط، بل على حقيقة ان ابنة بول غوركه، العالم الألماني الذي ساعد المصريين، قد تلقت تهديداً من شخص نمساوي، هو اوتو فرانك جوكليك Otto Frank Joklik بان اجراء ما سوف يتخذ ضد والدها واسرته اذا لم يمتنع عن صنع اسلحة لاستخدامها ضد اسرائيل. وساد الاعتقاد ان جوكليك قد اختفى في سويسرة. ثم جاء دليل اقوى من شرطة فرايبيرغ Freiberg يتضمن ان هايدي غوركه قد تلقت مكالمة هاتفية، لم يذكر المتكلم اسمه، تطلب منها تحديد موعد مع رجلين في فندق بمدينة بال، واعتقدت الشرطة الألمانية ان ثمة عنصر تهديد يكمن وراء هذا الموعد المقترح..

كانت الأموال العربية مودعة آنذاك في خزائن وفي حسابات مرقمة في المصارف السويسرية، كما افتتحت مصارف عربية جديدة فيها، وكان بعض هذه المبالغ «مالا جبانا» اودعه بعض الحكام العرب الذين رغبوا في ضمان مستقبلهم من محتمل الانقلابات او الاستيلاء على السلطة، ولكن قسما كبيراً منه اودعته شتى فئات

الثوار الذين كانوا يقاتلون من اجل استقلال الجزائر. وكان وراء الستار قدر كبير من المناورة والتحرك من اجل السلطة، وكان اصحاب المصارف السويسريون يعون تماماً ان الحياة لن تكون كما هي نفسها، فقد نجا هؤلاء من العواصف المتصلة بكافة عمليات النهب النازي الذي تَخفّى في بلادهم، كما كانوا مطلعين تماما على العديد من مبالغ المخابرات التي كانت تدفعها، بشكل أو بآخر، الدول الكبرى كافة في سويسرة. ولكن دخل الآن عنصر جديد هو الحملة العربية المنظمة ضد رأس المال والعمل اليهوديين، والتي اتخذت احيانا شكل التهديد بفرض عقوبات مالية على اي بلد يظهر انحيازاً لاسرائيل. وكان السويسريون آنذاك متلهفين جدا على عدم اغضاب العرب، ولذا كانت ملاحقة العملاء الاسرائيليين، رغم عدم وجود دليل على انهم يعملون في الأراضي السويسرة، تُرى جزئيا على انها وسيلة لاظهار «الحياد» السويسري الدقيق امام العرب.

واقيمت خلية مخابرات مصرية ــ جزائرية في مدينة مونترو Montraux في اواخر الستينات، وهدفت الى الضغط على السويسريين ودفعهم الى اتخاذ موقف شبه مؤيد للعرب، وقد صُمّمَ

هذا الضغط ليؤثـر على المصارف والشرطـة والمخابـرات لا على الأوساط الحكومية، اذ كان معروفا تماما ان السويسريين، الذين يعبدون الحياد، لن يوافقوا رسميا على أية سياسة معادية لاسرائيل ومؤيدة للعرب. واعارت هذه الخلية، في الوقت نفسه، اهتمامها الكبير الى العناصر المؤيدة للنازيين التي كانت مرموقة في سويسرة خلال الحرب العالمية الثانية. وكان تحذير من عميل جزائري في مونترو هو الذي اعلم الشرطة السويسرية ان اوتو جوكليك عميل اسرائيلي يتآمر لتدمير مكاتب حسن كامل. والحقيقة ان جوكليك هذا، وهو عالم نمساوي وضابط سابق في الجيش الألماني، كان عدوا لدودا للنازيين، وقدّم قبل عام الى الاسرائيليين معلومات عن العلماء الألمان في مصر. وهو الرجل الذي قدّم للاسرائيليين ايضا ادق التفاصيل المرعبة عن قنبلة سترونتيوم ـــ كوبالت.

وفي أواخر شباط ١٩٦٣ م. طلب مكتب المدعي العام، في فرايبيرغ بألمانيا الغربية، من سلطات مدينة بال ان تراقب الاجتماع المقرر عقده في ٢ آذار في فندق دري كونيـغين Drei Koenigen في بال بين السيـدة هايـدي غوركـه وشقيقهـا وبين الدكتور اوتو جوكليك الذي سيصحبه اسرائيلي هو يوسف بن ـــ

غالِ Joseph Ben- Gal . وقد جاء في المعلومات المرفقة بهذا الطلب أن جوكليك هذا قد عمل هو نفسه مع حكومة الجمهورية العربية المتحدة، وقيل ان اسمه ذكر في ميونيخ سنة ١٩٦٢ م. بخصوص اختفاء الدكتور هاينز كروغ ومحاولة اغتيال الدكتور كلاينفاختر، وكلاهما يعمل في مصر مع غوركه. وهكذا، وفي ثلاثاء المرفع في آذار ١٩٦٣ م. قامت الشرطة السويسرية، بملابس مدنية، بمراقبة الفندق في بال. وقد نصحت شرطة المانيا الغربية هايدي غوركه ان تلتزم بالموعد وطمأنتها ان الشرطة السويسرية ستراقب الفندق، طيلة الوقت، عن كثب وستضمن سلامتها. وكان حضورها قراراً تطلب من جانبها بعض الشجاعة بسبب قضية كلاينفاختر، فاصطحبت شقيقها الأصغر، ودخلا الفندق وجلس الاثنان في القاعة حيث اخفي ميكروفون في مصباح محاذ لطاولتهما، وكان رجال الأمن يجلسون قريباً منهما.

ووصل جوكليك اخيراً يصحبه رجل آخر قال عنه انه اسرائيلي. وقد تحدث جوكليك معظم الوقت، فأكد من جديد ان غوركه، اذا اصر على عمله لصالح المصريين، سيتعرض لاخطار جسيمة. وتضمن حديثه تهديداً مُبَطَّناً بدا اقل شدة عن ذي قبل.

وتساءلت هايدي غوركه، متعجبة، لِمَ طُلِبَ منها الذهاب الى بال كي تسمع فقط ترداد التلميحات السابقة الى ما ستعانيه اسرتها من مشاكل واخطار، ولكن لب الموضوع كان واضحاً، فعليها ان تستخدم نفوذها وتأثيرها لاقناع والدها بمغادرة مصر.

وغادر الرجلان الفندق، وذهبا الى محطة القطارات حيث استقلا القطار الذاهب الى زوريخ، وقد تم الاتصال بشرطة زوريخ هاتفياً، فانتظروهما حين وصلا، ثم تبعوهما الى مطعم قريب من البحيرة حيث كان الناس يشاهدون الحفلة الراقصة في مناسبة ثلاثاء المرفع، فاحتسى جوكليك ورفيقه بعض الشراب، ثم مضى كل منهما في سبيله.

عاد جوكليك الى محطة القطارات حيث القي القبض عليه، بينما سار زميله الى القنصلية الاسرائيلية، فاوقفه رجال الأمن قبل ان يدخل بابها وطلبوا منه ان يريهم جواز سفره. فاخرجه لهم، واراهم ان اسمه هو يوسف بن غال، وادعى انه موظف في وزارة التربية الاسرائيلية، وكان لديه من الأسباب كي يَدَّعي انه يتمتع، بشكل ما بالحصانة الدبلوماسية. وقد اعتقله رجال الأمن السويسريون، رغم انه لم يرتكب أي جنحة ما عدا مرافقة

جوكليك، وهذه لا تشكل جريمة. اما قضية جوكليك فكانت مختلفة، اذ كانت عليه شكاوٍ من الشرطة الألمانية.

وحارت السلطات السويسرية في امرها، فما هي الخطوة التالية التي ستقوم بها؟ فبعد استجواب الرجلين ابقتهما موقوفين اسبوعين قبل ان تعلن، يوم ١٥ آذار ١٩٦٣ م، ان الاتهام قد وجه الى عميلين لدولة اجنبية بتوجيه تهديدات الى الانسة غوركه، واضاف بيان المدعي العام السويسري أنه «وفقا للتحقيقات التي جرت فان القولِ الذي صدر من تل ابيب، وهو ان الانسة غوركه هي التي رتبت الاجتماع في الفندق، ليس اكثر من مكيدة، ويجب رفضه لانه غير صحيح كليا». وذكرت الصحف السويسرية ان جوكليك طُرِد، من قَبْلُ، من سويسرة لانه حاول ان يحث العلماء السويسريين على العمل من أجل اسرائيل. وقيل ايضا ان حسن كامل كان احد المحرضين على هذا التصرف السويسري ضد هذين الرجلين. ومن المؤكد ان شرطة ألمانيا الغربية ارتابت فيهما بانهما متورطان في الهجوم على الدكتور كلاينفاختر، وطلبت من السويسريين تسليمهما الى المانيا.

وافتتحت المحاكمة في بال يوم ١٠ حزيران ١٩٦٣ م، وكان

الاتهام الموجه الى بن غال هو تهديد حرية الفرد، على حين اتهم جوكليك بانه كان شريكا و«بالانتهاك المتكرر لحظر دخوله الأراضي السويسرية الذي كان خاضعاً له منذ شباط ١٩٦٠ م».
وفي الوقت نفسه رفض السويسريون طلبا بتسليم بن غال وجوكليك الى ألمانيا الغربية.

لقد كانت حملة النشر، التي احاطت بهذه القضية، هي التي خلقت صعوبات ومشكلات لايسر هاريل، فقد كان بن غوريون يبذل ما يستطيع من جهد، عن طريق الدبلوماسية السرية، مع الألمان الغربيين ناشداً معونتهم لاخراج العلماء الألمان من مصر. وكان، في الوقت نفسه، متلهفا على تحسين العلاقات بين اسرائيل وبين بون. كما ان كونراد اديناور، المستشار الألماني الغربي العجوز، كان هو نفسه تواقا الى رؤية هذه العلاقات وهي تبنى على سس افضل. صحيح انه لم يتحقق الشيء الكثير، ولكن فضائح الاحداث الأخيرة في ألمانيا وسويسرة، والتي سرعان ما ذاعت من خلال محاكمة هذين العميلين الأسرائيليين، دفعت الأمور بشكل حتمي نحو الأسوأ. وفي اسرائيل نفسها استقبل الناس هذا النبأ بخليط من مشاعر الذعر والغضب والبهجة المتجددة لتقديم

مجرمي الحرب امام العدالة ، وفي اجزاء اخرى من العالم كان هنالك نقد للنشاطات غير الشرعية التي قامت بها المخابرات الاسرائيلية ولادعاءات التكتيكات الارهابية ، وتضرر موقف اسرائيل في الخارج ، وانطبق هذا ، انطباقا تاما ، على انباء ان جمعية اسرائيلية سرية ، اسمها الرمزي جيديون Gideon ، هي المسؤولة عن الرسائل الملغومة المرسلة الى مصر ، اذ سرعان ما نشرت في الصحف تقارير مروعة عن محاولات اختطاف العلماء الألمان ، وعن قنابل الفيروس التي تصنع في المخابر المصرية ، وحكايات مبالغا فيها في تصميم اشعة الموت لمحو اسرائيل من الوجود .

ولم ينف هاريل الاتهامات ، التي وجهت اليه ، كما قد يفعل العديد من رؤساء المخابرات السرية ، ولم يتبرأ من العملاء الاسرائيليين رغم انه لم يحدث اقرار بالجريمة ، ولكن حدث تغير ملحوظ في جو المحكمة اثناء محاكمة بن غال وجوكليك في بال ، فأساسا اصيب كثيرون بالدهشة لان سويسرة لم تسمح بتسليم الرجلين الى ألمانيا الغربية . ومن المحتمل ان طلب التسليم هذا كان فاترا ، وان حكومة المانيا الغربية لم تكن متلهفة على ان ترى وهي تقمع العملاء الاسرائيليين . ولكن جو العداء السويسري

للاسرائيليين هو الذي تغير بين ليلة وضحاها تقريبا ، ولا ريب ان اتصالات دبلوماسية سرية جرت ، فقد بدت المخابرات السويسرية ، وبشكل غير رسمي ، وكأنها أُخبِرت سلفا ان تغييرا سيحدث باتجاه الموساد وانه لن تنفذ اجراءات على الأرض السويسرية تتعلق بالعلماء الالمان . وتجلى ذلك في قيام المدعي العام في المحاكمة بدور اقل عداء، ومن الواضح ان توجيهات صدرت اليه بعدم تضخيم هذه القضية .

ومهما قد يقال عن ايسر هاريل وعمليات الموساد في هذه الفترة ، سلبا او ايجابا ، فلا يمكن نكران ان دفاع بن غال وجوكليك استخدم بمهارة للحصول على اقصى ما يمكن من اشاعة وجود العلماء الألمان في مصر ، ومن الدلائل على الأهمية التي علقتها الحكومة الاسرائيلية على هذه القضية ارسالها الى بال كلا ديفيد لاندر David Landor ، مدير مكتب الصحافة الحكومي وغابرييل باخ Gabriel Bach ، معاون المدعي العام في محاكمة ايخمان ، وقد حضر الاثنان المحاكمة بوصفهما مراقبين .

وليس ثمة من شك في ان معظم الحكومات كانت ستصر على الالتزام بالصمت المطبق وبعدم الاقرار بشيء، وحتى ولو

بصورة ملطفة، حول ما فعله الرجلان. ولكن اسرائيل، حين سمحت للدفاع ان ينشر العديد من البراهين عن نشاطات العلماء الألمان في مصر، لم تكسب فقط نوع الاعلان والنشر الذي ارادته، بل ساعدت قضية الرجلين. وخلال المحاكمة ابرز محامي الدفاع طلبا من ولفغانغ بيلز بشراء ٩٠٠ قطعة من آلية الصاروخ و ٢٧٠٠ جيروسكوب(*) Gyroscope. وكانت الوثيقة التي كتب عليها هذا تشير بوضوح الى ان هذه الطلبية هي من اجل تجهيز ٩٠٠ صاروخ والتي سينتجها المصنع ٣٣٣.

وادعى جوكليك نفسه انه ترك عمله مع الجمهورية العربية المتحدة في مصر لانه خرج بانطباع ان «النية الواقعية للمصريين هي ابادة اليهود». ثم زعم ان الدكتور ولفغانغ بيلز، رئيس فريق العلماء المرتبطين بحكومة الجمهورية العربية المتحدة، عمل لتزويد الصواريخ المصنوعة في مصر بوعاء (كبسولة) تحتوي على مادتي سترونتيوم وكوبالت المشعتين. وكانت مرافعة الادعاء ان بن غال التحق بالمخابرات الاسرائيلية ثم جاء الى اوروبا.

(*) جهاز يستخدم لحفظ توازن الطائرة أو الباخرة أو الصاروخ ولتحديد الاتجاه. (المترجم)

وذكر محامي هايدي غوركة للقضاة ان المادتين المشعتين المسجلتين في الصورة طبق الأصل للطلبية، واللتين ادعي انهما طلبيات وتحقيقات قام بها المصريون، هما بكميات قليلة جداً تلائم اغراض المستشفيات فقط، وقال جوكليك حين استجوبه القضاة، انه طلب مواد مشعة عن طريق مؤسسة في برونزفيك Brunswick، وقد ظن في باديء الأمر انهما لاغراض طبية. وقدر البروفيسور ولتر بايندر Walter Binder، من جامعة بيرن السويسرية، ان كمية الكوبالت ٦٠، المذكورة في الوثائق تكفي لتلويث الجو فوق اسرائيل الى ارتفاع كيلو متر على الأقل طيلة خمس سنوات بتركيز «يساوي خمسين ضعف الحد الأقصى الذي يمكن احتماله». على ان تقريره لم يذكر كيف سيتم ايجاد هذا التركيز فوق اسرائيل دون تعريض الدول العربية المجاورة للخطر. ولكن هذا الحذف لم يردع جوكليك عن الادعاء ان «المشروع المتعلق بالكوبالت ٦٠، الذي تخطط له مصر، يشكل تهديداً لا لاسرائيل فقط بل لشتى العواصم الاوروبية».

والحقيقة ان حجة الدفاع الخاصة بامكانية استخدام الحرب الكيماوية كانت مهلهلة جداً، ولكن كان لها تأثيرها في كمية

الدعاية التي استطاعت اسرائيل انتزاعها من المحاكمة، بل ربما اصابت السويسريين بالذعر، لان محامي الادعاء اخذ منذئذ يتلطف مع المتهمين، بل مضى الى حد القول: «انه يقدر، تقديراً كاملاً، قلق اسرائيل على وجودها نفسه في ضوء هذه الكشوف»، واضاف ان «نوايا بن غال كانت نبيلة». وحكم القضاة عليهما بالسجن شهرين، وهذا عنى اطلاق سراحهما على الفور، فقد كانا موقوفين اكثر من ثلاثة اشهر.

وفي غضون ذلك، وبعد نزاع بين ايسر هاريل وبن غوريون باتت المصالحة معه مستحيلة بينهما، استقال هاريل من منصبه كرئيس للمخابرات. فتباعد الاثنان ومضى كل منهما في سبيله. ولم يندم هاريل قط على عمله، فكان يؤكد ان تكتيكاته، مع كشفها الامور، لم تحدث ضرراً كبيراً وان اناساً هامين كثيرين، كانوا على وشك ان ينسوا انه كان هناك ذات يوم نازيون، علموا الآن ما كان يقوم به هؤلاء الناس. وادعى انه «يتمتع بدعم معظم اعضاء الحكومة، ولكنني لا استطيع ان اقول اذا كنت اختلفت، اختلافاً شديداً، مع رئيسها». وحول تكتيكاته في استخدام اساليب قطاع الطرق مثل الرسائل المتفجرة والتهديدات للعلماء

الألمان قيل انه علق بما يلي: «هناك رجال محكوم عليهم بالموت، وهذه جملة توراتية ولا أدري ان كانت واردة باللغة الانكليزية»[٣].

ومهما يكن من امر فان بن غوريون قدم الحاجة الى علاقات افضل مع المانيا على اية حجة اخرى مؤيدة او معارضة لسياسة المخابرات الاسرائيلية. ولا ريب ان هذه العلاقات تحسنت، منذئذ، مع المانيا واختفت الدعاية المعادية لها من الصحف الاسرائيلية. وبذلت حكومة بون كل ما في وسعها لثني مواطنيها عن قبول مراكز علمية في مصر قد ترتبط بالمجهود العسكري، ولكنها لم تستطع القيام باكثر من الامل في اقناع الناس بالعودة من مصر. وقد فعلت قلة من العلماء ذلك، وربما خوفا من العمليات الانتقامية اكثر منه تنفيذاً لأمر حكومة بون. على ان بن غوريون اشار الى حقيقة ان بعض المعلومات، عما كان العلماء الألمان يفعلونه، كان مبالغا فيه جدا وربما غير صحيح. وقد تبنت وكالة المخابرات المركزية الأميركية هذا الرأي، اذ ان ثمة قدراً كبيراً من الشك يحيط بموثوقية دليل جوكليك وشهادته، فقد عمل اساساً في مشروعات الأسلحة السرية في مصر وادعى انه قرر فقط ترك

القاهرة لانه احس بذنب مروع لأنه متورط في مؤامرة لتدمير الاسرائيليين. ولكنه، ولا ريب، قد سمع ان الاسرائيليين على استعداد ان يدفعوا مبالغ طائلة لهذا النوع من المعلومات. وفي محاكمته ثبت انه كذب بالنسبة لمؤهلاته العلمية، بل ان هاريل نفسه قال ان معلومات جوكليك لم تكن صحيحة.

الفصل الثالث عشر

قضية اسرائيل بير

«حياة العميل السري خطرة جدا،
ولكن حياة العميل المزدوج اكثر جدا
تعرضا للخطر ، فاذا كان شخص ما يتوازن
على حبل مشدود فهو هذا، وأية زلة
ترسله مهشما الى الهلاك».

(سيرجون ماسترمان John Masterman، «قضية
الأصدقاء الأربعة» The Case of the Four Friends)

رغم ان معظم جهد مكافحة التجسس ركّزت، في اسرائيل، حتى سنة ١٩٦٥ م. على التهديدات الصادرة من الدول العربية المجاورة، الا انه بات واضحا ان الاتحاد السوفييتي اخذ يزداد انهماكا في التجسس على تل ابيب، واستخدم اسرائيل قاعدة لعملائه.

ولم يكن صعبا، بالطبع، على الاتحاد السوفييتي ان يسرّب، ضمن مجموعة صغيرة من المواطنين السوفييت الذين سمح لهم بالهجرة الى اسرائيل، أحد افراد المخابرات السوفييتية، وكان دائما يختار يهوديا روسيا يتكلم العبرية بطلاقة ويستطيع ان يتظاهر انه صهيوني. وكانت قلة من اليهود على استعداد للقيام بذلك، ولكنها

خلقت مشكلة كبرى لاسرائيل. وما بين سنتي ١٩٤٨ و١٩٦٧ م. كان السوفييت نشيطين جدا في اسرائيل، ولا يستخدمون اليهود غير المخلصين لاسرائيل فقط بل الجواسيس المزروعين داخل السفارات بل وفي وزارة الخارجية الاسرائيلية نفسها ذات مرة. ومن عجب ان قلة من العرب تظاهرت بنجاح انها يهودية رغم ان عددا من اليهود انتحل بنجاح، صفة المسلمين. ولم يحاول الروس قط استخدام عملاء عرب بهذه الطريقة، ويبدو ان سبب ذلك تفضيلهم العملاء اليهود الذين، بالطبع، يبقونهم مطلعين على المسائل العربية.

لقد تدفق سيل دائم من الدعاية المعادية لليهود، ما بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧ م. من الاتحاد السوفييتي، فتبدد وهم اولئك، في اسرائيل، الذين اعتقدوا ان الحرب الباردة قد انتهت وانه سيسود جو اكثر مواتاة للصهيونية في الاتحاد السوفييتي، فطُرِدَ المزيد من اليهود من المراكز الرئيسية، واخذت الصحافة والاذاعة فيه تنشر حكايات عن كيفية خيبة امل المهاجرين السوفييت في اسرائيل، فأطلقت على المستعمرة الجماعية (الكيبوتز) اسم «معسكر العمل»، بل لقد ادانت اسرائيل على «تعاونها مع النازية

في الماضي »، وركزت الدعاية السوفييتية على حادثة جرت اثناء الحرب العالمية الثانية وهي عقد صفقة مع النازيين حول موضوع المهاجرين اليهود. واتهم الاتحاد السوفييتي اسرائيل ايضا « بتبييض » صفحة الرايخ الثالث لقبولها التعويضات من ألمانيا الغربية.

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٨ م اعلنت اسرائيل عن ان اكبر شبكة تجسس، كشفت حتى آنذاك، قد تمت تصفيتها على ايدي رجال الأمن فيها. وقد اشتملت هذه على عرب مقيمين في اسرائيل وعلى اقاربهم الموجودين في الأردن وعلى متسللين قدموا من لبنان. فألقي القبض على عشرة من العرب المقيمين في اسرائيل رغم ان الاعتقاد ساد آنذاك ان المتورطين اكثر من ذلك. ويعود تاريخ نشاطاتهم الى سنة ١٩٥٦ م. مع بعض الانقطاعات نتيجة الاجراءات المضادة التي اتخذتها، بين حين وآخر، اجهزة الأمن الاسرائيلية.

وقد قيل ان اخوين، وصفا انهما من عائلة مرموقة في الجليل الغربي، كتبا اعترافين عبّرا فيهما عن اسفهما لما فعلاه بعد ان كانا قد انكرا كافة التهم التي وجهت اليهما. وكان هذان قد عبرا الحدود الى القدس القديمة في كانون الثاني ١٩٥٧ م، وكان الأخ الأكبر،

وفقا للبيان الحكومي، قد اتصل به عميل سوري يدعى احمد داوود عزية ويعيش في لبنان ولكنه يأتي الى الأردن لتجنيد العملاء من بين الحجاج العرب المقيمين في اسرائيل. وقد وافق الاخوان على ان يعملا لعزية، وحين عادا الى بيتهما اتصل بهما عميل ثالث مقيم في عكا تلقى تعليمات من احد الاخوين، وهو معلم مدرسة، واستطاع ان يتجول في البلاد على رغم التعقيدات المفروضة على تحركات العرب. وقد زار متسللون سوريون العميل المقيم في عكا، وجمعوا خرائط ومجلات الجيش والمواد الاخرى التي تهيأ لهم، ومقابل ذلك كانوا يقدمون المال ويعطون التعليمات الجديدة. والمتسللون السوريون الذين كانوا الاشخاص الرئيسيين في هذه الحلقة هم: حسن عبد الحسيب حسن، وعلي عربش، ومفلح المواذ، وحسن المقدة، وقسام الحايك.

لقد كان الاسرائيليون بطيئين، الى حد ما، في تتبع افراد هذه الشبكة وفي ادراك ما كان يجري، فما ان اكتشفوا احد الجواسيس حتى انتظروا لمعرفة أسماء الشبكة كلها قبل ان يتخذوا اي اجراء، وكانت النتيجة انهم لم يعرفوا فقط قادة الحلقة بل اتصالاتهم والذين آووهم في قريتي عرابة والمغار، او الذين عرفوا بأمر التجسس ولكنهم لم يعلموا السلطات كما ينص القانون.

ولم يكن ثمة اي اتصال بين حلقة التجسس هذه وبين اي من النشاطات السوفييتية في اسرائيل، ولكن في حوالي هذا الوقت، أي أواخر سنة ١٩٥٨ م، تبع الاسرائيليون لأول مرة أثر العملاء السوفييت العاملين داخل اسرائيل. فالاتحاد السوفييتي لم يعمل فقط عن طريق عملائه هو، بل ادار ايضا التجسس داخل اسرائيل من خلال أجهزة المخابرات التشيكية والرومانية والبولونية. وكان احد اوائل هؤلاء العملاء الذين دارت حولهم الشبهات هو اهارون كوهين Aharon Cohen الذي حكم عليه بالسجن خمس سنوات لنقله معلومات سرية الى «عملاء دولة شيوعية».

ان اهارون كوهين هذا هو خبير بقضايا الشرق الأوسط في حزب مابام اليساري في اسرائيل، وله سجل جيد في خدمة اسرائيل على صعيدي كونه مواطناً عادياً، وسياسياً، وهذا ولا ريب انقذه من عقوبة اشد وكان عاملاً في قرار المحكمة العليا باعفائه من نصف محكوميته حين تقدم بالتماس في ايلول ١٩٦٢ م. واثناء محاكمته، في حيفا، ذكر كوهين ان العميل الذي قدم له المعلومات كان «مندوب بعثة بحوث علمية»، ولكنه كان يعي تماماً طبيعة هذه البعثة ونشاطات العميل. وقد زود كوهين هذا العميل بالمعلومات طوال اربعة عشر شهراً، وكانت المحاكمة سرية.

وبينما كان ضباط المخابرات الاسرائيلية يتعقبون أهارون كوهين ، وبدأوا يدركون مدى الجهود السوفييتية والبولونية والرومانية في التجسس على اسرائيل ، وقع في ايديهم ، وبشكل غير متوقع ومن خلال تقرير بعث به أحد عملاء الموساد ، نبأ مثير عن عالم نووي بين ظهرانيهم ينقل معلومات الى الاتحاد السوفييتي . وكانت الشاباك قد كشفت حالات عديدة من تجسس الكتلة الشرقية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، ولكن ثمانٍ منها فقط قدمت الى المحاكمة واعلن عنها . لأن الشاباك وحليفاتها في اجهزة المخابرات الأخرى استطاعت استغلال العملاء المقبوض عليهم وتحويلهم ضد « اعدائها » .

وفي هذا الوقت استعار الاسرائيليون شيئا من « نظام خيانة الرفاق » الذي اتبعه ببراعة، من اجل « تحويل » عملاء العدو ، جهاز المخابرات البريطانية في الحرب العالمية الثانية . وقد تمتع واحد او اثنان من رجال المخابرات الاسرائيلية بخبرة جيدة في هذا النظام ، ولكن وكما ذكر السير جون ماسترمان **John Masterman** الذي لعب دوراً حيوياً في المخابرات البريطانية ، فان لعبة استخدام العملاء المزدوجين خطرة جدا ، وكتب : « ان ادارة فريق من العملاء المزدوجين يشبه جداً ادارة فريق كريكيت ، فاللاعبون الأكبر سناً

يفقدون لياقاتهم، ولذا يستبدل بهم تدريجياً لاعبون جدد، لأن القدامى الراسخي القدم في هذه اللعبة يخفقون ولا ريب في الجري، بينما الأصغر سنا، الذين يبدو اسلوبهم خشناً وغير مدرب في باديء الأمر، هم الذين لسبب غير واضح يسجلون الأهداف». وسرعان ما تعلم الاسرائيليون ان العميل الصغير هو الذي يصبح عميلاً مزدوجاً يحقق نجاحاً مثيراً للدهشة، وان هؤلاء الذين تحولوا وخانوا اجهزتهم الأصلية لم يرسلوا الى مخابراتهم في ما وراء الستار الحديدي تقارير كاذبة فقط، بل افلحوا فعلا في المساعدة على اختراق اجهزة المخابرات في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وفي حادثة واحدة في الاتحاد السوفييتي.

على ان اسرائيل تلقت، في أوائل الستينات، ضربتين كبيرتين في حرب المخابرات هذه، وقد تكشفت الواحدة منهما عن نصر هام جدا للاتحاد السوفييتي. وكانت الأولى حالة البروفيسور كيرت سيتي Kurt Sitte الألماني السوديتي الكهل الذي شغل منصباً بحثياً هاماً، بوصفه عالماً نووياً مختصاً في الاشعاع الكوني، في معهد التخنيون بحيفا، فهنا كان جاسوس يعمل لفترة طويلة في منشأة هامة جداً في اسرائيل، وشكل تهديداً لا لاسرائيل فقط بل للولايات المتحدة ولاوروبا الغربية كلها.

ولد سيتي في تشيكوسلوفاكيا، وقد أظهر نفسه صديقاً لليهود خلال الحرب العالمية الثانية رغم انه الماني .. اي من العرق الذي كرس هتلر نفسه لانقاذه. وبالفعل ساعد اليهود على الفرار من تشيكوسلوفاكيا بوصفه عضوا في حركة سرية ثم نزيل احد معسكرات الاعتقال النازية. ولا ريب ان الروس جندوه عميلا لهم حين كان يظهر هذا التعاطف، ثم حثوه على ان يصبح مواطناً في جمهورية ألمانيا الاتحادية. وقد يكون هذا غطاء نافعاً لعميل سوفييتي في بلدان كثيرة، ولكنه ربما ليس الغطاء الأحسن لشخص يعمل في اسرائيل. وحين انتهت الحرب عمل سيتي في جامعة ادنبره ومانشستر ما بين سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٨ م. ثم درس في جامعة سيراكوز في الولايات المتحدة الاميركية. وانضم الى معهد تخنيون حيفا سنة ١٩٥٤ م. واخذ طيلة سنوات اربع يرسل معلومات من اسرائيل الى الكتلة السوفييتية. وفي تلك الفترة كانت المخابرات التشيكية هي التي استخدمته، ويعود التاريخ الحقيقي لتجنيده معها الى فترة اعتقاله في معسكر بوخنفالد **Buchenwald** حيث شكلت خلية شيوعية تشيكية.

كان بعض العمل، الذي قام به سيتي في معهد تخنيون حيفا، لصالح سلاح الجو الاميركي، فقد كان يقدّرُ، تقديراً عالياً،

على كلا جانبي المحيط الأطلسي بوصفه عالماً كبيراً. وأخيراً اسقطه الاسرائيليون في الفخ ووجهوا اليه سبع تهم ببث معلومات سرية الى دولة اجنبية. وفي ٧ شباط ١٩٦١ م. حكم عليه بالسجن سبع سنوات. وما تجدر ملاحظته ان محامي الدفاع، السيد جاكوب سولومان، قدم اثناء المحاكمة حجة ان سيتي لم يدفعه الى ما قام به مكسب مالي او تطابق ايديولوجي مع الدولة التي خدمها، بل القلق على اسرته التي كانت لا تزال تعيش في البلد الذي تجسس له. وتمنع الرقابة في اسرائيل، عادة، تسمية البلد المعني الذي يزعم ان المتهم تجسس له. والحد الأقصى للعقوبة، في حالة سيتي، هو السجن المؤبد، لذا فان الحكم بسجنه سبع سنوات مخفف جدا.

ان الحالة الثانية من تجسس الكتلة الشرقية لم تلحق الضرر باسرائيل فقط، بل عرضت الدول الغربية للخطر ودمرت رئيس الوزراء نفسه. ويمكن مقارنة تأثير قضية الدكتور اسرائيل بير Israel Beer على اسرائيل فقط بتأثير قضية كيم فيلبي على بريطانيا، بيد انها اسوأ من تلك بكثير لان اسرائيل، على خلاف بريطانيا، كانت تعيش دائما على حافة الحرب.

ولد اسرائيل بير في النمسا، وادعى انه حارب ضمن القوة المسلحة للاشتراكيين النمساويين في انتفاضتها ضد حكم دولفوس Dolfuss سنة ١٩٣٤ م، ثم حارب في اسبانيا خلال الحرب الأهلية كقائد فصيل في الفرقة الدولية. ولا ريب ان بير، على خلاف سيتي، اصبح عميلا شيوعيا في الوقت نفسه الذي اصبح فيه كيم فيلبي عميلاً شيوعياً ايضا وانه كرس حياته كليا لقضية الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية. وحين هيمن النازيون على فينا سنة ١٩٣٨ م غادرها بير لاجئا الى فلسطين حيث انضم للهاغاناه، ونال تقديراً فيها لخدماته خلال القتال السري ضد البريطانيين، كما خدم في القوات الاسرائيلية خلال حرب عام ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ م. واصبح بير أحد أصغر العقداء في الجيش الاسرائيلي، وحاز في فترة ما على سمعة طيبة بوصفه أستاذاً كبيراً اختير لكتابة تاريخ هذه الحرب. ولكنه كان، طيلة هذه الفترة، يعمل بتوجيهات من موسكو، ويبقي «المركز»، اي قيادة المخابرات السوفييتية في موسكو، مطلعاً على أدق الأسرار، التي يبعث لها بها من تل أبيب، وعلى قدر هائل من المعلومات عن بلدان اخرى أيضا.

أصبح بير المعاون الرئيسي للجنرال ييغال يادين، رئيس أركان الجيش الاسرائيلي آنذاك وأحد كبار علماء الآثار فيما بعد. وهكذا استطاع الوصول الى كافة اشكال الأسرار العسكرية، ولكن حتى هذا لم يشبع هذا العميل الطموح الساعي نحو الكمال، لذا وسّع نفوذه الى فروع الحياة جميعها في اسرائيل. فعلى الصعيد الثقافي اصبح رئيس كلية التاريخ العسكري في جامعة تل ابيب على حين ظل في احتياطي الجيش. وحين كان يعمل على تأريخ حرب عام ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ م. وَفَّرَ له مركزه الجامعي الوصول الى المحفوظات التاريخية (الارشيف) لهذه الحرب في وزارة الدفاع، ولكن ثمة قليل شك في انه استطاع الوصول الى مواد أحدث جداً أو ممنوعة. ونشر الدكتور بير عدداً من الكتب والمقالات حول موضوعات عسكرية في كلتا دور النشر الاسرائيلية والأوروبية. وزار اوروبا في مناسبات عدة، والقى محاضرات على جماعات عسكرية في المانيا والسويد، واستطاع من خلال اتصالاته بالقادة العسكريين لحلف الأطلسي ان يلتقط المزيد من المعلومات.

وحتى هذه الأمور لم تكف ما اراده بير، فتقرب من اعضاء الحكومة الاسرائيلية، ولا سيما بن غوريون، ونال حظوة عندهم.

وربما تكون الصلة مع بير هي الخطيئة الكبرى التي اقترفها بن غوريون في حياته وأسف عليها أشد الأسف، لأن بير عُيِّنَ اخيراً نائباً لرئيس «أمان» وضابط الاتصال لوزير الدفاع، بن غوريون، مع المخابرات، بل لقد كان يوصف سنة ١٩٦٢ م، حين اعتقل، داخل اسرائيل انه «المستشار الحميم لبن غوريون» رغم أَنَ ناطقاً حكومياً سارع الى الرد ان بن غوريون لم ير بير منذ ايار ١٩٦٠ م. حين ناقشا، ليس الا، التاريخ الرسمي لحرب سنة ١٩٤٨ م. على ان هذه القضية خلقت فضيحة سياسية كبرى حين ظهر بير امام قضاة التحقيق في نيسان ١٩٦٢ م.

وسرت شائعات شتى في عواصم العالم بعد اعتقال بير، فقد قيل انه كان مراقبا في مناورات حلف شمالي الأطلسي في المانيا الغربية رغم ان حكومة بون نفت ذلك. ومن ناحية أخرى كان بير معروفاً جداً في عواصم اوروبية كثيرة، ومن المؤكد انه كان يستطيع الحصول على أسرار حلف شمالي الأطلسي. ولكن معظم المصادر في تل ابيب اصرت على ان الاسرائيليين زعموا انهم هم الذين كشفوا نشاطات بير، لا جهاز مكافحة التجسس في حلف الأطلسي، حين قادهم عميل اجنبي الى بير. وقد اخذت

وثائق عديدة من غرف بيته حين ألقي القبض عليه، وجرت تحقيقات مكثفة مع موظفي وزارة الدفاع الذين كان على صلة بهم.

ومع ان الاسرائيليين هم الذين ألقوا القبض عليه اخيراً الا ان الالماحة الحقيقية الأولى، الى أن بير قد يكون متورطاً بالتجسس، جاءت من المخابرات البريطانية التي قدمت، اكثر من مرة، للاسرائيليين معلومات هامة وحيوية. وقد يكون محتملاً ايضا أن الشاباك تلقت تأكيداً من المخابرات المركزية الأميركية للدليل البريطاني، ولولاه لربما استمرت ترفض تصديق ان استاذهم الجامعي المرموق كان عميلاً سوفييتياً. وقد جاء كثير من المعلومات البريطانية عن بير نتيجة للكشوف التي حدثت عقب هرب العميل السوفييتي البريطاني جورج بليك George Blake ومن التحقيق مع الهاربين من الكتلة الاشتراكية. ويمضي أ. هـ. كوكريدج E. H. Cookridge الى حد القول ان اسرائيل بير «ما كان ليُكْشَفَ ابدا لولا الهارب الشيوعي، الكولونيل مايكل غولينفيسكي، من المخابرات البولونية، الذي اتصل بوكالة المخابرات المركزية في برلين الغربية. وقد هزت كشوفاته وافشاءاته العديد من اجهزة المخابرات حتى اساساتها»[1].

ومن السخرية ان المخابرات السوفييتية نفسها قد تكون قررت ان فائدة اسرائيل بير للاتحاد السوفييتي قد وصلت الى نهايتها، وان شخصا ما داخل تلك الهيئة سرب دليلاً من اجل توريط هذا الجاسوس المؤرِّخ. وهنالك بعض الاشارات الى ذلك. وخلال محاكمته، التي ابقيت تفاصيل التهم الموجهة اليه سرية، تضمنت الخلاصات عنها تعليقات غريبة. وقد جرت هذه المحاكمة خلف ابواب مغلقة، ولكن سمح للجمهور بحضور جلسة اعلان الحكم. وقد حكمت عليه المحكمة بالسجن عشرة اعوام لأنها وجدتْهُ مذنباً بنقل معلومات جمعت من اجل تعريض أمن الدولة للخطر، ولكنها أقرت ان دافعه كان، أولاً، تعزيز رفاهه، ثم أصبح «غارقاً، بشكل لا يمكن انتزاعه، في شبكة وكالة اجنبية». وقد برآه القضاة من فقرتين اتهاميتين حول حصوله على معلومات سرية، ولكنهم ادانوه بنقل هذه المعلومات. ووجد مذنباً ايضا باقامة اتصالات مع عميل اجنبي لفترة طويلة جدا.

على ان المحكمة لم تجد ان دافعي الدكتور بير كانا الخيانة أو الكسب المالي، كما انها رفضت قول الادعاء انه كان يتجسس منذ سنة ١٩٥٣ م. واعلن القضاة الثلاثة ما يلي: «ونحن نميل الى

الاعتقاد ان دوافعه لاقامة اتصال مع عميل اجنبي كانت القلق والخوف على رفاه الدولة ، فقد كان المتهم يعتقد ان نشاطاته المنفردة سوف تحدث علاقات جديدة مع دولة اجنبية لصالح اسرائيل. ولكن هذا المُنظِّر Theoretician زل حين واجه رجلاً عملياً وهو عميل اجنبي كانت دوافعه واضحة » . واضافت المحكمة في فقرة اضافية تحمل المتناقضات : «ان لا فرد يستطيع الدخول في مغامرة كهذه بدون معرفة السلطات ذات العلاقة حتى ولو اعتقد ان هذه لا تقوم بعمل كاف في اتجاه معين»[٢] .

وهكذا ، فهناك اكثر من الماحة ، حتى من الجانب الاسرائيلي ، الى ان اسرائيل بير ربما تجسس للاتحاد السوفييتي لاسباب ايديولوجية محضة أساساً ، ثم انه ، وخلال الفترة التي كان ينقل فيها اسراراً اسرائيلية ، كان يفعل ذلك معتقداً أنه يساعد اسرائيل على المدى الطويل . وقد اجرى هذه المقارنة ، وأوجد مثل هذا التناظر ، بعض الذين حاولوا ايجاد الأعذار للسيد كيم فيلبي ، ولكن سفسطة كهذه لا تغير الحقيقة الأساسية وهي ان الجريمة تبقى جريمة « خيانة » . فهذا المؤرخ العسكري اللامع ربما اعتقد ، إعتقاداً ساذجاً ، ان الاتحاد السوفييتي يمكن كسبه حليفاً

لاسرائيل. وقد توفي اسرائيل بير بعد اربع سنوات في زنزانته بالسجن رجلاً مهزوماً كلياً ومبدد الأوهام، بل ربما ادرك ان المخابرات السوفييتية تخلت عنه.

الفصل الرابع عشر

حرب الأيام الستة

«ان كل ما استطيع قوله، في نهاية حرب الأيام الستة، هو ان دور المخابرات كان هاماً جداً كدور القوات الجوية والارتال المدرعة».

«موشه دايان»

استمرت الحرب الثالثة بين اسرائيل والدولة العربية، في غضون عشرين عاماً، ستة أيام فقط، اي ما بين الخامس والعاشر من حزيران سنة ١٩٦٧ م. وكانت النصر الثالث لاسرائيل، ولكنه كان هذه المرة أشد حسماً بكثير.

لقد كانت اسرائيل هي المعتدية تقنياً، ولكن من العدل ملاحظة ان بريطانيا كانت، في كلتا الحربين العالميتين، هي التي اعلنت الحرب على المانيا. ان الموازنة بين بريطانيا وبين اسرائيل ليست غير منطقية، ففي كل من الحالتين كانت الدولة التي قامت بالمبادرة عرضة للعدوان وتكتيكات التهديد التي تقل عن الحرب. والحقيقة ان الحالة ربما هي اكثر ميلاً لصالح اسرائيل، ففي عام

١٩٤٧ ـــ ١٩٤٨ م. وفي سنة ١٩٥٦ م. لم يجر التفاوض حول شروط للصلح، فعملت اسرائيل على بناء قواتها المسلحة كي تحقق التفوق التقني الكبير على العرب، وكذلك عملت كل من مصر وسورية وحليفاتهما على بناء قواتهما، ولم يخف عبد الناصر حقيقة انه يريد ان يرى اسرائيل وهي تسحق، رغم ان العديد من الدول الغربية لا يزال يتظاهر بغير ذلك.

انقسمت الوزارة الاسرائيلية على نفسها حول الحكمة من شن حرب على مصر، وكان دايان والغالبية العظمى من سكان اسرائيل هما اللذان يريدان رؤية نصر حاسم وانهاء سنوات التوتر، كما كان تشرشل والشعب البريطاني لا حكومة شامبرلين، هما اللذان ارادا شن الحرب على ألمانيا سنة ١٩٣٩ م. وقد ازدادت ريبة الجيش الاسرائيلي، تدعمه «أمان»، في حكمة تولي شخص واحد منصبي رئيس الوزراء ووزير الدفاع، وهو لم يقم بأية حركة لتحدي الوزارة، ولكنه مارس ضغطاً على رئيس الوزراء كي يتصرف. وكان هذا الضغط على زعامة حزب العمل (الماباي) هو الذي جاء، أخيراً، بموشة دايان وزيراً للدفاع. وعلى غير العادة أيضا كان بن غوريون هو الذي عارض حرب ١٩٦٧ م. لأنه

خشي التدخل السوفييتي، على حين ان ليفي أشكول، رئيس الوزراء الجديد وهو ليس جندياً، أيدها.

ولكن الحقيقة هي ان الوزارة الاسرائيلية، ومن خلال شبكة مخابراتها، ارغمت على ان تدرك ان أي تأخير في مجابهة العرب سوف يضعف، بإطراد، مركز قوتها. لقد حُرِمت اسرائيل، معذ وقت طويل، من استخدام قناة السويس مِمّا شكل ضربة اقتصادية خطيرة لها، ثم طلب الرئيس عبد الناصر في ١٧ ايار ١٩٦٧ م. سحب قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة من قطاع غزة وتم له ذلك، ثم قام بإغلاق خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية.

وعت اسرائيل، من دروس سنة ١٩٥٦ م. انه لا يكفي شن حرب على العرب وكسبها، بل تحتاج، كي تضمن بقاءها وإنهاء وضع الأزمات المتلاحقة فيها، الى كسب نصر حاسم في غضون ايام قلائل. فاذا استمرت الحرب لأكثر من اسبوع فهي تعرف، معرفة تامة، ان هيئة الأمم المتحدة ستحاول فرض وقف لاطلاق النار بشروط غير مرضية لها. وقد تُطَلَّب الحاجة الماسة الى انتصار اسرائيلي سريع وكلي ان تكون المعلومات عن العرب شاملة

مفصلة يومية دقيقة. واذا كان ثمة من حرب كسبت على اساس نظام مخابرات هائل فهي حرب الأيام الستة هذه.

لقد احتاجت المخابرات الاسرائيلية، من اجل تحقيق ذلك النوع من النصر الذي حدث في حرب الأيام الستة، الى كمال مطلق في المعلومات العسكرية، ويمكن ان يضمن هذا فقط عن طريق دخول المخابرات السرية ميدان الدبلوماسية وكسب تعاون قوى أخرى. وكان البريطانيون قد ساعدوا، بشكل غير رسمي، في بضع مناسبات كما ذكر في الفصل السابق من هذا الكتاب، ولكنهم لم يكونوا موضع ثقة كاملة بسبب استمرار تسرب المعلومات من بريطانيا الى الاتحاد السوفييتي. وكذلك عرف الاسرائيليون كل شيء عن كيم فيلبي من خلال زوجته الأولى ليتزي كولمان Litzi Kohlman وهي يهودية من فينا، وقد ساعدت شبكة اتصالات الموساد البريطانيين، منذ زمن طويل، على تتبع روابط فيلبي بالشيوعية منذ ان كان شاباً. ولكن المساعدة الرئيسية التي تلقاها الاسرائيليون في ميدان المخابرات جاءتهم من الاميركيين والفرنسيين.

ففي الجانب الاميركي حاز الاسرائيليون على قدر معين من الدعم غير الرسمي من وكالة المخابرات المركزية خلال عهد ايزنهاور، فقد تبنت هذه الوكالة الرأي القائل ان سياسة التهدئة التي اتبعها ايزنهاور تجاه العالم العربي ستكون كارثة على كل مصلحة اميركية سواء أكانت اقتصادية ام عسكرية، ولذا اتخذت سياسة السماح بان تقوم الموساد بالعمليات المخابراتية كافة في اسرائيل. وعنى هذا باختصار، ان وكالة المخابرات المركزية لم تنشىء لها مكتباً او تعين رئيس مركز لها في اسرائيل، بل ان ضباطاً معينين في السفارة الاميركية هناك تعاونوا مع الموساد. ونظريا استتبع هذا تبادل المعلومات بين الجانبين، وعمليا اعطى هذا التعاون فائدة أكبر مما يتوقعه المرء عادة. وكانت الشخصيات الرئيسية في هذا الترتيب هي اساسا ايسر هاريل وافرايم ايفرون Ephraim Evron، الذي أصبح فيما بعد نائب السفير الاسرائيلي في واشنطن ثم المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية، وجيمس انغلتون James Angleton رئيس فرع مكافحة التجسس في وكالة المخابرات المركزية.

ان انغلتون هذا قرر، عقب عملية السويس، مواجهة

انحياز(*) وزارة الخارجية الاميركية للعرب بإقامة تعاون وثيق مع اسرائيل، وهو الذي تبنى سياسة جديدة اميركية في الشرق الأوسط واتخاذ اجراءات ضد النفوذ السوفييتي المتزايد فيه. وقد تعاون هو وايفرون تعاوناً وثيقاً كان من نتيجته ان قدمت المخابرات المركزية الاميركية لاسرائيل مساعدة تقنية في الميدان النووي. وكان ايفرون متلهفاً على اغتنام هذه الفرصة لأنه كان احد المحرضين الرئيسيين على التحدي العدواني لسياسة الصداقة الاميركية مع عبد الناصر اثناء الحوادث التي أدت الى قضية لافون سنة ١٩٥٤ م.

وتراجع ايفرون عقب قضية لافون الى الظل، ولكنه ظل فاعلا في تمهيد الطريق لقلب السياسة المؤيدة للعرب والتي هيمنت بعض الوقت على التفكير الاميركي ليس خلال حكم ايزنهاور فحسب بل في عهد ادارة كينيدي ايضا. وما ساعد ايفرون هو الدليل الذي استطاع تقديمه لا الى وكالة المخابرات المركزية فقط، بل الى وزارة الخارجية ايضا، عن تزايد التورط السوفييتي في مصر.

(*) لم تنحز آية دائرة او وزارة اميركية الى العرب منذ اقامة الكيان الصهيوني سنة ١٩٤٨ وقبله، و«الانحياز» في رأي انغلتون هو تغليب المصلحة الاميركية، الى حد ما، على المصلحة الاسرائيلية والصهيونية في السياسة والممارسات الاميركية.

(المترجم)

ففي أوائل سنة ١٩٦٧ م. استطاع ان يكشف لهذه الوكالة ان السفارة السوفييتية في مصر باتت مليئة بالمخبرين (كشف النقاب عن بعضهم في حزيران ١٩٦٧ م)، كما قدم دليلاً على تكتيكات سفن التجسس السوفييتية، في شرقي البحر الأبيض المتوسط، على كل من اسرائيل والأسطول السادس الاميركي.

كان افرايم ايفرون، ولفترة قصيرة، أقوى شخصيات اسرائيل في واشنطن، ويتمتع باحترام يفوق السفير نفسه، ويُسْتَقْبَلُ بوصفه متعاوناً مع وكالة المخابرات المركزية وضابط اتصال الموساد بها. وطوال سنوات وصلت اذرع المخابرات الاسرائيلية الى كافة ميادين الحياة الاميركية بطريقة مثابرة تقوم على اتخاذ الاصدقاء والتأثير على الناس وتشكيل جماعات الضغط Lobby الفكري وتجميع المعلومات. وقد امتد هذا النفوذ الى الكونغرس الاميركي، والى مجلس الشيوخ، ووزارة الدفاع (البنتاغون)، والصناعات الالكترونية والحربية ومختبرات البحوث، والمنظمات ذات التوجه اليهودي مثل: عصبة مكافحة التشهير ولجنة الدفاع اليهودية والسندات من اجل اسرائيل واتحاد الجمعيات الخيرية اليهودية. وقد كانت بعض هذه الهيئات واجهات لجمع المعلومات، وثمة قلة من

لجان الكونغرس الحاكمة لا يكون فيها عضوا أو معاون لمجلس الادارة لا يزود الشبكة الاسرائيلية بالمواد المناسبة.

قد ترتفع احياناً اصوات انتقادية داخل الولايات المتحدة من اولئك الذين يشعرون ان النفوذ الاسرائيلي(*) مهيمن كليا، ولكن شكاوى كهذه اسكتت الى حد كبير اذ كان لدى الموساد الشيء الكثير الذي تستطيع تقديمه في ميدان المعلومات أو يقلق الولايات المتحدة مباشرة. ولم تقنع هذه المعلومات اخيرا وكالة المخابرات المركزية فقط بل وزارة الخارجية ايضا ولا سيما الاخوين يوجين Eugene ووالت روستو Walt Rostow الذي اصبح مستشار الرئيس جونسون لشؤون الأمن القومي. وقد فرض والت، في الواقع، على الرئيس جونسون الرأي الذي تقاسمته، على حد سواء، كلتا اسرائيل والمخابرات المركزية. والواقع ان رقاص الساعة اتجه بعيداً في الجهة الأخرى بحلول أواخر سنة ١٩٦٥ م، بل حدث ضغط داخل وكالة المخابرات المركزية من اجل القيام بانقلاب في مصر

(*)تتجلى هذه الهيمنة الاسرائيلية والصهيونية في مواقف واشنطن من الممارسات والاعتداءات الصهيونية، وبخاصة في مجلس الأمن، وفي سيل المساعدات والمعونات العسكرية والمالية الأميركية المتدفقة على الكيان الصهيوني.

(المترجم)

للتخلص من الرئيس عبد الناصر ، ثم اخذت هذه الفكرة تتطور الى ان هزيمة عسكرية لمصر قد تسبب سقوطه ، وذلك بعد ان ادرك المسؤولون في هذه الوكالة ان وضع الرئيس عبد الناصر داخل مصر اقوى من امكان احداث انقلاب كهذا .

لقد حدث هذا كله حين كان احمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المشكلة حديثاً ، يقيم تحالفاً مع الرئيس عبد الناصر على امل القضاء على اسرائيل. وعقدت اجتماعات عديدة بين مندوبي وكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط وبين افراد من المخابرات الاسرائيلية من أجل تنسيق كلتا سياسات الطرفين وجمعهما المعلومات، ومن الذين اداروا هذه الاجتماعات جيمس انغلتون وافرايم ايفرون ومايير اميت Meir Amit، رئيس الموساد الجديد، والجنرال ياريف Yariv مدير المخابرات العسكرية.

كان الاثنان الاخيران، اميت وياريف ، جديدين على هيئة المخابرات الاسرائيلية. وقد ولد مايير اميت في مدينة طبريا بفلسطين سنة ١٩٢١ م، وتلقى تعليمه في كلية جيفات شيلوشا الزراعية واصبح عضواً في كيبوتز ايلونيم Elonim وكان مثل عديدين من افراد المخابرات الاسرائيلية عضواً نشطاً في الهاغاناه، وخدم نائباً

لقائد اللواء جولاني سنة ١٩٤٨ م. وبعد ان اصيب بجراح في اثناء العمليات الحربية خلال تلك السنة رُقّيَ الى قائد لواء سنة ١٩٥٠ م، ثم اصبح رئيس العمليات في المخابرات العسكرية. وخلال تلك الفترة قام بزيارة طويلة مثمرة للولايات المتحدة طالت عامين، واقام خلالها صلات مفيدة كثيرة في اعلى الأماكن وبخاصة في عالم المخابرات. ولدى عودته الى اسرائيل كوفىء بتعيينه رئيساً «لأمان» سنة ١٩٦١ م، وبعد سنتين اصبح رئيساً للموساد بعد استقالة ايسر هاريل. وكان هذا التعيين مناسباً تماماً في تلك الفترة اذ كان ضرورياً اقامة اوثق الصلات بين أمان والموساد.

لقد كان مايير اميت محظوظاً لانه استطاع ان يقيم علاقة ممتازة مع خلفه في رئاسة «أمان» وهو البريغادير جنرال اهارون ياريف، فكلاهما جندي محترف ولد في السنة نفسها، وكانت اساليبهما ونهجهما في المخابرات متماثلة الى حد كبير.

ولد ياريف تحت اسم اهارون رابينوفيتش Aharon Rabinowitz في موسكو لاب كان يعمل مستشاراً صحياً للأطفال انتقل بعدئذ الى برلين، فإلى لاتفيا Latvia، ثم قتله النازيون فهاجر أهارون الى فلسطين وهو في الرابعة عشرة. وفي

الحرب العالمية الثانية انضم الى الجيش البريطاني، وسرعان ما اثبت اهليته فرقي من جندي الى رتبة رقيب. وفي نهاية الحرب نقل رابينوفيتش الى برقة حيث تلقى دورة تدريبية عاد بعدها الى الجيش البريطاني ضابطاً في الكتيبة الأولى من اللواء اليهودي. وحين انتهت الحرب كان برتبة نقيب.

نقل ياريف نشاطه الى الهاغاناه عقب ان سرح من الجيش، والتحق بمدرسة الدراسات العالية التابعة للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية. ثم عمل تحت امرة دافيد شالتييل David Shaltiel رئيس مخابرات الهاغاناه ثم الجنرال في الجيش الاسرائيلي. وفي سنة ١٩٥٠ م رقي رابينوفيتش الى رتبة عقيد في الجيش الاسرائيلي، وفي هذه السنة نفسها، وبعد زواجه بعدة أيام، أُمِرَ ان يذهب الى فرنسا للدراسة في مدرسة الحرب الفرنسية. فكان اول ضابط من عدد من الضباط الاسرائيليين ارسلوا الى بلدان اخرى من أجل ان يتدربوا، وكان دافيد شالتييل، في هذه الفترة نفسها، هو الملحق العسكري الاسرائيلي في باريس.

لقد توسم شالتييل وآخرون في رابينوفيتش الشاب مُنَفِّذاً رئيسيا في بعض فروع المخابرات الاسرائيلية، ولذا عُيِّنَ، على

الأرجح، في كثير من المناصب الادارية حين لم يكن ما حاز عليه من خبرة تزيد على قائد فصيل. وقد غَيَّرَ هذا الضابط النحيف، مربوع القامة ذو الشعر الأشقر، اسمه الى ياريف حين اوفد الى واشنطن ملحقاً عسكرياً في السفارة الاسرائيلية سنة ١٩٥٧ م. وامضى هناك ثلاث سنوات حيث أقام، مثلما فعل مايير اميت، علاقات عمل ممتازة مع شتى الاميركيين. وحين عاد الى اسرائيل عين قائداً للواء جولاني لفترة قصيرة، ثم اعيد الى المخابرات العسكرية، وتولى رئاستها سنة ١٩٦٤ م.

ومما قاله آنذاك: «لم أُعَيَّنْ قط، طيلة حياتي، في منصب اكثر صعوبة ولكنه أشد امتاعا واكثر استحواذاً على الانتباه، فهو شبيه بالافيون، وله سحر متزايد على المرء. ويستطيع المرء ان يَثْمَلَ بعمل المخابرات ولكن عليه الا يفقد رؤية الجانب الآخر: اي ان غاية عمل المرء هي ان يساعد على العمليات، وان تكون دائماً في خدمة رئيس الأركان والدولة».

لقد لعب مايير اميت واهارون ياريف دوراً هائلاً في الاستعدادات التي أدت الى حرب الأيام الستة، وكان هذا الجمع الناجح بينهما هو الذي وَفَّرَ المعلومات الحيوية لنصر سريع، فقد

اعتمدا على التقنيات التي ادخلها يوفال نيعمان وطوراها، وكانت انجازات حرب الأيام الستة ثمرة سبع عشرة سنة من العمل المخابراتي المجمّع المرتب بعناية. وكتبت السيدة بربارا توخمان Barbara Tuchman في مجلة Atlantic Monthly، عدد ايلول ١٩٦٧ م.
«ان الجنرال ياريف كان الرجل الرئيسي في جيش اسرائيل، وكان يستطيع التعامل مع ١٥٠ صحفياً في مؤتمر، ويتكلم دون توقف، ومن غير ان يدلي بأية اسرار».

كان ياريف نادر المثال بين رؤساء اجهزة المخابرات، فهو رجل محبوب من الصحافيين ومن المراسلين الاجانب الذين كان يتكلّم معهم، بحرية ولكن ضمن حدود، باللغات العبرية والانكليزية والفرنسية والألمانية. وقد تجنب المظاهر، فعاش وعمل في بيت متواضع في ضواحي تل ابيب، وتألف مكتبه من طاولة صغيرة وضعت في زاوية من غرفة الجلوس المقسومة.

ومن بين الأشياء الكبرى، التي تلقياها خلال تلك الفترة، كانت تقارير ايلي كوهين من دمشق ولوتز من القاهرة، فقد واصل لوتز القيام بدوره كنازي سابق متعصب وشديد البغضاء لليهود، وشكلت تل ابيب صورة واضحة عما كان يجري في مصر وسورية

مستندة الى الافلام الصغيرة من دفاعات سيناء، التي هربها من مصر، والى رسائله من مواقع صواريخ سام والمعلومات عما كان يفعله السوفييت.

وأخيراً ألقي القبض على لوتز سنة ١٩٦٥ م. رغم ان الظروف التي قادت الى اعتقاله غير واضحة تماماً، وأحد التفسيرات هو انه كان تعيس الحظ واعتقل لا بسبب شبهة بل بسبب زيارة قصيرة قامت بها الشرطة له صدفة، فرئيس المانيا الديمقراطية، ولتر اولبريخت Walter Ulbricht كان سيزور القاهرة، لذا قامت الشرطة السرية المصرية بزيارات روتينية للبيوت الواقعة على جانبي الشارع الذي سيمر فيه الرئيسان اولبريخت وعبد الناصر. وحين سمح الخادم لضباط الشرطة بالدخول اصيب هؤلاء بالذهول لدى رؤيتهم جهاز بث لاسلكي وكتب شيفرة ورموز ووسائل تجسس اخرى مبعثرة في انحاء مكتب لوتز. وتبدو هذه قصة اقل اقناعا من قصة ايلي كوهين الذي قبض عليه في ظروف مماثلة. واذا صحت هذه فان لوتز عميل مهمل جدا، وهذا غير محتمل بسبب سجله الطويل من الخدمة المدققة. ربما يكون كوهين مهملاً، ولكن المرء يثق، ولا ريب، من ان لوتز قد نصح بالابتعاد

عن مثل تلك المخاطر عقب الحالة التي اعتقل كوهين فيها. وهنالك رواية اخرى وهي ان احد زملائه في مؤسسة جيهلن خانه ووشى به، وهذا محتمل لان السوفييت كانوا، في تلك الفترة، قد اخترقوا هذه المؤسسة. وأحد الرجال الرئيسيين الذين اكتسبتهم المخابرات السوفييتية الى صفها هو هانس جواشيم غيير Hans Joachim Geyer الذي عمل للألمان الشرقيين في الليل ولمؤسسة جيهلن في النهار. وهكذا، فالأكثر احتمالاً هو ان المعلومات عن لوتز سربتها المخابرات الألمانية الشرقية الى القاهرة قبل زيارة اولبريخت لها.

واستجوب المصريون لوتز دون رحمة وبكافة اساليب التعذيب التي تطبقها الشرطة السرية عادة، فنفى ان يكون عميلاً للاسرائيليين، وقال اقل ما يمكن، ولكنه ألمح الى انه قد يكون يعمل للألمان الغربيين. وقد حافظ لوتز، طيلة استجوابه، على هدوئه وعبث بحكمة مع سجانيه. فهو لم يبد مثل اليهود لانه غير مختون، ولم يشك المصريون في أنه يهودي، ولكن كان واضحاً انه جاسوس، وكان السؤال الوحيد هل هو جاسوس لمؤسسة جيهلن فقط ام لاسرائيل ايضا. واخيراً، وحتى لوتز نفسه لم يستطع المضي في انكاره لان بعض المعلومات ذهبت الى اسرائيل بعد ان ووجه

ببينات عن نشاطه. ولو عرف المصريون انه يهودي لكان اعدم ولا ريب، ولكنه افلت بجلده، وحكم عليه بالسجن المؤبد بينما حكم على «زوجته» بالسجن سنوات ثلاثاً. وقد جعل فترة سجنهما محتملة الى ما، الاهتمام الذي ابدته لهما قنصلية المانيا الغربية التي زاراهما مندوبوها باستمرار. وقد وجدت والدروت لوتز نفسها في السجن نفسه مع فكتورينو نينو Victorino Nino احدى المتورطات في قضية لافون.

ومهما يكن من امر فان عمل كبار العملاء مثل لوتز وكوهين وعديد التقارير من عملاء الموساد قد عززتهما المتابعة التي قام بها كلا مايير اميت واهارون ياريف، كما تم تَفَحُّصُ كل اقتراح من يوفال نيعمان ووضع قيد التنفيذ في معظم الحالات، فجرى تطوير أجهزة الاستماع الحساسة جدا وزرعت ضمن مسافة ميل من المعسكرات العربية مما ساعد الاسرائيليين على التقاط المحادثات فيها. كما رصدت خطوط الهاتف المصرية في المناطق العسكرية، واستخدمت معدات تصوير جديدة، من اجل عمليات الاستطلاع الجوي، ووسائل تقنية حديثة للتشويش على اجهزة الرادار العربية. وتفسر هذه الابتكارات، الى حد كبير، نجاح

الاسرائيليين في حرب الأيام الستة. وقبل هذه جميعها كانت الاستجوابات المكثفة لأسرى الحرب المصريين خلال حملة السويس سنة ١٩٥٦ م، فقد ساعدت المعلومات المستخلصة منها الاسرائيليين لا على امتلاك كنز متنوع من المعلومات الحقيقية فقط بل على الصورة النفسية للجيش المصري. ولم يتحقق هذا، والى حد كبير، من خلال ما كشفه الأسرى المصريون من معلومات عسكرية حقيقية كانت في واقع الامر تافهة، بل من خلال تكوين صورة من اسئلة بريئة ظاهرياً. وقد تَكُونُ هذه حول جرايات الطعام، او كم يستغرق التحاق الاحتياطي بوحدته من وقت، او كم مرة يرى الجندي اسرته، وأين هي مدرسته، وما هي هواياته. وقد طور الاسرائيليون، من هذه الناحية، اسلوبا لم يستخدمه اي جهاز مخابرات اخر ما عدا الصيني. وسهَّل ذلك، الى حد كبير، استخدام الحاسبات الالكترونية مما ساعد على تحليل آلاف الاجوبة، التي تبدو غير هامة في ظاهرها، وتطبيقها على المسائل العسكرية. ونجم عن هذا التحليل صورة كاملة لتركيب الجيش المصري كله اي: من اي المناطق جاء افراده، وكيف يختلفون في النظرة من منطقة الى اخرى، واي الوحدات التي حظيت بخير معاملة وايها التي عانت من قادة سيئين، وايها فيها ضباط يراعون

مشاعر جنودهم، واي الوحدات تعاني من نقص التموين، وما هي المؤهلات العلمية للضباط والأفراد. وقد حللت شخصيات القادة ولوحظت نقاط الضعف فيهم، ولكن اي تحليل يبدو مستحيلا بدون استخدام الحاسبات الالكترونية.

كانت السرعة في الاتصالات المخابراتية ذات قيمة كبرى للاسرائيليين، وقد استخدمت كلتا الموساد والشاباك، الى اقصى حد اخر التجهيزات والمعدات من المنشآت جد الحديثة لاعتراض مرور موجات اللاسلكي السريعة جدا، وأجهزة الحاسبات الالكترونية بفك الرموز السرية الى الميكروفون العاكس الجديد لمراقبة المحادثات. ويضاف الى ذلك انه كان لدى الاسرائيليين، في اجهزة مخابراتهم، رجال مدربون على خير اساليب فك الرموز (الشيفرة) في الغرب وحلها.

على ان حجم العمل والحسابات المكثفة اللازمة من اجل تقييم صحيح للمعلومات كافة كانا اكبر مما تستطيع الحاسبات الالكترونية(*) وحدها القيام به، فمع تزايد كمية المعلومات المتلقاة

(*)قد نستخدم احياناً مصطلح الحاسوب بدل الحاسب الالكتروني، وذلك حسب توصية احد المؤتمرات العربية المتخصصة في هذا الحقل.

(المترجم)

باتت الحاجة ماسة الى توزيع العبء فيما يتعلق بالعمل الحاسباتي الالكتروني. وعلى هذا الصعيد نفسه احتاج الاسرائيليون اما الى تعاون دول اخرى او تَلَقّي عون غير رسمي منها، وخلال عهدي ديغول وجيسكار .ديستانغ خرجت فرنسا أحيانا عن خطها فساندت العرب ووضعت بعض التقييدات على اليهود. على ان اسرائيل احتفظت طيلة فترة ما بعد سنة ١٩٤٨ م. بصلات ممتازة غير رسمية مع كلتا المخابرات والبحرية الفرنسية، ويعود تاريخ هذه الصلات الى سنوات ما بعد الحرب مباشرة حين تعاطفت الحكومة الفرنسية مع الهاغاناه، بل ان مفوضي الشرطة المحليين تعاونوا مع عملاء باليام(*) Palyam لرعاية هجرة اليهود غير الشرعية الى فلسطين. وقد استمر هذا التعاون مع الفرنسيين بعد كارثة السويس، وحوفظ عليه خلال السنوات الأولى من رئاسة ديغول. وبلغ التعاون المخابراتي الاسرائيلي ـ الفرنسي ذروته زمن أزمة السويس، ولكنه ظل نشطاً في اوائل الستينات.

وقد كان احد الأشخاص الرئيسيين في هذا التعاون الفرنسي ـ الاسرائيلي هو الجنرال حايم هيرتزوغ Chaim Herzog

---

(*) اي البحرية الاسرائيلية.

(المترجم)

الضابط الذي حظي بشعبية كبيرة في الأوساط الغربية، وكان قد أرسل في مهمة خاصة الى فرنسا سنة ١٩٦١ م. ولد هيرتزوغ في بلفاست (ارلندة الشمالية) سنة ١٩١٨ لأب كان حاخام ارلندة، وامضى طفولته بين الجالية اليهودية الصغيرة في دبلن، وتلقى تعليمه في كلية ويسلي Wesley ثم في جامعتي لندن وكيمبريدج. وقد برز في شبابه ملاكما من الوزن الخفيف ثم لاعبا في الرغبي والكريكيت. وفي الحرب العالمية الثانية انضم الى الجيش البريطاني، وعين في مناصب متعددة في مخابرات الجيش، بعد ان نجح في كلية ساندهيرست Sandhurst، الى ان رقي الى رتبة نقيب Captain، وانضم الى هيئة اركان الجنرال كننغهام Cunningham.

كان هيرتزوغ ضمن الفرقة البريطانية الأولى التي نزلت على شواطىء النورماندي في فرنسا، ثم خدم حين اصبح رائداً في قوات الاحتلال البريطانية في المانيا. وقال فيما بعد: «لقد كنت أحد أواخر الضباط البريطانيين الذين استجوبوا هيملر Himmler قبل ان ينتحر». ثم عين حاكم احدى المقاطعات في المناطق المحتلة مسؤولا عن مليونين ونصف المليون الماني. وبعد انتهاء خدمته العسكرية هاجر الى اسرائيل وعين رئيس دائرة المخابرات في الهاغاناه

بسبب خبرته في هذا الميدان. وما بين ١٩٥٠ و١٩٥٤ م. عين ملحقاً عسكرياً في السفارة الاسرائيلية في واشنطن واسندت كندا الى مهامه ايضا. وحين عاد الى اسرائيل اسند اليه منصب قائد منطقة القدس (١٩٥٤ـــ ١٩٥٧ م) ثم قائد المنطقة الجنوبية (١٩٥٧ـــ ١٩٥٩ م). وفي سنة ١٩٥٩ م، عين مديراً للمخابرات العسكرية، فكانَ أحد الذين سبقوا ياريف في هذا المنصب. وخلال تلك الفترة تعلم كيف يطير، فقد علق اهمية كبرى على اجراء تقدير شخصي دقيق لتقارير المخابرات الجوية. وفيما بعد اختير مندوباً لاسرائيل في هيئة الأمم المتحدة(*).

لقد حاز هيرتزوغ، خلال الحرب العالمية الثانية، على تقدير كبير بوصفه ضابط مخابرات، وهذا ما شهد به الجنرال السير بريان هورروكس Brian Horrocks حين زار اسرائيل سنة ١٩٥٤ م. فقد قال للضباط الاسرائيليين: «كان عندنا ضابط مخابرات رائع اثناء الحرب، وهو الآن احد رجالكم، وانتم محظوظون جداً لأنكم حزتم عليه».

(*)تولى رئاسة اسرائيل بعد انتهاء ولاية اسحاق نافون سنة ١٩٨٢ م.

(المترجم)

حين كان هيرتزوغ رئيس «أمان» استطاع ان يستخدم كل ما لديه من مواهب دبلوماسية أبداها حين كان يعمل في الغرب، فحين أُرسِلَ الى فرنسا كان بصفة ملحق عسكري فوق العادة من اجل محاولة اقامة تعاون اوثق مع الفرنسيين. وقلما يمكن توقيت زيارته تلك بشكل افضل، اذ حين وصوله الى باريس كان المصريون على وشك تقديم اربعة فرنسيين الى المحاكمة اشتبه بكونهم عملاء لفرنسا واسرائيل كلتيهما بينما تردد الهمس في السفارات في اوروبا عن ان رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية (أمان) قد توصل الى تفاهم غير عادي مع شاه ايران من اجل اقامة تعاون بين أمان والسافاك (المخابرات الايرانية). ولم يكن التوصل الى ترتيب كهذا مع بلد اسلامي، رغم المجابهة الاسرائيلية مع معظم اقطار العالم العربي، عملا دبلوماسياً عادياً رغم ان ما كان يجمع بين اسرائيل ونظام الشاه هو الرغبة في البقاء على اطلاع تام عما يريده الاتحاد السوفييتي ويقوم به في الشرق الأوسط. وكانت السافاك تتمتع بسمعة انها غير خبيرة في اساليب التنصت ومكافحة التجسس، فاراد الشاه ان يُقيِّمَ ذلك ويقدره من خلال جهاز «سافاكه الأعلى»، او كما علق احد الاسرائيليين: «اذا استطاع الشاه ان يعقد صفقة بين المخابرات الاسرائيلية وبين جهاز

مخابراته الخاص فلا ريب: انه سيشعر بقدرة اكبر على مراقبة السافاك».

لقد كان أحد اغراض مهمة رئيس أمان الاساسية في باريس هو نشدان المعونة من اجل تخفيف عبء العمل الحاسباتي الالكتروني لاسرائيل، وكان رأي وزارة الدفاع هو ان جهاز حاسبات إلكترونية اضافي مطلوب، من كلتا فرنسا والولايات المتحدة، اذا أرادت اسرائيل ان تبقى في وضع تكسب سريعاً في أية حرب قد تندلع في الشرق الأوسط. وبينما كانت فرنسا تتخذ، رسميا، موقفا حياديا صارما ازاء الشرق الأوسط قدمت لاسرائيل قدراً كبيراً من الدعم غير الرسمي ولا سيما في ميداني المخابرات والبحرية الفرنسية. وقد تردد بيير مسميه Pierre Mesmér، وزير الدفاع الفرنسي آنذاك، تجاوز ديغول في تمهيد الطريق امام الاسرائيليين. على ان الحقيقة غير ذلك، فديغول كان يعرف عادة ماذا كانت مخابراته، بشتى فروعها، تقوم به، ولكنه تمتع بموهبة الحصيف بالفطرة حين يكون الأفضل له ان يبقى جاهلاً. وقد قيلت مزاعم متعددة، بعد وفاته، عن انه كان معادياً لاسرائيل. وهذا بعيد جدا عن الواقع، بل ان أحد اقرب مستشاريه في مسائل المخابرات كان يهودياً وهو جاك فوكار Jacques Foccar. فلم تكن لدى ديغول اية

رغبة في رؤية اسرائيل وهي تسحق رغم انه كان ملتزما بسياسة الصداقة نحو العرب، وبخاصة اولئك الذين كانوا تحت الحكم الفرنسي حتى سنوات قليلة ماضية.

وهكذا، استطاع هيرتزوغ ان يرتب تعاوناً في ميدان المخابرات، القائمة على الحاسبات الالكترونية، مع البحرية الفرنسية، وكان هذا ذا اهمية بالغة، خلال حرب الأيام الستة، في مساعدة البحرية الاسرائيلية الصغيرة على ان تلعب دورها. ولكن الأهم من هذا جدا كان المعونة التي حصل عليها الاسرائيليون من الولايات المتحدة في ميدان المخابرات، فقد كان الرئيس جونسون قد انقلب على الموقف المتردد المحابي للعرب الذي اتخذته ادارة الرئيس كينيدي، والتي عبست لها دائما وكالة المخابرات المركزية. وقد اوجد الضغط على مصر لدى كل من البيت الأبيض ووزارة الخارجية سببا للقلق، ومن حسن حظ اسرائيل آنذاك ان مستشار الرئيس جونسون الخاص لشؤون الأمن القومي كان والت روستو Walt Rostow الذي اعتقد ان سياسة الولايات المتحدة تجاه اسرائيل يجب ان تكون كابحا فعالاً لدعم الاتحاد السوفييتي للعالم العربي. وهكذا، عكس روستو كليا تقريبا اراء العاملين في وكالة المخابرات المركزية. وعلى ذلك ادت المناقشات في واشنطن بين رؤساء

المخابرات الاسرائيلية وبين وكالة المخابرات المركزية الى وضع ترتيب سري للتعاون في حرب محدودة بين مصر واسرائيل مع تفاهم ضمني على ان هذه الحرب يجب ان لا تنتهك حرمة الحدود بين اسرائيل والاردن وسورية. اي ان القرار الضمني كان، بكلمات أخرى، ان اية حرب تخوضها اسرائيل يجب ان تتم وفق الخطوط التي يوافق عليها الاميركيون من اجل حصر منطقة النزاع. وعموماً، ساد الاعتقاد ان هذه الخطة سوف تردع الاتحاد السوفييتي عن التدخل المباشر، كما كانت لها غاية اخرى من وجهة نظر الاميركيين وهي الابقاء على علاقات جيدة مع الأردن والعربية السعودية اللتين كانتا يمكن ان توصفا انهما معاديتان لعبد الناصر. وقد مهد الرئيس عبد الناصر نفسه الطريق أمام هزيمته حين رفض الدعوة الى عقد اجتماع لمجلس الدفاع العربي على اساس ان مصر «ليست مستعدة لكشف اسرارها العسكرية امام حكومات مأجورة لكتلتا وكالة المخابرات المركزية والمخابرات البريطانية».

كانت الأحداث جميعها التي قادت الى حرب الأيام الستة مطردة التعقيد والالتواء، وربما لم يتم قط من قبل، في التاريخ، هيمنة كلية على الوضع كما جرى في هذه الحرب. والحقيقة انها كانت

خطة مشتركة بين وكالة المخابرات المركزية الاميركية وبين المخابرات الاسرائيلية، ولم تملك الثانية منهما الورقة الرابحة فقط بل كانت لها تحفظات سرية. وقد حثت الولايات المتحدة الملك حسين على استخدام نفوذه من اجل نَهْج مشايع للغرب في الدبلوماسية العربية في حال خسارة مصر الحرب امام اسرائيل، وذلك مقابل ضمانة اميركية بألا تغزو اسرائيل الأردن. وبينما وافق الملك سرا على ذلك احس انه ملزم بالظهور مساندا لمصر قبل اندلاع القتال، ولذلك وقع في ٣٠ ايار ١٩٦٧ م. ميثاق دفاع مع الرئيس عبد الناصر، متعهداً بتقديم الدعم له اذا اندلعت الحرب مع اسرائيل.

لقد كان هذا مقترحاً يحمل في طياته خطراً غير مباشر، وتم التوصل اليه في محادثات مشتركة اميركية ــ اسرائيلية جرت على مستوى المخابرات، وكان الاسرائيليون يعون تماماً مخاطر حصول النتائج العكسية، وهكذا جرى إطلاع الموساد على ان وزارة الخارجية الاميركية لا تزال تسعى الى ترتيبات، من نوع ما، مع مصر على رغم هذه الخطة السرية، فقد عرفوا ان خطة وكالة المخابرات المركزية الاميركية ــ الموساد ــ امان التي ارتأت شن حرب سريعة محدودة على مصر في الاسبوع الثاني من حزيران

يمكن ان تتعرض للخطر اذا توصلت وزارة الخارجية الاميركية ، في غضون ذلك ، الى اتفاق مع مصر ، لان عميلَ الموساد في القاهرة اخبر ان الرئيس عبد الناصر سيرسل زكريا محي الدين في مهمة استكشافية الى واشنطن في الخامس من حزيران .

خشي كل من الجانبين ، الاميركي والاسرائيلي، من خيانة الجانب الآخر له ، وقد نجم هذا الوضع ، والى حد كبير ، عن قيام جهازي المخابرات لديهما بتسيير دفة المفاوضات ، تسييراً غير دقيق ، مما ترك علامة استفهام كبرى حول ما قد يقرره الساسة . وخشي الاسرائيليون من ان اتفاقهم السري مع وكالة المخابرات المركزية قد تُعَرِّضُها ، وفي آخر لحظة ، وزارة الخارجية للخطر بشكل ما ، ولذا قرروا تقديم موعد بدء الحرب الى الخامس من حزيران ، وهو يوم مغادرة زكريا محي الدين القاهرة الى واشنطن ، من اجل الابقاء على سرية تلك الخطة ، فأبقوا من ثمة الاميركيين جاهلين بتوقيت الحرب مع ان واشنطن اعتمدت على معلومات الموساد وحدها فيما يتعلق بخطط تل أبيب .

وبينما كان الاسرائيليون يرتابون في تغير موقف وزارة الخارجية الاميركية اغفلوا احتمال ان وكالة المخابرات المركزية ستحاول حماية

نفسها من أية تغييرات اسرائيلية للخطط الموضوعة . وقد اخذت وكالة المخابرات المركزية ، منذ البداية ، في الحسبان مخاطر تورط السوفييت في حرب شرق اوسطية اذا سمحت اسرائيل للنزاع ان يمتد الى الأردن وسورية . صحيح انه كان ثمة تفهم خفي ان هذا لن يقع ، ولكن « الوكالة » ارادت ان تكون مطلعة سلفا على كل خطوة اسرائيلية ، ولهذا امرت سفينة التجسس الاميركيـة ليبرتي Liperty ، المجهزة بمعدات الكترونية ، ان تبحر الى شرقي البحـر المتوسط وتكون قريبة من شبه جزيرة سيناء كي تستمع الى كلتا الاشارات الاسرائيلية والعربية . وكانت مهمة ليبرتي تزويد وكالة الأمن القومي في واشنطن بالمعلومات التفصيلية عن كلتا التحـركات العربية والاسرائيلية في البر والبحر والجو ، ولكن الاسرائيليين لم يُبَلَّغوا بذلك .

وحين اندلعت الحرب كان الاسرائيليون يتمتعون بمزية هائلة على المصريين وهي انهم استطاعوا فك الرموز والشيفرات الاردنية والمصرية ، بينما لم يستطع العرب حل الشيفرات الاسرائيلية . وهكذا كان الاسرائيليون ، بفضل مخابراتهم المتفوقة ، في وضع يستغلون فيه هذه المزية عن طريق بث معلومات خاطئة الى العرب بواسطة

اشاراتهم. ففي محطة ترخيل في سيناء كان الاسرائيليون يعترضون الرسائل من القاهرة الى عمان، ثم، وبلغة عالم المخابرات، «يطبخونها» قبل ان يعيدوا بثها سريعاً الى عمان. وكانت خطة الاسرائيليين هي خلق الانطباع بان الحرب تسير لصالح المصريين. وكان الهدف، طيلة اليوم الأول من الحرب، هو اعطاء العرب هذه الاثارات الزائفة، مما يخلق اضطراباً هائلاً في صفوفهم، والتعتيم على رسائل القاهرة الى عمان والتي تتضمن تقدم الاسرائيليين. وفيما بعد اخبرت اسرائيل الاردن، بهذه الرسائل «المطبوخة» ان المصريين يقومون بهجوم مضاد في سيناء وانهم يحتاجون الى دعم الملك حسين عن طريق مهاجمة المواقع الاسرائيلية في منطقة الخليل.

وقد نجحت مؤامرة الاشارات الاسرائيلية هذه نجاحا تاماً، فالنظريون يمكن ان يقولوا ان الاسرائيليين، اذا حَدُّوا من مدى الحرب ورَكَّزوا فقط على مصر، سوف ينالون نعمة حياد اميركا وعدم تدخلها ويقللون من خطر مشاركة الاتحاد السوفييتي. ولكن ثمة اشياء عديدة يمكن ان لا تتحقق في هذه الخطة وتسير في الاتجاه الخاطىء، واسوأها انها قد تطيل امد الحرب لا ان تنقصه، فتزيد بذلك من مخاطر التدخل سواء أكان من الاتحاد السوفييتي ام

هيئة الامم المتحدة، وهذا يشكل ضربة مميتة لاسرائيل. اما ترتيب الموساد ــ المخابرات المركزية الاميركية، فهو في أحسن الأحوال، مقامرة رغم انه يشكل بداية مفيدة للحرب، ولكن دعوة وزارة الخارجية الاميركية مصر لارسال مبعوث الى واشنطن غَيَّرَتْ، تغييرا كلياً، وضع الأمور. وهكذا قامت الخطة المعدلة على القيام بعملية خداع رئيسية لكل من مصر والأردن، مع توجيه ضربة مدمرة لسلاح الجو المصري حين يبدأ الهجوم البري. فإذا امكن تحقيق النصر في خلال اسبوع يمكن تبديد اخطار التدخل كافة.

هاجمت الطائرات الاسرائيلية مصر، وادعت انها دمرت ٣٧٤ طائرة مصرية، معظمها على الأرض، خلال اليوم الأول. ثم دخلت الوحدات المدرعة الاسرائيلية، وقد تخلصت من الهجمات الجوية المصرية، قطاع غزة، وتقدمت على ثلاثة محاور في شبه جزيرة سيناء الى قناة السويس وخليج العقبة. وفي السابع من حزيران احتلت القوات الاسرائيلية القدس القديمة وهاجمت الاردنيين غربي نهر الاردن وتابع الاسرائيليون، خلال يومي السادس والسابع من حزيران، توجيه رسائل زائفة الى الاردنيين، كما مارسوا عملية خداع مماثلة على المصريين.

ولكن الموساد وامان عرفتا ليلة السابع من حزيران ان خطة خديعتهما قد كشفها الاميركيون، فاستُدْعِيَ السفير الاسرائيلي الى وزارة الخارجية الاميركية وأُعلِمَ ان الهجوم الاسرائيلي يجب ان يتوقف على الفور لان الامم المتحدة ستأمر بوقف اطلاق النار بناء على طلب من مصر. وحين اعترض هذا السفير اخبر بلغة دبلوماسية، ان الولايات المتحدة قد عرفت ان الاردن قد ضلل بخديعة اشارات كي يدخل الحرب. وهكذا بات واضحا ان ليبرتي ستسبب كارثة لإسرائيل اذا واصلت بثها اللاسلكي، لأنها سوف تستطيع كشف إن الاسرائيليين ينتهكون قرار وقف اطلاق النار الذي اتخذته هيئة الأمم المتحدة.

كيف عرفت وزارة الخارجية الاميركية ذلك؟ هذا هو السؤال الذي اثير في تل ابيب، فكلتا الموساد وأمان لم يتم اخبارها بإرسال ليبرتي الى شرقي البحر المتوسط، ولكن خبرتهما في اتصالات عالم الحرب الجديد العجيب انبأتهما ان الولايات المتحدة يمكن فقط ان تكون قد علمت بخطة الخداع اما عن طريق قمر صناعي او، وهذا هو الأكثر احتمالاً، بواسطة سفينة تجسس. وهكذا، نقل الى وزارة الدفاع ان المصدر الأكثر احتمالاً لتسرب

هذه المعلومات الحيوية هو سفينة قريبة من شواطىء شبه جزيرة سيناء المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وهنالك الان روايات شتى، ومتباينة الى حد ما، لما حدث بعدئذ، ولكن خطوطه الرئيسية واضحة ولا ريب، فالاسرائيليون امروا على الفور بالبحث عن سفينة تجسس «مهما كان العلم الذي ترفعه»، وكانت الأوامر صريحة: يجب تعطيل هذه السفينة واخراجها من العمل. وذكر المسؤولون الاسرائيليون ان أوامر مكتوبة لم تعط، وكذلك لم تصدر اوامر بالشيفرة، ولكِنَّ هنالك شكاً قليلاً في ان أوامر شفوية قد صدرت، فوجود السفينة ليبرتي قريبة نسبياً من الشواطىء تشكل تهديداً لخطة اسرائيل الحربية: واذا تابعت هذه السفينة رصد اشارات اسرائيل وتحركات قواتها في البر والجو والبحر يمكن ان يحدث تسرب اخبار من وزارة الخارجية الاميركية الى هيئة الأمم المتحدة، ثم يحدث ما هو أسوأ فيقوم اداريو هذه الهيئة الدولية بنقل المعلومات الى المصريين. وكانت هيئة التجسس الاسرائيلية قد علمت، منذ وقت طويل، ان هذا ما فعلته الأمم المتحدة تماما في الكونغو وغيرها في افريقيا. ولذا يمكن بهذه الطريقة ان تدمّر الخطة الحربية.

وقد عَقّد الوضع ان الاسرائيليين عرفوا، من رسائل نقلت قبل أن يتأكدوا من ان سفينة تجسس اميركية هي المسؤولة عن رصد اشاراتهم، ان المخابرات البحرية الاميركية قد كشفت، ولا ريب، ان المخابرات الاسرائيلية قد حلّت رموز (شيفرة) السفينة ليبرتي، فباتت تعرف تماما ما كان يجري. وهكذا لم تكن ثمة اية فرصة لرد اسرائيل على عملية ليبرتي عن طريق تسريب رسائل مرسوم لها ان تربك الولايات المتحدة، فكان لا بد، من وجهة النظر الاسرائيلية، تعطيل ليبرتي واخراجها من الميدان، ورأى الاميركيون وجوب انسحاب هذه السفينة. ولكن ليبرتي لم تتلق اية اشارة من رئيس الأركان الاميركي تسمح بانسحابها، بل ان وكالة المخابرات المركزية هي التي ارسلت تلك الاشارة التي لم تصل اليها لانها اعيدت الى مقر وكالة الفضاء القومية الاميركية، وارسلت برقية اخرى عن طريق مركز لوكالة المخابرات المركزية في شرقي البحر الابيض المتوسط، ولكنها وصلت، بدل ذلك، بطريق الخطأ الى مركز آخر لوكالة المخابرات في بورت ليوتي Port Lyauty بمراكش. ولم يعط اي تفسير لهذه «اللخبطة» في ارسال اوامر سرية جداً على درجة عالية من الاستعجال، فهل كان ثمة للاسرائيليين عميل

داخل وكالة المخابرات المركزية قادر على التسبب في ضياع البرقية؟ هذا غير محتمل، ولكنه ليس حلاً مستحيلاً لهذا اللغز.

وفي الثامن من حزيران سنة ١٩٦٧ م. اعلنت وزارة الدفاع الاميركية بان «سفينة الاتصالات البحرية الاميركية، ليبرتي، هاجمتها اليوم زوارق الطوربيد والطائرات النفاثة الاسرائيلية في البحر الأبيض المتوسط قرب الساحل المصري... وقد قتل عشرة اميركيين وجرح مائة آخرون، كانت جراح عشرين منهم خطيرة، حين اصيبت ليبرتي بطوربيد، وكانت السفينة ترفع العلم الاميركي آنذاك. وقال مسؤولو البنتاغون ان ليبرتي هوجمت أولا من عدد من الطائرات النفاثة قامت بست عمليات قصف لها، وتبعتها ثلاث زوارق طوربيد اطلقت عليها طوربيدين على الأقل... وقد قيل ان الدمار الذي لحق بالسفينة كان كبيراً ولكنه سطحي».

والحقيقة ان هذه الأرقام عدلت في اليوم التالي، فاصبحت الاصابات تسعة قتلى واثنين وعشرين مفقوداً وخمسة وسبعين جريحاً، وعادت السفينة ليبرتي زاحفة الى قاعدة فاليتا Valetta في مالطة. وحدث في غضون ذلك ذعر في واشنطن، واندفع رؤساء الأركان في الولايات المتحدة الى حد اقتراح القيام «بضربة جوية

انتقامية سريعة على القاعدة البحرية الاسرائيلية التي انطلق منها الهجوم»[1]. ولكن رفضت هذه الخطة، وجرت مشاورات بين البيت الابيض وبين وزارة الخارجية بينت ان خطوة كهذه ستكون لها عواقب وخيمة، فقُبِلَ العُذرُ الاسرائيلي ان هذا الحادث كان حادث «تحديد هوية خاطىء». وكانت الرواية الاسرائيلية ان السفينة ليبرتي شابهت سفينة تموين مصرية هي «الكاسر»، وبدت حكومة الولايات المتحدة وقد احجمت عن التدقيق في هذه المزاعم. والواقع ان ثمة دليلاً دامغا على ان طائرة هليكوبتر اسرائيلية جاءت الى ليبرتي عارضة تقديم مساعدة طبية او غيرها، ولكن الضابط الاميركي قائد السفينة طلب منها ان تنصرف.

على ان موضوع هذه السفينة كان، اذا تطور الى خصومة اميركية ــ اسرائيلية مع قطع حتمي للعلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل، سيناسب، ولا ريب، السوفييت ويرضي المصريين ويحطم السياسة الاميركية في مواجهة النفوذ السوفييتي وموازنته في المنطقة، بالاضافة الى تخريب كلي لتعاون امان ــ الموساد ــ وكالة المخابرات المركزية الاميركية، وكانت كلتا الولايات المتحدة واسرائيل ستفقد زمام المبادرة. ولا ريب ان مدير المخابرات المركزية الأميركية والمستشارين

الآخرين القريبين من الرئيس جونسون أسفوا، أشد الأسف، لارسال السفينة ليبرتي لرصد الحرب العربية ــ الاسرائيلية، وربما كان الأفضل لهم، على الأقل، ان يُعْلِموا تل أبيب ان الرصد سيجري. وكانت اسرائيل، في غضون ذلك، قد فازت بنصر رخيص التكلفة نسبياً باعتراضها الرسائل المتبادلة بين مصر والاردن، لتغير كلماتها ثم تعيد بثها بقصد تضليل العرب ودفعهم الى القيام بخطوات لا تعود عليهم الا بالكوارث وذلك لصالح تقدم الإسرائيليين.

قام الطرفان الاميركي والاسرائيلي بتهدئة الأوضاع عقب الهجوم على السفينة ليبرتي، على رغم المطالب العنيفة في الولايات المتحدة بإجراء تحقيق دقيق في القضية كلها، ثم حافظا على التقليل من شأن الحادثة الى ان تناساها الناس تقريباً. وبعد عام وقعت حادثة مماثلة حين أسر الكوريون الشماليون سفينة التجسس الاميركية بويبلو Pueblo، فحولت الانتباه عن حادثة ليبرتي. وفي ايار ١٩٦٨ م. دفعت الحكومة الاسرائيلية مبلغ ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه استرليني لأسر الذين قتلوا في الهجوم على ليبرتي، ثم دفعت اكثر من مليونين آخرين، بعد مطالبات من الحكومة الاميركية

للاشخاص الذين اصيبوا بجراح. وحافظ الاسرائيليون على صمت مطبق ازاء تفاصيل الهجوم، ولم تعلن قط نتائج اي تحقيق.

وعلى حين اخرجت ليبرتي من الخدمة الفعلية وتم تعطيلها كان الاسرائيليون يهاجمون الجيش الاردني غربي نهر الأردن، ويهاجمون مرتفعات الجولان، وانهار الجيش المصري على كافة الجبهات؛ واحتلوا شرم الشيخ بقواتهم البحرية. وقبل الملك حسين اقتراحا بوقف اطلاق النار، ثم قبلته مصر وسورية.

لقد ربحت اسرائيل هذه الحرب في غضون اسبوع وبأقل من ٦٧٩ قتيلاً مقابل آلاف القتلى العرب، بفضل مخابراتها السرية ونظام مخابراتها العسكرية الى حد كبير. ولكن الحرب نفسها تم كسبها على صعيد المخابرات في خلال ساعتين ونصف الساعة، لأن القوة الجوية المصرية دمرت تماماً في هذه الفترة، ودمرت معظم الطائرات على مدرجاتها الاسمنتية. وقد استطاعت المخابرات الاسرائيلية، التي اعدت لكل طارىء، لا ان تتحقق فقط من موعد وجود الطائرات على الأرض وفترته، بل ان تحكم ايضا على أي من الطائرات كان حقيقيا وايها كان زائفا. وقال احد الطيارين الاسرائيليين: «لقد أعطانا سلاح نجاتنا، اي مخابراتنا، كل فرصة

ممكنة، فحين ذهبنا الى غرفة التعليمات عشية أول اقلاع لنا في حرب الأيام الستة قدموا الينا خرائط مصوّرة كبرى للمطارات المصرية اظهرت لنا موقع كل طائرة: الحقيقة منها والزائفة، وحين وصلنا الى المطارات كنا نعرف تماما اي الطائرات سنقصف وكم من الوقت اللازم لذلك. وخير من ذلك اننا استطعنا ان ننهمك في حرب نفسية، فقد كنا نعرف اسماء العديد من الطيارين العرب، فكان بمقدورنا ان نربكهم برسائل: «اذهبوا الى بيوتكم».

الفصل الخامس عشر

فترة اختبار الشباك

«ان اخلاقية ما سأدعوه، باختصار، «الحرب الباردة» هي أسهل جداً من اخلاقية اي نوع من الحروب الساخنة، حتى انني لم أرها مشكلة خطيرة».

(رتشارد بيسل *Richard Bissel* نائب مدير التخطيط في وكالة المخابرات المركزية الامريكية، ٤ ايار ١٩٦٥ م)

رغم حقيقة اندلاع ثلاث حروب ساخنة بين العرب والاسرائيليين منذ اوائل الخمسينات، لكن على المرء ان يعرف ان الطرفين عاشا، طيلة ربع قرن حتى الآن، في حالة دائمة من الحرب الباردة، فلم يوجد قط اي احتمال في ان اسرائيل ستقلل جهودها للمحافظة على التفوق العسكري او على امنها الوطني، وكان الاسرائيليون، في تعاملهم مع هذه الأحوال وتعلمهم على العيش معها، يتبنون شيئا من الفلسفة التي ذكرها رتشارد بيسيل في مقابلته مع محطة NBC، التلفزيونية سنة ١٩٦٥ م. واستشهدنا بها في مطلع هذا الفصل.

لقد واجهت اسرائيل، طيلة هذه الفترة، سلسلة متكررة من النشاطات التجسسية المنظمة بعناية والموجهة ضدها. وقام ببعض هذه النشاطات الاتحاد السوفييتي كما رأينا من قبل، ولكن الغالبية العظمى منها قامت بها الدول العربية المجاورة، وقد وقعت مسؤولية مكافحة هذه النشاطات على الشاباك التي اظهرت كفاءة ملحوظة في مواجهة تهديد امن اسرائيل الداخلي، ولا سيما لوجود ثلاثمائة ألف عربي داخلها يتكلمون جميعهم اللغة العبرية.

ومن ناحية اخرى فان هذا العمل يدين، كما يقر معظم ضباط الشاباك، الى حد كبير، للتعاون مع الموساد وأمان.

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ م. ألقى دافيد بن غوريون، الذي كان يعيش آنذاك في كيبوتز بصحراء النقب، الضوء على بعض المشاكل التي يخلقها التجسس العربي لاسرائيل حين قدم للحكومة الاسرائيلية مذكرة كبيرة تقع في اكثر من خمسمائة صفحة، واحتوت على كشوفات مثيرة عن النشاطات المتنافسة والمتشابكة للمخابرات العربية والاسرائيلية.

وكان بن غوريون قد عزم على وضع تقريره عن هذا الموضوع عقب قضية لافون، وقد اسهب كثيراً في عرض نشاطات العقيد عثمان نوري، رئيس المخابرات المصرية، وبول فرانك ــ العميل الاسرائيلي السابق الذي خان رؤساءه لصالح المصريين. وفي هذا التقرير لفت بن غوريون الانظار ايضا الى آخر نشاطات العقيد نوري في دوره الجديد حين كان سفيراً لمصر في نيجيريا. وكانت اسرائيل تحاول اقامة علاقات جيدة مع عدد من الدول المستقلة حديثا في افريقيا، فكشف رئيس الوزراء السابق في اسرائيل ان السفير نوري لعب دوراً في تنظيم معارضة لزيارة

غولداماثير، التي كانت آنذاك رئيسة وزراء، الى نيجيريا، وكانت تلك الجهود غير ناجحة، اذ ان الحكومة النيجيرية أصدرت بياناً حذرت فيه من القيام بأية نشاطات تخريبية ليست في صالح البلاد[١].

لقد لفت تقرير بن غوريون الانتباه الى الحاجة لمزيد من اليقظة في التعامل مع الجواسيس، مؤكداً على انتشار شبكات التجسس العربية، ولكن ما لم يكن قد تم ادراكه من قبل هو الحاجة الى اليقظة تجاه الاسرائيليين اليهود، لا العرب فقط، والمشاركين مشاركة فعالة، في التجسس للعرب. وقد كانت هذه المشكلة الداخلية مصدر قلق متزايد للمخابرات الاسرائيلية طيلة الستينات والسبعينات. ورغم انها لم تكن واسعة الانتشار الا انها كانت تلحق حين كشفها، ضرراً كبيراً بالمعنويات الاسرائيلية. وقد كان عدد الجواسيس اليهود الاسرائيليين المحترفين صغيراً، ولكن ما كان مثيراً للقلق هو جماعة متطرفة من يهود الصابرا (المولودين في فلسطين ثم اسرائيل)، وخاصة من الشباب، حملت احيانا آراء معادية لاسرائيل بسبب تعاطف هؤلاء مع الاتحاد السوفييتي. وقد تحدث صموئيل تامير **Shmuel Tamir** عن هذه الظاهرة ببراعة

حين أعلن بوصفه رئيساً لمجموعة «المركز الحر» ان «الشبان الاسرائيليين يسمعون كل يوم من أشخاص في مراكز عالية ان الاستيطان اليهودي في الخليل وغيرها استعمار قمعي. ولا ريب ان تعاليم كهذه تدفع الشبان اخيرا الى اللجوء لكل الوسائل ضد القامعين والمضطهدين. ان الفراغ الروحي الذي يعم الان حزب العمل قد مهد الطريق امام هذه النتاجات الشريرة».

وحين كان كامل مدى الخيانة بين اليهود المولودين في اسرائيل يكشف الى الجمهور، في حالة تجسس بعد اخرى، كان الاسرائيليون يمتلئون اولا بعدم التصديق ثم بذعر خانق. وقد ذكر شاؤول روسوليو Shaul Rosolio، رئيس المفتشين في جهاز الأمن (ريشود)، والذي قام بالتحقيق مع حوالي خمسين مشبوهاً في حلقة تجسس سورية... ذكر ما يلي: «لقد اصابتني هذه بهزة عميقة جدا أكثر من اي شيء آخر تَمَّ اكتشافه. ان معرفة شاباً يهودياً ولد في اسرائيل، وهو عضو في كيبوتز ومظلي ايضاً، جاسوس لأمر يصعب تصديقه»[٢].

على ان من الخطأ اعطاء الانطباع ان اسرائيل كانت في وقت ما مخترقة تماماً بطابور خامس، وعلى اية حال فان ريشود،

الذي يماثل الشعبة الخاصة في سكوتلنديارد ببريطانيا، يراقب مراقبة دقيقة حتى ابسط مظاهر النشاط التخريبي. وشاؤول روسوليو Shaul Rosolio، وهو الآن المفتش العام في ريشود، تلقى تدريبه على ايدي ضباط سكوتلنديارد في فلسطين. ويرتبط بريشود عدد من فصائل مكافحة الارهاب، وعملها حماية المستعمرات ومنع انفجارات القنابل.

ومهما يكن من امر فإن الدعاية الماركسية قد اثارت فوضى شديدة بين بعض راديكاليي الطلبة الجامعيين والشبان الساخطين في اسرائيل، وقد عمل الاتحاد السوفييتي منذ حرب الأيام الستة على الافادة من ذلك، وكان هدفه عزل اسرائيل وايقاع كل ضغط عليها من اجل ان تنسحب من المناطق التي احتلتها حتى ان دعاته قارنوا نظام المستعمرات (الكيبوتزات) بالنظام الاستعماري البالي، واعيدت تسمية موشيه دايان، فقد سمي في مجلة التمساح Krokodil الروسية باسم موشه ادولفوفيتش Moshe Adolfovitch، ونسبت اليه كل اشكال الفظائع.

وعقب حرب الأيام الستة قام الاسرائيليون بالتحقيقات الدقيقة نفسها مع اسرى الحرب كما فعلوا بعد سنة ١٩٥٦ م. وقد

استطاعوا ان يستغلوا الى اقصى درجة وجود هذا العدد الكبير من الأسرى العرب لديهم، وعزمت المخابرات الاسرائيلية على استخدام هذه الفرصة كي تستعيد من السجون المصرية وغيرها عملاءها الذين ألقي القبض عليهم. وجرت مفاوضات مكثفة مع المصريين، ومن بين الذين استعيدوا ولفغانغ لوتز وزوجته فالدروت، وفكتورينو نينو اليهودية الفرنسية الشابة التي امضت اربعة عشر عاماً في السجن منذ ان حكم عليها لدورها في العملية التخريبية الفاشلة تماما سنة ١٩٥٤ م. وقد بادلت اسرائيل تسعة جنرالات مصريين وبضع مئات من الضباط وخمسة الاف صف ضابط وجندي بهؤلاء وببضعة عملاء للموساد وأمان، وكان هؤلاء أسعد حظا من ايلي كوهين الذي اعدم في دمشق.

وفي الوقت نفسه اعترف الاسرائيليون ان لوتز وفالدروت كانا عميلين لهم، ولقي لوتز من زملائه في المخابرات استقبالاً حاراً، فقد كان لهؤلاء العملاء وضع «الأبطال» في اسرائيل، كما ان تجربة لوتز وفالدروت، بوصفهما جاسوسين والمعاناة التي لقياها اثناء السجن قربتاهما من بعضهما، وبات ما بدأ زواج مصلحة رباطاً حقيقياً بينهما، فتهودت فالدروت واتخذت لها اسما عبريا هو ناعومي. وكان

طلاق لوتز من زوجته الحقيقية احدى تعاسات العمل التجسسي وقد تزوج بعد وقت قصير من زوجته الألمانية الثانية هذه. ولكن زواجهما لم يطل، فقد توفيت والدروت بعد سنوات قليلة بسبب علل خطيرة اصابتها لاحتجازها في سجن مصري.

لقد جاء تحذير اسرائيل الأول من سهولة دخول الجواسيس اليها من قضية ضابط الصاعقة الألمانية السابق اولبريخ شونهافت Ulbricht Schonhaft، الذي هرب من المانيا بعد الحرب عن طريق ابتياعه اوراق هوية سجين يهودي في احد معسكرات الاعتقال هو غابرييل سوسمان Gabriel Sussman، ثم انضم الى فريق من اليهود المشردين ودخل الى فلسطين. وفيها انضم الى الجيش الاسرائيلي وربما كان سيرقى فيه الى اعلى المراتب لولا انه أُقْنِعَ بأن يتجسس للمصريين، وقد ألقي القبض عليه، وحكم بالسجن سبع سنوات أعيد بعدها الى المانيا. وهنالك جاسوس آخر دربه المصريون فترة طويلة هو كيفورك يعقوبيان من أرمينيا الذي لم يُعَلَّمْ فقط الاساليب والعادات اليهودية بل ارسل الى مستشفى ايضا حيث تم ختانه. وفي أواسط الخمسينات تم تزويده بجواز سفر تشيلي وارسل اولا الى البرازيل، وطلب منه ان ينتحل صفة لاجيء صهيوني من

القمع المصري واتخذ اسم اسحاق بن سليمان، ودخل اسرائيل في أواخر سنة ١٩٦٠ م. والتحق باحدى المستعمرات، ثم عمل مصوراً متجولاً حول تل ابيب.

ألقي القبض على يعقوبيان سنة ١٩٦٣ م، وكان منذ وصوله الى اسرائيل يبعث بمعلومات الى القاهرة، ولكن نتيجة التعاون بين الموساد والشاباك امكن كشف هذا الارمني قبل اعتقاله بفترة طويلة، وكانت الشاباك، احيانا تسرب اليه معلومات كاذبة.

ظَلَّ وضع التجسس على اسرائيل مُسيْطَراً عليه تقريباً حتى حرب الأيام الستة. ولكن مشكلة مختلفة تماما واجهت السلطات الاسرائيلية، عقب تلك الحرب، نتيجة سياسة «الباب المفتوح» التي اتبعت في المناطق المحتلة، فهذه اوسع من ان تسيطر السلطات عليها، وبات المدى أوسع للجواسيس كي يتسللوا ويتجولوا بسهولة، وتم اقناع بعض العرب في اسرائيل ان يتعاونوا مع فدائيي فتح والمنظمات الأخرى.

على ان أشد هذه الشبكات خطراً، والتي لم تكشف تماماً حتى سنة ١٩٧٢ م، كانت حلقة تجسس في مرتفعات الجولان

السورية المحتلة بدأت نشاطها بعيد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ، ومنظم هذه الحلقة هو الزعيم الدرزي شكيب ابو جبل(*) الذي كان في دمشق حين بدأت حرب الأيام الستة ، ثم سمح له ان يلتحق بأسرته في قريته بمرتفعات الجولان .

ان تفرعات حلقة التجسس هذه لم تعرف تماما ، فعلى سبيل المثال حين اكتشفت الرسائل الملغومة الموجهة الى الرئيس نيكسون ووزير خارجيته روجرز في مكتب للبريد أسفل مرتفعات الجولان جرى التحقيق في احتمال ان يكون افراد شبكة التجسس قد ارسلوها . ورغم عدم اثبات اي شيء بهذا الخصوص افترض ان هذه الحلقة تلقت هذه الرسائل من ضباط في المخابرات السورية وهي مهيأة لارسالها في البريد ، وكان كل ما على افراد الحلقة ان يفعلوه هو ان يلصقوا الطوابع الاسرائيلية عليها ويضعوها في صناديق البريد المحلية .

وعلم المحققون اخيراً ان رئيس حلقة التجسس ، شكيب

(*)اطلق سراحه في عملية الاستبدال بين الاسرى الاسرائيليين والسوريين قرب القنيطرة في ٤/ ٩/ ١٩٨٤ م ، ثم انتخب عضواً في مجلس الشعب ، عن محافظة القنيطرة ، في الانتخابات العامة التي جرت يوم ١٠/ ٢/ ١٩٨٦ م .

(المترجم)

ابو جبل، نقل معلومات الى السوريين حين كان يزور بياراته في الصباح الباكر. وزياراته هذه لم تثر أية شكوك اذ كان طبيعيا بالنسبة له ان يشرف على ري بياراته قبل شروق الشمس، ولكن المعلومات التي سربها كانت حول تحركات سرية للقوات الاسرائيلية، وحول نشاطات عسكرية وأمنية، وحتى عن تفاصيل مواقع المراكز الدفاعية. وكانت عائلة شكيب جميعها مشاركة في هذه الحلقة، وطُلِبَ من افرادها ان يزوروا شتى الأماكن في اسرائيل ويبعثوا بتقارير عن أماكن نائية فيها، مثل مدينة ايلات، ومن شبه جزيرة سيناء. ولم يُكْشَفْ سر هذه الحلقة الا بعد ان ألقي القبض في ايلات على احد ابناء شكيب ابو جبل.

وفي كانون الثاني ١٩٧٠ م. وجد اليهودي الروماني ايلان شتيل Ilan Stil، وهو في الثامنة والعشرين، متورطاً في مؤامرة لاغتيال دايان، وزير الدفاع آنذاك، قبيل حرب الأيام الستة. وفي محكمة خاصة في الناصرة وجهت الى شتيل تهمة التجسس لسورية والعراق، وذُكِرَ فيها آنذاك ان شتيل، قبل اندلاع حرب الأيام الستة بأيام قلائل، أُعِلمَ ان رسولاً خاصاً سيعطيه بندقية عليها منظار من اجل قتل دايان، الا انه تخلى عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

ثم حدث ما هو أسوأ، فاكتشاف حلقة السيد شكيب ابو جبل ثم ما دعي بحلقة التجسس في الجليل، المكتشفة في اوائل السبعينات، قد اظهر تدريجياً مقدار اتساع التجسس العربي وكيف انه ازداد ثلاثة اضعاف منذ حرب الأيام الستة، وشمل اكثر من مائة اسرائيلي بعضهم افراد في الجيش. لقد حدثت في بادىء الأمر، مناوشات مع متسللين في صحراء النقب والمنطقة الجنوبية، والقي القبض على عدد من المصريين، ولكِنَّ كشف ارتباط يهود يساريين شبان بشبكة تجسس عربية تعمل لقتل دايان هو الذي أحدث صدمة في اسرائيل. ولم يكن دايان وحده على قائمة الأعدام هذه التي أعدها العرب في الشبكة، وكان الأفراد اليهود في هذه الشبكة يعرفون ذلك. وقد قال ضابط شرطة كبير آنذاك «لقد كانت شبكة التجسس والتخريب هذه اكبر شبكة عثرنا عليها منذ سنة ١٩٤٨ م. واخطرها وأكثرها تنظيماً».

ولا يزال صعباً، حتى الآن، الجزم بمقدار مناصرة شبكة التجسس هذه للعرب ومقدار كونها جزءاً من فلسفة تدميرية فوضوية ظهرت في أواخر الستينات.

على أن هذا التساؤل لا مكان له من وجهة نظر امنية لان

آثار الشبكة التجسسية وأهدافها كانت ضد اسرائيل. ولكن من المهم ايضا رؤية ان الفلسفة التدميرية ـــ الفوضوية، التي أصابت بعدواها عشرات الجامعات والكليات والمدارس في أواخر الستينات وخلقت أزمة سياسية في فرنسا وحكم ارهاب في اجزاء من المانيا وتحالفا شبه ارهابي بين اتحادات الطلبة في بريطانيا لفترة قصيرة... هذه الفلسفة هددت سلامة اسرائيل. لقد كان هذا امرا لا يستطيع الجيل القديم من الاسرائيليين تصديقه.

وفي الحملة الأولى من مداهمة المشبوهين اعتقل في كانون الأول ١٩٧٢ م. حوالي ثمانية وثلاثين شخصاً، اربعة منهم يهود. وجاء ذلك عقب قضيتي تجسس في الشهر الذي سبقه، ففي الأول من تشرين الثاني ١٩٧٢ م. حكمت محكمة في حيفا على بيتر فولمان Peter Fulman، وهو مهندس الكترونيات الماني هاجر الى اسرائيل قبل عام، بالسجن خمسة عشر عاماً لتجسسه للبنان. وفي تلك الفترة نفسها اعتقل عدد من المتسللين المصريين الى اسرائيل. وحين بات معروفاً ان ثمة اسرائيليين مشاركين في مؤامرة على حياة دايان وجهت على الفور اصابع الاتهام الى مؤامرة شيوعية. ولكن سرعان ما تبين ان الاسرائيليين المشاركين كانوا اكثر

يسارية حتى من الحزب الشيوعي الاسرائيلي وان صلاتهم الوثيقة الوحيدة كانت مع جماعات فوضوية طلابية ومع منظمات ماوية وتروتسكية . وقد كانت بدايات ذلك في أواخر الستينات حين اقنع المحرض اليساري الألماني المتطرف، دانييل كوهن بنديت Daniel Cohen Bendit الذي قاد اضطرابات الطلاب في باريس، شابين اسرائيليين، هما ايحود اديف Ehud Adiv ودان فيريد Dan Vered، بالانضمام الى جماعة متطرفة جدا قادتهما اخيراً الى خدمة العرب اعداء اسرائيل. وقد خططت هذه الجماعة، التي قاداها، لاختطاف شخصيات اسرائيلية بارزة، وارغام الحكومة على اطلاق سراح كافة المعتقلين بسبب القضية العربية، والحصول على تنازلات سياسية عن طريق القيام بأعمال ارهابية كبيرة.

إن ايحود اديف مظلي سابق في الجيش الاسرائيلي، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، وهو ولا ريب شخص رئيس في شبكة التجسس، وقالت امه الطبيبة النفسانية، فيما بعد ان ابنها أنشىء وفقا لافكار يسارية وتقدمية «حين كان فرداً في عائلة اسست مستعمرة غان صموئيل، وانه كان في وحدة مظليين دخلت سنة ١٩٦٧ م مدينة القدس القديمة، ولم يبق على قيد الحياة من الرجال

الثلاثين الذين خاضوا المعركة معه سوى ستة ، وقد عاد ولدها محطم الروح بسبب سفك الدماء » . ولعب ايضا في فريق رئيسي لكرة السلة ، وربط غيابه عن هذا الفريق شهراً كاملاً في بداية الموسم الى مزاعم انه كان آنذاك في دمشق حيث قابل عقيداً سورياً كان يعمل في آثينا، وهو الذي يصدر التعليمات ويعطي رموز الشيفرة.

وكان دان فيريد ، الذي قبض عليه مع أديف ، في الثامنة والعشرين وهو ابن اسرة غنية تعيش على مقربة من تل ابيب ، ووصف انه « مثقف انعزالي ، فكان هدفاً طبيعياً للفوضويين » . وفيريد شَكَّلَ مع اديف ويساريين اسرائيليين آخرين الحزب الشيوعي الاسرائيلي اولا ثم حركة ماتزبين Matzpen الماوية التروتسكية كنتيجة مباشرة لتأثير كوهن بنديت .

وكان اديف طالباً في جامعة حيفا ، واعتبر احد ركائز القلاقل الطلابية في اسرائيل، وهذا لا يشكل اية مفاجأة ، لأن اربعمائة طالب ، من الثمانمائة طالب عربي في الجامعات الاسرائيية كانوا مسجلين في جامعة حيفا ، وحين كان هو وفيريد في هذه الجامعة تركا الحزب الشيوعي على اساس انه معتدل جداً وشكلاً

«تحالف الجماعة الثورية» الذي ايد العمل الفدائي العربي ودعا الى تصفية الدولة الصهيونية.

صادق اديف الوسيم، المحبوب من الفتيات، داوود تركي العربي الذي يدير مكتبة في حيفا، وكان هذا هو الذي جر أخيرا كلا اديف وفيريد الى شبكة التجسس. وحين عرضت هذه القضية على المحكمة في كانون الثاني ١٩٧٣ م. كان المتهمون هم ايحود اديف ودان فيريد وداوود تركي، الذي اتهم بترؤس الشبكة، وصبحي نعراني، وهو بدوي وأنيس كراوي، من إحدى قرى الجليل، وسيمون حداد الطالب بمنحة دراسية في جامعة حيفا. والأخير هو الوحيد، بين المتهمين الستة، الذين لم توجه اليه تهمة الذهاب الى سورية للتدريب على أعمال التخريب أو تهمة القيام بأعمال بتحريض من العدو، ولكنه، كالآخرين، واجه تهمتي كونه عضواً في تنظيم معاد واقامته اتصالات مع عملاء العدو.

وهكذا فإن شباناً عرباً ويهوداً انضموا الى تنظيم سري في الجليل غايته الاطاحة بالحكومة الاسرائيلية واستبدال حكم ثوري بها. وكان داوود تركي قد بدأ ما بين سنتي ١٩٦٨ و١٩٦٩ م ينظم جمعية ماركسية بقصد تشكيل نواة حكم ثوري في اسرائيل،

فكتب الى حبيب خوارجي، أحد سكان حيفا سابقاً والمقيم في قبرص، يطلب منه معونة مادية، ثم عُرِّفَ على عميل مخابرات سورية رتب مسألة المال. وفي أواخر سنة ١٩٦٩ م. بدأ يجند أعضاء المنظمة، وقيل ان رؤساءها سوف يُرسَلون الى الخارج من أجل ان يتدربوا. وفي سنة ١٩٧٠ م حضر اجتماعاً لحركة ماتزبين، فقابل اديف وفيريد. وفي تشرين الأول من تلك السنة عقد اجتماعاً في تركيا مع الخوارجي، وقيل له ان شحنات من الأسلحة والمتفجرات سوف ترسل اليه مع مجموعات تتسلل من لبنان، وان المعلومات عن ارسالهم سوف تبث من اذاعة بواسطة شيفرة مبنية على القرآن.

وفي أواخر سنة ١٩٧٠ م. تَمَّ تجنيد أعضاء عديدين في التنظيم، وعرف جميعهم ان غايته هي القيام بكفاح مسلح ضد اسرائيل وبعمليات تخريبية ضد القواعد العسكرية. وقد بني هذا التنظيم على اساس خلايا من ثلاثة اعضاء يحملون اسماء مستعارة ولا يعرف الواحد منهم العضوين الآخرين في خليته.

وكان تركي وحده هو الذي يتصل برؤساء الخلايا. ولم يكلَّف اديف بمهمة تجنيد يهود، لارسالهم الى الخارج للتدريب على

أعمال التخريب، الا في صيف ١٩٧١ م، فطار الى اليونان في ايلول، وبعث ببرقية من آثينا الى بيروت موقعة باسم موسى الذي اتخذه اسما مستعاراً له، وبعد ستة ايام زاره الخوارجي. وقد تضمنت البرقية تفاصيل عن نشر وحدات المظليين الاسرائيلية ومواقع الوحدات المدرعة والمطارات والدفاعات الجوية وعمليات الدورية.

ذهب اديف فيما بعد الى دمشق، وقدم المزيد من المعلومات عن الجيش الاسرائيلي، بما في ذلك المدرعات والمدفعية ومنشآت الرادار، وقد قيل في المحكمة انه طُلِبَ منه ان يبعث رسائله مكتوبة بحبر خفي الى العاصمة اليونانية. وفي اجتماع آثينا أعطى الخوارجي اديف سبعمائة دولار لانفاقها على التنظيم، وعند عودته اقنع فيريد بالذهاب الى اليونان وأعطاه مبلغاً من المال من اجل الرحلة. وذهب فيريد الى سورية حيث درب على استخدام الأسلحة والمتفجرات والشيفرة، وعاد وهو يحمل من الخوارجي مبلغ ٢٥٠ جنيهاً استرلينيا وتعليمات الى أديف ان عليه ان يزور اثينا ودمشق. وامضى اديف بعدئذ عشرة ايام في دمشق وكتب فيها تقريراً من اثنتين وعشرين صفحة حول الاوضاع العسكرية والاقتصادية والسياسية في اسرائيل، وتلقى المزيد من التدريب على استخدام المتفجرات والأسلحة.

وفي آذار ١٩٧٣ م. حكمت محكمة حيفا على داوود تركي وايحود اديف كليهما بالسجن سبعة عشر عاماً بجرم الخيانة، وعلى صبحي نعراني وانيس كراوي، اللذين لعبا دوراً أقل أهمية، ولكن لهما سجلان في السجن بسبب جنح أمنية أخرى، بالسجن خمسة عشر عاماً، وعلى دان فيريد، مدير المدرسة، بالسجن عشرة أعوام، وعلى حداد بالسجن سنتين. وعقب اعلان الاحكام انشد المتهمون جميعهم، ما عدا حداد، «النشيد الأممي» وهم يطبقون قبضات ايديهم المرفوعة.

لقد استطاعت الشاباك ان تكشف شبكة التجسس هذه، على رغم تنظيمها الجيد وخطورتها الشديدة، قبل ان تتمكن من القيام بأي تخريب خطير. وكانت خطة تطوير تنظيمها متقنة جداً، ولكن اعضاءها كانوا من الهواة ويبذلون قصارى جهدهم، حين القي القبض عليهم، من اجل تعلم أصول التجسس ومبادئه، فحتى بعد التعلم في الخارج فشل اديف وفيريد في حل رسائل بالشيفرة مرسلة اليهم في برنامج طلبات مسجل مذاع من اذاعة دمشق، وكان الشخص المحترف الوحيد بينهم هو داوود تركي الشيوعي العربي المتمرس. وقال ايريك سيلفر Eric Silver، في

مقالة نشرها في صحيفة الغارديان Gaurdian، «برز اديف وفيريد على انهما «حمارا» الشغل للثورة، وهما، مثل كوزو اوكاموتو Kozo Okamoto، الياباني مطلق النار في مطار اللد، الذي اعتقد إن التنظير لا يكفي، احتقرا راديكالية المقهى وحملا السلاح. وكما في حالة فيريد الذي حامت حوله الشكوك في انه سوف يستقر ويهدأ بزواجه السنة السابقة، كان الوقت قد فات على امكان الخروج من الشبكة»[٣].

كان فيريد قد انجذب نحو سياسة اليسار حين دراسته في الولايات المتحدة. وكان أديف، من الناحية الأخرى، قد اعتنق الفلسفة المسالمة عقب حرب الأيام الستة. وربما كانت هنالك وجهة نظر واحدة حملها افراد شبكة التجسس كافة، وعبر عنها احد افراد كيبوتز تزاديف الذي يهيمن عليها، هيمنة رئيسية، الاتجاه اليساري بقوله «علينا ان نجد طريقة للعيش بسلام مع جيراننا العرب. وعلينا ان نتصالح معهم، فنعيد اليهم المناطق المحتلة ثمنا للسلام».

لقد جاءت الأخطار التجسسية، خلال اوائل السبعينات، من جهات عدة، من سورية والأردن ومصر والعراق والاتحاد

السوفييتي ورومانيا، ففي الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٧٣ م. حكمت محكمة في تل ابيب على مهندس كهرباء بريطاني، اتهم بالتجسس للأردن بالسجن اثني عشر عاماً، وقد أعلن المهندس بول جون جيرالد غلوفر Paul John Gerald Glover، من لندن انه غير مذنب، ولكن المحكمة وجدت انه اقام اتصالات مع عملاء اجانب، وقام بالتجسس ونقل معلومات الى العدو. وكان ادعاء المحكمة ان غلوفر، البالغ من العمر اثنين واربعين عاماً، قد قام بمهمته التجسسية بعد ان اجتمع في لندن، سنة ١٩٦٨ م، بالملحق العسكري في السفارة الاردنية فيها. وتلت ذلك اتصالات مع عدد من كبار الضباط حددوا له اهدافاً تجسسية، وأعطوه آلة تصوير مع عدسات تليسكوبية مقربة وتذاكر طائرة الى اسرائيل.

وعمل غلوفر مع مؤسسة تبيع معدات ميكانيكية ثقيلة خططت من أجل توسيع عملها في اسرائيل وفي الأردن، وهذا ما منحه فرصة عبور الجسور فوق نهر الأردن. وقد حذرت السلطات الاسرائيلية غلوفر من مغبة مقابلة عملاء أجانب، الا أنه لم يأبه لهذا التحذير. وربما يكون عدد الجواسيس الذي يتاح لهم مثل هذا

التحذير قليلاً، والأقل عدداً هم الذين لا يعيرونه أي اهتمام. وهكذا نقل غلوفر الى الأردن تفصيلات المطارات في اسرائيل والحواجز الأمنية فيها وشتى انواع الواردات العسكرية ومخططات القواعد العسكرية واساليب التدريب وطرقه.

وهنالك بريطاني آخر تجسس على اسرائيل هو آرثر باترسون Arther Paterson البالغ من العمر واحداً وسعبين عاماً وحكم عليه بالسجن ثمانية أعوام سنة ١٩٧١ م. بعد محاكمة سرية في محكمة بتل ابيب استمرت ستة أشهر، واتهم بالتجسس لمصر. وقد اصر على براءته طيلة الوقت، ولكن ثلاثة قضاة وجدوه مذنباً رغم ان احدهم قال «من المؤكد أنه اكبر سناً قليلاً من لعبة التجسس».

وصل باترسون الى تل ابيب قادماً من قبرص في شتاء سنة ١٩٦٦ م، وادعى انه مدرس وصحفي حر. وكان هدفه ولا ريب التغلغل الى المنشأة العسكرية المحروسة جيداً في ديمونا حيث يقوم الاسرائيليون بتجاربهم النووية.

ويحتمل ان يكون عمر باترسون اقنع الاسرائيليين اولاً ان من غير المحتمل ان يشكل خطراً على الأمن لانه منح بطاقة مرور

صحفية من الحكومة الاسرائيلية اتاحت له، قبل حرب الأيام الستة، التجول في اسرائيل، ولم تراقبه الشاباك الا بعد ان لوحظ انشغاله واهتمامه البالغ بالمنشآت العسكرية.

شكلت قبرص، طيلة سنوات، مركزاً لشتى عمليات التجسس المتزايدة على اسرائيل، وقد استخدمها الى حد ما المصريون، ولكن استخدمها السوفييت استخداماً جد أوسع. والواقع ان نيقوسيا مركز هام للمخابرات السوفييتية في الشرق الأوسط، واصبحت محطة لقاء العملاء السوفييت العاملين في المنطقة وبخاصة في اسرائيل. ويدل على ذلك حجم السفارة السوفييتية في قبرص التي قيل ان افرادها كانوا، قبل مدة يزيدون على مائتين، ويشملون عملاء يعملون في البعثة التجارية السوفييتية والمركز الثقافي ووكالة الانباء السوفييتية وشركة ايروفلوت. وقد راقبت المخابرات الاسرائيلية، مراقبة شديدة، الداخلين الى قبرص والخارجين منها، ووصلت يد الموساد، طلبا لنقاط انطلاق عمليات التجسس على اسرائيل، الى مناطق بعيدة مثل امستردام وهامبورغ وأوسلو وستوكهولم. وساعد ذلك، في بعض الأحيان، على القيام باعتقالات سريعة وفي اللحظة التي تطأ فيه قدم العميل

اسرائيل. وفي آذار ١٩٧٠ م. سجن الهولندي ويلهلم ريش Wilhelm Ruysch خمسة اعوام مع التوصية بابعاده بعد قضائه محكوميته. وكان ريش قد اعتقل في ايلول السابق حين وصل الى مطار اللد قادماً من باريس.

كان معظم عملاء المخابرات المصرية يوجَّهون من فرنسا وسويسرة رغم انها جعلت، في السنوات الأخيرة، كلتا اليونان وايطاليا المكانين المفضلين لمراكزها التنظيمية. ويتم تجنيد هؤلاء العملاء غالبا من البحارة والسياح، على حين ان الجواسيس المصريين كانوا، في عدد من الحالات، يجمعون ما بين التجسس وبين ترويج الافيون. وتعمل المخابرات السورية مثل المخابرات العربية الاخرى. والأصغر بين المخابرات العربية كافة هي المخابرات الأردنية، ولكنها حديثة جدا من نواحٍ عدة.

ان مهمة اسرائيل في مكافحة عمليات التجسس المتواصلة هذه لتزداد صعوبة لان التجسس العربي تعززه وتساعده المعلومات التي يبعث بها عملاء المخابرات السوفييتية في اسرائيل الى كل من مصر وسورية. وقد ابدى السوفييت اهتماماً شديداً بالطرق الاسرائيلية في العمل المخابراتي، وكانوا تواقين جداً ان يتعلموا ما

يستطيعونه من عمل البحوث التي يقوم بها العملاء الاسرائيليون . وكانت المخابرات السوفييتية منهمكة قبل اي شيء آخر ، بكشف ما يبعث به الصهيونيون في الاتحاد السوفييتي من معلومات ، وكيف تستطيع لا إيقاف هذا السيل من المعلومات فحسب ، بل قطع كل الصلات ما بين الاسرائيليين ويهود الاتحاد السوفييتي .

وفي حزيران ١٩٧٣ م حكمت محكمة حيفا الاقليمية على رامي ليفنه Ramy Livneh بالسجن عشرة أعوام لاتصاله باحد عملاء منظمة فتح ، وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وابن ابراهام ليفنبراون Abraham Levenbraun العضو الشيوعي في الكنيست ، ويلتسب الى الحزب الشيوعي الجديد . وليفنه وشخص متهم آخر هما آخر ستة من اليهود وجدوا مذنبين بالانضمام الى شبكة تجسس وتخريب تعمل من سورية . وقد وجد السجناء الاثنان والثلاثون ، الذين حوكموا في اربع مجموعات ، مذنبين ما عدا واحداً اتهم بمعرفة وجود الشبكة ولكنه لم يبلغ السلطات عنها .

لقد رَكَّزتْ شتى المنظمات الفدائية العربية نموها وتناميها وتطورها ، خلال السبعينات ، على «تحرير فلسطين العربية» ، وزادت من تفاقم مشكلة التجسس في اسرائيل . والأولى من هذه

المنظمات والأكثرها نفوذاً هي منظمة فتح التي يرأسها ياسر عرفات الذي كان رجل أعمال في الكويت، ولكنه تخلى عن عمله ليكرس نفسه للقضية الفلسطينية. والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يقودها جورج حبش، اكثر تطرفاً الى حد ما، وهي المسؤولة عن سياسة الهجمات على الطائرات كإحدى وسائل النضال. وهنالك منظمات منشقة اخرى عديدة مثل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي يرأسها نايف حواتمة، ومنظمة فلسطين العربية التي يرأسها احمد زعرور الذي انشق عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة المتطرفة التي يقودها أحمد جبريل، واخيرا «منظمة ايلول الأسود» المتفرعة من «فتح».

ان تعدد المنظمات الفدائية ربما يكون غير مفيد او معين للقضية الفلسطينية في الميدان الدبلوماسي والسياسي، ولكنها حازت بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية، على قيمة بغيضة لها، فجعلت عمل هذه المخابرات من ثمة اشق جداً. والى جانب ذلك كانت هنالك دائماً مشكلة اي من هذه المنظمات قد تم اختراقها وربما باتت دول أجنبية تهيمن عليها. فسرعان ما تزايدت الأدلة على

دعم سوفييتي متزايد للفدائيين ، وذكرت تقارير عملاء الموساد ان المخابرات السوفييتية والاوروبية الشرقية تقدم العون للفلسطينيين مثل المعونة التي قدمها التشيكيون للفدائيين الذين استولوا ، بالقوة ، على قطار يحمل يهوداً روساً من تشيكوسلوفاكيا الى النمسا في ايلول ١٩٧٣ م . وسرعان ما بات واضحا ان قدراً معيناً من المعونة التقنية والتوجيه قدمه عملاء المخابـرات السوفييتيـة الى بعض الحركات الفدائية الأكثر تطرفاً ، بل كانت ثمة شكوك في ان هذا التوجيه كان ، في بعض الحوادث ، لضمان ان الفدائيين سوف يخدمون الأهداف والغايات السوفييتية بمقدار محاربتهم الاسرائيليين .

ويمكن الآن رفض التقارير القديمة، عن مشاركة صينية في حركات الفدائيين الفلسطينيين ، رفضا كلياً تقريباً ، وربما تأتت اساسا من كون الصين الدولة الرئيسية الأولى التي اعترفت بمنظمة فتح ، اعترافاً دبلوماسياً ، ودربت الفدائيين الفلسطينيين في اكاديمية نانكينغ Nanking العسكرية .

على ان تقارير الصحف والاذاعات ، عن تغلغل صيني في الحركة الفدائية الفلسطينية ، مبالغ فيها جدا ، وهي في حالات

عديدة غير صحيحة رغم ان الصين ، فِعْلَ الاتحاد السوفييتي ، اقامت علاقات وثيقة مع « فتح » .

وفي آذار ١٩٧٠ م وصف مراسل صحيفة الغارديان اللندنية ، في بيروت ، كيف ان « فدائيي فتح يمكن أن يشاهدوا في التلال المطلة على نهر الاردن وهم يحملون الكتاب الأحمر وان صور الرئيس ماو المبتسم كانت معلقة على جدران معظم قيادات فتح العسكرية » . وفي سنة ١٩٧٣ م . ادعت احدى صحف تل ابيب « ان المتطوعين الصينيين كانوا في معسكرات الجيش الفلسطيني في شمالي لبنان خلال غارة اسرائيلية على تلك المنطقة , لقد قدموا لهم الأسلحة الخفية والأدوية وبعض المدربين »[٤] .

ولكن الحقيقة الكامنة وراء هذا الذعر من التدخل الصيني ضد اسرائيل على جبهة حرب العصابات كانت مختلفة جداً ، فالصينيون تعلموا درسهم نتيجة جهودهم التجسسية الصريحة والقاسية الى حد ما في افريقيا في اوائل الستينات ، فعمليات تجسس الصينين في الكونغو ، التي وجهتها اساسا شبكتهم البلجيكية ، اخفقت تماما ، وفي بوروندي جرى سحب الاعتراف الدبلوماسي بالصينيين ، على حين ان الدكتور هيستنغز باندا

Hastings Banda ، رئيس وزراء مالاوي المستبد ، قال «ان خشيته من الملكة اليزابيت الثانية تقل عن خشيته من كوبلا خان Kubla Khan في بكين» .

وقد عانت الصين ، في أوائل الستينات ، من نكسة اثر اخرى في افريقيا لمحاولتها منافسة التغلغل السوفييتي بشكل متسرع ، ولكن الصينيين تعلموا سريعاً من أخطائهم ووضعهم الآن في افريقيا افضل من ذي قبل . على ان الصينيين لعبوا في اليمن لعبة ماهرة ، فقد رعوا «رابطة اسلامية صينية» ، واقاموا مدارس صناعية ، وساعدوا على بناء طريق طوله ١٤٤ ميلا عمل فيه العمال الصينيون جنبا الى جنب مع العمال اليمنيين ، فاستطاعوا ، من ثمة ، ان ينالوا حظوة لدى اليمنيين ، على كافة المستويات ، هي افضل مما استطاع السوفييت الحصول عليها .

وفي أوائل السبعينات توقف الدعم الصيني للفدائيين الفلسطينيين حين بدت اتهامات بكين لاسرائيل وقد خفت حدتها ، بل انتقد الصينيون منظمة «ايلول الأسود» وحركات الفدائيين الأكثر تطرفاً . فالوجه السري للمخابرات الصينية يختلف كليا غالبا عن الصوت العام الدعاوي للحكومة الصينية .

ليس ثمة من اشارة الى تغير في مشكلات اسرائيل الأمنية، مما يتعلق بالتجسس، حتى بعد حرب تشرين الأول ١٩٧٣ م. فهي لا تزال قلقة على عملائها جميعهم الذين سجنوا في الخارج، وتعتزم انقاذهم حين يكون ذلك ممكناً ولو الى حد مبادلة الجواسيس والفدائيين بهم. وفي آذار ١٩٧٤ م. وبأمر من تل ابيب، افرج عن خمسة وستين فدائياً عربياً وسلموا الى مصر مقابل عميل اسرائيلي ألقي القبض عليه قبل سنتين في اليمن. وكان هذا الجاسوس، واسمه باروخ مزراحي، قد سلم الى المصريين. اما السجناء الخمسة والستون فكانوا من سكان الأراضي العربية المحتلة يمضون محكوميات، تتراوح ما بين العشر سنوات والمؤبد، بتهم التجسس والتخريب. وقال بيان رسمي صدر في تل ابيب ان التبادل تم ضمن اطار الاتصالات القائمة بين ممثلي قوات الدفاع الاسرائيلية والجيش المصري، ولكن الحقيقة انه يُبين ما تعلقه الموساد من قيمة على احد عملائها.

وفي السنة التالية اجتاحت اسرائيل موجة اخرى من اعمال التجسس، ويعود بعضها الى فترة شبكة التجسس في الجليل. ففي ٢١ مايس ١٩٧٥ م. اتهم يهودي اسرائيلي، يدعى داني زايل

Danny Zail ببيع كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات المسروقة من الجيش الاسرائيلي الى مجموعة فدائية عربية تعمل في الخليل وبيت لحم، وقد قيل ان زايل تلقى مبلغاً كبيراً من المال وانه فر من اسرائيل الى اوروبا في الشهر السابق. وكان زايل قد وصل الى اسرائيل قادماً من العراق في الخمسينات، وكان آنذاك في السادسة والثلاثين، فتزوج ولم ينجب اطفالاً، وعمل بائعاً في مخزن احذية في تل ابيب، ثم اصبح احد مؤسسي منظمة «الفهود السود الاسرائيلية» التي تشكلت قبل خمس سنوات للتظاهر ضد الوضع المهين «لليهود الشرقيين». وخلال حملة الانتخابات العامة سنة ١٩٧٣ م. انفصل عن الفهود وشكل حركة جديدة هي «القوة الثورية السوداء». ومهما يكن من امر فإن زملاء زايل اليهود صعب عليهم ان يصدقوا انه كان مرتبطاً بأية مجموعة تحرير فلسطينية حين وجهت هذه الاتهامات رسمياً اليه وأعلنت.

وقد دلت التحريات والتحقيقات على ان هذه المجموعة التي كان زايل يعمل لها هي مجموعة بيت لحم ــ الخليل التي تعمل تحت قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ثم استطاعت الشاباك نتيجة لهذه التحقيقات ان تكشف اربع خلايا اخرى في الضفة

الغربية وفي القدس الشرقية وتقوم بعشرات الاعتقالات في أيار ١٩٧٥ م. وقد كُشِفت شبكة لفتح وبعض العملاء، ومعظمهم من الشبان الفلسطينيين الذين يعملون او يدرسون في اوروبا من الوثائق التي استولت عليها مجموعة الكوماندو الاسرائيلية خلال غارة في بيروت ليلة العاشر من نيسان ١٩٧٣ م. قتل فيها ثلاثة من قادة الفدائيين.

وكانت هذه عملية بطيئة لانها اشتملت على وضع قائمة طويلة ضمت عدداً قليلاً من حلقة التجسس، فقد اراد الاسرائيليون ان يتأكدوا انهم لا يمسكون بالجواسيس داخل اسرائيل فحسب، بل ان يعرفوا تماما من هم اعداؤهم في باريس ولندن وروما.

ومن الذين احتجزوا لدى وصولهم الى اسرائيل اديب علوان وهو طالب يقوم بدراسة عليا في جامعة لندن بعد تخرجه من الجامعة العبرية في القدس في الأدب المقارن. وقد ذهل اديب حين وجد الشرطة ينتظرونه في مطار اللد، ثم حوكم وصدر عليه الحكم بالسجن اربعة اعوام، كما قدم للمحاكمة مرة أخرى في ايار ١٩٧٥ م. لدى محاكمة مزينة كمال نيقولا، وهي ممرضة عربية

استخدمتها منذ سنة ١٩٦٩ م. السلطة الصحية لمجلس مقاطعة هيرتفورد شاير وقد اتهمت هي ايضا بالانتساب الى حركة فتح في زيارتين سابقتين لاسرائيل سنة ١٩٧٠ و١٩٧١ م. وادُّعِيَ عليها آنذاك انها «تعهدت بمحاولة تجنيد مواطنين مُعينين من مدينة الناصرة في منظمة فتح»، وانها كانت تقدم تقارير الى مندوب فتح لدى عودتها الى لندن.

وقد ألقي القبض على مزينة نيقولا، البالغة من العمر احدى وثلاثين سنة، في آذار ١٩٧٥ م. حين جاءت بخطيبها البريطاني، ريان لوماس Ryan Lomas، ليقابل اسرتها في مدينة الناصرة. وكانت الادعاءات عليها انها تلقت اموالا (ذكر مبلغ ٨٠ جنيهاً استرلينيا) ووعدت بالمزيد منها مقابل عملها لصالح «فتح»، وانها اعترفت. وادعت محاميتها فيّليسيا لانغر Felicia Langer، وهي محامية شيوعية معروفة في اسرائيل، ان رجلي المخابرات اللذين حققا في القضية قد هددا بأن اسرة مزينة سوف تتعرض للأذى اذا لم تعترف هي، وان مزينة نفسها لم يسمح لها بتناول طعام أو شراب أو النوم او ان تختلط بالسجناء الاخرين حتى تُوقّع بيان الاعتراف.

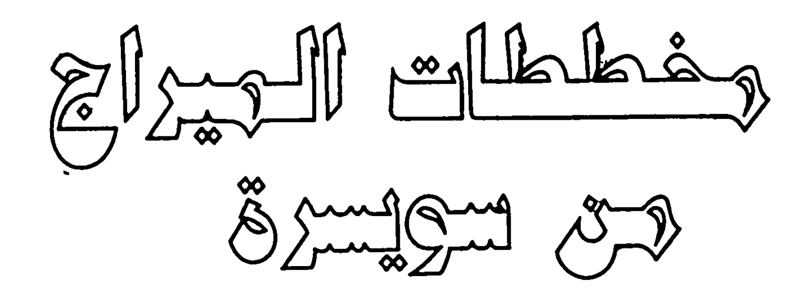
كان المصريون والسوريون تواقين جداً الى الحصول على

تفاصيل البحوث كافة التي كانت تجري في مركز بحوث ديمونا السري قرب بئر السبع، وكان الروس تواقين الى ذلك ايضا. وقد قال الدكتور افرايم كاتزير Ephraim Katzir، رئيس اسرائيل الاسبق ان «اسرائيل تملك القوة النووية والمعرفة التقنية اللازمتين لدفاعنا الذي يجب ان يُبْقيَ اعداءنا قلقين». ولا ريب ان كاتزير على اطلاع، فهو نفسه عالم. على ان هذا المجمّع الضخم يخضع لحراسة مشددة ولتفتيشات امنية مكثفة.

وبالاضافة الى قضية بيتر فولمان Peter Fulman، الألماني الغربي، كانت محاكمة الجاسوس الخطير الآخر المتعلقة بمفاعل ديمونا هي محاكمة جين سلَّام Jean Sellam الفرنسي الذي كان يعمل للمصريين وقد حكمت عليه محكمة تل ابيب بالسجن ثمانية عشر عاما.



الفصل السادس عشر



«ان روح الجاسوس هي، الى حد ما،
نموذجنا نحن جميعاً».

جاك برزون

Jacques Barzun

بعد حرب الأيام الستة اجريت تغييرات عدة، على مختلف المستويات، في المخابرات الاسرائيلية، فقد تقاعد مايير اميت من منصبه كرئيس للموساد، وانتقل الى الحياة المدنية حين اصبح مديراً عاماً لشركة صناعات كور، وخلفه عسكري آخر هو الجنرال زفي زامير Zvi Zamir، الذي ولد في بولونيا سنة ١٩٢٥ م.

كان زامير، حين عين «ميمونه»(*) جديدا، يقيم في لندن لا ملحقاً عسكرياً فيها بل رئيس بعثة لوزارة الدفاع. وحين بات عليه ان يتركها سنة ١٩٦٨ م. سئل في حفلة كوكتيل عما

(*)اي رئيس الموساد.

(المترجم)

سيكون منصبه التالي، وقيل أنه اجاب «انني ماضٍ الى أعمال النسيج». وربما لا تبعد هذه العلامة كثيراً عن الواقع، ففي بعض الدوائر في اسرائيل تُغطي كلمة «منسوجات او نسيج» كل اشكال المخابرات، وكثيراً ما يُشار الى مراكز البحوث السرية في ديمونا «بمصانع النسيج».

لقد وصل زفي زامير الى فلسطين قبل ان يتم سنته الأولى، وللصدفة درس في المدرسة نفسها التي تلقى فيها مايير اميت العلم في تل ابيب. وحين كان في السابعة عشرة انضم الى البالماخ، وفي سنة ١٩٤٦ م. اعتقلته الشرطة البريطانية في فلسطين لدوره في مساعدة المهاجرين غير الشرعيين على النزول الى الشواطيء. واخيراً انضم الى الجيش الاسرائيلي، وعين سنة ١٩٥١ م قائداً للواء جيفاتي Givati. ان الجنرال زامير، يمثل ضابط الجيش المتفاني، ويدل على شخصيته تماما وصف دراسته في كتاب «من هو؟» Who's Who الاسرائيلي بالكلمات التالية «دَرَس في كليات اركان في اسرائيل والمملكة المتحدة».

كان زامير، في نهج عمله المخابراتي، يمثل الضابط العصري اكثر منه رئيس المخابرات المدني القابع في غرفة خلفية، وهو بذلك

يختلف عن كلا هاريل واميت ، فقد اراد ان يكون قادراً على وضع تقييمه الخاص للوضع قبل ان يفوض بأية سلطة . وفي التخطيط لم يكن ليترك شيئاً للصدفة ، وهذه عادة اكتسبها منذ ان كان قائداً ميدانياً ، فقد احب القيام بغارات شخصية لكشف المنطقة قبل ان يقوم بتوزيع قواته ، وقيل انه علم الشيء الكثير ، بهذه الطريقة ، عن تكتيكات الفدائيين العرب واساليبهم .

كان أحد أكبر هموم الموساد ، بعد حرب الأيام الستة، هو محاولة الحفاظ على تفوق اسرائيل الجوي على الدول العربية ، وتحت رئاسة زامير أصبحت الموساد منظمة طويلة اليد والمدى طليقة الحركة لا تغطي المعلومات الآتية من الخارج فحسب ، بل العالم الجديد العجيب .... عالم الالكترونيات والتجسس الكومبيوتري بكل ادواته ، مع اقامة فرع خاص للتجسس على التطورات النووية في انحاء العالم كافة . وحين تولى زامير منصب « ميمونه » وجه انتباهاً خاصاً الى المعلومات النووية وعين عدداً من العلماء والخبراء التقنيين في هذا الفرع الخاص . فباتت الموساد ، بفضل جهوده الى حد كبير ، ذات عقلية علمية مثل أمان ، وبات عضواً في هذا الفرع العميد حوريف Horev احد اكبر الاختصاصيين في العالم

بالانشطار النووي والمشكلات المرتبطة به. وتبنى الاسرائيليون ايضاً اسلوباً مماثلاً لاسلوب الصينيين في الحصبول على الأسرار النووية والبقاء مطلعين على آخر التطورات في ذلك الميدان في خارج بلادهم، ولذا عملوا على ان يُعَبّئوا، بحذر، مساعدة اليهود غير الاسرائيليين في شتى انحاء العالم، والذين هم اما علماء او طلاب في الفيزياء النووية، مع العمل في الوقت نفسه على جمع كل المعلومات المتوفرة بطريقة شرعية من المجلات والمؤتمرات العلمية وتحليل النتائج. وقد ساعدت هذه الاساليب الصينيين على اللحاق بالعالم الغربي الى حد امتلاكهم حاليا قوة ردع نووية.

حين تولى زفي زامير مهام عمله لأول مرة وجه اهتمامه الرئيسي الى الحظر الذي فرضته الحكومة الفرنسية على أية مشتريات اسرائيلية من احدث طائرات الميراج، فهذا يهدد بانقاص تقدم اسرائيل في القوة الجوية ولا سيما بسبب المعونة السوفييتية المتزايدة لمصر.

وكان بن غوريون يرى دائماً ان بقاء اسرائيل يعتمد على القوة الجوية، واكد توكيداً مستمراً، على ايسر هاريل، أهمية مخابرات الطيران. وقد ورث زفي زامير قائمة طويلة من مواد

المخابرات، تتعلق بطائرات الميراج والميغ، وقُدِّمت للموساد على انها مسائل ذات أولوية قصوى. فهناك قدر معين من المعلومات عن الطائرة السوفييتية تم الحصول عليها عن طريق عمـلاء الموساد العاملين في العراق وساعدهم الطيار العراقي الهارب. وقد حدث هذا قبل وقت طويل من ابتعاد العراق عن وقفته الموالية للسوفييت ووصول صدام حسين الى السلطة وهو الزعيم، المعادي للسوفييت والمؤيد للصينيين، والأمين العام لحزب البعث في العراق. وكان عملاء الموساد في اوروبا قد اتصلوا في اوروبا بطيار عراقي قبل ان يصبح زفي زامير ميمونه للموساد، وسألوه ان كان سيجد وسيلة للطيران بطائرة ميغ ٢١ الى اسرائيل مقابل مبلغ لا يقل عن ثمانية آلاف جنيه استرليني. وقد كان ذلك خطأ في الحكم من جانب العملاء المعنيين لان هذا الطيار العراقي لم يكتف بطلبه عشرة اضعاف هذا المبلغ، بل هدد بتبليغ سلطات الأمن العراقية عرض الرشوة اذا لم يلب طلبه، لذا كان على الاسرائيليين ان يكونوا حذرين في القيام بتقربات كهذه، فبالاضافة الى مواجهة عراقيين جشعين هنالك خطر تعرضهم للخداع فتسلم اليهم طائرة عتيقة. وفي هذه الحادثة لوحق الطيار وهو في طريق عودته الى بغداد، ثم تلقت اجهزة الأمن العراقية مخابرة هاتفية مغفلة تقول انه حاول بيع

أحدث طائراتهم السوفييتية لاسرائيل مقابل ثمانين الـف جنيـه استرليني، وسرعان ما صفى العراقيون هذا الطيار.

ان شراء اسرار دولة اخرى لعبة قذرة ولا ريب، وقد لعبها الاسرائيليون بقسوة كفعل اية دولة كبرى. وقد احتفظت الموساد بملف للطيارين في البلدان العربية والذين قد يطلب اليهم الانطلاق بطائراتهم الميغ ٢١ نحو اسرائيل. وحين جُمِعَتْ هذه القائمة وضع ملف كامل عن كل فرد سجل فيه وضعه المالي وتفصيلات عن اسرته ونقاط ضعفه واية الماحة الى انه يود مغادرة البلاد العربية. ثم صنفت هذه القائمة الى حوالي ستة اسماء لرجال يمكن الاتصال بهم بنجاح. ولكن الموساد ظلت تريد المزيد من المعلومات، فهي لم تجرؤ على المخاطرة بتلقي صَدٍّ آخر من العرب الذين سيزيدون اجراءاتهم الامنية ضد سرقة الطائرات.

ويضاف الى ذلك ان اي طيار لا يريد تحمل مخاطر الطيران بمثل هذه الطائرة الى اسرائيل قبل ان يضمن سلامة اسرته واخراجها من العراق، ولم يكن من السهل الحصول على اذن خروج في مثل تلك الظروف. واخيراً استقر رأي الموساد على المرشح المرجح بعد ان اتصل به ثلاثة من عملائها. ولم تكن المفاتحات هذه المرة على

شكل اقتراح قُدِّمَ الى الطيار، بل من اجل التحقق من مشاعره، ومن آرائه في عمله ومستقبله، واكثر ما يرغب فيه لاسرته، وامور اخرى ساعدت على اغناءِ الملف الذي بدىء وضعه له. ولم تكن لدى هذا الطيار، حين جرت هذه المفاتحات، اية فكرة عن ان الاشخاص الذين يكلمهم هم عملاء اسرائيليون، ففي واحدة من الحالات ادعى عميل الموساد انه مسيحي. فاذا خُطِّطَ يوماً ما لعملية كشف روح الجاسوس، او الهارب المحتمل او الحليف الممكن، وتحليلها فلن تكون الا على هذه الصورة.

واخيراً وُجِدَ العذر التام لاخراج اذون الخروج لاسرة هذا الطيار العراقي، فقد كانت ثمة حاجة ملحة الى معالجة طبية متخصصة لاحد طفليه وهذه لا يمكن ان تتم في العراق بل في لندن. فأعطيت الأسرة تأشيرة خروج، وسمح للزوجة وللطفلين بالسفر الى بريطانيا. وهُيىء كل شيء للاقلاع بطائرة ميغ ٢١. فحُذِّرت وزارة الدفاع الاسرائيلية بموعد وصول الطائرة حتى لا يتخذ ضدها اي عمل دفاعي، واعلمت الوزارة بالتطورات وشيكة الحدوث. واخيرا حطت الطائرة في اسرائيل وتم الحصول منها على معلومات حيوية كان من المشكوك فيه، بدونها، ان يستطيع

الاسرائيليون ان يردوا بهذا الشكل التدميري بهجماتهم الجوية المضادة خلال حرب تشرين الأول ١٩٧٣ م. فمن خلال اصرار الموساد ومثابرتها عرفت القوات الاسرائيلية كيف تدمر هذا النوع من الطائرات في الجو.

لقد لعبت المخابرات الاسرائيلية، اي كلتا الموساد وأمان، دوراً هائلاً في مساعدة الاسرائيليين على الاحتفاظ بتفوقهم الجوي، وهذا الحادث، الذي ذكر هنا، ليس سوى واحد من الأساليب التي استخدمتها الموساد للحصول على معلومات تفصيلية عن تطور الطائرات في الدول الأخرى. وقد جاء بعض هذه المعلومات من الاتصالات داخل المخابرات السوفييتية نفسها، والأكثر جداً منها جاء عن طريق الابقاء على اتصال مباشر، حول التطورات التقنية، مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية واجهزة مخابرات غربية اخرى.

وكانت هنالك حاجة ماسة ايضا الى معرفة تطورات الطائرات الاوروبية، لا الفرنسية فحسب بل طائرات الدول الاخرى، في الميدان العسكري. وقد اعيرت سويسرة انتباها شديداً وعن قرب، اذ كان معروفاً ان السويسريين كانوا، غالبا، متقدمين

على طرفي القتال كليهما في الحرب العالمية الثانية، وان هذا التفوق ظل قائماً في بعض النواحي. وقد أراد الاسرائيليون ان يطوروا طائرة تَجْمَعُ آخر الاجهزة التقنية لطائرة الميراج، وَحُثَّ عميل الموساد في برن على وجوب اعارة برنامج طائرة جديدة، لسلاح الجو السويسري، اهتماماً خاصاً، ويتعلق ذلك بانتاج شركة الاخوة سولزر Sulzer في ونترثور Winterthur طائرة ميراج ٣ المزودة بمحرك خاص طُوِّرَ خصيصا من اجل المنطقة الجبلية السويسرية، حيث كان ضرورياً ان تتمتع بأداء مُحسَّن في معدل الصعود وتقصير المسافة اللازمة للاقلاع.

ان هذا لم يكن يُمَثِّلُ مشكلة لدائرة الانتاج لدى الاسرائيليين شريطة ان يحصلوا على كامل تفاصيل مخطط ادوات الآلة اللازمة لصناعة اجزاء الطائرة، وقد كانت هذه المشكلة التكنولوجية هي التي طرحت على زفي زامير، ومرة اخرى اطلق عنان شبكة الموساد في سويسرة وطلب منها ان تبذل جهدها، وكان البحث عن شخص يأتي بتفاصيل مخططات طائرة الميراج ٣ السويسرية وتصاميمها اصعب جداً من ايجاد طيار عراقي يجلب

طائرة ميغ ٢١، ولكن الاسلوب الذي طبق بفعالية في العراق للعثور على متعاون، يخون بلده، استخدم في سويسرة.

لقد لعبت، هنا ايضا، الناحية النفسيـة دوراً في إيجاد متعاون ممكن، ففي الحرب العالمية الثانية كان بعض السويسريين، ولا سيما الناطقون باللغة الألمانية، اكثر تعاطفا مع النازيين من جمهرة كبيرة من الألمان، وبعدئذ احس العديد منهم بعقدة الذنب لموقفهم خلال سنوات ١٩٣٩ــ ١٩٤٥ م. فانقلب بعضهم فجـأة من الموقـف الـلاــ سامـي الى موقـف التعاطـف مع الاسرائيليين. وهكذا لم يمض وقت طويل قبل ان تكشف الموساد سويسريـا من هؤلاء، يتكلـم الألمانيـــة، كان متعاطفـــا مع الاسرائيليين:

ان هذا السويسري هو المهندس الفرد فراونكنخت Alfred Frauenknecht، ويستخدمه «الأخوة سولزر» في ونترثور. وفي ٢٧ ايلول ١٩٦٩ م. اعلن في صحافة جنيف ان المخابرات العسكرية الاسرائيلية قد حصلت على مخططات تتعلق بانتاج المحرك النفاث المستخدم في طائرة القوة الجوية السويسرية، الميراج ــ٣ــ، وانه القي القبض في بيرن على مهندس سويسري يعمل لدى شركة

الأخوة سولزر، ووجهت اليه تهمة التجسس الاقتصادي والعسكري. والمهندس المقصود هو ألفرد فراونكنخت، وقد قيل انه اعترف ببيع المخططات بحوالي ٨٦ الف جنيه استرليني.

لقد حدثت الاتصالات بين الموساد وهذا المهندس المعتقل في ربيع ١٩٦٨ م، ومنذئذ تسلم الاسرائيليون منه نحو عشرين شحنة من المخططات عن طريق اتصالات في المانيا الغربية. وكان سولزر قد سلم هذه المخطَطات اساسا الى متعهد فرعي على ان تتلف حين اعادتها. وذُكِرَ في محاكمة فرانكنخت ان المجمّع الصناعي العسكري للصناعات الجوية الاسرائيلية هو واحد من اكبر ارباب العمل في اسرائيل، وانه مجهز تجهيزاً تاماً للافادة من هذه المعلومات، فالمحرك المستخدم في طائرات الميراج ٣ س، التي زودت بها القوة الجوية السويسرية، يتمتع بقوة دفع تفوق قوة محرك ميراج ٣ سي التي يمتلك سلاح الجو الاسرائيلي خمسا وستين طائرة منها. وقد استطاع فرانكنخت ان يحصل على كمية مذهلة من الوثائق والمخططات يصل وزنها الى طنين اثنين، ونقلت من مصنع سولزر في عربة ثم سلمت الى الاسرائيليين. وفي ٢٣ نيسان ١٩٦٩م. اصدرت محكمة اتحادية سويسرية الحكم بسجنه اربعة

أعوام ونصف العام. وقد وصف القاضي هذه القضية بأنها «أسوأ قضية تجسس في سويسرة منذ الحرب العالمية الثانية».

لم تكن العلاقات بين سويسرة واسرائيل حسنة قط، وجاءت هذه القضية لتكون نقطة انقصاف، وطلبت السلطات السويسرية من الملحق العسكري الاسرائيلي مغادرة سويسرة.

واستحوذت، خلال هذه الفترة، على اهتمام كلتا الموساد وأمان مشكلة التحقق مما كان يخططه اشد اعداء اسرائيل تطرفا وقسوة وهو العقيد معمر القذافي.

تحتل ليبيا مركزاً رئيسياً، جغرافياً وسياسياً، في العالم العربي، فهي تقع بين مصر وتونس، وتشكل تهديداً خطيراً لاسرائيل لانها تُكِنُّ لها بغضاء رهيبة، فالقذافي لم يتعب قط من إعلان ان بلاده هي الحليف الموثوق في القتال ضد الصهيونية، وان السادات خان القضية العربية، ويخدم، ليس الا، مصالح الاستعمار الغربي. وتمتلك ليبيا، في الوقت نفسه بعض خير الموانىء وتسهيلاتها ومرافقها في شمالي أفريقية والتي يشتهي السوفييت استخدامها.

وهكذا، فإن اسرائيل لم تهتم فقط بالبقاء منتبهة الى المؤامرات الموحى بها ليبياً ضدها بل الى المعلومات عن دسائس القذافي ومؤامراته على مصر وعلى دول عربية أخرى. فاستغلال التمزق العربي كان جزءاً اساسياً من العمل اليومي للمخابرات الاسرائيلية. ومن المفارقات ان السادات يدين جزئياً على الأقل في استمرار وجوده الى المعلومات التي قدمها الاسرائيليون له. صحيح ان مثل هذه المعلومات لم تقدم له مباشرة ولكن عن طريق وكالة المخابرات المركزية الاميركية، الا انها مع ذلك تضمنت محاولات لقتله. وقد رد السادات، في بعض المناسبات، بأنه كبح، فعلاً، بعض مخططات القذافي الشرسة ضد اسرائيل، واحدها التدخل لمنع نسف باخرة كبرى، بالطوربيد، كانت تحمل يهوداً ذاهبين الى اسرائيل.

•

ان ليبيا لم تقم اتصالات مع اشد حركات الفدائيين العرب تطرفا في الشرق الأوسط فحسب، بل مع منظمات نضالية في اوروبا الغربية ايضا وعملت على تطوير العلاقات مع الدول الاشتراكية. وبتوجيه من زفي زامير طُلِبَ الى المخابرات الاسرائيلية في دول اوروبا الشرقية الاشتراكية ان تكتشف ماذا كان الليبيون

يخططون له. وكانت هذه عملية صعبة لان جهاز الموساد لم يستطع ان يحدد ماذا على عملائه ان يبحثوا عنه. ولكن ما يزيد في وزن عملاء الموساد في اوروبا الغربية والشرقية، انهم استطاعوا اماطة اللثام عن سلسلة واسعة من النشاطات غير المتوقعة.

فعلى سبيل المثال علم الاسرائيليون من تحرياتهم في صوفيا ان الدكتور صالح سرية وعددا من الضباط المصريين كانوا على صلة بمخابرات القذافي، ومن خلال هذه المعلومات التي نقلت الى المصريين بطرق غير مباشرة ألقي القبض على صالح سرية وعلى واحد وثمانين ضابطاً آخرين، ووجهت تهمة التخطيط للاطاحة بالسادات وقتله، ومرة أخرى كان اصرار الموساد على مراقبة تحركات الرائد جلود، مبعوث القذافي الخاص، في الاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الشرقية هو الذي كشف ان الليبيين ينشدون مشتريات كبيرة من الأسلحة، وأن البلغاريين قد وافقوا على مساعدتهم في بناء تحصينات على امتداد الحدود المصرية ـ الليبية. وكان الليبيون على خلاف مع المصريين حول مسائل الحدود.

على ان هذا النشاط المخابراتي كان الى حد كبير مسألة جمع

معلومات، ولكن في الشطر الأخير من سنة ١٩٦٩ م اكتشف احد عملاء الموساد الرئيسيين في اوروبا مؤامرة ضد القذافي ولصالح الملك الليبي المخلوع محمد ادريس السنوسي.

اصبحت ليبيا مملكة اتحادية ذات سيادة ومستقلة، يحكمها امير برقة الملك ادريس، في ٢٤ كانون الأول ١٩٥١ م حين نقل المقيمان البريطانيان في طرابلس وبرقة والمقيم الفرنسي في فزان سلطاتهما الباقية الى حكومة ليبيا الاتحادية وفقا لقرارات الأمم المتحدة في السنة السابقة. وقد اطيح بالملك ادريس واقيمت الجمهورية العربية الليبية سنة ١٩٦٩ م.

ان ما اكتشفه عميل الموساد في بلغراد كان مجرد الماحة الى مؤامرة بشن غارة فدائية على ليبيا تهدف الى تدمير النظام الجديد واعادة الملك ادريس الى السلطة. وقد بدت هذه وللوهلة الأولى، انها مؤامرة مضادة للثورة يقوم بها العرب انفسهم، ولكن سرعان ما كشف عملاء الموساد في فينا وبراغ ان المؤامرة الفعلية يديرها اشخاص فرنسيون وبريطانيون رغم ان مصادر الأموال تؤيد السنوسي. وفي رأي الاسرائيليين ان خليطا من هذا النوع مقضي عليه بالفشل ما لم يكن تمويله كبيراً جداً وعلى شريطة عدم

الكشف عن تدخل العملاء الاوروبيين في العملية. وكان أحد العملاء الاسرائيليين، العاملين بصفة فردية، على استعداد لدعم هذا الانقلاب، بل انه رتب تنظيم بعض شحنات الأسلحة دون الكشف عن صفته وانه عميل اسرائيلي. وتم تجنيد مرتزقة فرنسيين وبريطانيين للعملية، وابتيعت اسلحة من مجمَّع اسلحة اومنيبول Omnipol في براغ والذي تملكه الدولة. وقد اخفي السبب الحقيقي للشراء عن طريق نقل الأسلحة بالسفن من براغ الى يوغسلافيا، ومنها يمكن نقلها عبر مدينة دوالا الى تشاد ذات الحدود المشتركة مع ليبيا. ولكِنَّ خُطَطَ شحن الأسلحة عن هذا الطريق غير المباشر كانت محفوفة بمخاطر التأخير، وذكر عميل الموساد، في تقرير له ان نجاحه غير محتمل.

وكان هذا العميل قد امسك برسالة، مؤرخة في ١٠ ايار ١٩٧١ م، مرسلة من وسيط يوغسلافي الى مؤسسة وكلاء نقليات في فينا تؤكد تسلم «اربعة وخمسين صندوقا من المعدات العسكرية من امنيبول... وقد اودعت هذه في مخازن الترانزيت في ميناء بلوسي Ploce». وكانت الأسلحة، التي تضمنتها القائمة، هي عشرون رشاشاً، وستون مسدسا رشاشا، وخمسون قنبلة

يدوية واربع قاذفات قنابل مضادة للدبابات، وسدس اشارة، ومظلة، ونحو ٣٦ الف طلقة وعشرين قذيفة مضادة للدبابات، وفتيل تفجير، وفتيل أمان، وخمسين كيلوغراما من المواد المتفجرة مع صواعق وآلة تفجير، وصواعق كهربائية، ومائة قنبلة محرقة وهذه جميعها، وكما وصفها عميل الموساد «لا تكاد تكفي للاطاحة بالقذافي».

على ان هذه العملية لم تنفذ، فالانقلاب لم يحدث قط، واخر ما سمع عن الأسلحة كان محاولة بيعها لقوة مرتزقين ثانية. لقد وضع جميع هذه المعلومات الاسرائيليين، رغم ان الأمر لم يكن يعنيهم بالدرجة الأولى، في موضع ممتاز ليساوموا من خلاله وكالة المخابرات المركزية الاميركية والمخابرات البريطانية والفرنسية. فمن خلال الرقابة الدقيقة، التي ابقتها، على مكائد القذافي في البلدان الأجنبية عرفت الموساد ان الزعيم الليبي كان يتعاون فعلا مع الجيش الجمهوري الارلندي ويجمع ما بين المقاتلين الارلنديين والفدائيين الفلسطينيين، ونقل عملاءالموساد في باريس وهامبورغ انباء الاجتماعات ما بين اعضاء الجيش الجمهوري الارلندي والعملاء الليبيين. ونقلت اشارة من مالطا نبأ نقل شحنة من

الأسلحة في سفينة بميناء طرابلس لتسلم الى الجيش الجمهوري الارلندي، فتم اطلاع كلتا وكالة المخابرات المركزية الاميركية والمخابرات البريطانية، وادى ذلك الى تعاون البحرية الارلندية وحرس الشواطيء في القبض على السفينة كلوديا Claudia، المسجلة في قبرص، وعلى حمولتها.

ويتساءل المرء هل فكر السادات مليا، حين كان «يشجب» اسرائيل، انه في أكثر من مناسبة، يدين بحياته للمخابرات الاسرائيلية، وتسريباتها خطط اغتياله عبر وكالة المخابرات المركزية الى مكتب معلوماته.

ان اسرائيل تبيع المعلومات المخابراتية وتتبادلها مع دول اخرى حين تستدعي مصلحتها ذلك، ويتم كثير منها على اساس التعاون الودي، وفي معظم الأحيان على شكل تبادل المعلومات او المقايضة بها احيانا، ولكن ثمة فترات بلغ العناد بالموساد وامان درجة طَلَب ثمن لهذه المعلومات اذ ان المعلومات الجيدة كثيراً ما تكلف اموالاً طائلة للحصول عليها، بيد ان هذا كله يتم بطريقة عملية لا على اسس تجارية، والمعلومات التي تباع عادة لا تذهب بالضرورة الى دافع الثمن الأعلى، والحقيقة انه ربما لا تكون ثمة اية مزايدة، وربما

تكون هنالك في بعض الاحيان ، ففي عالم التجسس المعقد اليوم قد يكون أحد فروع مخابرات بلد ما اكثر استعداداً من فرع آخر لدفع المبلغ الأكبر .

ان هنالك مادتين سعت كلتا الموساد وأمان وراءهما دون كلل ، وهما اليورانيوم والبلوتونيوم ، فقد أصبحت هاتان متطلبين رئيسيين بعد حرب الأيام الستة ، لتزويد المفاعل النووي السري جداً في ديمونا من اجل المضي قدما في تجاربه ، ولأن الاسرائيليين كانوا الأول في الدول الصغيرة الذين قدروا مخاطر أنْ تُمْسِكَ بهم ، رهائن ، عصابة ارهابية تمتلك قنبلة نووية صغيرة ولا يوجد سوى رد واحد على مثل هذه الأساليب ، وهو امتلاك سلاح مماثل يكون قادراً على مواجهة الارهاب بالارهاب . ففي تشرين الثاني ١٩٦٨ م . غادرت ميناء انتويرب Antwerp سفينة شحن المانية غربية ، تحمل على متنها مائتي طن من اليورانيوم الطبيعي ، قاصدة ميناء جنوا ، وتوقفت اثناء سيرها في ميناء روتردام . وكان هذا اليورانيوم ، الخاضع لرقابة اتفاقية دولية صارمة ، مشحونا للبيع في ايطاليا ، ولكن هذه السفينة لم تصل قط الى جنوا ، فقد بدت وكأنها عادت ادراجها الى المانيا . وبعد اسابيع عديدة اخبر

الايطاليون وكالة الطاقة الذرية الأوروبية بأمر اختفاء هذه السفينة وحمولتها، فقامت بالتحقيق في الحادث اربعة من اجهزة المخابرات تابعة لاربع دول اوروبية اضافة الى وكالة المخابرات المركزية. وفي تلك الفترة ظهرت السفينة ثانية في البحر، وحين امكن تحديد مكانها كانت ترفع علما مختلفا وتحمل اسما مختلفا ويعمل عليها بحارة آخرون. وبدا واضحا ان السفينة إماً ان تكون قد اختطفت واخذت حمولتها وإمّا ان صفقة سرية قد تمت. وقد استحال اثبات اي شيء، ولكن محققي وكالة المخابرات المركزية الاميركية مقتنعون ان ما جرى كان ضربة اخرى قامت بها المخابرات الاسرائيلية من اجل الحصول على اليورانيوم. واحد تفسيرات ما حدث هو ان الاسرائيليين اما استأجروا او اشتروا، منذ سنة ١٩٦٨ م. سفينة الشحن الألمانية-الغربية هذه وقدموا قبطانها وبحارتها من أجل السفر الى ايطاليا ولكن سفينة شحن اسرائيلية قابلتها في البحر الأبيض المتوسط ونقلت الشحنة اليها وسارت بها الى حيفا. ثم عادت السفينة الألمانية الى المانيا حيث سرعان ما تفرق بحارتها الاسرائيليون، ويفترض ان بحارة اخرين انطلقوا ثانية بالسفينة الى عرض البحر.

لقد كشف هذه الرواية علنا، لأول مرة، السيد بول

ليفينتال Paul Leventhal الخبير السابق في قضايا الانتشار النووي لدى مجلس الشيوخ الامريكي، في كلمة القاها في مؤتمر مناهضة التسلح النووي في سالزبيرغ Salzburg خلال نيسان ١٩٧٧ م. وادّعى، رغم انه لم يقدم دليلاً ايجابياً ان «الحادث يظهر خرقا في نظام الحمايات لا بد من اغلاقه على الفور». وقامت لجنة الطاقة الذرية الاوروبية بتحقيقات وتحريات حول المؤسسة الكيماوية الالمانية التي ابتاعت اليورانيوم اولاً، ولكن هذه المؤسسة وكما قال احد المسؤولين فيها، «كانت قد اغلقت ابوابها آنذاك، ولم يكن ثمة شخص فيها يمكن الادعاء عليه».

وذكر رئيس المدعين العام في النرويج، السيد هاكون وايكر Haakon Wiker، في حديث القاه في حزيران ١٩٧٧ م. ان عميلا اسرائيليا اعترف امام الشرطة النرويجية انه «ساعد على تحويل مائتي طن من اليورانيوم الى اسرائيل قبل تسع سنوات». وذكر المحققون ان سجل السفينة قد صب عليه النفط في محاولة لطمس اية اشارة الى الحادث. وادعى ايضا ان تقارير قوى الأمن حول القضية قد حُجِبَتْ عن وكالة الطاقة الذرية الاوروبية.

اما الوسيط الغامض في هذه الصفقة فكان شخصا

« مشرقيا » دعا نفسه ياريزال Yarizal ابتاع هذه السفينة بمبلغ ١٥٧ ألف جنيه استرليني دفعهُ نقدا.

لم يستطيع رسميو وكالة الطاقة الذرية الاوروبية تفتيش المفاعل الاسرائيلي ليتأكدوا من ان اسرائيل استخدمت هذا اليورانيوم لصنع « ثلاثين سلاحاً نووياً » ، كما زعمت وكالة المخابرات المركزية ، لأن اسرائيل لم توقع المعاهدة التي تنص على التفتيش. وفي غضون ذلك لم يصدر عن الاسرائيليين اي تعليق حول هذه المسألة.

الفصل السابع عشر

قضية الزوارق الخمسة

«اليهود لا يحتفلون عشية عيد الميلاد،
فقد كنا في ميناء شربورغ مكلفين بعمل».

فكتور زيبشتاين

Victor Zipstein

كان هذا تعليق السائق اليهودي الفرنسي... سائق الاميرال موردخاي ليمون Mordecai Lemon حين سأله أحد الصحفيين هل فاته عشاء عيد الميلاد (الذي يكون عادة في فرنسا عشية عيد الميلاد) يوم ٢٤ كانون الأول ١٩٦٩ م، وهي الليلة التي خدع فيها الاسرائيليون الفرنسيين، وابحروا بزوارقهم الى ميناء حيفا.

ان «قضية الزوارق الاسرائيلية»، كما باتت تعرف، قد خططتها الى حد كبير، المخابرات الاسرائيلية، وكان ردا سريعا وسريا على ضائقة حظر الأسلحة والاحباطات الاخرى التي فرضتها فرنسا على اسرائيل اثناء تغيُّرِ سياسة الجنرال ديغول. وكانت العلاقات الرسمية بين فرنسا واسرائيل قد تدهورت باطراد منذ حرب الأيام

الستة رغم استمرار قدر معين من التعاون بين الموساد والمخابرات الفرنسية، ثم فرض الجنرال ديغول الحظر سنة ١٩٦٨ م.

وقد خلق ذلك أشد الصعوبات امام الاميرال مورد خاي ليمون الذي عين سنة ١٩٦٢ م. مبعوثاً خاصاً للحكومة الاسرائيلية في اوروبا، ثم ارسل الى باريس لتنظيم مشتريات اسرائيل العسكرية من فرنسا. ولد ليمون في بولونيا يوم ٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ م، وامضى معظم حياته في فلسطين ثم في اسرائيل. وفي سنة ١٩٤٠ م، وحين كانت فلسطين لا تزال تحت الانتداب البريطاني انضم الى البااليام (البحرية) برتبة نقيب بحري لتنظيم الهجرة اليهودية غير الشرعية، وقاد كثيرا من المراكب الصغيرة التي تسللت عبر الحصار البريطاني البحري بعد الحرب العالمية الثانية حين كان اليهود ينقلون من معسكرات الاعتقال النازية، بشكل غير شرعي، الى فلسطين. وقد استطاع ليمون ان ينجز هذا العمل بكفاءة، فرقي الى رتبة اميرال عقب قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ م، واصبح قائد عام البحرية، وهو في السادسة والعشرين، وظل في منصبه هذا حتى تقاعد من الخدمة سنة ١٩٥٤ م.

عاش بعد ذلك، لفترة، في لندن مع زوجته وطفليه،

مكرسا نفسه لخدمة اسرائيل بمختلف الاشكال. ثم عاد الى اسرائيل، والتحق بوزارة الدفاع بمنصب نائب المدير العام مسؤولا عن دائرة التخطيط الاقتصادي العاجل. وقد ابتهج اصدقاؤه حين اعلان تعيينه مجددا، وقالوا «سيكلف موردخاي بعمل ما ثانية»، فهو بوصفه بحاراً يتمتع بشيء من «لمسة نلسون»، وهو رجل قليل الكلام ولكنه جاد جدا. ولكنه خارج العمل شخص محبوب كثير الاصدقاء ويلعب التنس ويحب الموسيقى. وقد استطاع ليمون، رغم توتر العلاقات مع الفرنسيين، ان يقيم صداقات كثيرة بينهم، وكان شخصية مرحبا بها في حفلات الاستقبال والكوكتيل.

لقد كان هذا الضابط هو الذي رتب ابحار الزوارق الخمسة من ميناء شربورغ الفرنسي الى حيفا، متحدياً حظر الأسلحة الفرنسي، فاستغبى بذلك الفرنسيين، وهَرَّب تحت انظارهم من احدى الموانيء المحروسة جيدا في العالم. وقد ساعدته على ذلك خبرته كبحار في الباليام.

وفي الأول من كانون الثاني سنة ١٩٧٠ م. خرجت الحكومة الاسرائيلية عن صمتها العلني، حول القضية، عقب طلب الحكومة الفرنسية استدعاء الاميرال ليمون. والقى البيان،

الذي اصدرته وزارة الخارجية الاسرائيلية، بمسؤولية القضية على حظر الأسلحة الفرنسي الذي لا مبرر له، وجاء فيه ان كل سبب المشكلة هو «ابقاء فرنسا على حظر لا مبرر له وليس على تنفيذ العملية».

وبدا، في لحظة ما، ان هذا الحادث قد يؤدي الى قطع تام للعلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل وفرنسا، ولكن الفرنسيين اكتفوا اخيرا برحيل الاميرال ليمون. وفي التاسع من كانون الثاني طار الاميرال، البالغ من العمر خمسة واربعين عاما، عائدا الى تل ابيب، ولدى وصوله قال للصحفيين: «للأسف، نحن الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي لا تحصل على اسلحة».

كان حادث الزوارق الخمسة ذروة سلسلة طويلة من اخفاقات بعثة المشتريات الاسرائيلية، فاسرائيل طلبت (وقُبِلَ طلبها) خمسين طائرة ميراج من فرنسا، وقد رفض الفرنسيون تسليمها لهم بعد فرض الحظر. والآن، استقال ديغول من رئاسة الجمهورية، ولكن كان هنالك عدم حسم لهذا الموضوع في الدوائر الحكومية. وقد جرى حث الاسرائيليين، بشكل غير رسمي، على التحلي بالصبر، وقيل لهم ان شيئا ما سوف يتخذ في وقت غير

بعيد لتسهيل الأمور عليهم، بيد ان التصريحات العلنية لم تتضمن اية اشارة الى ذلك.

وكان صانعو الأسلحة الفرنسيون ساخطين ايضا على الحظر ومنهم السيد مارسيل داسو Marcel Dassault، رئيس مؤسسة صناعة الطائرات الفرنسية التي تحمل اسمه، فهو مُنِعَ ايضا من بيع طائراته الى اسرائيل. وكان الطيارون الفرنسيون يختبرون هذه الطائرات في قاعدتين قرب مرسيليا على امل ان هذا الحظر سوف يرفع في وقت غير بعيد. وبعد هرب الزوارق الخمسة الحربية من شوبورغ صدر امر بمنع الأشخاص الاسرائيليين كافة من دخول مصانع داسو، ووضعت حراسة على طائرات الميراج.

بنيت هذه الزوارق الحربية في قاعدة بحرية غربي ميناء شربورغ الداخلية، وقد تمت كافة تفاصيل الشراء قبل ان يفرض الفرنسيون حظرهم على تصدير الأسلحة الى اسرائيل بحجة انه فرض انتقاما من استخدام الاسرائيليين طائرات الهليكوبتر، المصنوعة في فرنسا، في اغارة على مطار بيروت يوم ٢٨ كانون الأول سنة ١٩٦٨ م. وهكذا، ظلت هذه الزوارق بعد فرض الحظر، في ميناء شربورغ وتوقف باقي العمل فيها. وتصرف الاسرائيليون بمهارة

كبرى، وحين أُمِرَ بنقل هذه الزوارق من القاعدة البحرية الى الطرف الآخر من الميناء، والقريب من السفن العابرة حاملة السيارات، قاموا بجمع كافة امتعة العمال، التي خلفوها وراءهم من ملابس وادوات وزجاجات وعلب لفائف التبغ والعديد من الأغراض الزائدة الشخصية، وكوموها، تكويما مرتبا، على رصيف الميناء.

لقد عقد الاسرائيليون العزم على الا يفقدوا هذه الزوارق الحربية، وسئلت الموساد ماذا تستطيع ان تقدم من مساعدة؟ فقامت المخابرات الاسرائيلية بمسح سريع للوضع كله من غير ان تهمل اية ناحية من المسألة، فعلى الجانبين السياسي والدبلوماسي استطلعت آراء الاميرال ليمون والسفير الاسرائيلي في باريس والعديد من الساسة والموظفين المدنيين في فرنسا، وكانت نتيجة هذه التحريات هي عدم وجود اية فرصة لاقناع الحكومة الفرنسية بغض الطرف عن اية محاولة يقوم بها الاسرائيليون لتهريب هذه الزوارق من ميناء شربورغ. والحقيقة ان ما ازعج الاسرائيليين هو ما بدا كأن السلطات الفرنسية تراقب، مراقبة صارمة، هذه الزوارق، وهي على استعداد لمواجهة اية محاولة لتحدي المنع والابحار بها.

ومهما يكن من امر فقد تلقت الموساد وعودا بالنصح والتوجيه، ان لم تكن بالمساعدة الحقيقية، من داخل فرنسا نفسها. وللمفارقة كان احد الفرنسيين المساعدين وثيق الصلة بالجنرال ديغول، واعتقد هذا ان ديغول، رغم حظر تصدير الأسلحة، كان متلهفا دائما الى وجوب تسليح اسرائيل بشكل مناسب، ووفقا لهذا المصدر كان ديغول نفسه، المتقاعد آنذاك، هو الذي استحضر، في عبارة غامضة، صيغة استرداد الزوارق لاسرائيل، وقد زُعِمَ انه قال لمستشار الاسرائيليين الاكثر اعتمادا عليه في فرنسا: «دع الاسرائيليين يوافقون على بيع هذه الزوارق لشركة تجارية محايدة، ثم تسترجعها اسرائيل من تلك الشركة».

وقد خيب تقرير احد عملاء الموساد عن نفوذ اليساريين المتعاطفين مع الفلسطينيين، في حكومة ولسون القائمة انذاك، من امل تحقيقات الموساد في بريطانيا، فقد كان جواب هذا العميل كما يلي: «قد يعلن ولسون نفسه تعاطفه مع اسرائيل، ولكنه سيكون دائما موضع هجوم العناصر المؤيدة للفلسطينيين في صفوفه. ويريد ولسون دائما البقاء لا الاهتمام بأفضلياته الشخصية».

وقد حطم هذا التقرير، تحطيما كاملا، احدى خطط

الموساد في قيام الزوارق الحربية هذه بانطلاقة سريعة نحو ميناء بريطانية.

على انه لا يجب ان ينسب الفضل في الخطة المتبناة سواء الى الجنرال ديغول او الى الموساد، اذ كان مستحيلا تنفيذها بدون التعاون بين الموساد والبحرية الاسرائيلية، ففي ذلك الوقت عرض الاسرائيليون خطة بيع الزوارق لشركة نفط ستاربوت Starboat البنامية، وهي مؤسسة «نرويجية» للتنقيب عن النفط، وذلك عن طريق مؤسسة للمحامين في لندن، وعنوانها في النرويج هو: صندوق البريد ٢٥٠٧٨، سولي ـ اوسلو ٢ Soli- Oslo 2. وهذا احد الأمثلة العديدة على التعاون بين اسرائيل والنرويج على المستوى المخابراتي. وحين وصلت هذه الزوارق اخيرا إلى تل ابيب اظهرت صورها ان على منصة الربان لوحة تحمل اسم ستاربوت ورقماً.

كانت شكوى الحكومة الفرنسية الرئيسية من الأميرال ليمون، بعد الحادثة، انه قبل ان يعاد الى الاسرائيليين المبلغ الذي دفعوه، واعلن عن موافقته على بيع هذه الزوارق الى شركة نفط ستاربوت البنامية، ووقع على كتاب يتضمن تخلي اسرائيل عن كلا استخدامها وملكيتها. ولكن ما لم يدركه الفرنسيون هو إن الاميرال

ليمون نفسه، الملقب في باريس «موكا» Moka ليمون هو الذي أدار العملية النهائية. والحقيقة انه بدأ من حيث انتهت الموساد. ولكن كان هناك اميرال آخر متورط، ففي تشرين الثاني ١٩٦٩ م ذهب الأميرال بيني تيليم Benny Telem نائب رئيس أركان البحرية الاسرائيلية، الى فرنسا كي يدخل زوجته في مستشفى بمدينة ليون لاجراء عملية «الماء الأزرق» في عينها. وقد رتب، خلال زيارته، ان يجد وقتا لزيارة ميناء شربورغ البعيدة عن ليون. وما هو ذو دلالة انه امضى يومين في تلك الميناء.

لقد قامت كلتا الموساد والبحرية الاسرائيلية بمسح دقيق للميناء، التي هي احدى اصعب الموانيء في اوروبا من اجل الهرب اذ تخضع لأدق الاجراءات الامنية لأنها قاعدة غواصتي فرنسا النوويتين، والثانية منهما، Terrible، انزلت الى الماء قبل آخر زورق اسرائيلي بأربعة أيام. اما داخل الميناء فيحرسه الشرطة والجيش وكلاب مدربة. ولذا لا يستطيع التخطيط لمغامرة كهذه والنجاح فيها سوى بحار داهية له خبرة ليمون.

ان فيكتور زيبشتاين Victor Zipstein، المواطن الفرنسي وسائق ليمون، هو الذي اكد تحركات ليمون عشية عيد الميلاد سنة ١٩٦٩ م، فهو نَقَلهُ اولا الى شربورغ في سيارة تحمل لوحة

دبلوماسية رقمها ٥٩ هـ د ٥٩٥٩ 59 CD 5959 . وقد وصل ليمون الى شربورغ عند الظهر تماما ، فتناول طعام الغداء مع السيد فيليكس آميو Felix Amiot رئيس المؤسسة التي بنت الزوارق . وكانت التقارير عن حالة الجو في ذلك اليوم ، سيئة ، اذ ستهب رياح قوية جنوبية الى جنوبية شرقية قوية تشتد لتصبح رياحا عاصفة . ولكن ليمون ، على رغم ذلك غادر مأدبة الغداء مع السيد آميو ، واصدر الأوامر السرية ان تقلع الزوارق الحربية في تلك الليلة ، فقد كان يدرك ان عشية عيد الميلاد هي الوقت الأمثل لاغتنام فرصة اي تراخ في الأمن .

*

وقد عارض قائد مجموعة الزوارق هذه الأوامر بسبب التقارير عن حالة الطقس ولأن احد الزوارق لما يكن قد قام بتجارب في البحر بعد . ولكن الحظ واتى ليمون ، فقبيل الساعة ١٩٠٠ ، وحين كان البحارة يخططون للنزول الى الشاطىء لتناول طعام العشاء جاء تقرير بريطاني عن حالة الجو يوحي ان الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية سوف تهدأ ، وان الأحوال ستتحسن . وعلى ذلك استبعد ليمون الاعتراضات جميعها وكرر اوامره ، فتم جمع البحارة على الفور ، ما عدا واحدا كان مريضا ، وأمروا بالعودة الى زوارقهم ، وفي الساعة

الثانية والنصف صباح عيد الميلاد رفعت الزوارق الخمسة مراسيها وشَغَّلَتْ محركاتها.

لم يكن آنذاك اي شخص يرقب انسلالها ورحيلها سوى الأميرال ليمون نفسه، فقد نزل، باسم السيد ليمون الباريسي، في فندق غير بعيد عن رصيف الميناء مع سائقه. لقد حجزا غرفتين، وطلبا ان ينبها في الساعة الثالثة صباحا لانهما سيعودان الى باريس في تلك الساعة. ودفعا اجر الغرفتين سلفا، لذا لم يرتب احد بهما. ثم وحين كان بواب الفندق نائما، انسل ليمون من الفندق، وذهب بهدوء الى رصيف الميناء كي يودع الضباط قادة الزوارق وربما كي يطمئنهم عن آخر تقارير الأحوال الجوية.

لقد اعير خير اسلوب لمغادرة الميناء تفكيرا جما، فالعملاء لحظوا وراقبوا طيلة ايام، قبل ذلك، التحركات من القاعدة البحرية ليلا واليها، بل ان احدهم قام بجولة تجريبية في قارب صغير في مناسبتين. كانت الزوارق راسية في القسم الداخلي، من الميناء والذي يمر طريق الخروج منه الى القسم الخارجي بين حاجزين يشكل الغربي منهما جزءا من القاعدة البحرية ويقوم على حراسته حراس دائمون، لذا لا بد من اخذ تحركات هؤلاء بعين الاعتبار.

كان من الطبيعي ان يكون التقدم نحو البحر من هذا القسم الداخلي من الميناء، وذلك مباشرة تحت فوهات مدافع حوض الاسطول الفرنسي بالقرب من سلسلة تحصينات، ثم الى القنال الانكليزي، ولكن هذا كان سيُعَرِّضُ القوارب للملاحظة بطاريات مدافع الاسطول، لذا سلكت الطريق الأقصر والأقل انكشافا رغم انه الأشد خطراً، فانسلت مباشرة عبر القسم الخارجي ما بين قلعة الشرق Forte de l'Est ، بين الصخور المغمورة للجزيرة الصغيرة في الجانب الأيمن. وكان هذا الممر أضيق جدا، ولا يزيد عمق الماء فيه على قامتين. والواقع انه كان مؤشرا عليه على الخرائط انه خطر و«ممنوع»، وفي الظروف العادية لم يكن اي ملاح ليجربه. ولكن هذه الزوارق صُمِّمَتْ من اجل المياه الضحلة، وقد جرت تحريات دقيقة اثناء عمليات الابحار التجريبية في القارب الصغير، وبدا ان منافع المفاجأة والبقاء بعيدا عن بطاريات تفوق مخاطر اندفاعة سريعة نحو البحر.

وعلى هذا الشكل ابحرت الزوارق الحربية بإتجاه حيفا من أشد القواعد البحرية الفرنسية حراسة. اما الاميرال ليمون فقد قفل عائدا الى باريس في الليلة نفسها. وحين اكتشف الفرنسيون ما

حدث وقع هيجان غاضب في قصر الاليزيه، وقال الرئيس بومبيدو معلقا «لقد ظهرنا مغفلين تماما»، وأُوقِفَ موظفان بسبب ما دعاه الرئيس بومبيدو «المشاركة العقلانية».

وفي حوالي هذا الوقت اوكلت وزارة الدفاع الى الموساد مهمة صعبة اخرى وهي معالجة محطة رادار بناها السوفييت على مكان بعيد مطل على خليج السويس، وشكلت لفترة طويلة عقبة امام الطائرات الاسرائيلية العاملة في تلك المنطقة، بل لقد حث بعض الضباط على شن غارة جوية على تلك المنشأة.

ومهما يكن من امر فان كلتا أمان وموساد وافقتا على ان خير خطة، شريطة تنفيذها سرا وبهدوء، هي ارسال مجموعة من الكوماندو والمخابرات لسرقة محطة الرادار ونقلها جوا الى اسرائيل. وكانت هذه المحطة تزن حوالي سبعة اطنان وتحتوي على كل اشكال المعدات الجديدة.

ومع ان الفضل في نقل محطة الرادار هذه، بعد بضعة ايام من حادثة سرقة الزوارق الخمسة، يعود الى الجيش الاسرائيلي، الا ان تخطيط المخابرات الاسرائيلية للعملية هو الذي جعلها عملية ممكنة، فالمجموعة الاسرائيلية المهاجمة نزلت على بعد خمس وعشرين ياردة

من هدفها قبل ان يلحظها احد . وكان هدفها الاستيلاء على محطة الرادار سليمة ونقلها مع العاملين عليها الى تل ابيب . والحقيقة ان اثنين من المصريين قتلا ، واسر الاربعة الاخرون . وخلال نصف ساعة رفعت كافة المعدات التي تحتوي على معلومات قيّمة ، بالبكرات الى طائرات الهليكوبتر ، ونقلت الى اسرائيل(*) .

(*) يعود النجاح في هذه العملية الى غفلة الحراس المصريين على المحطة وقلة عددهم لا الى براعة الاسرائيليين او قوتهم .

(المترجم)

الفصل الثامن عشر

المنتقمون

«وإذا تبعه ولي الدم فلم يسلّموا القاتل
بيده، لأنه بغير علم ضرب قريبه وهو غير
مبغض له من قبل».

(سفر يشوع، الاصحاح العشرون، ٥)

عاد تقليد « المنتقم » أو « طالب الثأر » أو «ولي الدم» الى الوجود في السنوات الأخيرة في صورة جماعـات « اضافيـة» أو « تابعة » مرتبطة احيانا بالموساد . ولكن لم يعلن رسميا عن وجودها ، كما لم يُعْتَرف به ، وفي بعض الاحيان تم التبرؤ من نشاطاتها ، بيد ان هذه الجماعات المختلفة لعبت دوراً كبيراً في شؤون المخابـرات الاسرائيلية ، ولسوف يستمر ، ولا ريب ، دورها هذا .

ان « ولي الدم » ، في العادات اليهودية ، هو الرجل الذي له الحق في الانتقام والثأر من اي شخص قتل قريبا له . وقد حُدّدَتْ المدن التي ستوفـر الحمايـة لهؤلاء الأشخـاص، واتخذت بعض فصائل الاغتيال غير الرسمية الحاليـة هذه اسماء قديمة لها مثـل

«المنتقمون» او «ولاة الدم» و«مسادا»، نسبة الى الصخرة الضخمة الواقعة على طرف صحراء النقب حيث وقفت الطائفة اليهودية المتطرفة وقفتها الأخيرة امام الرومان، و«الفرقة ١٠١»، وتسمى احيانا الفرقة ١٠٠١ من اجل التمويه، و«وحدة تموز» و«غضب الله».

بدأت أساليب «الانتقام» منذ سنة ١٩٥٦ م تقريبا، فالرئيس عبد الناصر وافق آنذاك على تدريب الفدائيين وتجهيزهم ودعمهم بكل وسيلة ممكنة، وكانت مهمة هؤلاء شن غارات فدائية داخل اسرائيل. وقد عرضت هذه الحركة في الصحافة الغربية بأنها هيئة من الوطنيين المسلمين المتفانين الذين هم على استعداد للموت من اجل قضيتهم، وهذا ما كان يحدث فعلا حين اصطدامهم بالدوريات الاسرائيلية.

قرّر الاسرائيليون ان يوجهوا ضربات الى المسؤولين عن ارسال هؤلاء الفدائيين. وقد اكتشفت الموساد ان المسؤول عن ذلك هو العقيد مصطفى حافظ رئيس الاستخبارات المصرية في قطاع غزة. وفي الحادي عشر من تموز ١٩٥٦ م. انطلق العقيد

حافظ ليقابل مخبرا ، كان في الوقت نفسه عميلا مزدوجا ، سلّم اليه طردا انفجر حين أخذ العقيد يفك غلافه وقتله .

وهكذا قُتِلَ العدو رقم واحد لاسرائيل في نظر الموساد ، ولكن هذه اخذت تتحرى عمن سيكون البديل له . وبعد ثلاثة ايام تلقى العقيد صلاح مصطفى ، الملحق العسكري المصري في الاردن والثاني في التشكيلة الفدائية الفلسطينية ، كتابا بدا كأنه مرسل من مكاتب هيئة الأمم المتحدة ، وحين فتحه انفجر فيه فقتل .

كان لهذين العملين نتيجة فورية ، فقد كبحا لبعض الوقت العمليات الفدائية ، ولذا جعلت الموساد من اغتيال قادة الفدائيين هدفا رئيسيا لعملياتها . وكما ذكر من قبل جرى احياء هذه الاساليب اثناء تولي ايسر هاريل رئاسة الموساد في الستينات حين واجهت اسرائيل خطر العلماء الألمان العاملين في مصر . لقد كانت المخابرات الاسرائيلية هي الأولى في العصر الحديث التي استخدمت سلاح الرسائل الملغومة التكتيكي ، ولكن هذا الاسلوب يمكن ان يقود الى اشد الاخطاء ترويعا .

بعث بالرسالة الملغومة الأولى مارتن ايكنبيرغ Martin

وهو مهندس سويدي عاش في لندن، وارسلها الى Eckenberg
رجل اعمال سويدي سنة ١٩١٠ . ولكن سكوتلانديارد اقتفت
اثره حتى بيته في كلافام Clapham . فأدلى باعتراف كامل، ثم
شنق نفسه في سجن بريكستون Brixton . واعادت استخدام الرسائل
الملغومة بعد الحرب العالمية الثانية عصابة شتيرن اليهودية في
فلسطين حين بعثت بها الى الضباط البريطانيين، واستخدمها
بعدئذ عملاء الموساد من اجل تصفية العلماء الألمان في القاهرة .
وآنذاك حدثت الاخطاء الفاحشة، فالطرد الملغوم المرسل الى
البروفيسور ولفغانغ بيلز انفجر بين يدي سكرتيرته واصابه بجروح
خطيرة، كما ان طردا اخر مرسلا الى مصنع صواريخ هيليوبوليس
قتل خمسة فنيين مصريين . وقد تكون هذه القنابل انذرت العلماء
الألمان، ولكنها شكلت دعاية سلبية كبرى لاسرائيل، وخلقت لبن
غوريون مشكلة سياسية كبرى وفرضت تغيير رئيس الموساد . ثم
استخدم العرب انفسهم اسلوب الطرد ــ الملغوم في حملاتهم
الفدائية واستعملوه بفعالية ضد الاسرائيليين الذين تخلوا عن هذا
الاسلوب . ولم تَستَجِرّ حملة الفلسطينيين بالرسائل الملغومة في اوائل
السبعينات ردا مماثلا من الاسرائيليين رغم ان الدكتور شاشوري،
المستشار في السفارة الاسرائيلية بلندن، قتل برسالة ملغومة .

ولم يبدأ الاسرائيليون، الا في اوائل السبعينات، يجمعون الأدلة على ان العرب الفلسطينيين هم الذين يشنون الحملة الجديدة، ويساعدهم، الى حد ما، «إتحاد» دولي من «الفوضويين» والمحرضين الماركسيين والارهابيين(*) المحترفين في اوروبا واليابان والشرق الأوسط، وقد انتشرت تفرعات هذه الشبكة في القارات الأربع. وكانت خلية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اوروبا ذات صلة بمنظمات ثورية اخرى، مثل الجيش الجمهوري الارلندي والباسكيين والبريتانيين، ولها تنظيم تموين مترابط، لذلك فبمقدور احدى الخلايا ان تطلب في حالات الطوارىء العون من خلية اخرى. وقد استغل الفوضويون الوضع استغلالاً كاملاً، ومن هؤلاء الجيش الأحمر الياباني وحركة الثاني من حزيران الالمانية، والتنظيم الايطالي المعروف باسم الألوية الحمراء.

وفي الثلاثين من ايار ١٩٧٢ م قَتَل ثلاثة يابانيين، اعضاء في الجيش الأحمر، عشرين شخصا في مطار اللد. واحدى

(*) يستخدم الكاتب لفظ «الارهاب والارهابيين» فِعْلَ الكيان الصهيوني والدول الغربية والولايات المتحدة، لاطلاقهما على الفدائيين والمقاتلين من اجل الحرية، في شتى بقاع العالم، وعلى أعمالهم. لذلك تم استبداله بالترجمة بكلمة «العمل الفدائي والفدائيين».

(المترجم)

الجماعات المنهمكة في هذه الاساليب الفدائية من شتى الأشكال هي منظمة الصاعقة التي تمولها وتشرف عليها سورية ورئيسها السيد زهير محسن، واحد مراكزها الرئيسية في روما حيث تخزن المتفجرات في مركز تموينها الرئيسي. والصاعقة على درجة كبيرة من التنظيم والانضباط، وهي جماعة من المحترفين أوشكت ان تنسف السفارة الاسرائيلية في باريس.

لقد كان رد المخابرات الاسرائيلية على ذلك سريعا وايجابيا وقاسيا جدا، فبينما انهمك الفلسطينيون وحلفاؤهم في اعمال فدائية لا تميز، موجهة غالبا نحو غير الاسرائيليين، رَكَّزتَ مجموعات «المنتقمين» الاسرائيلية على تصفية منظمي العمليات الفدائية ومرتكبيها. صحيح انها ارتكبت اخطاء جسيمة في بعض المناسبات، ولكن الردود الاسرائيلية كانت مكرّسة فقط لمنظمي العمليات وللقائمين بها. وقد تعاطفت بعض اجهزة المخابرات الغربية مع اساليب المخابرات الاسرائيلية وساعدتها في بعض المناسبات، حتى لو كان ذلك ضد رغبات حكوماتها. وينطبق هذا، بخاصة، على المخابرات الفرنسية، وبدرجة اقل على المخابرات البريطانية. وحين القي القبض على «ابو داوود»، احد قادة الفدائيين الفلسطينيين الرئيسين، في فرنسا خلال شهر كانون

الثاني ۱۹۷۷ م. كان تَصرُّف المخابرات الفرنسية بدون علم حكومتها التي امرت باخلاء سبيل «ابو داوود» خشية تعكير العلاقات مع الحكومات العربية، وبخاصة تلك المنتجة للنفط.

بدأ الاسرائيليون حملة تصفيتهم للفدائيين الرئيسيين بوضع ملف عن كل منهم.. عن عاداته ونقاط الضعف فيه واماكنه المحببة التي يتردد عليها، وبطلب تقارير من عملاء الموساد في كل مكان في اوروبا. ومن هذه الثانية، برزت تدريجيا صورة مرعبة للعمل الفدائي المنظم، اذ ليس ثمة اية مدينة كبرى في اوروبا لا توجد فيها خلية للفدائيين، وبعضها، مثل روما، كانت مستودعات تموين رئيسية، واخرى مثل باريس وزوريخ كانت مراكز للتجسس، على حين كان في لندن وامستردام مكاتب تجنيد نشطة.

ان كل عمل فدائي زود الاسرائيليين بخيوط جديدة، فتابع هؤلاء كل طرف خيط دون كلل. وقد استطاعت الموساد ان تستغل الانشقاقات والاختلافات في صفوف المنظمات الفدائية، وتم انتزاع قدر كبير من المعلومات من مُرتَدّي الفدائيين، فكثير منهم اعتقد ان خطف الطائرات عمل ضار بخططهم بعيدة

المدى . ومن ناحية اخرى يمكن ان يشير المتطرفون ، الذين آمنوا ان تفجيراتهم وخطفهم الطائرات تشكل دعاية ثمينة جدا لقضيتهم ، الى ان العديد من الحكومات الغربية قد ارعبتها هذه الأعمال .

طاردت الموساد ، طيلة سنوات ، الدكتور وديع حداد ، القائد العسكري في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وفي تموز ١٩٧٠ م جرت محاولة فاشلة لاغتياله في بيروت . ولكن الرجل الذي اهتمت الموساد به جدا كان غير عربي ، وهو انسان مراوغ وشخصية جذابة ويشار اليه أحيانا باسم « كارلوس » Carlos ، ومصنف في معظم ملفات قوى الأمن في اوروبا الغربية على انه « الارهابي العالمي رقم واحد » .

لم تحدّد هوية كارلوس ، الذي يُدعى احيانا « ابن آوى » لشبهه بالشخصية المركزية في كتاب فريدريك فور سايت Fredrick Forsyth « يوم ابن آوى » ، الا منذ بضع سنوات ، فهو ايليتش راميريز سانشيز Ilich Ramirez Sanchez ، ويعرف ايضا باسم كارلوس مارتينيز ، وقد ولد سنة ١٩٥٠ م . وابوه فنزويلي يحمل شهادة الدكتوراه في القانون وكان ايضا يساريا متفانيا ولكنه غير متطرف . وفي الملف المجموع عن كارلوس العبارة التالية « المهنة :

ارهابي، المستخدِم عادة هو الدكتور جورج حبش ــ الأمين العام للجبهة الشعبيَة لتحرير فلسطين ــ والحكومة الجزائرية احيانا، واستخدمته المخابرات السوفييتية لمهام خاصة لصالح العرب ودول اخرى».

سمّى والد كارلوس ابناءه بأسماء لينين: ايليتش، وفلاديمير، ولينين. وحين كان كارلوس، سنة ١٩٦٦ م، في السابعة عشرة من عمره ارسله ابوه، مع اخويه، الى لندن حيث عاش في شقة، بعد اخرى، في حي وست اند West End. ولا تزال هذه الفترة من حياة كارلوس غير واضحة، وقيل ان وهم والده في تأثير الحياة الانكليزية على اولاده تبدد، فأرسلهم لفترة قصيرة الى فرنسا، ثم قرّر فجأة ان تعليمهم يجب ان يتم في موسكو. ان هذا الجزء من حياة كارلوس لا يبدو صحيحا، اذ تقول بعض المصادر ان المخابرات السوفييتية التقطته حين كان في لندن. واخيرا ارسل الى جامعة باتريس لومومبا Patrice Lumumba في موسكو ما بين سنتي ١٩٦٩ و١٩٧١ م. ويجيد كارلوس اللغات العربية والألمانية والفرنسية.

وليست ثمة من دليل على استخدام كارلوس الا بعد ان

غادر موسكو سنة ١٩٧١ م، ففي تلك السنة قام بزيارة قصيرة الى باريس، ثم عاد الى لندن ليتولى منصباً تعليمياً في كلية سكرتاريا لانغهام Langham في حي Mayfair. وفي اوائل سنة ١٩٧٢ م عاد الى باريس لينضم الى محمد بوضيا الذي كانت منظمته «الشرقية الباريزية» واجهته للمنظمة الشعبية لتحرير فلسطين. وبوضيا، وهو مخرج مسرحي، مناضل جزائري في الحرب السرية بين الفلسطينيين واسرائيل. وكان كارلوس، في هذا الوقت، قد انضم الى المخابرات السوفييتية، وكان عمله مع بوضيا هو ان يكون حلقة الوصل مع الجماعات «الثورية» الأوروبية المختلفة، ومنها الجيش الجمهوري الارلندي ومجموعة بادر ـــ ماينهوف والجيش الأحمر الياباني.

وقد علم الاسرائيليون، بعد استجوابهم كوزو اوكاموتو Kozo Okamoto الناجي الوحيد من اليابانيين الثلاثة الذين قاموا بعملية اللد، ان الذي قدم لهم الأسلحة هو هيكتور هيروديكون Herctor Hirodikon، وكان هذا في تل ابيب ثم اختفى. فبعثت الموساد برسالة الى عميلها في لندن تطلب منه ان يراقب الواصلين الى مطار هيثرو، وكان الجواب الذي تلقته اخيرا منه مذهلاً، «ان

ليس ثمة احد باسم هيكتور هيرود يكون قد عاد الى لندن، ولكن ثمة شخص عاد اليها واسمه ادولف غرينيل Adolf Granel، ويظن انه تشيلي من اصل الماني. ونحن لا نشعر، واثقين، فقط انه الرجل نفسه الذي خرج من تل ابيب باسم هيكتور هيرود يكون، بل انه صورة طبق الأصل لكارلوس مارتينيز».

وهكذا، بدأ الاسرائيليون يقتفون اثر كارلوس، ولكنهم قرروا عدم وضعه على قائمة الاعدام بل الاكتفاء برفقته كظله بسبب ارتبطاته الدولية، فقد ارادت الموساد ان تجد الى اين تقود دروب كارلوس الأخرى.

جاءت ضربة الاسرائيليين الكبيرة الأولى، التي قامت بها «فرقة الانتقام»، في ٨ تموز ١٩٧٢ م انتقاما للهجوم على مطار اللد. وكان منظم هذا الهجوم هو غسان كنفاني الكاتب والقصاص الذي كان مسؤول العلاقات العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في بيروت. وقد اعُطى زفي زامير، الذي اصبح آنذاك رئيس الموساد (ميمونه)، اشارة التنفيذ، فأُنزِلَ اثنان من عملاء الموساد الماهرين سرا الى شاطىء بيروت يحملان قنبلة تفجر باللاسلكي ربطها احدهما الى سيارة غسان. وكان ذلك المثال الأول

عن القنبلة المتحكم لاسلكيا بها من جانب الاسرائيليين ، والتي ربما تفسر كيفية حدوث وفاتين على حين كان المطلوب وفاة واحدة . وقد قتل غسان على الفور حين اشعل محرك السيارة ، كما توفيت ابنة شقيقته ، التي صادف وجودها معه ، ايضا . وبعد يوم او يومين وجه الاسرائيليون ضربة ثانية ، ولكنها لم تكن مميتة هذه المرة ، فقد تلقى بسام ابو شريف ، الذي تولّى مركز غسان ، رسالة ملغومة انفجرت بين يديه ، ففقد عينه اليمنى ، واصيب بجراح خطيرة ، ولكنه ظل على قيد الحياة .

لقد كانت مذبحة الرياضيين الاسرائيليين ، التي قامت بها منظمة ايلول الاسود في ميونيخ يوم ٥ ايلول ١٩٧٢ م . هي التي زادت من عمليات التصفية التي تقوم بها المخابرات الاسرائيلية . ادت عملية ميونيخ الى قتل احد عشر رياضيا اسرائيليا ، وبلغ الغضب اوجه في اسرائيل ، حتى ان غولدا مايير اعلنت في كلمة بالكنيست ان اسرائيل « سوف تستخدم كل ما لدى شعبنا من روح وعزم وابداع من اجل تعقب الفلسطينيين حيثما نستطيع ان نجدهم » .

كان زفي زامير يعي ، وعياً تاماً ، الانتقادات التي وجهت

الى عميلتي غسان كنفاني وبسام ابو شريف، فَحثَّ على اعادة تشكيل القتلة، فلا بد من تخطيط العملية كلها تخطيطا هادئاً كفؤاً، وقد ذهب زفي زامير نفسه الى ميونيخ ليكون تقييمه في ساحة العملية نفسها، بل لقد رأى فعلا المواجهة النهائية بين الفدائيين العرب ورجال الشرطة الألمانية. وقال حين عودته «اذا لم تتصرف اسرائيل بنفسها فلن يتصرف احد، ونحن لا نستطيع توقع المساعدة من الغرب».

وطُلِبَ من الجنرال اهارون ياريف، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية (امان)، ان يتولى مسؤوليات المستشار المخابراتي لاساليب مكافحة العمل الفدائي العربي وان يعمل متعاونا مع زامير. ومنذئذ وضعت مسألة «فرق الانتقام» على اسس منظمة جدا، والقت الموساد بثقلها كله وراء هذه «المجموعات غير الرسمية»، من اجل ابقائها منضبطة مهيمنا عليها على الأقل. وكانت احدى مجموعات الاغتيال، التي شكلت، تعرف باسم «غضب الله»، وهي تتألف من متطوعين، نساء ورجال، ومعظمهم مغاوير ومظليون سابقون، يساندهم فريق من اليهود الفرنسيين والألمان والايطاليين كانت مهمته جمع الدلائل وتخطيط

العمليات . ولكن كان خلف هذا الفريق غير الرسمي دراية الموساد والشاباك وخبرتهما . وكانت السياسة ان تقوم الموساد بالبحث وتحدد الأهداف المطلوب اغتيالها ، ثم تتم « مجموعة غضب الله » المهمة . فاذا حدث خطأ ، ولم تسر الامور وفق ما خطط لها القيت مسؤولية ذلك على هذه المجموعة ، واعتبرت انها قامت بالعمل من تلقاء نفسها .

لقد كانت احدى المشكلات في تحديد الأهداف ، اذ كان الاتفاق عموما على ان الاولوية المطلقة المكرسة ، للبحث عن منظمي عملية ميونيخ ثم قتلهم ، لن تحل مشكلة العمل الفدائي الخارجي ، بل يحلها ببساطة تصفية منظمة ايلول الاسود ومحوها من الوجود . لذا لا بد ان يكون الهدف هو اعداد قائمة تتضمن اسماء مخططي عملية ميونيخ الاصليين وشتى الشخصيات الوسيطة غير العربية التي تساعد منظمة ايلول الأسود والجماعات الفدائية الأخرى . وهكذا اقيمت خمسة فروع خاصة لمعالجة العملية كلها واعدت نواة فرع سادس ، غير معروف للفروع الأخرى ، من اجل ان يهب الى العمل اذا تم نسف الفروع الأخرى او تدميرها كليا . لقد كانت المهمة الرئيسية للفرع الأول ، واسمه الرمزي « عين » ،

جمع مِلَفٌ عن كل من الضحايا المطلوبين، واقتفاء آثارهم ورصد تحركاتهم.

ووقعت حادثة صغيرة في بروكسل يوم ١١ ايلول ١٩٧٢ م حين اغرى رجل مجهول الهوية عميلاً اسرائيلياً بالقدوم الى احدى المقاهي حيث اطلقت عليه النار واصيب بجراح خطيرة. وفي باديء الأمر ظُنَّ ان مطلق النار فدائي فلسطيني، ولكن اشارت التقارير فيما بعد الى انه مراكشي، على الأرجح، استخدمته المخابرات الاسرائيلية من قبل. وبعد ثمانية ايام انفجرت رسالة ملغومة، بعث بها فدائي عربي، في السفارة الاسرائيلية في لندن، وقتلت دبلوماسيا فيها، وادعت منظمة ايلول الأسود مسؤوليتها عن الحادث.

ورد الاسرائيليون في تشرين الثاني، ففي الرابع منه انفجرت قنبلة في مكتبة عربية في باريس، وادعت «فرقة الانتقام»، التي تدعو نفسها مسادا، مسؤولية الحادث، ولكن اسرائيل نفت اية معرفة لها بهذه المجموعة. ولا ريب ان هذا لم يكن نوع الانتقام الذي خطط له زفي زامير. وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٧٢ م. اطلقت النار في روما على وائل عادل زعيتر وقتل. وهو كاتب

وشاعر فلسطيني اعتبر مسؤولا عن انفجار قنبلة في احدى طائرات العال وهي في الجو خلال شهر آب الماضي، كما اعتبر متورطا ايضا في عملية ميونيخ وفي محاولات اخرى لنسف الطائرات الاسرائيلية .

كان موشه حنان ييشاي Moshe Hanan Yishai ، واسمه الحقيقي باروخ كوهين Baruch Cohen ، احد فعالي الموساد الرئيسيين في اقتفاء آثار الفدائيين الفلسطينيين . وقد ولد هذا في حيفا ، ويتكلم العربية بطلاقة ، ويفهم ، فهما تاماً ، عادات العرب الفلسطينيين ونظرتهم . وكان جد أبيه هو الحاخام الأكبر لمدينة حيفا في اواخر عهد الدولة العثمانية . وفي سنة ١٩٥٢ م . دخل باروخ سلك مخابرات الجيش الاسرائيلي حيث احرز سمعة ممتازة بوصفه ضابط مخابرات ، حتى انه كان احد اوائل الذين جندتهم الموساد للقيام بخدمات خاصة خارج اسرائيل من اجل تعقب الفدائيين الفلسطينيين . وفي سنة ١٩٧٠ م ارسل الى بروكسل ، واخيرا نقل الى باريس كي يقيم صلات وعلاقات مع العرب . وكان باروخ يستطيع الوصول بسهولة الى النساء ، فعلم من خلال محادثته مع امرأتين شقيقتين من اسرة البرادلي ، استخدمتها مجموعة بوضيا الفدائية لمهمات معينة ، شيئا عن تركيبة الفلسطينيين في

الغرب. وبعد ان اغوى احداهما استطاع، في وقت قصير، ان يكتشف من كان المسؤولون عنها واماكن اختفاء الفدائيين. وكان بوضيا قد زود هاتين الفتاتين، وهما ابنتا اب مراكشي ثري، بجوازي سفر مزورين، وارسلهما في مهمة الى تل ابيب. ولكن قبض عليهما هناك، نتيجة المعلومات التي بعث بها باروخ، وتم الامساك بالشبكة الفدائية داخل اسرائيل ايضا.

وحاول الفلسطينيون ان يردوا الضربة، ولكن فقدهم الاشخاص الرئيسين بدأ يكشف عن نفسه، فقد ظهرت إمارات على هجمات متعجلة وفقدان الاعصاب، فأعادوا استخدام الرسائل الملغومة. وفي العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٢ م. انفجرت رسالة، وضعت في الهند، فور ان فتحها موظف في شركة للالماس، وقبل ان ينتهي هذا الشهر اعترضت في بومبي ونيودلهي اثنتان وخمسون رسالة ملغومة اخرى مرسلة الى مؤسسات يهودية في اوروبا، على حين ان البريطانيين اعترضوا عشرين رسالة اخرى والسويسريين خمسا. وفي الثامن والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٧٢ م. بعثت منظمة ايلول الأسود فريق مغاوير الى السفارة الاسرائيلية في بانكوك، اخذوا العديد من

الدبلوماسيين وزوجاتهم رهائن. ولكن هذا الفريق قبل، في غضون يومين، خروجا سالما، عن طريق الجو، الى القاهرة رتبه السادات.

وفي الثامن من كانون الأول ١٩٧٢ م قتل الدكتور محمود الهمشري، وهو احد رؤساء ايلول الأسود وصلة الوصل مع بوضيا، بقنبلة في شقته بباريس. وخلال هذا الشهر ارسلت الى قبرص، استناداً الى معلومات عن كارلوس ومنظمة ايلول الاسود، فرقة ضاربة خاصة من الموساد من اجل غايتين: الأولى تدمير الفريق المخابراتي الفلسطيني والسوفييتي في تلك الجزيرة، والثانية القضاء على حسين البشير ممثل منظمة التحرير فيها. وقد وضعت قنبلة في غرفته بفندق اوليمبيك في نيقوسيا يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٣ م. فجرها عن بعد باللاسلكي احد عملاء الموساد. وكان الاسرائيليون، في هذا الوقت، قد خطوا خطوات واسعة نحو اتقان تقنية القنابل ـ اللاسلكية، ويجرون تجارب على قنابل الهاتف ايضا..

ولكن الاسرائيليين فقدوا في اليوم التالي احد اقدر عملائهم في مكان آخر من العالم. فالعميل باروخ كوهين، الذي فعل الكثير من اجل اقتفاء آثار قادة الفدائيين الفلسطينيين وكان

مسؤولا الى حد كبير عن المعلومات التي ادت الى مقتل المشري، استدرج الى مدريد بوعد الحصول على معلومات حيوية. من احد العرب الذين يتصل بهم، دون ان يدرك تماما ان هذا الاستدعاء قد يكون شركا، فاسبانيا من عدة نواع بلد نموذجي يستطيع الفدائيون الفلسطينيون ان ينشطوا فيه، واسرائيل ليست لها اية علاقات ذبلوماسية مع الحكومة الاسبانية(*) التي تتبنى عادة سياسة مؤيدة للعرب في هيئة الأمم المتحدة. ولكن كوهين احس ان المسألة تتطلب المغامرة، فانطلق نحو الموعد المحدد صبيحة الجمعة ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٣ م، ولكن رصاصة قاتلة صرعته في غضون ساعة، ولم يكن قاتله سوى محمود بوضيا.. الرجل الذي كان كوهين نفسه يطارده.

ووقعت، خلال شهر آذار، حوادث اخرى تتعلق بالفلسطينيين في كل من الولايات المتحدة وقبرص، ففي نيويورك عثر على قنبلتين، قبل انفجارهما، في سيارتين مستأجرتين متروكتين خارج مصرفين اسرائيليين، وكشف المزيد من البحث اوراقا تحمل

(*)اقيمت هذه العلاقات خلال شهر كانون الثاني ١٩٨٦، وقدم السفير الاسرائيلي أوراق اعتماده للملك خوان كارلوس في شهر شباط من نفس السنة.

(المترجم)

اسم «ايلول الأسود». وفي ١٢ آذار اطلقت النار على رجل اعمال اسرائيلي، وصفته مصر فيما بعد انه «ضابط مخابرات صهيوني»، فقتل خارج فندقه في نيقوسيا، وادعت منظمة ايلول الأسود المسؤولية عن قتله. وبعد ايام ثلاثة اعتقلت الشرطة الفرنسية عربيين زعم انهما حاولا تهريب متفجرات الى فرنسا لنسف السفارة الاسرائيلية. واخيراً، اعطى التعاون بين الموساد والمخابرات الفرنسية ثماره.

ورد الاسرائيليون في السادس من نيسان ١٩٧٣ م، فقد اطلقت النار على الدكتور باسل كبيسي، الاستاذ في الجامعة الاميركية ببيروت، من مسافة قريبة جدا في باريس فقتل، اذ اعتقد انه احد منظمي شحنات المتفجرات الى الفدائيين العرب. وضربت الموساد ثانية، بعد ثلاثة أيام، في قبرص، وكانت الضحية خليفة البشير فيها وهو زياد موشاحي. وقد استخدم في هذه العملية اسلوب القنبلة.

على ان الطبيعة غير التمييزية لعمليات الفلسطينيين خلال سنة ١٩٧٣ م. ساعدت الاسرائيليين احيانا، وقد حدثت واحدة من فورات الغضب الفردية سيئة الادراك لدى الفلسطينيين يوم

١٦ نيسان ١٩٧٣ م. حين اطلقت النار عبر نافذة غرفة النوم في بيت القائم بالأعمال النيوزيلندي، وكتب على البيت بالدهان كلمات «ايلول الأسود»: لقد عاش السفير الاردني ذات يوم هناك. وفي ٢٧ نيسان اطلقت النار على موظف ايطالي في شركة «العال» وقتل خارج مخزن في روما. والقت الشرطة القبض على شخص يوناني قال انه عضو في «منظمة ايلول الأسود» وانه أُمِرَ بقتل الايطالي لانه جاسوس اسرائيلي. وخلال هذه الفترة حطّم «المصَفّون» العرب على الأقل ثلاثة من عملاء الموساد في عمليات قتل بدت كأنها حوادث عادية.

ثم، وفي آذار ١٩٧٣ م. خططت الموساد لما ستكون كبرى عمليات «فريق الانتقام» وانجحها، وكانت هذه انتقاما لمحاولة عربية، لنسف السفارة الاسرائيلية في نيقوسيا، تم التخطيط لها في مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت لا في قبرص. وقرّر الاسرائيليون ان الوقت قد حان للقيام بمذبحة في بيروت تهدف الى غزو مقر «المنظمة»، والاستيلاء على ملفاتها السرية، والقضاء في الوقت نفسه على ثلاثة من ابرز قادة «ايلول الأسود»، وهم محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر.

لقد خططت هذه الغارة، تخطيطاً تفصيليا دقيقا، قبل تنفيذها صبيحة ١٠ نيسان ١٩٧٣ م. فقبل اسبوعين وصلت مجموعة متقدمة الى بيروت. وكان اعضاؤها جميعهم من عملاء الموساد، يحملون جوازات سفر مزورة، اختيروا بعناية، لذا لم يشبه اي منهم اليهود التقليديين. وقد وصل احدهم، باسم الدكتور ديتر فون التنودر Dieter Von Altnoder، بوصفه رجل أعمال ألماني قادما من روما. وكان الثاني غيلبرت رمبرت Gilbert Rimbert بصفة بائع بلجيكي. وقد حجز الاثنان في فندق ساندز، واستُذكِرَ بعدئذ ان الدكتور التنودر استفهم عن التسهيلات لصيد السمك ليلا من الشاطيء القريب من الرملة البيضاء. ووصل ثلاثة آخرون الى فندق كورال في بيروت بعد وقت قصير، وكان احدهم يحمل جواز سفر فرنسياً باسم شارل بوسار Charles Bossart، ويصف نفسه انه مستشار اداري، اما الاثنان الآخران فكانا يحملان جوازي سفر بريطانيين باسمي جورج الدر George Elder واندرو ويتشلو Andrew Witchloe. ثم حجز «بريطاني» آخر في فندق اتلانتا باسم اندرو ماسي Andrew Macey قائلا انه وصل من فرانكفورت.. وقد قامت هذه «الجماعة المتقدمة»، التي عمل اعضاؤها افراديا، بكافة ترتيبات

الغارة، فراقبت مقر منظمة التحرير الفلسطينية، ولاحظت النمط اليومي لحركات الدخول والخروج من المبنى، واتخذت هذه الخطوات نفسها بالنسبة لمساكن الضحايا الثلاث. وبحجة صيد السمك ليلا مُسِحَ شاطيء الرملة البيضاء وحدد على انه «منطقة استقبال» رجال الكوماندو الثمانية.

نُقِلَ هؤلاء الرجال بحرا الى مسافة قريبة من الشاطيء يمكن اجتيازها سباحة، ثم اتجهوا بهدوء اليه وهم يرتدون ملابس الضفادع البشرية حاملين معهم رزمات لا ينفذ إلى داخلها الماء تحتوي على ملابس ومتفجرات واجهزة بث لاسلكي ومعدات لصوص المنازل المحترفين. وقد غطت «الجماعة المتقدمة» وصولهم وزودتهم بالسيارات ثم انقسم هذا الفريق، وانطلق نحو مهمته بدقة وكفاءة واقتصاد في الوقت والجهد، فاستطاع في ساعتين ان يقتل الرجال الثلاثة بغتة، وهم الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وقائد منظمة ايلول الأسود، ومنظم عملياتها في اسرائيل، ونَقَلَ جميع الوثائق في شقق الضحايا الثلاث والمصنفات في مقر المنظمة بعد ان قتلوا الحرس بمسدسات مزودة باجهزة كاتمة للصوت. اما العملاء جميعهم فقد خرجوا بهدوء ومعهم الوثائق

ودون ان يعترضهم احد، وقادوا سياراتهم الى الشاطيء، وتركوها هناك، وانطلقوا نحو موعدهم مع الجماعة المنتظرة في البحر. لقد كانت هذه الحادثة مثالاً آخر على دعم القوات المسلحة، البحرية وغيرها، للمخابرات الاسرائيلية مما لا تتلقاه اية مخابرات اخرى في العالم.

وصدر في تل ابيب بيان عن «عمل قامت به وحدات كوماندو وصلت الى بيروت براً وبحراً وعادت دون اية خسارة»، وجاء فيه ان قادة فتح الثلاثة قد قتلوا. وكان هذا كل شيء ولم يأت اي ذكر، بالطبع، لعمليات المخابرات.

ان كافة متضمنات الغارة على بيروت لم تتضح للسلطات اللبنانية لبعض الوقت، فَرَدُّ فعلها الأول كان ان هنالك انزالاً مظلياً قام به الجيش الاسرائيلي، ثم اكتُشفت النزولات على الشاطيء والسائح الغامض الذي كان مهتماً بصيد السمك ليلاً. وعلى الفور اجري تدقيق في سجلات الفنادق، ولكن استغرق ربط اسماء ألمانية وفرنسية وبلجيكية وبريطانية بعملاء للموساد وقتاً طويلاً، اذ تم الاتصال بالانتربول (البوليس الدولي) وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والمانيا الغربية، وآنذاك اكتُشف ان الجوازات، التي استفهم عنها،

كانت مزورة. وبعثت وزارتا الخارجية الفرنسية والبريطانية باحتجاجين الى الحكومة الاسرائيلية، ولكن وزارة الخارجية الاسرائيلية استطاعت ان تتملص من القضية بالادعاء انها لا تعرف شيئا عن الاشخاص الذين تنكروا بهذه الجوازات، فقد كانت تعرف تماما ان الهوية الحقيقية لعملائها لن تكتشف.

ان الرد فوق ارض عربية كان شيئاً رهيباً، ولكن الاسرائيليين كانوا يعون تماماً ان اية عملية قتل انتقامية تنفذ في اوروبا، او اية ارض غير عربية، امر مختلف. ففي تلك الحالات يكون ضرورياً واساسياً للقاتل الا يكتشف فقط، بل ان تظل هويته سراً غامضاً وان تطمس كافة آثار التورط الاسرائيلي. ولكن كانت تسرّب الى الصحافة، بين حين وآخر، تفاصيل بعض عمليات القتل هذه من اجل رفع المعنويات في اسرائيل، فهذا يسبب بعض الراحة لضحايا الهجمات الفدائية اذا عرفوا ان القائمين عليها قد قتلوا.

لقد بذلت عناية كبرى في اختيار القتلة الحقيقيين، اذ كان حيوياً وهاماً ان يتخذ هؤلاء موقف المحترفين والا يكونوا مفرطي الحساسية. ولهذه الاسباب جميعها اعيرت الطريقة المستخدمة في القتل اهتماماً خاصاً، فاستخدمت القنبلة التي تفجر عن بعد، او

قنبلة التليفون حين يكون بمقدار «فرقة الانتقام» ان تتأكد ان هذه سوف تصيب الضحية المطلوبة، وحين يكون ضرورياً القيام بالعمل بعيداً تماماً عن الهدف. ولكن كان ضرورياً، في بعض الاحيان، تنفيذ عملية الاغتيال من مسافة قريبة، فاستخدم الاسرائيليون لهذا النوع من الاغتيال مسدس بيريتا نصف الآلي عيار ٢٢، ذا الماسورة الطويلة، والذي يستخدم عادة للتدريب على اصابة الهدف، ولكنه عدّل خصيصاً ليحملُ طلقات ذا حشوة خفيفة جداً. فهذا السلاح فعال جدا في المسافات القصيرة، وقد جربه رجال الأمن الاسرائيليون على متن طائرات العال.

لقد تبنى الاسرائيليون انفسهم هذا المسدس لان آلية زناده خفيفة جداً، وهو نموذجي لاستخدامه من جانب النساء. وكان سلاح «فرقة الانتقام» الثاني هو القنبلة التي تفجر لاسلكيا او بالهاتف، عن طريق اشارة سرعتها اضعاف سرعة الصوت، حين يُعرف ان الضحية بات ضمن المدى المطلوب. وهذا السلاح الثاني هو من عدة نواح، السلاح الأسلم والافتك من الاثنين، ولكن حين جُرِّبَ على الدكتور محمود الهمشري في باريس اواخر

سنة ١٩٧٢ م لم يقتله فوراً، بل اصيب بجراح مميتة حين رد على مخابرة هاتفية فجرّت قنبلة، ولكنه ظل على قيد الحياة فترة تكفي لابلاغ الشرطة الفرنسية تماما ما حدث، وان القنبلة انفجرت حين رفع سماعة الهاتف وان القنبلة نفسها وضعت في اسفل طاولة الهاتف. ونبّه كشف الشرطة الفرنسية هذا العرب الى الهجومات المباغتة عن طريق قنابل الهاتف واللاسلكي، ولكن الاسرائيليين علموا ايضا بهذا الكشف، ولم يعودوا يستخدمون هذا السلاح، الا نادراً.

وقد اعيد استخدام اسلوب قنبلة السيارة في اغتيال عبد الهادي نفاع وعبد الحميد الشيبي في روما يوم ٧ حزيران ١٩٧٣ م. وهكذا، استطاع الاسرائيليون حتى يوم ٢٨ حزيران تصفية ثلاثة عشر من الفدائيين العرب الرئيسيين. وفي ذلك اليوم قتلوا الرابع عشر، فقد تعقبوا محمد بوضيا وقتلوه اخيراً في باريس بقنبلة في سيارته. وبوضيا هو رئيس Parisienne Orientale. وحقق العرب من ناحيتهم بعض النجاحات، فالكولونيل يوسف ألون، الملحق الجوي الاسرائيلي في واشنطن أُطْلِقَ عليه الرصاص وقتل فور ان خرج من مرآب بيته، اما القاتل فظل مجهولاً ولم يعثر عليه قط،

وقد ظن ان منظمة ايلول الأسود دفعت مبلغاً كبيراً من المال لأحد اعضاء حركة القوة السوداء الاميركية من اجل تنفيذ هذا الهجوم. ولكن النجاح العزبي الاكبر كان في مدّ صلاتهم وتوسيعها الى منظمات «ثورية» اخرى، وبشكل رئيسي من خلال كارلوس، وفي حماية الرجال القليلين الرئيسيين في منظمة ايلول الأسود.

ومن الرئيسيين بين هؤلاء الرجال علي حسن سلامة، الزعيم الفدائي، المسؤول عن مذبحة ميونيخ، ومنظمها العبقري. وعلي هو ابن الشيخ حسن سلامة، الذي كان احد قادة المقاتلين ضد اليهود قبل قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ م، وقد حرص على ان تبقى تحركاته سرية طيلة سنوات، وكانت الثغرات في مصنفه كثيرة كثرة ثغرات كارلوس، لقد كان على علاقة بمنظمة الصاعقة، وتلقى تدريبه على ايدي الروس سنة ١٩٧٢ م. في قرية خارج موسكو، ولكن ليس ثمة برهان ايجابي على علاقة تالية له مع السوفييت. على ان علي سلامة كان مقاتلاً فدائياً متمرساً قبل ذلك بوقت طويل، فقد كان مشاركاً في حادث ايار ١٩٧٠ م. حين خطفت طائرة لشركة سابينا الى مطار اللد، كما ساعد في التخطيط للمذبحة اليابانية في المطار نفسه، وكان احد كبار ضباط الرصد في حركة فتح[1].

وفي غضون ذلك كان كارلوس قد غير اسم Parisienne Orientale الى اسم «الفدائي بوضيا» حين تولى مسؤولية هذه الخلية عقب وفاة بوضيا. وكان صلةُ وَصْلِهِ ميشيل مكربل الذي كان غطاؤه انه تاجر مجوهرات يتنقل بين بيروت وباريس. ولكن كارلوس نفسه هو الذي رتب اللقاءات مع جماعة بادر ــ ماينهوف الالمانية الغربية، ومع يوتاكا فورويا Yutaka Furuya، ضابط العمليات في منظمة الجيش الأحمر الياباني والذي كان يسمى نفسه احيانا سوزوكي Suzuki، ومع الجيش الجمهوري الارلندي. وكان الرجل الأول في قائمة اغتيالات كارلوس هو اللورد سييف Sieff رئيس مخازن ماركس اند سبنسر Marks & Spencer والمؤيد الكبير للصهيونية. وكان الاسرائيليون منهمكين في تعقب كارلوس، الا ان موهبته في سرعة تغيير هويته وجوازات سفره ونسائه جعلت صعبا تحديد مكانه تماما. ومرة اخرى علق احد العاملين المتمرسين في الموساد بما يلي: «نستطيع ان نعالج اي جاسوس واي ارهابي ما عدا المنغمس في الفسق، فأنت تعثر عليه من خلال امرأة، ثم سرعان ما ينتقل الى امرأة اخرى، وحين تعثر عليها وتصل اليها يكون قد انتقل الى امرأة غيرها، وانت تستطيع ان تثق ان المرأة التي تركها لا تكون لديها اية فكرة عمن ستكون خليفتها».

وقرر الاسرائيليون، وقد اثلجت صدورهم نجاحاتهم حتى نهاية حزيران ١٩٧٣ م، القيام بحملة بحث شاملة، على الصعيد الاوروبي، عن علي حسن سلامة الذي اعتبر رئيس العمليات لنشاطات منظمة ايلول الأسود جميعها. وكان الفلسطينيون آنذاك يشددون حراساتهم ضد اية محاولات اسرائيلية على حياتهم، وظلوا دائمي التنقل لا يستقرون في مكان واحد. وقد تعقبت الموساد علي حسن سلامة من المانيا الى باريس حيث اختبأ في فندق على الضفة اليسرى لنهر السين. واخذ اثنان من عملاء اسرائيل يراقبانه منتظرين تعليمات اخرى حين افلت منهما، فقد أُعْلِمَ سلامة ان الاسرائيليين يتنصتون عليه، فتظاهر في حديث هاتفي انه يحدد موعداً مع صديق، ثم انسل من الفندق من باَب جانبي له.

لقد بات واضحاً منذئذ ان شخصاً ما يقود، متعمداً، الموساد في الطريق الخاطيء، وهكذا تعرضت «فرقة الانتقام»، العاملة بهدوء، كلها للشبهة وللخطر الشديد، اذ ربما يكون ثمة الكثير من الرضا عن الذات، وربما يكون «المنتقمون» قد باتوا متوانين مهملين. ولكن من المؤكد ان مكافحي التجسس الفلسطينيين قادوا الاسرائيليين الى كارثة في اسكندنافيا، فقد نقلت

معلومات سرية الى احد عملاء الموساد في سويسرة ان اعضاء منظمة ايلول الأسود يعيدون تجميع انفسهم بعد الهجمات على قادتهم، وانهم يخططون للانتقال الى اسكاندنافيا حيث يعتزمون اقامة «بيوت آمنة» في أوسلو وفي مكان آخر في ضواحي ستوكهولم، وسوف يشنون من هذه القواعد هجمات جديدة على الطائرات والسفارات الاسرائيلية في اوروبا الشمالية. وقد بدت هذه المعلومات معقولة وحقيقية، اذ انها تضمنت اسماء، وكانت مُقنعة في ضوء ما حدث، وعرف الاسرائيليون ان السويد مأوى محبب للارهابيين.

على ان بعض محللي المعلومات في تل ابيب ابدوا قلقهم من هذه المعلومات، وقال احدهم «كانت جميعها عفوية جداً لا سيما اننا تلقينا ثلاثة تقارير دفعة واحدة، احدها من جنيف عن احد افراد منظمة ايلول الأسود الذي غادر الى الدنمارك، والآخر من زوريخ عن الانتقال الى السويد، والثالث من باريس يقول ان علي سلامة قد ترك باريس وانه في طريقه الى الدنمارك أو النرويج. ولكن ما جعلني ارتاب في هذه المعلومات هو عدم اشارة اية مخابرات اخرى، لا الفرنسية ولا المخابرات المركزية الاميركية ولا البريطانية،

الى ذلك. لم يرد اي توكيد لذلك، بل ان التقرير الذي جاءنا في باريس كان من العميل الذي عاد لتوه من سويسرة. وكانت المخابرات السويسرية، كما هي العادة دائما، غير متعاونة ابدا، لذا كان صعبا على اي اسرائيلي ان يعمل داخل سويسرة بسبب ذلك العداء الصامت من جانب الهيئات الرسمية. فالفدائي العربي يستطيع ان يفلت هناك، ولكن رجل الموساد ملاحق دائماً ومصاب بالاحباط لدى كل منعطف، والمخابرات السويسرية لا تتعاون ابداً».

لقد كان هذا الاسرائيلي على صواب في حدسه، فقد جرت محاولة لخداع «فريق الانتقام» وتضليلها بعيداً عن أهدافها الحقيقية. ولكن القوى الحقيقية، ربما لاحساسها ان حملة جديدة اخرى ستقضي سريعا على الاسماء الباقية في «قائمة الاعدام»، قررت القيام بجهد آخر لتحديد مكان علي سلامة وحلفائه. وفي غضون ذلك كان بعض اواخر «فرقة الانتقام» قد ارسلوا في اجازة، اذ انهم امضوا اشهراً وهم يتعقبون الفدائيين. وهكذا ارتكبت الموساد خطيئتها الثانية بالعمل مع فريق جديد التُقِطَ افراده على عجل. صحيح ان بعض هؤلاء كان في مهمات مماثلة،

ولكن ايا منهم لم يعمل في اسكاندنافيا. ومع ذلك قررت الموساد ان واحداً، على الأقل، من اعضاء الفريق كانت له معرفة بالمنطقة، فاختارت فتاة اسمها ماريان Marianne تحمل الجنسية المزدوجة السويدية والاسرائيلية، وكانت قد هاجرت الى اسرائيل قبل سنتين وعملت في احد مكاتب المخابرات الاسرائيلية، وقد تطوعت هذه للذهاب والعمل عميلة.

ولم يمض وقت طويل قبل ان يقود الأثر الى النرويج، الى اوسلو اولا ثم الى منتجع ليلهامر Lillehammer الذي يبعد حوالي مائة ميل شمالي العاصمة، وهو غير بعيد عن الحدود السويدية. ولا يمكن تصور بقعة غير محتملة لاعمال التجسس اكثر منها، فهي بلدة صغيرة ويعرف كل امرىء فيها الآخر، ويسهل معرفة الغرباء فيها رغم انها منطقة سياحية صغيرة. وارتكبت الموساد خطيئة اخرى، فحتى آنئذ كانت تعمل مع عميلين فقط يدخلان من اجل تحديد اماكن المشبوهين ولو كان هؤلاء يستطيعون الاختفاء في الاغفالات الكلية لمدينة كبيرة، ولكنها الآن ارسلت الى ليلهامر اكثر من عشرة عملاء.

لقد كانت هنالك، بالطبع، ظروف خاصة، فرؤساء

الموساد كانوا يرون ان اسرائيل والعالم غير العربي سيكونان اكثر امنا كلما صُفِّيَ اصحاب الأسماء في قائمة الاعدام بشكل اسرع، وانه كان مرغوبا فيه جدا ان تتمكن «فرقة الانتقام» من انهاء مهامها جميعها قبل نهاية تلك السنة، فكانوا يحاجون ان الزمن هو في جانب الفلسطينيين لا اسرائيل. اما الظرف الخاص الآخر فكان ان الموساد سوف تعمل هذه المرة في منطقة تميل تماما لاسرائيل وان لها اتصالات رسمية مع المخابرات النرويجية. فالوضع في النرويج، من ثمة، هو من نواح عدة مناسب، بشكل مثالي، لعمَلية تهيمن الموساد عليها، على حين ان في السويد والدنمارك متعاطفين مع العرب، بل ان هنالك جواسيس داخل جهازي الشرطة والمخابرات. وربما كان هذا هو سبب اتخاذ الجنرال زفي زامير قراره بالاشراف شخصيا على العملية، وسافر الى اوسلو لهذا الغرض.

ان «فرقة الانتقام» سرعان ما حددت المراسل المزعوم لمنظمة ايلول الأسود الذي افترض انه غادر جنيف حاملاً رسائل الى علي سلامة، فتابعتهُ وراقبته حين قابل عربيا في مقهى محلي. ولكن فريق الموساد وقع في خطأ فاحش لدى تحديد الهوية ايجابيا.

لقد تزامنت محاولة تحديد هوية سلامة مع عملية اختطاف

طائرة ركاب يابانية مسافرة من امستردام الى طوكيو ، وقد قام بها فدائيون يابانيون وعرب ، واعتقدت المخابرات الاسرائيلية ان الطائرة قد تكون وجهت من اجل القيام بعملية ما فوق اسرائيل نفسها . والحقيقة ان الطائرة اخذت الى دبي اولا ثم الى بنغازي حيث فجرها الخاطفون . ولا ريب ان هذا الحادث قدم عذراً آخر للقيام بإجراء عاجل في ليلهامر ، لذا بعثت تل ابيب برقية عاجلة الى قيادة « فريق الانتقام » في اوسلو للمضي قدما بعملية قتل علي سلامة .

ومساء ٢١ تموز ١٩٧٣ م . وكان الرجل ، الذي اعتقد فريق الموساد انه علي سلامة ، يتمشى يدا بيد مع امرأة حين سارت بمحاذاتهما سيارة قفز منها رجل وامرأة واطلقا وابلاً من الرصاص عليه ، فقتل الرجل العربي على الفور ، اما المرأة فلم تصب بأذى .

على ان الرجل الذي قتله عملاء الموساد لم يكن علي سلامة بل احمد بوشيكي عامل المطعم المغربي في مؤسسة صحية محلية .

الفصل التاسع عشر

الكارثة في ليلهامر

«الخبرة هي الاسم الذي يطلقه الناس
على اخطائهم».

جورج برنارد شو

لم تشتمل الكارثة في ليلهامر على قتل الرجل الخطأ فقط، بل على تعقب «فرقة الانتقام» واعتقال افرادها ايضا. لقد شكلت هذه، في الواقع، نقطة الحضيض بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية، لا بسبب الحادثة نفسها فقط، بل بسبب كافة العوامل الأخرى في القضية: فزامير كان في المكان نفسه، وهكذا فإن رئيس الموساد نفسه متورط شخصياً في هذه الجريمة الشائنة، مما يعني، ولا ريب، ارتفاع اصوات في الكنيست بالانتقادات والارتيابات، التي كانت سائدة في أواخر عهد هاريل، بالنسبة لنشاطات الموساد. كما ان الاعتقالات، التي جرت في النرويج، وما تلاها من نشر واعلان عن المحاكمات التالية وحملة الدعاية المضادة التي قام بها العرب لم تساعد جمعيها اسرائيل.

لقد كتب كولين سميث[1] «وفي النهاية كانت النرويج، الصديقة الودودة لاسرائيل والتي قلما تكون الستارة التقليدية للعنف الفلسطيني ـ الاسرائيلي، هي التي وضعت نهاية لها». وكان سميث يشير بذلك الى فرق «غضب الله» التي تهيمن الموساد عليها في اوروبا. ووصف سميث بوشيكي انه فارس اسطوانات Disc Jockey مغربي مرتبط بحركة «فتح»، ودعاه تقرير آخر «ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في اسكاندنافيا». ولكن الصحافة المؤيدة للعرب اصرّت على انه ضحية بريئة، وانه لم يكن مرتبطاً، بأي شكل، بالحركة الفدائية الفلسطينية. على ان من المؤكد انه لم يكن علي سلامة، ولكن اعضاء ايلول الأسود، ومن خلال الحملة الاسرائيلية عليهم، وجدوا مدافعين عنهم ولا سيما في بريطانيا وفرنسا. فالليدي رتشموند Lady Richmond كتبت للصحف البريطانية تقول ان الدكتور باسل الكبيسي هو «استاذ جامعي عراقي مسالم وغير مؤذ»، على حين ان السيدة اليانور ايتكين Eleanor Aitkin من كيمبريدج ذكرت ان «كمال ناصر.. كان يمقت العنف، وان الفلسطينيين لقبوه «بالضمير»».

وفي فرنسا ايضا سرت همهمات ضد من دعاهم مؤيدو

العرب «بالارهابيين الاسرائيليين»، واتضح لتل ابيب ان موجة التشجيع الذي تلقته اسرائيل حين شرعت تقوم بعملياتها الانتقامية الأولى قد اخذت سريعا تتلاشى. ويضاف الى ذلك الضغط الذي مورس على الدبلوماسيين الاسرائيليين، واشد ما لوحظ في فرنسا وبريطانيا، بان الارهاب في مناطقهم يجب ان يتوقف. وفي بريطانيا كانت هذه الرسالة لا علاقة لها بعمليات القتل، اذ لم تجر اية محاولة من هذا القبيل فيها، ولكنَّ كلا رئيسي الوزراء، سواء من حزب العمال ام من المحافظين، تأثرا بالجوهر Core الصلب لموظفي وزارة الخارجية المؤيدين للعرب. ومن الناحية الاخرى اثار قتل فدائيين فلسطينيين في فرنسا قدراً معيناً من السخط في احزاب اليسار وانصار الحزب الشيوعي.

لم تُمْضِ الشرطة النرويجية، في مكان صغير مثل ليلهامر، طويل وقت كي تعلم ان فريقا من الغرباء قد وصل في سيارات مستأجرة، يقودونها بأنفسهم، الى هذا المنتجع. وتبودلت رسائل بين ليلهامر واوسلو، وروقب المسافرون جميعهم بين هذين المكانين. فللمرة الأولى لم تنفذ، تنفيذاً فعالاً، خطط الفرار، وقد فشل كل ما كان متوقعاً له ان يمنى بالاخفاق رغم ان المخابرات

النرويجية كانت تتعاون سراً مع الموساد كما حدث في مسألة الزوارق الخمس. ويذكر ديفيد تنّين Divid Tinnin، في كتابه «الفريق الضارب» Hit Team، ان «ثمة قليل شك في ان المخابرات النرويجية قد ساعدت الاسرائيليين سراً، وقد رفضت هذه ان تتعاون في التحقيق الذي قامت به شرطتها نفسها، كما رفضت ان تساعد مدّعي عامي الدولة حين قدم العملاء الاسرائيليون الستة للمحاكمة. وقد حُذِّرَ الصحفيون، الذين يغطون القصة، تحذيراً مباشراً، لا من جانب المخابرات النرويجية فحسب بل من قبل قوات الأمن في بلدان هؤلاء الصحفيين نفسها».

وليس ثمة من شك في ان «فرقة الانتقام» هذه قد اضعفها ادخال عميل او عميلين جديدين فيها. وقد لوحق اثنان من اعضاء هذه الفرقة، وهما دار ايرت Dar Ert او (اربيل Aerbel) ـــ الاسرائيلي الدنماركي المولد، وماريين غلادنيكوف Marianne Gladnikov ـــ الفتاة السويدية، واعتقلا في غضون ساعات قلائل، ثم اعتقل اربعة آخرون خلال يوم واحد. وربما كان الوضع سيزداد سوءاً لأن ايا من هؤلاء لم يستطع تحذير الجنرال زامير او معاونيه في اوسلو ان الخطة كلها قد باءت بالفشل، فقد سمع

هؤلاء الأخبار من الاذاعة، فسارعوا الى الهرب من اوسلو، ربما بمساعدة حلفاء لهم في المخابرات النرويجية، بطريق غير معروفة قبل ان يتمكن رجال الشرطة من الوصول اليهم. ولو القي القبض على رئيس الموساد لربما كانت الكارثة ماحقة.

ليس ثمة من شك في ان العملية قد تسلل، عن غمد، اليها عميل مزدوج او ربما عميلان مزدوجان او ثلاثة عملاء مزدوجون، فكان الواحد منهم يقدم معلومات للمخبرين الآخرين المزروعين. وتوحي التحقيقات ان اغراء فرق الموساد بالذهاب الى شمالي اوروبا كان متصلاً بالتحركات المصرية ــ السورية من اجل شن الهجوم على اسرائيل والذي بدأ بعد بضعة اسابيع. فقد كانت هذه اكثر من حركة خداع لابعاد «فرق الانتقام» عن اهدافها الحقيقية. والدافع الآخر هو لفت انتباه الموساد عن استعدادات الحرب. ولا ريب ان النجاح الأكبر، في رأي الفلسطينيين، كان ذهاب زفي زامير الى اوسلو. ولكن العملية كلها، ما عدا هذه الأمور جميعها، كانت عملا غير متقن قام بها هواة تركوا ادلة عليهم في كل مكان. فحين وجدت الشرطة النرويجية، على سبيل المثال فتاتين تحملان جوازي سفر كنديين باسمي لسلي Leslie وباتريشيا

Patricia روكسبيرغر Roxbugér عثرت بينِ امتعتها على رقم هاتف رجل الموساد في أوسلو الذي صدف ان كان ضابط امن في السفارة الاسرائيلية، مما قاد بدوره الشرطة الى شقة رجل الموساد هذا حيث وجدت عميلينِ اسرائيليين آخرين.

لا يزال عدد الاشخاص، الذين هربوا من أوسلو، دون ان يعتقلوا، غير معروف، ولكن من المؤكد ان كافة الاعضاء الرئيسيين في «الفرقة» والذين كانوا مطلوبين هربوا. الا ان الذين بقوا قدموا الى المحاكمة ووجدوا، خلال وقت قصير، مذنبين وحكم عليهم «لمشاركتهم في المعرفة المسبقة بجريمة قتل من الدرجة الثانية». وقد عرف النروجيون تماما ان القتلة الحقيقيين هربوا، وان نظام عِدالتهم المتسامحة الكريمة افاد الشركاء، اذ حكم على سيلفيا رفاييل Sylvia Rafael وابراهام غيهمر Abraham gehmer بالسجن خمسة اعوام ونصف العام، وعلى دار ايرت Dar Ert بالسجن خمسة اعوام. وادينت مارِيين غلادنيكوف Marianne gladnikoff بالتورط في جريمة القتل وحكم عليها بالسجن ثلاثين شهراً. وحكم على زفي شتاينبرغ السائق الرئيسي في عملية الفرار بالسجن عاماً واحداً، وبرىء رجل واحد.

وخلال المحاكمة وقع حادث غريب مثير كشف عن شيء من الهواية وعدم الاحتراف في عملية ليلهامر. فقد اخبر دار ايرت المحكمة انه طلب من المحقق معه ان يتأكد من شهادته عن طريق الاتصال بميكو Miko في تل ابيب على رقم معين. وعند هذه النقطة اعترض السجناء الآخرون وطلبوا اخلاء المحكمة من رجال الصحافة والجمهور. ولا ريب ان اثارة هذه الناحية كان عملاً غبياً، اذ اندفع الصحفيون الى خارج القاعة واخذوا يتصلون بهذا الرقم في تل ابيب. ولكن ما حصلوا عليه كان صوتا مسجلاً يقول باللغة الانكليزية «ان هذا الرقم معطل». والاحتمال هو ان الاكثر خبرة بين السجناء حاول تحذير دار ايرت مما كشفه في محكمة علنية.

ان من حسن طالع الاسرائيليين واعضاء «فرقة الانتقام»، الذين صدرت عليهم احكام بالسجن، انهم كانوا يعملون في واحدة من الطف بلدان اوروبا وارقها، اذ ان النرويجيين يمزجون الشجاعة الكيخوتية (غير العملية) بالتسامح والتساهل مع المسيئين. والحقيقة ان ايا من هؤلاء المحكومين لم يمض في السجن اكثر من عامين، بل ان بعضهم امضى فترة تقل عنهما كثيراً.

كانت تلك ايام تجربة الموساد المرة، ولم يمض طويل وقت عليها حتى تقاعد الجنرال زامير واصبح رئيس شركة بناء. وكان الآخرون اكثر حظاً، فرجل الموساد المسؤول عن العملية كلها، والذي هرب من النرويج، لم يبق في عمله فقط بل طُلِبَ اليه ان ينضم الى لجنة تحقيق الموساد الخاصة في قضية ليلهامر. ومُنِحَ آخرون فرصة اخرى في ضوء الخبرة المكتسبة، ولكن واحداً من اعضاء «الفرقة» طُرِدَ من عمله لأنه حدّد الرجل غير الصحيح.

اطلقت مارين غلادنيكوف من السجن بعد خمسة عشر شهراً، وقد عادت الى السويد بعد زيارة قصيرة لاسرائيل. وخرج غيهمر من السجن مع سيلفيا رفاييل بعد اثنين وعشرين شهراً، واحتفظ الاثنان بمنصبيهما في الموساد. وسيلفيا نموذج المرأة العملية والجاسوسة الحديثة التي لا تقل خبرة عن اي رجل عميل، فهي انيقة مرحة، امضت فترة سجنها في العزف على الغيتار وفي دراسة علم النفس واللغة العبرية التي كانت تفهمها قليلاً.

وضعت حراسة مشددة لبعض الوقت على كافة افراد «فرقة الانتقام» الذين كانوا في النرويج، فقد كُشِفَتْ هوياتهم واصبحوا أهدافاً واضحة لعمليات انتقامية. وقام الفلسطينيون بمحاولات

لتقليد الاسرائيليين عن طريق تنفيذ اغتيالات ثأرية، ولكنهم لم ينجحوا بسبب يقظة الشاباك (الأمن الداخلي) والموساد.

خلال سنة ١٩٧٦ م ظهرت قصة في الصحافة تقول ان السلطات الاسرائيلية عرضت ثلاثمائة الف دولار من اجل ايقاف نشر كتاب عن «محاولة اسرائيلية مزعومة لقتل فدائي فلسطيني انتهت بمقتل الرجل الخطأ»[٤]. وذكرت صحيفة Aftenposten النرويجية ان هذا العرض قدمه اسرائيلي، مرتبط بسفارته في باريس، الى مؤلفي الكتاب وهما: داغ كريستنسن Dag Christensen، من صحيفة Aftenposten وديفيد تنين David Tinnin من مجلة تايم Time Magazine. واضافت الصحيفة ان اسرائيل حاولت منع هذا النشر لان الكتاب يقدم صورة صحيحة، بعيدة عن التملق، لكفاءة المخابرات الاسرائيلية في عملية الاغتيال ببلدة ليلهامر. وقد تشكى بعض الذين قرأوا الكتاب من انه في محتوياته معاد للعرب، وكتبت اليانور ايتكين Eleanor Aitkin من كيمبريدج لصحيفة تايمز ان تعبير «ايلول الأسود» الذي يطلقه ديفيد تنين، دون تمييز، على كافة ضحايا الارهاب الاسرائيلي الرسمي منذ حادثة ميونيخ يلقي شكوكاً على حياده ويثير الارتياب فيه. وعلى اية حال

ظهرت بعض المعلومات عن كارثة ليلهامر في الصحف وكتاب واحد على الأقل من قبل، وبينما كانت الصحافة تغطي مجريات المحاكمة نفسها.

وسرعان ما شَكَّلَ الموساد صورة دقيقة تماماً عما جرى، بشكل خاطيء، في ليلهامر وكيف انه تم، من خلال مكائد عميل عربي ادعى انه صديق لهم وليس من خلال توجيه الفريق نحو الرجل الخاطيء فحسب بل اعلام الشرطة النرويجية بالأمر. وهذا العميل المعني يعيش بأمان في سويسرة، حيث يتمتع بحماية قوية جداً من المخابرات السويسرية ومن العرب.

ربما شكر علي حسن سلامة الله شكراً جزيلاً على انه لم يكن الرجل الذي قتل، رمياً بالرصاص، في ليلهامر، ولكن الموساد منحته فترة راحة قصيرة جداً بعدئذ، اذ سرعان ما اخذت تقتفي آثاره حين جاءت انباء انه يعيش في بيروت. وفي العاشر من كانون الأول ١٩٧٤ م. دُمِّرت ثلاثة مكاتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، تدميراً كبيراً، بهجمات بصواريخ وُضِعت عليها اجهزة توقيت، وركبت على مناصب فوق سقوف ثلاث سيارات اوقفت على مقربة من هذه المكاتب، وكان اربعة رجال

يحملون جواز سفر المانية غربية ومكسيكية وارلندية وبريطانية، قد غادروا لبنان قبيل وقوع الهجمات. وقد شك في ان هذه كانت من فعل الاسرائيليين، وبعد يومين دمر، بقنبلة، مكتب الوكالة التي اجرت السيارة للرجل ذو الجواز الألماني الغربي.

وخلال الحرب الأهلية اللبنانية أُرسِلت «فرقة انتقام» اخرى الى بيروت لاصطياد علي سلامة وقتله. وفي اواسط سنة ١٩٧٥ م. لوحق حتى شقته فيها، ووضع تحت المراقبة. وذات ليلة رأى القاتل، من الموساد والرابض وراء بندقيته المزودة بمنظار، خيال رجل ظنه حسن سلامة، فأطلق النار، ولكن تبين ان هذا الخيال لدمية. وخلال تلك الفترة كان اعضاء منظمة ايلول الأسود يتخذون اجراءات جديدة في تكتيكاتهم المراوغة. وبعد سنة، وفي ٧ تشرين الأول ١٩٧٦ م على وجه التحديد، لحق الاسرائيليون بعلي سلامة الذي كان يعمل آنذاك تحت الاسم الحركي «ابو حسن» وبصلة وثيقة مع كارلوس الغامض. وكان سلامة قد استمر في ولعه بالقمصان الحريرية الثمينة والبزات الحديثة حسب آخر الازياء، والذي ثبت انها سبب دماره. وقد اقام شبكة واسعة من العملاء، ذوي المرتبات العالية، الذين تولوا حمايته والحصول احيانا

على معلومات مسبقة عن تحركات الموساد، وغيَّر عنوانه، تغييراً مستمراً، ولكنه ظل العقل الموجه للضربات الارهابية الناجحة في الشرق الأوسط وفي اماكن ابعد منه.

وفي هذه الفرصة الأخيرة اطلقت النار على «ابو حسن»، واصيب بجراح خطيرة نقل على اثرها الى المستشفى، ولكنه شفي ليتابع عمله، رغم ان التقارير الأولى ذكرت انه قتل.

ثم اصبح صعب جداً على الموساد ان يقتفوا آثار من تبقى من قادة الجماعات الفلسطينية وان يصفوهم. وما عدا قتل محمود صالح، رئيس مكتبة منظمة التحرير الفلسطينية، في باريس يوم ٤ كانون الثاني ١٩٧٧ م لم يحقق الاسرائيليون اي نجاح يذكر. فقد ظل كارلوس على قيد الحياة رغم ان الاسرائيليين تلقوا، في بحثهم عنه، مساعدأت من المخابرات الاميركية والبريطانية والفرنسية. وأصبح كارلوس، بعد ان اختفى عن الانظار فترة طويلة، هو نفسه قاتلاً محترفاً اذ يعتقد انه اطلق النار في ٣٠ كانون الاول ١٩٧٤ م. على اللورد سيف Sieff فأصابه بجراح خطيرة، واتبع ذلك بالقاء قنبلة يدوية على بنك هابوعاليم الاسرائيلي.

وفي هذه المرحلة عقدت الموساد واحدا من المؤتمرات

الدورية السرية غير الرسمية مع أجهزة مخابرات اجنبية ، فقد قارنت التقارير مع عملاء جهاز د ــ ١٦ D-16 البريطاني والأمن الفرنسي ووجدت ان نشدان كارلوس قد عقَّدَهُ ، الى حد ما ، الافتراض بأن له مهمة مزدوجة توجهها المخابرات السوفييتية ، فهو يمكن ان يستخدم في أية لحظة طعما او قاتلاً آخر . واقترحت الموساد ان خير طريقة للامساك به هي مراقبة اتصالات الجيش الاحمر الياباني في باريس ومتابعتها . وبعد ذلك بوقت قصير اعتقل الفرنسيون ، وهم يتصرفون بناء على هذا الاقتراح ، يابانياً في مطار اورلي ، ووجدوا في حيازته ثلاثة جوازات سفر وبضع مئات آلاف الدولارات المزيفة ، ولكنه بعد ثلاثة اسابيع من الاستجواب المتواصل السري لم يدل بما يكشف عن شيء . ولم يكن في ذلك ما يثير الدهشة لان فورويا Furuya ، وهذا هو اسمه ، كان مقتنعاً ان الثوريين سيجدون طريقة ما لانقاذه ، فكارلوس حليفه ، وقد ارسل افراداً من مجموعة الفدائي بوضيا لمعاينة السفارة الفرنسية في لاهاي . ثم ، وفي ١٣ ايلول ١٩٧٤ م اقتحمها ثلاثة فدائيين يابانيين . وبعد خمسة ايام اذعن الفرنسيون لهم ، وأُطلِقَ فورويا ونقل الى سورية يحمل ثلاثمائة الف دولار ، هي أموال الفدية التي طلبوها .

وفي غضون ذلك كان كارلوس هو العقل المدبر ايضا لشتى الهجمات على المؤسسات المؤيدة لاسرائيل في باريس، ومنها الصحف اليومية الفرنسية اليمينية. وحين اقتنع انه كسر هيبة الفرنسيين قام بهجوم على طائرة، تابعة لشركة العال، في مطار اورلي معتقداً ان وزير خارجية أسرائيل على متنها. وكانت هذه العملية من اجرأ العمليات التي قام بها الفدائيون، وكانت الأسلحة المستخدمة من نوع القاذف ب ـــ ٧، ولكن القذائف اخطأت طائرة العال وأصابت طائرة يوغسلافية بدلاً عنها، وقد وُجِّه اللوم في الحادث الى المنشقين اليوغوسلافيين. وبعد ثلاثة ايام جرت محاولة اخرى لاطلاق قذائف R. P. G، ولكن الأمن الفرنسي احبطها: ومع ذلك افلح الفدائيون في اخذ رهائن، وفاوضوا على اطلاقها. وبعد ذلك، بوقت قصير، ذكرت التقارير ان كارلوس قد شوهد في لندن، وحدث استنفار لرجال الأمن في مطار هيثرو.

ولكن كان لكارلوس، في لندن، صديقات ثرثارات، ومرة اخرى اخذ كارلوس يتنقل من مكان لآخر، وادعى الفرنسيون انهم اقتفوا آثاره حتى بانكوك، ولكن الموساد، باصرارها وكفاءتها وعدم يأسها بسبب النكسات التي لا حصر لها، قالت لهم ان كارلوس

ما زال في باريس، ودمدم الضابط الفرنسي المسؤول عن هذه العمليات بكلمات فُهِمَ منها ان شبيهاً لكارلوس قد استخدم مرة اخرى.

وتساءل الاسرائيليون «شبيه له ربما نعم، وربما لا، ولكن كارلوس سانشيز موجود. انه معار للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، على حين انه يُسْتَخْدَمُ لعمليات اخرى. ولديه، على الأقل، اربعة جوازات بأسماء مختلفة وبجنسيات مختلفة ايضا. وكانت مجموعته الفدائية، مجموعة بوضيا، تضم الاوروبيين والعرب على حد سواء».

وكانت عملية كارلوس الثانية تسريب ربع مليون دولار، من النقد المزيف، الى اسرائيل وبيعها في السوق السوداء، ولكن هذه المؤامرة كشفت والقي القبض على عملائه. وفي حزيران ١٩٧٥ م. ألقى الفرنسيون، بناء على معلومات من الموساد، القبض على ميشيل مكربل وسيط كارلوس. وقد تكلم هذا وخان كارلوس، وقاد الشرطة مترددا بعض الشيء الى شقته. وكانت هذه عملية تعيسة قام بها عملاء الأمن الفرنسيون، اذ ان كارلوس كان سريعاً في سحب مسدسه وقتل مكربل وهؤلاء العملاء، ثم هرب

عبر نافذة، واختفى بعض الوقت في اوروبا الشرقية، واخذت الموساد تلاحقه منذئذ في تشيكوسلوفاكيا وسويسرة، حيث ظهر ثانية في زوريخ، وفي النمسا. وفي كانون الأول ١٩٧٥ م. استأثر كارلوس، ثانية، بالعناوين الرئيسية في الصحف حين قاد غارة على مقر الاوبك في فيينا. وتلاحقه حالياً الموساد والمخابرات البريطانية والأمن الفرنسي، وكانت السافاك، قبل الثورة الايرانية، تلاحقه ايضا، فالفلسطينيون كانوا يمقتون ايران لاصرار الشاه على بيع النفط الى اسرائيل.

وقد كشفت الغارات التي قام بها عملاء الموساد في برلين وفيينا، والتي تنبهت بعدها الشرطة النمساوية والألمانية، ان كميات من غاز الأعصاب وملح الفوسفور العضوي السائل Tabun، اللذين طورهما النازيون في الحرب العالمية الثانية، قد وقعت في ايدي الجماعات الارهابية. وثبت، فيما بعد، ان طرداً يحتوي على عبوة متفجرة، متصلة بزجاجة مليئة بالغاز، قد اكتشفته سلطات البريد الاميركية. وقد أُرسِلَ هذا الطرد من احدى الدول العربية وربطت صحيفة بوسطن غلوب Boston Globe، التي نشرت هذا الخبر، هذا السلاح المميت بكارلوس.

ان حكاية زجاجة الغاز المرسلة في البريد خدّاعة قليلاً، ولكن يبدو انه ليس ثمة شك في أن واحدة منها قد ارسلت بهذا الشكل، وان وكالة المخابرات المركزية، قد اعلمت بالأمر، وانتشر خبر الحادث. ولكن ربما كان الشخص، الذي بعث بها عميلاً اسرائيلياً كان يحاول البحث عن منح اكتشاف الموساد في فينا وبرلين حظاً من الذيوع والانتشار. ففي ٢٧ شباط ١٩٧٦ م اغارت الشرطة النمساوية، وهم يرتدون اقنعة الغاز، في فينا على بيت جوهان كونيغستورفر Johanne Konigstorfer، واسمه المستعار جون كوز John Kuz، واعتقلته مع خطيبته المضيفة في فندق هيلتون. وفي قبو بيتهما، الذي تسكن فيه ام الفتاة، وهي ليست موضع ريبة، عثر على غاز الاعصاب المميت معبأ في زجاجات وعلب معدنية، وكان قد نقله جواً من برلين منتجه رتشارد كونيغستورفر البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، وشقيق المشبوه جوهان.

والفدائي العربي الآخر الذي لاحقه الاسرائيليون هو ابو داوود عضو الحلقة الداخلية في منظمة ايلول الأسود، وكانوا يطلبونه لعدد من العمليات الفدائية، وقيل ان الشرطة الالمانية

الغربية كانت تطلبه ايضا لدوره في عملية ميونيخ. ويدّعي ابو داوود انه كان في صوفيا حين وقع الهجوم على الفريق الاولمبي الاسرائيلي، ولكن مخبري الموساد يقولون انه ذهب الى ميونيخ في اوائل ١٩٧٢ م. كي يخطط العملية كلها مستخدماً جواز سفر عراقي باسم سعد الدين ولي. وقد استطاع، بسبب تكلمه اللغة الالمانية، ان يتصل بأحد الاشخاص الذين وضعوا مخططات بناء القرية الاولمبية، وحصل منه على معلومات عن مخارجها. وفي شباط ١٩٧٣ م ألقي القبض عليه في الاردن وحكم عليه بالاعدام لدوره في غارة فدائية فاشلة تهدف الى خطف الوزارة الاردنية جميعها. وقد اثار ذلك الحكم موجة من الاحتجاجات في شتى انحاء العالم العربي ومن الاتحاد السوفييتي. وكانت الغارتان على سفارتي المملكة العربية السعودية في الخرطوم قد شنتا، جزئياً، بهدف فرض اطلاق ابي داوود من السجن. وفي ايلول ١٩٧٣ م امر الملك حسين بتخفيض الحكم عليه الى السجن المؤبد، وبعد وقت قصير اخلي سبيله.

وفي كانون الثاني ١٩٧٧ م. وصل ابو داوود، الذي كان لا يزال يتنقل باسمه المستعار، الى باريس لحضور جنازة محمود صالح الذي اطلقت عليه النار وقتل خارج مكتبته على الضفة

اليسرى لنهر السين . وتحرك الأمن الفرنسي ، الذي يعمل متواطئاً مع الموساد ، سريعاً ، فاعتقله دون تفويض من الرئيس جيسكار ديستان او من وزارة الخارجية او الداخلية . واستنكرت الدول العربية ، على الفور ، هذا التصرف ، ووصفته بانه « عمل غير ودي » ، بينما طلبت اسرائيل من فرنسا الاحتفاظ به في انتظار طلب تسليمه لها . على ان ما ازعج الحكومة الفرنسية والرئيس الفرنسي جدا هو ان جيسكار ديستان كان يسعى وراء اتخاذ دور الحَكَم في نزاع الشرق الاوسط منذ انتخابه سنة ١٩٧٤ م وتعاون تعاوناً وثيقاً مع السادات . وكانت هنالك ايضا حقيقة لا تصدّق ، وهي ان وزارة الخارجية الفرنسية استقبلت ابا داوود ، في اليوم السابق لاعتقاله ، بوصفه عضواً رسمياً في وفد فلسطيني .

ويكمن وراء هذا كله اتفاق سرّي بين افراد الموساد وبين جهاز الأمن الفرنسي على وجوب فعل شيء لا ضد ابي داوود فقط ، بل ضد العدد المتزايد من الثوريين(*) الذين يدخلون فرنسا ويغادرونها بحصانة ودون عقاب ، وكان ذلك متصلاً بمشترك قلقهما

(*) تطلق عليهم الاوساط الصهيونية والامبريالية ارهابيين ، وقد استعملنا التسمية الصحيحة لهؤلاء ، اي الثوريون .

(المترجم)

من كارلوس وبتصاعد التعاون بين الثوريين من دول عديدة. وكان الموساد وجهاز الأمن الفرنسي كلاهما ينظران الى المحادثات السرية بين بعض الفلسطينيين والقائمين بحملة السلام الاسرائيلية بارتياب وشك ان لم يكن بكامل عدم الثقة، وكانا سيسعدان جداً إذا رأياها تنهار، وما اعتقال ابي داوود الا واحد من السبل لتحقيق ذلك. ولكن ما لم يكن واضحاً هو هل ترغب الوزارة الاسرائيلية فعلاً في رؤية المحادثات تنهار، فقد كانت ثمة دلائل على ان رئيس الوزراء وآخرين شجعوا فعلاً هذه الاتصالات. على ان ابا داوود اخلي سبيله في ١١ كانون الثاني ١٩٧٧ م، وغادر فرنسا الى الجزائر.

حدثت تغييرات شتى في المخابرات الاسرائيلية خلال السنوات التي تلت كارثة ليلهامر، فالجنرال زفي زامير خلفه اخيراً الجنرال اسحاق حوفي Yitzhak Hofi في ايلول ١٩٧٤ م. رغم أنه وفقاً للعادة لم يذع اي بيان رسمي عن ذلك، وظل التعيين الجديد سراً. وحوفي، هذا الضابط القديم مستدير الوجه، من مواليد اسرائيل، وكان له من العمر عند التعيين خمسون عاماً. وقد خدم من قبل ضابطاً في صفوف البالماخ حين كان في اواخر عقده

الثاني، وخدم في حرب ١٩٤٨ م قائد سرية في الكتيبة الأولى للواء يفتاح، وهو النخبة في قوات البالماخ (الصاعقة). وبعد ذلك اصبح ضابطاً في الجيش الاسرائيلي، واصبح اول مدرس في كلية تدريب الضباط، ثم خدم بامرة الجنرال ييغال الون والجنرال موشه دايان كضابط عمليات في القيادة الجنوبية.

واخيراً تولى حوفي قيادة كتيبة في لواء جيفاتي، وبعدها درس في كلية الاركان والقادة الجديدة. وقبيل حملة سيناء ١٩٥٦ م واثناءها كان قائد لواء المظليين تحت قيادة ارييل شارون الذي تعلم منه اشياء كثيرة ساعدته جداً فيما بعد. والرجلان في حوالي العمر نفسه، واهتم كلاهما، اهتماماً شديداً، باساليب المخابرات العسكرية. وكان الجنرال شارون، في شبابه، فعالاً ونشيطاً في منظمة الهاغاناه، واشترك في «العملية داني» Operation Dany سنة ١٩٤٨ م، وعمل ضابط مخابرات اقليمي اثناء الحرب، ثم عين ضابط مخابرات في القيادتين الوسطى والشمالية. وفي سنة ١٩٥٢ انتسب الى الجامعة العبرية للقيام بدراسات، ثم عين قائداً للوحدة ١٠١ الشهيرة، وقام بعمليات انتقامية عديدة وجرح في احداها. وفيما بعد اصبحت الوحدة ١٠١ جزءاً من كتيبة

المظليين التي عين شارون قائداً لها، فقام ايضاً بعدد من الغارات الانتقامية. وبين فترات هذه العمليات درس القانون. وفي حرب الايام الستة كان شارون قائد اللواء الذي اخترق المواقع المصرية الحصينة في ام كِتف وابو عجيلة وبير حسنة حتى ممرات المتلا.

وقد عين الجنرال حوفي اخيراً قائداً للواء المظلات، وكان هذا التعيين، ولا ريب، عاملاً هاماً جداً حين نفذت الغارة الشهيرة على عنتيبي سنة ١٩٧٦ م. ثم قام بدورة دراسية في كلية الاركان العامة وقيادة الجيش في الولايات المتحدة، ثم عُيِّنَ، ما بين ١٩٦٥ و١٩٦٨ م. رئيس اركان شعبة في دائرة العمليات. وقد اثنى رئيس العمليات، الجنرال عيزر وايزمان، عليه لاسهامه الكبير في الانتصارات في حرب الايام الستة. وفي سنة ١٩٦٨ م. رقي الى رتبة لواء، وعين نائب رئيس العمليات. وفي السنة التالية رُفِّع الى رتبة فريق Majer General وعين قائداً لشعبة التدريب. وهكذا، فإن حوفي يتمتع بخبرة شاملة في شؤون الجيش الاسرائيلي، ومن مواهبه الخاصة قدرة نادرة على نقل التعليمات الى الآخرين، وحثهم في الوقت نفسه على تنفيذها بكفاءة، فهو، في الوقت نفسه، مدرب ورافع معنويات موهوب، وهاتان موهبتان حيويتان لرئيس المخابرات التي كان عليها، دائماً، ان تكون مستعدة للحرب.

وفي صيف ١٩٧٢ م تولى حوفي القيادة الشمالية من الجنرال موردخاي غور الذي عين ملحقاً عسكرياً في واشنطن، وقاد الجبهة الشمالية في حرب ١٩٧٣ م. وقبيل اندلاع تلك الحرب حذر حوفي، الذي بات، الى حد ما، ثقة في المخابرات، بشكل متكرر من احتمال هجوم سوري، وطلب تعزيزات. وقد وصل اليه بعضها، ولولا ذلك لربما كانت وطأة الحرب اشد واسوأ على الاسرائيليين. وفي كانون الثاني ١٩٧٤ م عين رئيساً للعمليات، وعقب استقالة رئيس الأركان ديفيد اليعازار في نيسان من تلك السنة تولى رئاسة الاركان فترة قصيرة الى ان تولاها موردخاي غور. وتردد آنذاك ان الجيش الاسرائيلي كان يريد حقاً ان يبقى حوفي بين صفوفه، ولكن هذا استقال في تموز ١٩٧٤ م، وبعد وقت قصير اصبح الميمونه (رئيس المخابرات) الجديد.

لم يكن ثمة اي نقص في عدد المتطوعين في «فرقة الانتقام» العاملة ضد الفدائيين العرب. وفي تموز ١٩٧٥ م ذكر ان ضابطاً مظلياً اسرائيلياً سابقاً كان يحاول تشكيل فرق اعدام من المتطوعين للعمل ضد قواعد الفدائيين في جنوبي لبنان[٥]. وقد اكدت صحيفة معاريف الاسرائيلية ذلك، وحددت الضابط فقط انه

« الملازم ايتان هـ » . ووصفته انه طويل القامة ورياضي ، وذكرت انه خدم في جبهة قناة السويس اثناء حرب ۱۹۷۳ م تحت قيادة الجنرال ارييل شارون الذي رقي الى هذه الرتبة آنذاك . وكان هذا الضابط الغامض المنهمك في خطة التجنيد هذه تواقاً جداً لالقاء شباكه الأوسع بحثاً عن متطوعين موهوبين لتشكيل « وحدة تموز » ، وهذا رمز « للقتال حتى الموت » ، من اجل القضاء على الفدائيين. وقال للصحيفة انه لا يحاول تشكيل فريق أنصار ، ولكن مجموعة تحظى بمباركة سلطات الامن الاسرائيلية . وذكرت الصحيفة ايضا انه طلب من الجنرال شارون ان يتولى قيادة هذه القوة . وكان شارون آنذاك عضو معارضة في الكنيست ، ولكن فهم ان وزير الدفاع الجديد ، شمعون بيريز ، طلب منه العودة الى الخدمة الفعلية « لمهمات خاصة » لم تُحَدَّد علناً آنذاك(٦) .

وربما تصور تعليقات « ابو داوود » التالية التي ادلى بها في مقابلة بالجزائر يوم ١٤ كانون الثاني ١٩٧٧ م ، وفي ضوء المعركة المستمرة بين الاسرائيليين والعرب ، ربما تصور موضوعة هذا الفصل . قال ابو داوود « وصلت الى باريس ، بوصفي موفداً رسمياً لمنظمة التحرير الفلسطينية . وكانت المخابرات الفرنسية تعرف ان

احدى مهماتي هي كشف قتلة محمود صالح. وكنا نجري تحقيقاً في عملية الاغتيال. تلك كانت مهمتي. وقد عرفت المخابرات الفرنسية والموساد انني بدأت القي بعض الضوء على هذه القضية، فالمخابرات الفرنسية متورطة في القضية، وهي تغطي الاسرائيليين. انني اقول لكم: لو كانت امامي صور لاستطعت ان ادلكم على الشخص الذي قتل صالح... وهكذا، بالطبع، القت المخابرات الفرنسية القبض علي، وهذا عمل شاذ جداً، وتم بالتعاون مع الاسرائيليين. انني لم ارتكب حادثة ميونيخ، واعني بذلك النظر فقط الى طلب الاسرائيليين تسليمي اليهم، لقد اراني الفرنسيون اياه، فهو يذكر اسما ليس حتى الاسم الموجود على جواز سفري العراقي، بل اسم محمد داوود عودة، وقالوا ببساطة ان الشخص عضو في منظمة ارهابية. وهذا الاسم، بالنسبة لنا، يشبه اسم سميث او جونز في انكلترا، فلدينا ثلاثة اشخاص يحملون هذا الاسم نفسه في مكتبنا بالجزائر فقط. وانا لم استعمل قط هذا الاسم، وهم يستطيعون ان يلقوا القبض على مئات الفلسطينيين والعرب الذين يحملونه»[٧].

اما بالنسبة للشخص المراوغ الآخر، كارلوس، فآخر ما

عرف عنه انه كان يطوف حول الخليج العربي سنة ١٩٧٧ م. ففي اوائل كانون الثاني ذلك العام شوهد في دبي التي كان يزورها بجواز سفر أردني. ويعتقد ان قاعدته في بغداد، حيث منح مأوى عقب عمليته في فينا خلال شهر كانون الاول ١٩٧٥ م. ولكن يعتقد ان له أواصر قوية مع الارهابيين اليوغوسلافيين في الجبهة المعادية لتيتو، وانه تسلل، اكثر من مرة الى بلغراد، دون ان يلحظه احد.

الفصل العشرون

دروس من حرب يوم الغفران ★

(★)سوف نستخدم نحن «حرب تشرين» بدلاً عن تسمية حرب يوم الغفران التي استخدمها الكاتب.

(المترجم)

«لم تُخْدَعْ قط، ولكننا خدعنا انفسنا».

جوهان ولفغانغ فون غوته

Johanne Wolfgang Von goethe

تكررت في وسائل الاعلام، وباستمرار، ان كل الشهرة التي كسبتها المخابرات الاسرائيلية لنفسها في حرب الايام الستة قد فقدتها كلها تقريباً بسبب اخفاقاتها في حرب تشرين ١٩٧٣ م. صحيح ان تفسيرات خاطئة للمعلومات قد حدثت في حرب ١٩٧٣ م التي شنها العرب أخيراً، ولكن من الخطأ القول ان هذا يعود كلياً الى ضعف المخابرات وهزالها.

والحقيقة ان شبكة المخابرات الاسرائيلية كانت تعمل بهدوء، في أوائل خريف ١٩٧٣ م، كما كانت تفعل عشية حرب الايام الستة، ولكن الجهاز الاداري المسؤول عن التصرف بناء على تلك

المعلومات كان قد بدأ ينذر بالخطر، ومن الواضح ان ثمة مجالاً لتغييرات في هذا الاتجاه.

ان هنالك قدراً معيناً من التبرير لانتقاد كهذا، فقد بدا آنذاك، ولاريب، ان المخابرات الاسرائيلية كانت تعير مطاردة الفدائيين في النرويج اهتمامها الكبير خلال شهر تموز السابق ومراقبة التحركات على الطرف الآخر من الحدود اهتمامها القليل جداً. وبرغبة في ايجاد كبش فداء بغد حرب تشرين ١٩٧٣ م كان سهلاً جداً التوكيد على أن كل شيء ربما كان سيختلف لو ان الموساد كانت اكثر تيقظاً وأقل اهتماماً وتوقاً الى مطاردة الافراد القتلة، وليس ثمة من شك في ان منظمة ايلول الأسود اطلقت ستاراً متقناً من الدخان للفت الانتباه عن التهديد الحقيقي لاسرائيل.

ولكن، وكما سيرُى، فإن النقد الحقيقي الذي يمكن توجيهه شرعاً هو افتقاد التنسيق المناسب في تقارير المعلومات سنة ١٩٧٣ م، ولم يكن ثمة شيء يقترب من درجة التعاون نفسها التي كانت سنة ١٩٦٧ م بين الموساد وامان، فقد اظهرت الثانية ميلاً الى القاء الشك حول تقارير الموساد التي تَبيَّنَ فيما بعد انها صحيحة. وبينما كان احد اسباب ذلك عدم الثقة بالموساد والذي

احس به بعض اعضاء الحكومة الاسرائيلية عقب كارثة ليلهامر كان هناك، ايضا، نقص مأساوي بالثقة بالنفس في اوساط أمان خلال تلك الفترة الحيوية. والسبب المحتمل لذلك هو ان امان غيرت رؤساءها اكثر مما فعلته الموساد، فكثرة تغيير الرؤساء واحدة من اكبر الاخفاقات التي تمنى اجهزة مخابرات القوات المسلحة بها. لقد كان قسم المخابرات البحرية البريطانية احد أقوى اجهزة المخابرات المنيعة في العالم، زمن الحروب، خلال القسم الاعظم من نصف قرن، ولكنه تراجع، ما بين الحربين الى الدرك الادنى من عدم الكفاءة لان مديره كان يتغير كل سنة تقريباً، واحيانا خلال مدة تقل عن ذلك، بسبب العرف البيروقراطي الوظيفي العقيم، فكان المنصب ينتقل، غالباً الى الرجل التالي في المسلسل الوظيفي بسبب هذا النوع من الترقية، وليس الى الرجل الاصلح لهذا العمل. وفي واحدة من هذه الحالات انتقل المنصب الى رجل شديد الولاء للألمان حين كان هتلر هو عدو بريطانيا المتوقع.

لم تقع اسرائيل في هذه الخطيئة نفسها، فرؤساء مخابراتها العسكرية كافة كانوا ذوي قدرات ثقافية عالية، ومع ذلك كانت فترة تعييناتهم واشتغالهم مناصبهم قصيرة جداً. وينطبق هذا،

بخاصة، على الوافد الحديث نسبياً الى رئاسة امان سنة ١٩٧٣ م، وهو الجنرال الياهو زعيرا Eliahu Zeira .

وربما كانت الامور ستختلف، اختلافاً شديداً، لو ان احد كبار عملاء المخابرات الاسرائيلية واكثرهم كفاءة وموثوقية لم يُقْتَل في سيناء خلال حرب الأيام الستة. وقد شكل مقتله خسارة فادحة لا لأن تقاريره كانت تحظى بأعلى درجات التصديق، بل لأن آراءه وتحليلاته كانت ذات اهمية كبرى لدى كبار ضباط الموساد وامان .

لقد بدت الحقائق الواردة من كل جانب، من المراقبين الاسرائيليين والاميركيين والمستقلين الآخرين، تشير الى ان ثمة وفرة من المعلومات تتدفق على تل ابيب منذ ايار ١٩٧٣ م. والى ان المصريين يعدون لحرب في المستقبل جد القريب، واظهرت الصور الجوية ان هنالك زيادة في الدفاعات والاستحكامات والخنادق التي اقيمت، وان ثمة تحركات دائمة باتجاه الضفة الغربية لقناة السويس. وفي اوائل ذلك الشهر رأى بعض صغار الضباط، من ذوي الكفاءة العالية، في «أمان»، ان نذر الحرب باتت جلية. ولكن الجنرال زعيرا لم يوافق، فكان هذا سوء حكم خطير، اذ كان

على الإدراك الصحيح ان يجعله يعير اراء المتنبئين بقيام حرب اهتماماً اكبر حتى لو ان حرب الايام الستة قد حرمت اسرائيل من ميزة التقربات البرية رغم انها منحتها فسحة انذار جوي كبرى، وكان على اسرائيل ان تخشى اعداءها في البر لا في الجو.

ذكر درو ميدلتون Drew Middleton، مراسل صحيفة نيويورك تايمز، ان «الولايات المتحدة ووكالة المخابرات المركزية ووكالة الفضاء القومية (المتخصصة في التجسس الالكتروني) كانت، ثلاثتها، مقتنعة منذ ٢٤ ايلول ١٩٧٣ م. ان الهجوم العربي الرئيسي قادم وحذرت اسرائيل. ولكن القيادة الاسرائيلية رفضت الانذار، فكانت واثقة جداً من معرفتها بالعرب، وهوّنت من قدرة اعدائها المحتملة على حفظ الاسرار»(١).

ان هذا صحيح جزئياً، ولكنه غير عادل الى حد ما. ويسجل درو ميدلتون ان خبراء المخابرات العسكرية والمدنية الاميركيون درسوا، فيما بعد، «بفزع شديد اخطاء الاسرائيليين في تقييم معلوماتهم هم والمادة التي وفرتها لهم اجهزة المخابرات الغربية». ولكن لم تَبْدُ الولايات المتحدة انها تثق، كل تلك الثقة، بتقاريرها التي سبقت حرب تشرين، ومن المؤكد انها لم تبذل اي جهد

لفرض دقتها على الاسرائيليين . واذا كان الاسرائيليون تلقوا درساً في حرب تشرين فكذلك فعل الاميركيون ، اذ يبدو ان ثمة شخصاً في مكان ما في وزارة الخارجية او البيت الأبيض تجاهل ، عن عمد ، تحذيرات وكالة المخابرات المركزية ووكالة الفضاء القومية NSA تماما كما رفض الجنرال زعيرا قبول التقارير الواردة اليه .

وبعد وقت طويل نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقتطفات قصيرة من تقرير سري جاء فيه «ان مجتمع المخابرات الاميركية اقر انه فشل في التنبؤ بحرب ١٩٧٣ م العربية ــ الاسرائيلية ، بل ان وكالات مخابرات عديدة تنبأت بعدم اندلاع حرب حتى قبل ساعات من نشوب الاعمال القتالية »[٢] . واضافت الصحيفة ان هذا التقرير جمعته اللجنة المكلفة بتقديم المشورة الى مجلس الأمن القومي حول الحرب والاوضاع العصيبة . وقد اجتمعت هذه اللجنة في اليوم نفسه الذي هاجمت فيه القوات العربية اسرائيل ، وذكرت انها « لم تجد اي دليل قوي على هجوم رئيسي منسق مصري ــ سوري عبر قناة السويس والى داخل مرتفعات الجولان »[٣] .

ويوحي الجنرال دايان ، في سيرة حياته ، ان الإسرائيليين والاميركيين كانوا يحملون وجهة النظر نفسها آنذاك ، فقد كتب ان

« شعبة المخابرات الاسرائيلية (ويفترض انها أمان) ذكرت في مطلع تشرين الاول ان المصريين منهمكون في تدريبات عسكرية، ولكنهم لا يستعدون لشن حرب. ولم تكن هذه وجهة نظر الاسرائيليين فحسب بل اجهزة المخابرات الاميركية »[٤]. ثم يتابع فيستشهد بحقيقة ان نشرة وكالة المخابرات المركزية ذكرت في اليوم، الذي سبق الهجوم، ان « التدريبات ونشاطات الاستنفار ربما تكون على نطاق اوسع واكثر واقعية من التدريبات السابقة، ولكنها لا تبدو استعداداً لهجوم عسكري على اسرائيل».

وليس ثمة من شك في ان كلا الجانبين الاميركي والاسرائيلي، يلوم الواحد منهما الآخر على فشلهما في رؤية ما كان يجري تماماً، ولكن الحقيقة هي ان كل طرف كان لديه، على المستويات الادنى، المعلومات الصحيحة، والمفسرون هم الذين اخطأوا في تأويلها. ولم يوضح دايان نفسه هذه الناحية. ويلقي الدكتور راي كلاين Ray Cline، رئيس قسم المخابرات في وزارة الخارجية والضابط الكبير السابق في وكالة المخابرات المركزية، باللوم على تعطل دور اجهزة المخابرات « نتيجة عدم رغبة وزير الخارجية،

هنري كيسنجر، في قبول النتائج التي توصل اليها مجتمع المخابرات»[٥].

وفي ايار ١٩٧٣ م ايد الجنرال ديفيد اليعازار، رئيس هيئة الاركان، فكرة توقع اندلاع حرب رغم ان زعيرا لم يتفق مع كبار ضباط مخابراته، واوصى بالقيام بالاستعدادات لذلك. وقد قامت بتلك الاستعدادات فعلاً حكومة غولدا مايير، ولكن ثبت ان الانذار كان كاذباً وبلغت كلفة الاستعدادات، من نواحي النقل والتموين، اكثر من خمسين مليون جنيه استرليني. على ان الحكومة الاسرائيلية لم توجه اي لوم الى رئيس الاركان، فقد كانت تعي انه لم يكن سهلاً دائماً تخمين وجود خطر حرب. وفي ٢١ ايار ذُكِرَ ان موشه دايان، وزير الدفاع، اخبر كبار اعضاء هيئة الاركان «وجوب اخذ تجدد الحرب، في النصف الثاني من الصيف، بعين الاعتبار.... ونحن، الحكومة، نقول لرئيس الاركان نرجوك ان تستعد للحرب، واللتان تهددان ببدئها هما مصر وسورية».

وفي دراسته التحليلية لحرب تشرين يوضح ميشيل هاندل Michael Handel، من الجامعة العبرية في القدس. ان «ضباط المخابرات، المطلعين على نظرية المفاجأة، وصانعي القرارات،

الذين لديهم كافة الإمارات والمعطيات اللازمة للتنبؤ بالهجوم الآتي، قد فشلوا، في حالات المفاجأة الاستراتيجية جميعها تقريباً، في اتخاذ القرار الصائب»[٦]. ويمضي ليبيّن ان هذه الاخفاقات «تنبثق من سيل المعلومات (اشارات او ضجيجيا) عبر «ثلاثة حواجز صاخبة»، اضاف كل واحد منها تشويهه وتحريفه لزيادة تعقيد الاطار المفهوماتي ــ الادراكي لصانعي القرارات. وكانت النتيجة ان ضَعُفَت الاشارات المتوفرة وغلفت بالضجيج، وتوجب من ثمة على صانعي القرارات ان يبذلوا قصارى جهدهم لتحسين نسبة الاشارة الى الضجيج (اي تضخيم الاشارات وتخفيض الضجيج)»[٧].

لقد بدأت كلتا سورية ومصر، في كانون الثاني ١٩٧٣ م، التخطيط والتنسيق لجهد حربي مشترك ضد اسرائيل، وفي الشهر التالي زار احمد اسماعيل، وزير الحربية المصري، دمشق لاجراء مباحثات عسكرية مع السوريين. وكما تأكد الآن، من مصادر موثوقة، ان المخابرات العسكرية الاسرائيلية لم يكن لديها اي علم بهذا حتى بعد حرب ١٩٧٣ م. ولكن من المؤكد تقريباً ان الموساد كانت لديها بعض الفكرة الغامضة عما كان يجري،

ويستطيع المرء ان يستنتج ان شخصا ما، او اناسا قريبين من مستوى الوزارة، او اقل منه، رفضوا معلومات كلتا الموساد وامان. ومن الواضح ان كلا رئيس الاركان ووزير الدفاع رفضا قبول نصيحة الجنرال زعيرا، رغم ان هذا رفض باستمرار التحذيرات بقرب اندلاع حرب.

وحتى في ١٨ ايار ١٩٧٣ م كان زعيرا لا يزال يؤكد، في اجتماع للجنة الكنيست للشؤون الخارجية والامنية حول احتمال اندلاع حرب، ان هجوماً يشنه العرب امر بعيد الاحتمال. وفي اليوم التالي قام السادات بزيارة خاطفة الى دمشق، وبسرية تامة، دامت سبع ساعات. وفي النصف الثاني من ايار، وخلال شهري تموز وآب اتت دلائل متزايدة من الموساد عن محادثات مشتركة مصرية ـ سورية على كافة مستويات الصعيد العسكري، ويبدو ان الخطأ كان في تفسير العسكريين الاسرائيليين لهذه التحركات، فقد اعتبروها مجرد حرب اعصاب يقوم بها المصريون. واعتقد بعض كبار ضباط الجيش، فعلاً، ان المصريين يهدفون الى ارغام اسرائيل على انفاق مبالغ طائلة من المال والتسبب في الحاق تمزق اقتصادي بها من خلال دعوة الاحتياط. ومع ذلك فان السادات

والسوريين وقعوا، في ١٢ ايلول الخطط القتالية «للعملية بدر»، وهو الاسم الرمزي للهجوم في ٦ تشرين الاول ١٩٧٣ م.

وفي ٢٣ ايلول اصبح هنري كيسنجر وزيراً لخارجية الولايات المتحدة، وفي اليوم التالي تحدثت تقارير المخابرات الاسرائيلية عن تحشدات ضخمة للقوات السورية المزودة بالمدرعات والمدفعية على امتداد الحدود. ثم، وفي ٢٧ ايلول وضعت الولايات المتحدة، وبدون ان تعلم الاسرائيليين قمر استطلاع على مدار حول الارض لمراقبة منطقة الشرق الأوسط.

وفي اليوم التالي حولت الانتباه عن هذه التطورات انباء استيلاء فدائيين عرب على قطار يحمل مهاجرين يهوداً من الاتحاد السوفييتي الى فينا. وقد طلب هؤلاء ان تغلق الحكومة النمساوية معسكر مرور الهجرة اليهودية في شيناو Schenau، ورضخ النمساويون واغلقوا المعسكر. وبينما كانت الحكومة الاسرائيلية منهمكة بهذه المشكلة الغيت الأجازات جميعها في الجيش المصري.

وفي اواخر الشهر ظهرت دلائل واضحة على ان وحدات الصواريخ سام ـ ٦٠ قد وزعت بين الفرق المدرعة للجيش المصري، وتدفقت معلومات وفيرة من كافة قطاعات الجبهة، وبات واضحاً

ان قسماً هاماً من الجيش المصري اصبح في تشكيلات قتالية قرب قناة السويس. واعرب رئيس الاركان الاسرائيلية عن قلقه من تقييم المخابرات العسكرية لهذه التقارير، ولا سيما فيما يتعلق بنشر القوات وتوزيعها على الحدود السورية. وكان التفسير ان هذا «تدريب» آخر في حرب الاعصاب او الحرب النفسية. ولم يتحول قط زعيرا عن تلك النظرة، وقدرت المخابرات البحرية الاسرائيلية مستويات فرص اندلاع الحرب انها عالية، واكدت ان السوفييت ارسلوا سفينتي تجسس الكترونيتين الى مقربة من شاطيء اسرائيل، ولذلك أُمِرَ الاسطول الاسرائيلي انْ يكونَ مستعداً لكافة الاحتمالات.

وهكذا، ففي وضع كهذا وفي حرب حديثة تمتعت القوة المهاجمة بمزايا المبادأة كافة، والسبب الرئيسي لذلك هو «حواجز الضجيج» لدى اشارات الطرف الآخر. لقد كانت لاسرائيل تلك المزية سنة ١٩٦٧ م. ودفعت الثمن سنة ١٩٧٣ م لان المبادرة كانت آنذاك بيد العرب. فحين تكون اشارات عدو ما جد جلية وواضحة ويمكن الحصول عليها بسهولة جداً يصبح من الممكن تماماً احباط عملية الخداع. ولكن ما عرقل الاسرائيليين واعاقهم،

في هذه الحالة ، هو ان ثمانية مسؤولين عرباً كباراً فقط عرفوا مسبقاً بوقت الهجوم ونقاطه ، ولم يكشف عن ذلك الا بعد الحرب . وقد كان بين المصريين والسوريين بعض الخلافات حتى اللحظة الأخيرة حول ساعة شن الهجوم ويومه ، ولم يقرر الموعد والتاريخ النهائي الا في ٣ تشرين الاول ، اي قبل نشوب الحرب بثلاثة ايام .

على ان اكثر المعلومات ايجابية واثارة جاء بها احد عملاء الموساد المهرة ، وهو في اواسط عمره وسهل الطباع ، ووصل الى مطار اللد مساء ٤ تشرين الأول . لقد كان هذا العميل الماهر جدا كثير السفر ، اذ تنقل عبر اوروبا والشرق الاوسط بوصفه استاذاً للغات ، واعتبره معظم زملائه شخصاً شارد الذهن يضيع مظلاته وكتبه يومياً تقريباً . والواقع انه لم يكن شخص اكثر منه حفظاً للاسرار ، ففي حقيبة يده ، التي لم يتركها تغيب عن ناظريه ، كانت مجموعة كاملة من التقارير عن الهجوم . بل ان هذه التقارير اعطت العملية اسم بدر ، وهي المعركة التي خاضها النبي محمد ضد اعدائه قبل استيلائه على مكة .

لم يشك زفي زامير لحظة في دقة معلومات عميل الموساد هذا ، ونقل وجهة نظره سريعاً الى رئيسة الوزراء ، ولكن هذه

احست، هي ودايان، ان العرب يسربون، عن عمد، معلومات كاذبة الى الموساد. ومرة اخرى اهمل دليل حيوي رغم ان الروس اطلقوا، في ذلك اليوم نفسه كوسموس ٥٩٦، وهو احد اقمارهم الصناعية التجسسية، ووضع في مدار لمراقبة ميادين المعارك العربية ـ الاسرائيلية. ومن الواضح ان الاتحاد السوفييتي كان يستخدم هذا الجهاز لنقل المعلومات الحيوية الى مصر.

وفي الساعة الثالثة من صبيحة السادس من تشرين الأول تلقت المخابرات العسكرية الاسرائيلية اشارة حازمة صريحة الى ان الهجوم سيحدث، على الاغلب، في الساعة ١٨٠٠ من ذلك اليوم. كما وردت تقارير عن استخدام المصريين حفارات لعمليات ازالة التراب على امتداد القطاع الشمالي من قناة السويس. ومرة اخرى قال ضابط مخابرات صغير الرتبة، باصرار، ان ثمة دليلاً كافياً على ان هذه المناورات ليست مجرد تدريبات، بل هي غطاء لهجوم قادم. وفي ٥ تشرين الاول ذكرت تقارير اخرى للمخابرات ان السوفييت قد اخلوا مستشاريهم واسرهم من منطقة القتال. وفي اواخر ذلك اليوم تجمع ملف كبير عن استعدادات هجومية في مصر مع ادلة على ان المصريين ينقلون الى منطقة القتال جسوراً

ثقيلة ومعدات اعاقة مائية، ومع ذلك ظلت الاراء ان فرص اندلاع الحرب ضئيلة.

على ان كافة ظروف شن هجوم يقوم به العرب كانت مثالية، فليلة السادس من تشرين الاول وفرت خير ظرف لاقامة الجسور وعبور المدرعات قناة السويس بينما بَيَّنَتْ سجلات شركة قناة السويس ان تيارات المياه ليست معاكسة في ذلك اليوم. لقد كان مساء عطلة «عيد الغفران» في اسرائيل، وهذه فرصة نادرة للعرب كي يباغتوا اعداءهم. ولكن مقيّمي «لا حرب» ردّوا على هذه الحجة بالقول ان من غير المحتمل ان يقاتل المصريون لان جنودهم لن يكونوا في احسن احوالهم، اذ انهم كانوا في الاسبوع الثاني من شهر رمضان.

وعموماً كان الضباط الصغار هم الذين اقتنعوا ان ثمة امراً ما سيقع، ولا سيما بسبب الادلة الواردة من خط بارليف على قناة السويس، ولكن رؤساءهم اصروا على ان هذه التحركات مجرد تدريبات ليس إلا. لقد تعلم المصريون من حرب الايام الستة درساً واحداً، وعَزَموا هذه المرة على الا يقعوا في شراك شبكة اتصالاتهم. ففي سنة ١٩٦٧ م كسب الاسرائيليون الحرب بهذه السرعة

لتغلغلهم في نظام اتصالات المصريين و«توجيهها»، لذا كانت الاشارات اللا ــ سلكية الصادرة عن المصريين، هذه المرة، توحي جميعها بتدريبات واسعة، وطوّر المصريون، ليمنعوا استراق السمع الذي حدث قبل حرب ١٩٦٧ واثناءها، شبكة واسعة من الخطوط الهاتفية المدفونة تحت الارض من اجل ارسال البرقيات.

وهاجمت مصر وسورية، اخيراً، في الساعة ١٤٠٠ من يوم السادس من تشرين الاول بدون تهيئة جوية متوقعة.[1] وكان مُقَيِّمو المخابرات العسكرية قد اعتقدوا ان مصر ستهاجم فقط اذا توفرت لديها قوة تكفي لتدمير القوة الجوية الاسرائيلية وقواعدها اولا. وظل رئيس الاركان العامة الاسرائيلية، حتى اللحظة الاخيرة، في ورطة، فقسم كبير من الآراء اعتقد ان الهجوم العربي وشيك، ولكن زعيرا هو الذي دحض، بإصرار، هذا الرأي، ولم يُرِدْ الجنرال اليعازار، رغم انه غادر مكان الاجتماع قلقا، ان يقترف سوء حكِم آخر باهظ التكاليف، فيضع اسرائيل على قدم الاستعداد للحرب، لذا قبل رأي زعيرا. لقد بدأ المصريون والسوريون اطلاق النيران على امتداد خطوط الجبهة كلها قبل اربع ساعات وخمس دقائق من الموعد الذي ذكره اكثر تقارير المخابرات العسكرية موثوقية. وهذا

يعني ان اسرائيل قد أُخِذَتْ تماماً على حين غرة طيلة الاربع والعشرين ساعة الاولى لاندلاع القتال، وبخاصة في تلك المنطقة التي لم تتخذ فيها اجراءات فعالة تكفل مقاومة هجوم سوري.

وفي النهاية استعادت اسرائيل نشاطها، واستطاعت تغيير الظروف. على ان الاسرائيليين، لولا عمليات النقل الجوي الاميركية للاسلحة الى اسرائيل، كانوا سينهارون كلياً. وذكرت اليزابيت مونرو Elizabeth Monroe، في تحليل لها، ما يلي: و «بعبارات بسيطة فان الضغط الاميركي او الضغط الاميركي ــ السوفييتي، وهذا هو الافضل، سواء من خلال هيئة الامم المتحدة او ان يمارس مباشرة، يستطيع ان يحدث تهدئة للصراع على الارض نفسها (وهي فلسطين). وقد استطاعت هاتان القوتان العظميان، وبضغط مشترك، احداث وقفين لاطلاق النار يومي ٢٢ و٢٤ تشرين الاول ١٩٧٣. ان (تدخل) دولة عظمى لهو شرط ضروري على مستوى وقف اطلاق النار او فك الاشتباك، ويصبح امراً لا بد منه اذا اريد تحقيق الحفاظ على السلام»(٨).

وبعد الحرب كان ثمة طلب مباشر وفوري لكبش فداء من اجل افلات اسرائيل الصعب من الهزيمة التامة. ولم يكن هنالك

شك في ان اللوم يجب ان يُوَجَّهَ الى تقييم المخابرات الهزيل، رغم انه عرف آنذاك ان المعلومات الفعلية التي تلقتها كانت مناسبة. وقد قيل آنذاك «ان نظام مخابرات» غير كامل «هو الاسلم لان صانعي القرارات يقظون واعون المعلومات التي توزع عليهم، وان تحسينات في المخابرات، وبغض النظر عن اي مستوى معين من الكفاءة في نظام الاتصالات، يمكن ان يكون عاملاً سلبياً في صنع القرار»[٩].

شكلت الحكومة الاسرائيلية لجنة تحقيق اغرانات Agranat للتحقيق في نقص الاستعدادات قبل اندلاع حرب تشرين. وقد طُلِبَ منها، في نطاق صلاحياتها، تفحص موضوعين: الاول هو معلومات المخابرات عن تحركات العدو وتقييماتها، والثاني حالة استعداد الجيش الاسرائيلي. وقد الحَّت صحافة الرأي العالمية، الى جانب وجود رغبة في ايجاد مذنب والقاء اللوم عليه، على الحاجة الى مثل هذا التحقيق واعلان نتائجه. وهنالك العديد من الأمثلة عن ذلك، وفيما يلي تعليق درو ميدلتون Drew Middleton في صحيفة نيويورك تايمز New York Times: «اعتُبرت المخابرات الاسرائيلية، في الماضي، على انها خير مخابرات في الشرق الاوسط

وتساوي اجهزة المخابرات الاكبر منها، ولكنها تتعرض الان لانتقاد شديد لاخفاقها في تقييم النوايا العربية، تقييماً صحيحاً، قبل حرب تشرين»[١٠].

ونتيجة لتقرير لجنة اغرانات اعفي اربعة ضباط من شعبة مخابرات الجيش من مناصبهم. وكان قرارها عن الجنرال زعيرا انه «نظراً لاخفاقه الذريع لا يستطيع الاستمرار في منصبه رئيساً للمخابرات العسكرية». ووجدت اللجنة، في الوقت نفسه، ان نائب زعيرا، العقيد اريبه شاليف Aryeh Shalev، والعقيد يونا بندمان Yona Bendman، الذي كان مسؤولاً عن القسم المصري في دائرة بحوث المخابرات، والعقيد ديفيد غيداليا David Gedalia، رئيس المخابرات في القيادة الجنوبية... ان هؤلاء الاربعة يجب الا يبقوا في مناصبهم. لقد كان هذا هو الحكم، ولكن حين بلغ الامر باللجنة ان تفصح عن رأيها في الرتب الاعلى فقد طُمِسَت آراؤهم ثم عُمِّيَ عليها. فعلى سبيل المثال كان الجنرال ديفيد اليعازار، رئيس الاركان، قد ترك منصبه قبل ذلك، على حين ان اللجنة ذكرت، بالنسبة لموضوع الجنرال دايان، «اننا لم نشعر اننا مدعوون لتقديم آرائنا فيما يمكن اعتباره مسؤولية الوزير البرلمانية... والمسألة هي

هل كان وزير الدفاع مهملاً في القيام بواجباته في المسائل التي تقع ضمن مسؤوليته... وقد توصلنا الى استنتاج ان وزير الدفاع، وبمعايير السلوك الرشيد المطلوب ممن يتولى منصب وزير الدفاع، غير مطلوب منه اصدار الاوامر المتعلقة بالاجراءات الوقائية الاضافية الى تلك التي اقترحتها عليه هيئة الاركان، وفقاً لمشترك التقييم والمشاورات بين رئيس الاركان ورئيس المخابرات، او التي تختلف عنها».

ربما كان هذا الحكم سيبرىء ساحة وزير الدفاع، ولكنه يبقى، الى حد ما، حكماً ضعيفاً اذا قيس بالقرار القاسي الذي صدر على ضباط المخابرات. ومع ذلك هنالك شكوك حول دور رئيس الاركان حتى لو ان رئيس المخابرات العسكرية اقتنع ان تقييمه صحيح. وما يثير الدهشة ان دايان، وهو الشخص الفعال ذو الخيال على الصعيد العسكري، لم يقرأ اشارات الخطر، ولا سيما بسبب خبرته العسكرية الطويلة.

واصبح الجنرال شلومو غازيت Shlomo Gazit الرئيس الجديد للمخابرات العسكرية، وحدث تجديد فوري في كامل نظام جمع المعلومات وتقييمها وتقديرها. فقد أُدْرِكَ، على حين غرة، ان

بن غوريون قد توقع مخاطر وجود جهاز مخابرات متراص موحد لا يسمح بمدى كاف لتطور شتى الافكار. ففي سنة ١٩٦٣ م عين بن غوريون، وكان آنذاك رئيساً للوزراء، لجنة يادين ـ شيرف Yadin- Scherff لدراسة وسائل تحسين المخابرات السرية لاسرائيل. وقد اقترح تقريرها، الذي قدم في ٣١ تموز ١٩٦٣:

١ ـ تقوية وحدة بحوث المخابرات في وزارة الخارجية.

٢ ـ منح الموساد المزيد من المدى لتطوير نظام تقييم المعلومات (على افتراض ان هذا يتصل، اتصالاً رئيسياً، بالمشكلات العسكرية).

٣ ـ عدم الاعتماد على فرع واحد من المخابرات: اي الموساد، وامان، وغيرهما.

٤ ـ تعيين مستشار خاص لشؤون المخابرات في مكتب رئيس الوزراء.

وقد نُفِّذَ القليل من هذه المقترحات، وقلما حدث هذا التنفيذ بالطريقة التي ارادتها اللجنة. ووجدت لجنة اغرانات ان تغطية الوكالات الاربع للمخابرات الاسرائيلية تداخلت في بعض النقاط، ولكن هذا لم يكن بالضرورة امراً سيئاً. والحقيقة انه ليس

فعلاً كذلك، فأحد اسباب اخفاق التقييم قبل حرب تشرين، كان ولا شك اعارة وحدة المخابرات العسكرية اهتماماً اكثر من الشعب الاخرى... وهي الموساد، وشاباك، ومركز البحوث والتخطيط الاستراتيجي في وزارةالخارجية. وربما كانت لجنة اغرانات قد فعلت حسنا لو توصلت الى استنتاج ان المخابرات الاسرائيلية الميدانية والتكتيكية قد أُهمِلَت منذ سنوات. وليلاحظ هنا ان ذلك ليس بسبب نقص المعلومات، ولكن لان هذه لم ترفق بالقدر نفسه من الانباء والخرائط والصور الجوية التي قُدِّمت الى رئيس الاركان وآخرين. وباختصار، كان يطلب من مقيّمي الاوضاع ان يستمروا في اعمالهم من غير ان يوضعوا في الصورة تماماً. اما اولئك الذين كانوا يقدمون المعلومات من الميدان نفسه فلم يتلقوا ذلك النوع من الانباء والذي سيساعدهم على اصدار احكام صحيحة.

حدثت تغييرات عديدة في مسؤولي أجهزة المخابرات كافة خلال السنة التالية، ووقَّعَ رابين، رئيس الوزراء الجديد وأحد قادة حرب الايام الستة، امر تعيين رئيس جديد للموساد، وذلك لاول مرة في ست سنوات، حين اقام هو ورئيس الاركان، الجنرال غور،

حفل استقبال وداعي للميمونه الذاهب، الجنرال زفي زامير، في ايلول ١٩٧٤ م، وابقى اثناء ذلك الحفل اسم الميمونه الجديد مكتوماً. ولكن بات واضحاً الآن ان ثمة انعداما خطيراً في التنسيق بين الموساد وامان، وان هذا عائد جزئياً الى شعور بعض ضباط الجيش أن الموساد كانت منهمكة في كثير من الاعاقات والمغامرات. وكان أحد الانتقادات الرئيسية التي انبثقت من التحقيق في حوادث ١٩٧٣ م، وفقا للجنة أغرانات، هي ان المشورة المخابراتية الوحيدة المقدمة الى رئيس الاركان ووزير الدفاع جاءت من شعبة المخابرات العسكرية.

وحدث تفكير واقعي في كلا مستويي الوزارة ورئاسة الوزراء عقب تلقيهما تقرير اغرانات. واحد الاقتراحات التي نوقشت نقاشاً حاداً هو الكشف عن الضباط المكلفين بدور مريب دائم... دور محامي الشيطان... وذلك من اجل رد الافتراضات الممكن خطؤها. وطرح اقتراح آخر بأن تحفظ في الحاسبات الالكترونية المعطيات والمعلومات جميعها التي يمكن ان تبرمج المشكلات المقبلة، فيمكن من ثمة لفت نظر الحكومة، بشكل آلي فوري، الى اي خطر حقيقي يهدد اسرائيل.

وفي ١٩ ايار ١٩٧٥ م اعلن رابين، رئيس الوزراء، عن تعيين مستشار خاص للمخابرات كاجراء وقائي ضد اية حوادث مؤسفة اخرى مثل التقييم الخاطيء للتحركات العربية قبل حرب تشرين. وكان هذا رحبعام زيفي Rechavam Zeevi الـذي كان ضابطاً في الاركان العامة خلال حرب الايام الستة حين كان رابين رئيساً للاركان. والحقيقة ان لجنة أغرانات أوصت بتعيين خبير لا يكون ضابطا في الجيش النظامي لمساعدة رئيس الوزراء على ان يبقى متصلا بشتى اجهزة المخابرات. ثم عَبَّر البروفيسور ييغال يادين، الذي كان احد اعضاء اللجنة واصبح نائباً لرئيس الوزراء في وزارة رابين، في مقابلة صحفية عن أسفه لان التوصية لم تنفذ، وربما حدث ذلك قبل اعلان رابين هذا في ١٩ ايار.

ان الجنرال رحبعام زيفي من الجيل الخامس من الصبرا(*)، وقد ولد في القدس سنة ١٩٢٦ م. وانضم الى البالماخ سنة ١٩٤٤ م. وفي سنة ١٩٥٠ م عُيِّنَ ضابط مخابرات المنطقة الجنوبية، وكثيراً ما أمضى شهوراً في تلال النقب يرسم خرائط

(*) اي المولودين في فلسطين.

(المترجم)

المنطقة. لقد كان زيفي معروفاً في الجيش الاسرائيلي بلا ــ تقليديته وبحديثه البطيء وبعبثه. ولقب بغاندي لانه ظهر، حين كان في مجموعة تدريب استيطانية، ذات يوم متخفياً مثل المهاتما غاندي وقد لف جسده بملاءة سرير ويجر عنزة من خلفه. التحق زيفي بهيئة الاركان منذ سنة ١٩٥٢ م. وبعد بضع سنوات أُرسِلَ الى الخارج من اجل ما وصف «بدراسات عالية». وفي سنة ١٩٦٠ م انتقل الى الولايات المتحدة، بينما تنقل سنة ١٩٦٤ م في بعثات معونة خارجية بين عدد من البلدان الآسيوية والافريقية. على ان الاسباب الكاملة لتعيين الجنرال زيفي ربما لا تكون واضحة حتى الآن، ولكن يمكن ان يضاف، من تقارير وردت من خارج اسرائيل، انه خبير بأساليب التجسس في الدول الاشتراكية، وانه في الوقت نفسه يُكِنُّ انحيازاً للمهاجرين البلغار الى إسرائيل ويفهمهم فهماً عميقاً.

ومهما كانت الانتقادات الموجهة الى تقييمات المخابرات الاسرائيلية في هذه الحرب فلا بد من الاقرار بأنَّ استمرار معالجة هذه المخابرات وتكوينها قد ساعد اسرائيل سريعاً على أن تأخذ زمام المبادرة بعد يومين من الكوارث شهدا ترسيخ المصريين مواقعهم

على الضفة الشرقية لقناة السويس والتقدم بضعة اميال في شبه جزيرة سيناء. وقد استطاع هجوم اسرائيلي مضاد، مبني الى حد كبير على تقارير استخبارية سليمة، ان يقيم رأس جسر رئيسي على الضفة الغربية من القناة، ويندفع الى الداخل فيدمر العديد من قواعد صواريخ سام ويفرض التفوق الجوي، ويطوق الجيش المصري الثالث في حركة كماشة في الطرف الجنوبي من الجبهة حين فرض قرار لمجلس الامن وقفاً لاطلاق النار. كما شن الاسرائيليون هجوماً مضاداً مماثلاً في الجبهة السورية.

الفصل الحادي والعشرون

غارة عتيبي



هنالك العديد من عمليات المخابرات السرية الاسرائيلية الناجحة، ولكن ربما ليس ثمة عملية منها استحوذت على خيال العالم الخارجي مثل تلك المعروفة عموماً بغارة عنتيبي.

وكان ذلك يوم الأحد، الرابع من تموز سنة ١٩٧٦ م. حين وضعت خطة اسرائيلية مخابراتية سرية موضع التنفيذ، واستطاع فريق مغير، ارسل بالطائرة، ان ينجو من الغابة الافريقية بأكثر من مائة رهينة احتجزهم الرئيس الاوغندي عيدي امين. وهذه هي «عملية يوناثان»(*).

(*) يوناثان هو ابن شاوول وصديق داوود.

(المترجم)

واذا اراد المرء تتبع اصول غارة عنتيبي فان عليه ان يعود الى ما قبل حكم عيدي امين في اوغنده. لقد كانت اسرائيل تحاول بهدوء، منذ سنوات، ان تكسب اصدقاء لها في هذا الجزء من القارة الافريقية، منافسة النفوذ المصري والعربي الآخر والسوفييتي والصيني في شمالي افريقيا وشرقيها. وكانت العلاقات بين اسرائيل واوغنده في الاساس جيدة، فالأولى لم تقدم للثانية المعونات فحسب، بل ساعدتها على تدريب الجيش الاوغندي وزودته بالمعدات العسكرية. وخلال تلك الفترة امضى العقيد باروخ بارليف Baruch Barley خمس سنوات في اوغنده رئيساً لبعثة وزارة الدفاع الاسرائيلية فيها. واصبح شخصاً محبوباً في كامبالا، واستشير في مختلف المسائل، وزود احياناً بنتف من المعلومات عن الشؤون الافريقية، واصبح صديقاً حميماً لعيدي امين قبل ان يتسلم هذا السلطة، وقد دعي هذا لزيارة اسرائيل ولتلقي علاج خاص لحالة رثوية Rheumatic.

وفي اوائل السبعينات انقلب ميلتون ابوتي Milton Obote، رئيس اوغندة آنذاك، فجأة على الاسرائيليين، والسبب الرئيسي لذلك هو انه اراد ان يلعب دوراً، مع جاراته الموالية لمصر، وهدد انه سيطرد المستشارين الاسرائيليين من البلاد، ولكن عيدي امين

هو الذي حماهم وتصدى للرئيس اوبوتي. وقد رد له بارليف هذا الجميل بأن حذره من مؤامرة لأوبوتي للقبض عليه بتهمة ملفقة، وكانت اسرتا عيدي امين وباروخ بارليف تتزاوران، ولا بد ان بارليف قد تطلع، فيما بعد، بغيظ الى ذلك الوقت حين انقذ تدخله عيدي امين من الاعدام او السجن، اذ انّ بارليف سرعان ما أخذ يدرك، بعد ان تولى عيدي امين السلطة، ان علاقته بالرئيس الجديد يستحيل التنبؤ بها.

وفي سنة ١٩٧١ م باع الاسرائيليون الى اوغنده احدى طائرات كومودور Commodore النفاثة لتكون طائرة شخصية للرئيس. وكان المبلغ المطلوب نصف ثمن البيع العادي، كما وافق الاسرائيليون على تسليم المبلغ في شكل اقساط. وفي سنة ١٩٧٢ م قطع عيدي امين العلاقات مع اسرائيل في ثورة غضب مفاجئة وطرد المستشارين الاسرائيليين من البلاد. وظل الرئيس امين مع ذلك يستخدم هذه الطائرة النفاثة، ورفض في الوقت نفسه دفع مزيد من الاقساط رغم الطلبات المتكررة من تل ابيب اما بدفع المبالغ او اعادة الطائرة.

في ٢٧ حزيران ١٩٧٦ م اقلعت طائرة تابعة لشركة ايرفرانس، في رحلتها رقم ١٣٩ ، من آثينا باتجاه باريس وعلى متنها ٢٤٦ راكباً . وكانت رحلتها قد بدأت من تل ابيب ذلك الصباح ، وبين ركابها عدد كبير من الاسرائيليين. وقد لاحظ هؤلاء، ببعض القلق، ان الترتيبات الأمنية في مطار آثينا سائبة وانه ليس ثمة اي تفتيش للركاب المنضمين الى الرحلة فيه . وبعد اقل من ساعتين على اقلاع الطائرة من مطار اثينا تلقت تل ابيب رسالة جاء فيها ان «طائرة اير فرانس رقم ١٣٩ ، التي غادرت اسرائيل هذا الصباح وحطت في مطار اثينا في طريقها إلى باريس قد اختفت بعد اقلاعها . وقد فقد كل اتصال بها ، ولكن عرف ان الطائرة سارت في الاتجاه الجنوبي ــ الشرقي» .

وسرعان ما ادرك في تل ابيب ان هذه عملية اختطاف اخطر من العمليات العادية، واحست الحكومة الاسرائيلية ، وايدت ذلك تقارير المخابرات ، ان هذه العملية تحدٍ مباشر لاسرائيل وعمل فدائي لا يمكن التخلص منه بدفع المال او الافراج عن السجناء العرب، فقد كان على متن الطائرة عدد كبير من الاسرائيليين ، واشارت الدلائل الى ان الطائرة تتجه الى قلب إفريقيا . وكانت قد

سرت شائعات في اماكن ترويجها السرية، منذ أسابيع عدة ان عملية اختطاف مثيرة تدبر وان كارلوس مرتبط بها بشكل ما. وأشارت التقارير الى إن هذه العملية سينفذها فريق دولي يضم عربا واوروبيين.

شُدِّدَت اجراءات الأمن في المطارات الاسرائيلية، ووضعت رقابة صارمة على كافة طائرات شركة العال وعلى رحلاتها. ولكن حين جاء الهجوم وجه الى طائرة لشركة ايرفرانس عرف انها تحمل اكثر من مائة اسرائيلي. وقد اذيع على الركاب في جهاز المخاطبة في الطائرة ما يلي «هذا هو الرئيس باسل الكبيسي من وحدة تشي غيفارا من فدائيي قوات التحرير الفلسطينية. لقد تم الاستيلاء على هذه الطائرة، فاذا بقيتم هادئين فلن يحدث شيء لكم». قيلت هذه الكلمات باللغة الانكليزية، ولكن لهجة قائلها لم تكن لهجة عربي، وتأكد معظم الركاب ان «المتحدث ألماني».

وبعد قليل تحدثت شابة المانية، فقالت للركاب ان عملية الاختطاف هي تحت سيطرة «مجموعة تشي غيفارا من وحدة غزة التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين». ومع انه كان هنالك افراد عرب بين المختطفين الا انه بات واضحاً ان الذين يقودون

العملية المان . كما كان مؤكداً تماماً انهم على صلة وثيقة بكارلوس .
وكان رئيس المختطفين ، وهو ويلفريد بويس Wilfred Boese ، عضواً
في مجموعة بادرماينهوف Baader- Meinhof ومعروفاً تماماً للشرطة
في عدد من البلدان الاوروبية . كما كان معروفاً ايضاً ان له صلات
بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وكانت شريكته الرئيسة على
الطائرة فتاة المانية تضع على رأسها شعراً مستعاراً وتصر على ان
تنادى باسم « حليمة » . ثم عرف ان احد الخاطفين العربيين هو
جايل العرجا الذي مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اميركا
اللاتينية . ولدى الموساد ملف كامل عنه يظهر صلاته وارتباطاته
بكارلوس .

حطت الطائرة ، ذات الرحلة ١٣٩ ، اولاً في بنغازي ، ولم
تبعث معرفة الركاب ، انهم في ارض العقيد القذافي شديد العداء
لاسرائيل ، اي اطمئنان في نفوسهم . وقد وصل هذا النبأ الى تل
ابيب سريعاً ، ودعي الى اجتماع خاص للوزارة ، وتصرّف رابين ،
رئيس الوزراء بسرعة شديدة ، فكلف كل عضو في وزارته بمهمة
معينة تتعلق بعملية الاختطاف ، وربما كان اهمها-ما اوكل الى وزير
الدفاع ، وكان آنذاك شمعون بيريز . فقد كفلت تجربته المديدة في

الإستخبارات انه سيبقى على اتصال وثيق بكلتا الموساد وأمان حول هذا الموضوع. ومن الطبيعي ان اول الاعمال، التي قام بها، هو ضمان ان كلا جهازي المخابرات الفرنسي والاسرائيلي يبقيان على الطول نفسه لموجة الاتصالات بينهما بعيداً عن التبادلات الدبلوماسية بين وزارتي خارجيتهما.

ثم علم ان الطائرة غادرت بنغازي وانها تطير في اتجاه الخرطوم. ثم تناقلت الانباء ان الطائرة حطت في مطار عنتيبي، في اوغنده، الساعة الرابعة بعد منتصف ليلة ٢٨ حزيران. وفي ذلك الوقت قالت الحكومة الفرنسية انها ستتخذ كل خطوة ممكنة لضمان سلامة الركاب جميعهم، ولكن بدا ذلك غير واقعي حين عرف ان الطائرة قد هبطت في ارض عيدي امين دادا، رئيس جمهورية اوغندة.

كانت المخابرات الاسرائيلية قد بدأت، تدريجياً، تكوّن صورة عن نمط عملية الاختطاف هذه، وباتت مقتنعة ان المختطفين، او واحداً منهم على الأقل، يستطيعون قراءة الخرائط الجوية ويفهمون مبادىء الملاحة الجوية. كما اصبحت واثقة ايضا ان هذه عملية مشتركة بين «الفدائيين» العرب والاوروبيين وفقاً لنموذج

شبيه بعمليات اخرى من هذا النوع نفسه. وكان السؤال الحيوي هو: ماذا ستكون مطالب المختطفين؟.

استنفرت عملية الاختطاف هذه اجهزة المخابرات جميعها في اوروبا، واقلقها جداً هذا التركيب الدولي الواضح للمجموعة المختطفة. وكان الفرنسيون مقتنعين ان سانشيز (كارلوس) احد الرجال وراءها، وان الدكتور وديع حداد، احد القادة العسكريين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، هو المخطط الرئيسي للعملية. ومن ناحية اخرى رأت المخابرات الالمانية الغربية «ان رجال عصابات متورطون في اختطاف طائرة الجمبو، او ان العملية، بسبب تنفيذها الاحترافي هذا، ما هي «الا تكتيك رائع للشين بيت الاسرائيلية»، من اجل تشويه سمعة الفلسطينيين[٤].

لقد لاحقت «فرق الانتقام» الدكتور وديع حداد بضع سنين، وذكر ايضا ان وكالات غامضة اخرى عديدة ارادت تصفيته. فحين كان يكرم وفادة ليلى خالد، الفتاة الفاتنة بين المختطفين الفلسطينيين، في حفل اقامه لها في بيته في تموز ١٩٧٠م. افلت كلاهما من الموت بصعوبة حين اطلقت ست صواريخ سوفييتية مضادة للدبابات، بواسطة جهاز توقيت الكتروني، على

منزله من غرفة مستأجرة في الطرف الآخر من الشارع. ولكن يبدو، مرجحاً، ان هذا قد يكون هجوماً خادعاً قامت به «فرقة الانتقام» بأسلحة سوفييتية مستولى عليها بهدف تشويه سمعة السوفييت او كي يقع عليهم اللوم لهذا الهجوم. وكان طبيعياً ان الدكتور حداد سمح باتخاذ هذه القصة دعاية للقضية الفلسطينية، ففي المعركة اليومية التي كانت ناشبة، بصمت، بين الشرق وبين الغرب، وبين العرب والاسرائيليين اليوم كثيراً ما كان يعتمد النصر على فعالية الاكذوبة والاكذوبة المضادة. وكان التجنيد لهذه القضية او تلك يتزايد فعلا او يتناقص وفقا لنجاحات الحرب الاعلامية او اخفاقاتها. والدكتور حداد، الذي كان المفكر الرئيسي للعديد من عمليات اختطاف الطائرات، وقد ولد في صفد من اسرة مسيحية ارثوذكسية وتوفي بالسرطان في المانيا الشرقية سنة ١٩٧٨ م.

من المؤكد ان كل شيء قد اتخذ في اوغنده لمساعدة المختطفين، وان بعض تفصيلات هذه العملية قد سرّبت سراً الى الاوغنديين قبل ان تحط الطائرة في عنتيبي بوقت طويل. ففي بنغازي كان على الطائرة ان تدور مرات عدة فوق المطار قبل ان يسمح لها بالهبوط، على حين سمح لها بالهبوط في مطار عنتيبي على

الفور كما لو اشير اليها بالدخول الى المطار حالاً. وذكر الركاب فيما بعد انهم رأوا المختطفين يلوحون للأوغنديين بأيديهم، ويتلقون تلويحات من الاوغنديين بطريقة توحي ان وصول الطائرة كان، ولا شك، متوقعاً.

وقد اكدت ذلك سرعة وصول عيدي امين دادا الى المكان، وحديثه بطريقة جلية الود مع المختطفين. وتشجع الركاب حين وصل السفير الفرنسي في أوغنده الى مطار عنتيبي وتحدث مع المختطفين. ولكن سرعان ما اعلنت السفارة الفرنسية في كامبالا ان المحادثات لم تؤد الى اية نتيجة. ومر يوم آخر قبل ان يعلن المختطفون مطالبهم مقابل الافراج عن الركاب. فكانت تحرير ثلاثة وخمسين من «المقاتلين من اجل الحرية» المعتقلين في سجون فرنسا واسرائيل والمانيا الغربية وكينيا وسويسرة، على ان ينقل هؤلاء جواً الى عنتيبي في طائرة خاصة ستستخدم من اجل نقل المختطفين. وذكر هؤلاء ان شركة الطيران الفرنسية هي المسؤولة عن نقل السجناء في اسرائيل جواً الى عنتيبي، اما الدول الاخرى فعليها ان تضع ترتيباتها الخاصة لنقل هؤلاء السجناء الى اوغنده. ثم طرحوا نقطتين اخريين: أولاهما ان على فرنسا تعيين مبعوث خاص ليتفاوض مع

المختطفين، وثانيتهما ان ممثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اية محادثات مع الحكومة الفرنسية سيكون سفير الصومال في اوغنده، وقد حُدِّدَ الموعد النهائي لانهاء المفاوضات الساعة ١٤٠٠ من بعد ظهر الخميس التالي، واذا لم يتم التوصل الى اتفاق في هذا الوقت فسوف تتبعه اعمال انتقامية رهيبة.

وكانت اسرائيل قد وضعت، قبل ذلك، موضع التنفيذ خطة لمواجهة المختطفين. صحيح انها كانت، في مراحلها الاولى، اكثر قليلاً من بذرة فكرة، وهي ان هذه هي اللحظة للقيام بمبادرة مثيرة بتوجيه ضربة مدمرة لعمليات خطف الطائرات والعمليات الاخرى التي تشتمل على اخذ رهائن، ولكن الموساد كانت تدرس، منذ وقت طويل، شتى الاحتمالات لخطوة كهذه في ضوء اساليب المختطفين المعروفة. وفي غضون ذلك قال اسحاق رابين ان على الحكومة ان تظهر انها تتبع، في المرحلة الأولى، الاساليب العادية.

وضمنت الحكومة الاسرائيلية، بجعلها هذه الناحية الثانية مسألة سياسية دبلوماسية، بعض ما يشبه الوحدة بين الحكومات المعنية. واخذت حكومة المانيا الغربية زمام المبادرة في الحث على

اقامة جبهة مشتركة بين الحكومات المعنية كافة، وقالت الحكومة الفرنسية انها رفضت مطالب المختطفين. على ان الرأي العالمي كان مرتاباً في الوحدة المزعومة، فقد شك في ان فرنسا سوف تنكفىء على ذاتها وتكف نهائياً عن المقاومة بسبب موقفها المؤيد للعرب، على حين ان عديدين تذكروا ايضا ان اسرائيل استسلمت لمطالب المختطفين في مناسبتين سابقتين حين أُمْسِكَ بمواطنين اسرائيليين رهائن.

وفي جو اوغندة اللاهب أُخرِجَ ركاب الطائرة، وعددهم ٢٥٧ شخصاً، وادخلوا الى مبنى في نهاية مدرج مطار عنتيبي حيث حشروا معاً بينما طوقت القوات الاوغندية هذا المبنى. وفي اليوم الثالث امر المختطفون بفرز الرهائن الى مجموعات رغم انهم نفوا ان ذلك قد تم وفق جنسياتهم، وفي غضون ذلك قام عيدي امين بزيارة اخرى للرهائن وقال لهم «انه لا يستطيع فعل شيء حتى توافق اسرائيل على الشروط التي قُدِّمت لها».

كان الزمن، في هذه المناسبة، الى حد ما في جانب اسرائيل، فلم يضع الاسرائيليون اية فرصة في الأيام التي سبقت

الموعد النهائي، الذي وضعه المختطفون، سواء على الصعيد الدبلوماسي او في عالم المخابرات. وفي هذا المجال الثاني، وكما سيحدث دائماً، حدثت اتصالات مع الاميركيين والفرنسيين والبريطانيين، وكان امل رابين ان اسرائيل سوف تستطيع، بشكل ما، انقاذ حياة الرهائن والخروج من المسألة بدون ما قد يبدو استسلاماً مهيناً. ولكن الفرص بدت ضئيلة، ولا سيما ان دولة اخرى ذات سيادة كانت تتعاون مع المختطفين.

وكانت احدى الخطوات المتخذة الطلب الى العقيد بارليف ان يتصل شخصياً بعيدي امين على أمل امكان تحقيق شيء بناء على صداقتهما القديمة. وبعد محادثة طويلة كان كل ما امكن التوصل اليه هو ما يلي، وبكلمات عيدي امين نفسه المسجلة «انهم (المختطفون) على استعداد لتفجيرها (الطائرة).. وانت تستطيع مساعدتي اذا طلبت من حكومتك ان تفرج عن هؤلاء الاشخاص الذين تدعونهم مجرمين. فالافضل انقاذ ارواح اكثر من مائتي انسان.... فقد قالوا انهم سيقتلونهم، وسيبدأون بنسف الطائرة ثم سيقتلون الجميع معا، وعلى الفور، بالمتفجرات... وقالوا انهم، اذا حلقت اية طائرة فوق اوغندة، سينسفون كل شيء على الفور»[٢].

وبدت هذه المحادثة، وما تضمنته من الماحات عيدي امين، اولاً انها تستبعد اية فرصة للقيام بعملية انقاذ فعالة. وكانت «عملية يوناثان»، وهو الاسم الرمزي لعملية الانقاذ، قد وضعت من قبل لتكون جاهزة من اجل نتيجة كهذه، وتضمنت شروطاً لصبور معدّلة بديلة عنها. وكانت المهمة هي توكيد كافة الحقائق ووضعها ضمن اطار العمل ثم تقرير ما هي فرص النجاح. وباختصار، كانت الخطة تقوم على ارسال طائرة تحمل جنوداً سيقومون بانقاذ الرهائن والتعامل مع المختطفين.

واجريت موازنة بين المنافع والمضار، فمدينة عنتيبي تبعد اكثر من ٢٥٠٠ ميل عن اسرائيل، كما ان هنالك العديد من الاسرائيليين يعرف، معرفة مباشرة، اوغندة ومخطط المطار نفسه ومبناه وجيش اوغندة وقوتها الجوية. وكان عيدي امين على وشك السفر الى جزيرة موريشوس من اجل اجتماع منظمة الوحدة الافريقية مما اتاح هذا يومين آخرين للتخطيط، فقد ساد الشعور بان شيئاً ما لا يمكن حدوثه بينما عيدي امين في خارج البلاد، رغم ان استنتاجات كهذه عرضة لان تكون، في افريقيا، خاطئة. وجاءت انباء مشجعة من عملاء الموساد في كينيا عن امكان تلقي

مساعدة فيها رغم عدم حدوث مفاتحات حول ذلك مع الحكومة الكينية . ثم جاء ما هو افضل ، فقد ورد تقرير من كينيا عن تسلل عملاء الموساد الى اوغندة .

وفي غضون ذلك جرى تدريب على « عملية يوناثان » في مكان ناء من اسرائيل فهبط جنود المظلات في عملية انقاذ وهمية ضمن ظروف واقعية . وكان كل ما على هؤلاء هو ان يتبعوا الخطة ، على حين ان المراقبين سجلوا ملاحظات عن الاخطاء ، التي قد تتطلب التصحيح ، وعن التحسينات لاية عملية مقبلة . وكان احد الاقتراحات التي طرحت انذاك هي ان من الممكن محاولة خداع القوات الاوغندية على الارض ان هذه الطائرة تحمل عيدي امين العائد الى بلده اذ كان لا يزال في جزيرة موريشوس . وكانت الفكرة الاولى هي ايجاد مثيل له ، وحين تحط الطائرة على الارض يخرج شخص منها على عجل متخفياً مرتدياً بزة عسكرية اوغندية ، وكان سهلاً الاتيان بمثل تلك البزة اذ ان الاسرائيليين كانوا مستشارين للجيش الاوغندي . ولكن هذه الخطة غيرت ، فأُتي بمظلي اسرائيلي ضخم الجثة وعولج ليبدو مثل عيدي امين ، واتي ايضا بسيارة مرسيدس وطليت باللون الاسود لتبدو مثل سيارته

ايضا، وستنقل هذه في طائرة الانقاذ. ولكن البحث المتأني بَيَّنَ ان هذه الخطة غير عملية، وان محاولة الانقاذ لا يمكن القيام بها قبل عودة عيدي امين.

وربما كانت هناك مزية اخرى، رغم انها صغيرة، وهي معرفة «العقيد» بارليف الوثيقة بأوغندة وبشخصية عيدي امين وردود فعله المحتملة وعاداته وامراضه. وكان ملف بارليف عن الرئيس الاوغندي، والذي اغطاه المخابرات الاسرائيلية، لا يقدر بثمن لانه ملأ الثغرات في معلوماتها. وقد اثبت نقطة، بدت تافهة، انها ذات اهمية كبرى لان وراء «عملية يوناثان» كمية ضخمة من المعلومات الهامشية تتطلب الجمع والتخمين. فعلى سبيل المثال كان معروفاً ان عيدي امين قد دارت في خلده فكرة مجنونة، وهي صنع طائرة صغيرة لابنه الصغير حتى يستطيع ان يحلق بها هو نفسه حول حديقة منزله على ارتفاع عشرين او ثلاثين قدماً على سطح الارض. واقترح احد اصحاب الخيال من فريق الموساد، الذي حلل ملف عيدي امين، ان على اسرائيل ان تصنع سريعاً هذه الطائرة النموذج، او على الاقل لعبة مثلها يمكن ان يصدق المرء انها طائرة، وتقدم لعيدي امين على انها بادرة حسن نية، وان تجر طائرة الانقاذ

هذه الطائرة اللعبة بعدها. وكانت الحجة هي «وبهذه الطريقة لن يسمح عيدي امين لقواته باسقاط طائرتنا. فهذه اللعبة يمكن ان تقوم بدور حصان طروادة».

وكان رد ضابط آخر «حصان طروادة، نعم، ولكن طائرة طروادة لا. فهذه قد تفيد اذا استطعنا فعلاً صنع نوع الطائرة المصغرة، التي ارادها عيدي امين، في هذا الوقت القصير. ولكن اذا اكتشف هو ان هذه ليست سوى طائرة نموذج وليست حقيقية فلن يكون امام الرهائن فرص سانحة للنجاة».

على ان خطط الانقاذ كانت توضع، والانباء تأتي في كل وقت من اوغندة وكينيا. واعلنت اسرائيل، وهي تعمل لكسب الوقت، من خلال السفير الفرنسي في اوغندة، وعند انتهاء المهلة المحددة، انها على استعداد للتفاوض مع المختطفين. وفي اليوم التالي افرج عن مائة رهينة ورهينة في عنتيبي، ولم يبق من الرهائن الا الذين يحملون الجنسية الاسرائيلية وبعض اليهود من جنسيات مختلفة. وامكن الحصول على مزيد من المعلومات من هؤلاء، وبخاصة من الركاب الفرنسيين الذين استطاع عملاء الموساد ان يحصلوا منهم على كمية جيدة من المعلومات. ولعب الجنرال

رحبعام زيفي ، الذي عين بعد كارثة حرب تشرين مستشاراً خاصاً لرئيس الوزراء لشؤون المخابرات ، دوراً حيوياً في هذه المرحلة ، فهو لم يكن قادراً فقط على تقديم النصح حول المعلومات التي وصلت من فروع المخابرات كافة ، بل قدم لمجلس الوزراء تقييمه الخاص للوضع . لقد كان في باريس آنذاك ، وحصل على شتى البيانات والاقوال ، الصادرة عن الركاب المفرج عنهم ، وحللها . كما استطاع ايضا ان يقيم اوثق الصلات مع وزارة الدفاع الفرنسية .

وتطاولت المفاوضات للافراج عن الاسرائيليين ، وكان بعض الوزراء ضد خطة الانقاذ فقد خشوا ان تقع على عاتقهم مسؤولية موت اكثر من مائة اسرائيلي اذا فشلت هذه الخطة ، بيد ان انطباع ان المختطفين تقدموا بمطالب جديدة قلب الرأي لصالح « عملية يوناثان » . فقد ارادت اسرائيل ان تتم عملية تبادل الرهائن بالاسرى والسجناء في فرنسا ، وبخاصة لان فرنسا مسؤولة شرعاً عن سلامتهم وصحتهم ، وفي غضون ذلك اعلن ان الموعد الجديد الذي وضعه المختطفون لتلبية مطاليبهم هو الساعة ١١٠٠ ، بتوقيت غرينتش ، من يوم الاحد الرابع من تموز .

واخذ قادة الجيش الاسرائيلي ، يدعمهم سلاح البحرية

يضغطون للقيام بالعملية ، وكانوا تواقين للقيام بمحاولة الانقاذ . وكان عليهم ان يقنعوا مجلس الوزراء بذلك . وكانت المخابرات تدعم الجيش دعماً كاملاً .

لم يترك اي شيء للصدفة ، ورصدت حتى تحركات طائرة امين نحو موريشوس ، على حين ان طائرة استطلاع استمعت الى الاتصال اللاســلكي مع طائرة غادرت طرابلس الى عنتيبي . ونتيجة لذلك استطاعت المخابرات الاسرائيلية ان تقدم تقريراً عن ذلك ، وانه يبدو كما لو ان تعزيزات عربية لفريق المختطفين قد نقلت جواً الى اوغندة . وارسلت البحرية الاسرائيلية سفينة تجسس مليئة بأجهزة الكترونية الى المحيط الهندي بمحاذاة ساحل شرقي افريقيا . وقد اصبحت هذه السفينة مركزاً للاتصالات الحيوية ، كما رصدت الرسائل المتبادلة بين موريشوس ونيروبي وكمبالا ، والتقطت اشارات من عملاء الموساد .

وكانت المشكلة الرئيسية ، وقال بعضهم الوحيدة ، « لعملية يوناثان » هي كيفية القيام بهبوط سريع للجنود لتنفيذ عملية الانقاذ قبل ان يقوم المختطفون بأي عمل ضد الرهائن . وقد ساعد الركاب العائدون الى باريس المخابرات الاسرائيلية على تكوين صورة دقيقة لقاعة مبنى طرف المطار حيث حشر الاسرائيليون معاً ،

ولقربها من مدرج الهبوط، وفكرة عن كيفية حراستها. ورفدت هذه المعلومات بمعلومات اخرى من العملاء الذين تسللوا من كينيا الى داخل اوغندة. وقد استأجر احد هؤلاء قارباً صغيراً من بورت فكتوريا Port Victoria، وشق طريقه ليلاً، وهو يتظاهر انه يقوم برحلة صيد سمك، عبر مجموعة من الجزر الصغيرة في الزاوية الشمالية ــ الشرقية من بحيرة فكتوريا ثم رسا سراً على الشاطيء الاوغندي، ودخل الاراضي الاوغندية بوصفه سودانياً، واتخذ صفة اللاــ سامي المتعصب وحصل على معلومات عن عدد الجنود في مطار عنتيبي، وكيفية توزعهم، وجدول مواعيدهم اليومية، والمواقع الدقيقة لطائرات سلاح الجو الاوغندي. وقد ضخمت هذه القصة جداً فيما بعد في مجلة دير شبيغل Der Spiegel الاسبوعية الالمانية الغربية برواية عن ان الاسرائيليين استأجروا زوارق بخارية في كيسومو Kisumu، في كينيا، وابحروا عبر بحيرة فكتوريا الى الشاطــيء الاوغندي القريب من مطار عنتيبي.

ونتيجة لهذه الامور جميعها استطاع المخططون العسكريون في تل ابيب ان يذكروا في تقرير لهم ان انقاذ الرهائن ستكون عملية سهلة نسبياً شريطة ان يستطيعوا النزول في مطار عنتيبي بدون اثارة

اية شكوك. وبات بمقدورهم، في ذلك الوقت، ان يضعوا برنامج عملية الانقاذ وتوقيتاته منذ لحظة النزول. ولكن اكد مدير العمليات ان «هذا البرنامج صالح الآن، ولكنه لا يعني انه صالح غداً او اليوم الذي يليه. اذ ان علينا ان نحصل على آخر المعلومات كل الوقت وحتى اللحظة الأخيرة».

وثمة تساؤلات عن المعلومات التي تم الحصول عليها في الساعات الاربع والعشرين التالية. ويبدو ان حوالي مائة جندي اوغندي كانوا متمركزين فعلاً في مطار عنتيبي. وجاءت انباء اخرى عن ان القوة الاوغندية تحتوي ايضا على طائرات ميغ ـ ١٧ وميغ ـ ٢١ ودبابات. ومن اجل رفد المعلومات التي يبعث بها العملاء، أُرسِلَ فريق الى نيروبي لاجراء اتصالات مع حلفاء اسرائيل داخل مخابرات جومو كينياتا، رئيس كينيا، الخاصة والمدعوة بوحدة الخدمة الخاصة. وهكذا، باتت «مجسّات» الموساد ممتدة الآن الى داخل كينيا واوغندة، واستخدمت الى اقصى حد بعض عملائها الفرعيين الافارقة والسودانيين.

وقامت المخابرات الاسرائيلية بنشاط واسع مكثف داخل كينيا. فاذا حدثت محاولة انقاذ فإن اعادة تزويد الطائرات بالوقود

لرحلة العودة امر أساسي، ومطار نيروبي هو المكان الواضح لتنفيذ ذلك، اذ ان التزود بالوقود جواً عملية خطيرة، وبخاصة لانه سيوفر فرصاً لاية طائرات عدوة للتدخل وصنع «حادث». وتقرر، لان السرية امر اساسي جداً في اية مفاتحة للسلطات في نيروبي، ان خير خطة هي ان تتوصل المخابرات الى تفاهم مع سلطات الأمن ووحدة الخدمة الخاصة في نيروبي حين تنفيذ عملية الانقاذ. وكانت علاقات اسرائيل بكينيا جيدة، وللموساد شبكة فعالة فيها. ويضاف الى ذلك تَوَتُّر العلاقات بين كينيا واوغندة.

وفيما بعد ذكر مراسل صحيفة لوس انجيليس تايمز، في نيروبي، في تقرير له ان «العملاء الاسرائيليين الذين كانوا في نيروبي منذ بضعة ايام قاموا بترتيبات العملية المعقدة». وقال سائح اسرائيلي: «كان هنالك شبان عديدون يتكلمون اللغة العبرية في فندقي، ولم يكونوا سائحين. وكانت السيارات المستأجرة لمساعدي المبعوث الاسرائيلي تتجمع خارج بيته». وكانت طائرة بوينغ ٧٠٧ عدلت لتكون مستشفى ميدانياً تنتظر في نيروبي الاناس العائدين.

وظهرت الماحة عن الطبيعة السرية للمحادثات بين الاسرائيليين وبعض السلطات الكينية حين نُشِر كتاب يهودا عوفر Yehuda Ofer، وعنوانه عملية الرعد Thunder Operation،

مسلسلاً في مجلة صندي نيشن Sunday Nation الكينية . وذكرت مجلة ويكلي ريفيو Weekly Review الصادرة في نيروبي ، في عددها يوم ١٨ تشرين الاول ١٩٧٦ م. ان جورج غيثي George Githii ، رئيس تحرير مجموعة صحف نيشن Nation ، والذي يراقب سياسة صندي نيشن ، قد طُلِبَ منه يوم ١٣ تشرين الاول التوقف عن نشر سلسلة الكتاب على اساس انها «ضد الامن القومي» . وقد قيل ان الطلب جاء من رئيس شرطة كينيا ، الذي طلب من السيد غيثي ، في الوقت نفسه ، التوقف عن كتابة قصص معادية للعرب .

لقد ساعد الحظ ، بطريقة ما ، المخابرات الاسرائيلية ، فعلى سبيل المثال بنت مطار عنتيبي شركة سوليل بونيه Solel Boneh الاسرائيلية ، وكان سهلاً الحصول من مهندسي الشركة على مخططات المطار وانشاءاته . صحيح ان مؤسسة ايطالية وسعته فيما بعد ، ولكن يسهل الحصول على تفاصيل ذلك . وقد اشارت التقارير الواردة من عنتيبي نفسها ان مبنى طرف المطار ، حيث احتجز الرهائن ، لم يكن محاطاً بألغام مستورة . وبعد ان قابل فريق تحقيق اسرائيلي الركاب المفرج عنهم في باريس اعيد استجواب واحد او اكثر منهم .

لم يُهْمَل اي جهاز معقد للتجسس المعاصر، ولا يستطيع المرء، لدى استعماله واحداً من هذه الاجهزة، الا ان يخمن ويستنتج، ولكن يبدو مرجحا ان الاسرائيليين حصلوا، ربما عن طريق الاميركيين، على بعض المعطيات المصورة المسجلة بواسطة الاقمار الصناعية عن عنتيبي. وكانت ثمة ايضا درجة جيدة من التعاون في ميدان الاستطلاع الجوي مع جنوبي افريقيا او حتى مع المخابرات الافريقية الجنوبية. ومن المؤكد أنَّ رجال البحوث قدموا معلومات تنجيمية وتكهنية ــ نفسية. واجريت دراسة تكهنية ــ نفسية لعيدي امين، كما اعير اهتمام شديد «لخريطة التأسيس» الاسرائيلية، المرصودة باستمرار والتي ابقيت متسلسلة منذ قيام اسرائيل وحتى الآن، فدرست الدلالات بالنسبة لغارة عنتيبي دراسة متأنية. وكانت العلامات جيدة، فأحد الاستنتاجات التنجيمية التي استُخْلِصت كانت كما يلي «ان جوبيتر، (وفق خريطة اسرائيل)، هو مقابل اورانوس وان نبتون يقترن بزحل، وهاتان علامتان ترمزان الى حادث طيران ناجح، اذ ان كلا نبتون واورانوس متصلان بالطيران، وان احدهما او كلاهما قد يشاركان في هذا النوع من الحدث»(*).

(*) خرافات واساطير يحاول الصهيونيون ان يغلفوا احداثهم واعمالهم بها. (المترجم)

وجرت تجربة عملية الانقاذ بهدوء، وهذا اكد الفكرة الاصلية باستخدام ثلاث طائرات من طراز لوكهيد سي ــ ١٣٠ ــ هيركوليس لها، واوكلت مسؤولية العملية الى رئيس شعبة العمليات الجنرال يكوتيل آدم(*) Yekutiel Adam، ويساعده الجنرال دان شومرون Dan Shomron رئيس سلاح المشاة والمظليين. وكان الرجال الذين اختيروا لهذه المهمة من صفوة قوات المظليين، ويقودهم واحد من خيرة ضباطهم الشبان، وهو العقيد يوناثان نيتانياهو Jonathan Netanyahu، ومن اسمه اخذ اسم العملية الرمزي.

ودفع عاملان الحكومة الاسرائيلية اخيراً الى تأييد خطة الانقاذ، واولهما ان المختطفين صعدوا مطالبهم مع ان اسرائيل المحت الى انها ستفاوضهم وفقاً لشروطهم، والثاني ما ذكرته التقارير من ان اعدام الرهائن سينفذ يوم الاحد الرابع من تموز، وان نظام عيدي امين سوف يُساعد على ذلك بل هو يحرِّض عليه. واخيراً، ولدى غروب شمس يوم السبت ٣ تموز اقلعت ثلاث طائرات من مطار بن غوريون في الاتجاه الجنوبي الشرقي، وحلقت على ارتفاع

(*) قتل في صيدا مع عدد من مساعديه في حزيران ١٩٨٢. (المترجم)

شاهق فوق البحر الاحمر على امل انها ستبدو، خطأ، طائرات مدنية تطير نحو جنوب افريقية. وليس ثمة من شك في حدوث بعض التعطيل الراداري موجه، على الارجح، نحو مطار عنتيبي حيث اخفق الاناس المسؤولون عن برج المراقبة في توجيه انذار فوري كان سيدمر العملية كلها.

ثم، وفي الدقيقة الاولى بعد منتصف ليل الاحد ٤ تموز هبطت اولى الطائرات، هبوطاً ناعماً في مطار عنتيبي، واندفع الجنود المهاجمون على الفور الى المبنى في طرف المطار. لقد عملت الموساد كل ما في وسعها لتغطية العملية وتضليل الاوغنديين والمختطفين كي يعتقدوا ان اسرائيل لا تزال تأمل في التفاوض(*). فأجريت محادثات هاتفية، بهذا الخصوص، في فرنسا مع المعرفة التامة انها مرصودة ومراقبة وتنقل الى «اعداء» اسرائيل. وقال شخص مسؤول رفيع المستوى في المخابرات الفرنسية لنظيره في الموساد «استخدم دائما ذلك الخط الى وزارة الدفاع الفرنسية او الى فندق...، وعندها كن واثقاً ان محادثتك قد استرق السمع

(*) هذا هو الاسلوب المراوغ والخداع نفسه الذي تستخدمه اسرائيل في كل عملية من هذا النوع، تستهدف اخراج معتقلين من السجون الصهيونية.

(المترجم)

لها، وكل كلمة منها سوف تنتقل الى منظمة التحرير الفلسطينية. ان علينا نحن، في المخابرات بهذه البلاد، ان نحارب ضد اعدائنا في الأوساط الحكومية».

لقد روت سلطات عديدة الحكاية الكاملة المفصلة لعملية انقاذ الرهائن. ففي خلال بضع دقائق تم الافراج عن الرهائن، وسيقوا الى الطائرة، وعطل برج المراقبة عن العمل. وقُتِلَ اربعة اسرائيليين فقط في عملية كان المتوقع ان تكون نسبة الاصابات فيها ٢٠ ٪، وثلاثة من هؤلاء مدنيون وعسكري واحد هو العقيد نيتانياهو الذي قتل اثناء تبادل اطلاق النار مع برج المراقبة. وقد استمرت العملية ثلاثاً وخمسين دقيقة، اي اقل بدقيقتين عن الزمن الذي استغرقته في تدريبات التجربة. وقُتِلَ المختطفون كافة ما عدا واحداً.

ولم يضع القائمون بالعملية اي وقت، بل طاروا فوراً الى نيروبي حيث اعيد تزويد الطائرات بالوقود، لتعود من هناك الى تل ابيب.

ومهما يكن من امر فان حادثاً واحداً فقط هو الذي افسد العملية، اذ لم يعرف احد تماماً هوية المختطف الذي هرب، وقد

قيل انه كان مع عيدي امين اثناء الغارة، وكتب يهودا عوفر انه «الفوضوي البيروي(*) Peruvian انطونيو بوفييه Antonio Bouvier الذي كان قائد المجموعة الارهابيـة في عنتيبـي[٣]». ولكـن بعض الناس يشك في ذلك ويعتقد انه كارلوس سانشيز. وفي الفيلم الاسرائيلي الـذي اخرجـه منـاحيم جولان Menahem Golan عن الغارة، وحظي بالدعم الكامل من كلتا الحكومة ووزارة الدفاع الاسرائيليين بدا كارلوس احد شخصيات الفيلم. وقال جولان «لا احد يعرف، على وجه التحقيق، ان كان الثعلب (كارلوس) متورطاً او اذا كان هو الرجل الذي هرب».

وفي خبز آخر، لم ينتشر على نطاق واسع، ان الطائرة التي قدمها الإسرائيليون لعيدي امين سنة ١٩٧١ م امكن استعادتها بعد هذه الغارة. وسرت شائعات عن «عملية مخابراتية اخرى»، ولكن عيدي امين أكّد فيما بعد، انه هو الذي امر بإعـادة الطائرة.

(*)نسبة الى جمهورية بيرو في اميركا اللاتينية.

(المترجم)

المصادر

الفصل الأول

١ــ سفر يشوع، الاصحاح الثاني، ١ــ ٢١.

٢ــ سفر العدد، الاصحاح الثالث عشر، ٣.

٣ــ سفر العدد، الأصحاح الثالث عشر، ١٧ــ ٢٦.

٤ــ انظر: قصة الحملة الصليبية الاخيرة، فيفيان غيلبرت، و. ب. فيكنز، نيويورك، ١٩٢٣ م، الصفحات ١٨٣ــ ١٨٥.

٥ــ انظر: تاريخ الكومونويلث والمحميات History of the Commonwealth and the Protectorates، المجلد الثالث، س. ر. غاردنر S. R. Gardiner، لونغمانز، لندن، ١٨٩٤ــ ١٩٠٣.

٦ــ انظر: تاريخ روسيا History of Russia، غراهام ستيفنسون Graham stephenson، دار نشر برايغر Praeger، نيويورك، ١٩٧٠ م. وانظر كتاب: آزيف: الجاسوس، والارهابي الروسي، واداة الشرطة، Aseff; the Spy,

Boris بورس نيقولايفسكي ، Russian Terroristv Police Stool
Nicolaievesky ، دار نشر دبلدي دوران Doubleday Doran ، نيويورك ،
١٩٣٤ م.

الفصل الثاني

١ ــ حياتي ، موشه دايان ، دار نشر وايدنفيلد ونيكولاس ، لندن ، ١٩٧٠ م.

٢ ــ المصدر السابق.

٣ ــ ايام النار Days of Fire ، صموئيل كاتز Shmuel Katz ، دار نشر و. هـ . ألن ، لندن ١٩٦٨ م.

٤ ــ استشهد بها ويليام ستيفنسون في كتابه : رجل يدعى انتربيد Aman Called Intrepid ، ماكميلان ، لندن ، ١٩٧٦ م.

٥ ــ منظمة تنفيذ العمليات الخاصة في فرنسا SOE in France ، م. ر. د. فوت M. R. D. Foot ، دار نشر HMSO ، لندن ، ١٩٦٤ م.

٦ ــ خفف الحلفاء جميعهم ، دائماً ، من وطأة الاخفاق في القيام بعملية انقاذ رمزية على الأقل. وذكرت مصادر المقاومة الفرنسية وحدها ان الحكومتين البريطانية والفرنسية تلقتا ، منذ ربيع ١٩٤٣ م ، تقارير وافرة مسهبة عن أن أكثر من ١١٠ الاف يهودي قد نقلوا من فرنسا وحدها الى معسكر اوشفيتز Auschwitz وان اقل من ١٤ الفا كانوا لا يزالون على قيد الحياة آنذاك . وفي

النهاية قيل ان عدد الذين بقوا احياء هو ٢٨٠٠ شخص. وقد كتب ليون بولياكوف Leon Poliakov في «حصاد البغضاء» Harvest of Hate: ان البقاء على قيد الحياة هو نوع من التحدي لدى اليهودي لان المرء يستطيع ان يجمع مالا يحصى من اقوال رجال الصاعقة الالمانية من امثال: «لن تغادر هذا المكان الا من خلال المدخنة».

الفصل الثالث

١ ـ درع داوود: قصة القوات المسلحة الاسرائيلية Shield of David: the Story of Israel' Armed Forces، دار نشر وايد نفيلد ونيكولسن، لندن، ١٩٧٠ م.

٢ ـ صحيفة الصندي تايمز، ١٥ ايلول ١٩٤٦ م.

٣ ـ صحيفة الصندي تايمز، ١ حزيران ١٩٤٧ م.

٤ ـ من اجل المزيد من التفاصيل عن بناء القوات الجوية الاسرائيلية انظر: القوة الجوية الاسرائيلية The Israeli Air Force، روبرت جاكسون، توم ستاسي، لندن، ١٩٧٠ م.

الفصل الرابع

١ ـ صحيفة الديلي تليغراف، ٢٨ تشرين الأول، ١٩٥٢ م.

الفصل الخامس

١ــ حياتي، دايان.

٢ــ الجيش الاسرائيلي في السياسة: هيمنة المدنيين على العسكريين، عاموس برلموتر، جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٨ م.

٣ــ حياتي، دايان.

٤ــ الجيش الإسرائيلي في السياسة، برلموتر.

٥ــ المصدر السابق.

الفصل السادس

١ــ هذه هي الهوية التي ذكرتها معظم المصادر لكوهين، ومنها تقارير الصحف، بعد القاء القبض عليه. ولكن ربما يكون لكوهين «غطاءان»، وان احدهما قد «طار» في احدى مراحل العملية، وذلك كما قال أ. هـ كوكريدج E. H. Cookridge في مقابلة له عنوانها «بين همس الجواسيس»، مجلة الديلي تليغراف، ٢٣ تموز ١٩٧٦ م: «لقد ظهر (كوهين) في العاصمة السورية بوصفه حنان أتاسي، وهو اميركي الجنسية من اسرة سورية غنية استقر قسم منها قبل سنوات في ديترويت».

٢ــ ايلي كوهين: رجلنا في دمشق، بن هنان Ben Hanan، انظر ايضا

L'Espion qui Venait d'Israel: L'Affaire Elie Cohen ، بن دان Ben Dan.

٣ ــ مجلة الصندي تايمز، ٣٠ أيار ١٩٦٥ م.

٤ ــ ذكر ذلك في: ايلي كوهين: رجلنا في دمشق، بن هنان.

الفصل السابع

١ ــ الحل النهائي: محاولة ابادة يهود اوروبا (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ م)، جيرالد رايتلنجر Gerald Reitlinger وفالنتين متشيل Vallentine Mitchell، لندن، ١٩٥٣ م.

٢ ــ استشهد بذلك جيرالد رايتلنجر.

٣ ــ مقالة عنوانها «أمام مطارد النازيين ٢٥٠ هدفاً آخر»، في عمود Insight من صحيفة الصندي تايمز، ٢١ نيسان ١٩٦٣ م.

٤ ــ مقالة عنوانها «المنتقم»، بقلم رينيه ماككول René MacColl، مجلة الديلي اكسبريس، ٣٠ نيسان ١٩٦٤ م.

٥ ــ مقالة عنوانها «الدرب السري للنازيين السابقين اثناء هربهم»، بقلم انطوني تيري Antony Terry، الصندي تايمز، ٢٧ تموز ١٩٦٧ م.

٦ ــ مقالة عنوانها «كيف قبضت على مقترف القتل الجماعي»، بقلم

البروفيسور توفياه فريدمان Tuviáh Friedman، مجلة الصندي غرافيك Sunday Graphic، ٢٩ ايار ١٩٦٠ م.

٧ــ المصدر السابق.

الفصل الثامن

١ ــ «المنزل في شارع غاريبالدي: القاء القبض على ادولف ايخمان»، ايسر هاريل، دار نشر اندره دويتش، لندن، ١٩٧٥ م.

٢ــ المصدر السابق.

٣ــ المصدر السابق.

٤ــ المصدر السابق.

٥ــ فكتور الكسندروف Victor Alexandrov في مجلة «نجمة اسرائيل» Israel Star، ٢ كانون الاول ١٩٦٠.

٦ــ ذكر ذلك لاديسلاس فراغو Ladislas Farago في مقتطفات من كتابه «ملف بورمان» The Borman File، ظهرت في مجلة الديلي اكسبريس، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ م.

٧ــ «المنزل في شارع غاريبالدي»، هاريل.

٨ــ «القاء القبض على ادولف ايخمان»، موشه بيرلمان، دار نشر وايدنفيلد ونيكولسن، لندن ١٩٦١ م.

الفصل التاسع

١ ــ مقالة عنوانها «اسرائيل: تيارات في المخابرات»، بقلم سي. ل. سولزبيرجر، صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون، ٢٣ تشرين الاول ١٩٧٤ م.

٢ ــ حياتي، دايان.

٣ ــ انظر مقالة في مجلة Psychology Today، ١٨ آذار ١٩٧٥ م. وقد ذكر كريستوفر ماسي Christopher Macy، رئيس تحرير هذه المجلة، آنذاك ان التوثيق المصنف حول تدريب الحمام قد وصل اليه من الولايات المتحدة، «وقد استشهدنا برقم العقد العسكري (عقد القوة الجوية، رقم ٢٣ (٦١٥) (٢٣٠)) من اجل اثبات موثوقيتها».

٤ ــ انظر المقالة التي عنوانها «تحري الحقيقة في حبة عَرَق»، بقلم سيمون ونشتسر Simon Wichester، في صحيفة الغارديان.

الفصل العاشر

١ ــ مقالة عنوانها «المخابرات التي يخشاها عبد الناصر»، بقلم دينيس سفتون ديلمر Denis Sefton Delmer، صحيفة الصندي تليغراف، ١٤ كانون الثاني ١٩٦٢ م.

٢ ــ المصدر السابق.

٣ ــ نشرت مذكرات جيهلين مسلسلة في صحيفة دي فيلت Die Welt الالمانية، ١٠ ايلول ١٩٧١.

الفصل الحادي عشر

١ ــ وردت بعض خلفيات نشاطات العلماء الألمان في مصر، في كتاب La Chasse aux Savants Allemands، بقلم مايكل بار زوهار، مكتبة Arthème Fayard، باريس ١٩٦٥ م.

الفصل الثاني عشر

١ ــ المنزل في شارع غاريبالدي، ايسر هاريل.

٢ ــ «أيام النار»، صموئيل كاتز.

٣ ــ المنزل في شارع غاريبالدي، هاريل.

الفصل الثالث عشر

١ ــ مقالة عنوانها «بين همس الجواسيس»، بقلم ا. هـ. كولريدج، مجلة الديلي تليغراف، ٢٣ تموز ١٩٧٦ م.

٢ ــ أخذت المقتطفات والاستشهادات جميعها في هذا الفصل من تقرير صحيفة التايمز حول هذه المسألة، ١٥ كانون الثاني، ١٩٦٢ م.

الفصل الرابع عشر

١ ــ وكالة المخابرات المركزية: الاسطورة والجنون، بقلم باتريك ماكغارفي Patrick Mcgarvey، دار نشر ستردي ريفيو برس، ١٩٧٢ م.

الفصل الخامس عشر

١ ـ سببت مذكرة بن غوريون ضجة آنذاك، وقد سُرِّب بعضها للصحف. انظر «تقرير دراسة الجواسيس الاسرائيليين»، بقلم تيرنس بريتي Terence Prittie المراسل الدبلوماسي في صحيفة الغارديان، ٣ تشرين الثاني ١٩٦٤ م.

٢ ـ «حلقة التجسس تذهل اسرائيل»، صحيفة الصندي تليغراف، ١٧ كانون الاول ١٩٧٢ م.

٣ ـ «حبل البهلوان الذي انقطع»، بقلم ايريك سيلفر، صحيفة الغارديان، ٣٦ آذار ١٩٧٦ م.

٤ ـ صحيفة ها آرتس، تل ابيب، ٢٢ شباط ١٩٧٣ م.

الفصل السادس عشر

١ ـ انظر كتاب «تاريخ المخابرات الصينية»، تأليف رتشارد ديكون Richard Deacon (دار نشر فريدريك مولر، ١٩٧٤ م)، فقد كان أحد الرجال المسؤولين عن وضع نظرة اخرى الى الاسرائيليين هو كاو ليانغ Kao Liang الذي اصبح سكرتير وفد الصين الى هيئة الأمم المتحدة، وكان وسيطاً بين الدبلوماسيين الصينيين ومن يتصلون بهم من الافارقة. إنه أحد أقدر الفعالين في المخابرات الصينية. وكان هدف الصين في أفريقيا، على الدوام، هو كبح النفوذ السوفييتي والتجسس على البعثات السوفييتية كافة، ولذا كانت اهدافها، في هذا

الحد، تتفق واهداف الموساد. وقد ساعدت المخابرات الصينية على تمويل محاولة الانقلاب الفاشلة، على الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٦٥ م. وفي الخرطوم نسب الى المخابرات الصينية في اوائل السبعينات انها اقامت بعض الروابط غير العادية مع كلتا المخابرات الفرنسية، في المناطق الشمالية والجنوبية المجاورة للسودان، ومع المخابرات الاسرائيلية. وفي الحرب الأهلية، التي لم تذع تفاصيل عنها في جنوبي السودان، كان ثمة بعض التجمعات، التي لا تصدق، لمصالح متنافسة: مصالح مصر وفرنسا والاتحاد السوفييتي واسرائيل والصين، ويساعد كل منها مجموعة من المرتزقة.

٢ ــ دققت هذه البيانات الاسرائيلية مع معلومات من مصادر اخرى وتبين انها صحيحة. وهنالك كتاب من شركة في يوغسلافيا يعالج موضوع الشحن، واكد ان الحمولة قد نقلت من براغ في طائرة خاصة للخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية، وذلك كما قال المخبر. وكان رقم اذن العبور هو ٣٣٥١ ــ ٢ / ٨٨٧، تاريخ ٥ / ٤ / ١٩٧١ م، وقد سجل اسم الوكيل، ذي الصلاحية بتوزيع البضاعة، مع عنوانه. وتقول ترجمة البرقية المتعلقة بهذه الصفقة ما يلي «اذن العبور (الترانزيت) رقم ٣٣٥١ ــ ٢ / ٨٨٧ (غير محلول الشيفرة) ٥ / ٧ ويتعلق بأسلحة وذخائر متنوعة من الاتحاد السوفييتي الى مطار دوالا في تشاد».

الفصل السابع عشر

١ ــ كان ثمة انطباع في الاوساط الحكومية الفَرنسية بوجود تصرفات خرقاء في صفوفها. وقد كفت ايدي مسؤولين فرنسيين كبيرين، هما الجنرال برنارد غزيل Bernard Gazelles، وكيل وزارة الدفاع الدائم، والجنرال المهندس لوي بونتي Louis Bonte، رئيس القسم الدولي في دائرة التسليح. وبعد وقت قصير استقال ضابط آخر، والتحق بمؤسسة داسو Dassault للاسلحة.

الفصل الثامن عشر

١ ــ ذكرت صحيفة الديلي تليغراف، يوم ١٥/ ٩/ ١٩٧٢ م، نقلاً عن مراسلها في القدس، ان «علي سلامة كان العقل المدبر للمذبحة الاولمبية في ميونيخ»، وانه «ترأس الجناح الاوروبي لمنظمة ايلول الاسود... وتقول المصادر الاسرائيلية ان هذه الجماعة تهدف الى القيام بعمليات جريئة مشهودة في اوروبا والشرق الاوسط وافريقيا واميركا الشمالية. ويعتقد ان نواتها الضاربة تتألف من «فريق انتحاري» يضم بضع عشرات الارهابيين المستعدين والتواقين للتضحية بأرواحهم».

الفصل التاسع عشر

١ ــ كارلوس: صورة ارهابي، بقلم كولين سميث، دار نشر اندره دويتش لندن، ١٩٧٦ م.

٢ــ رسالة من اليانور ايتكين Eleanor Aitken، عنوانها «موت شاعر»، في صحيفة الصندي تايمز، ٢٦ ايلول ١٩٧٦ م.

٣ــ الفريق الضارب: القصة المثيرة للضربات الاسرائيلية ضد الارهابيين العرب في اوروبا، بقلم ديفيد تينين David Tinnin، دار نشر وايدنفيلد ونيكولسن، لندن، ١٩٧٦ م.

٤ــ صحيفة الغارديان، ١١ آب ١٩٧٦ م، مستشهدة بصحيفة Aftenposten النرويجية.

٥ــ صحيفة الغارديان، ٩ تموز، ١٩٧٥ م.

٦ــ ان احدى مشكلات تحديد هوية بعض المسؤولين عن الكوماندو الاسرائيلي هي ان كثيرين منهم يتنقلون باسماء رمزية لاسباب امنية، وقد سُمّي العديد منهم برفاييل أو ايتان وكثيراً ما كان يجمع هذا الاسمان معا. والى جانب ذكر «ايتان هـ». هذا يشير وليام ستيفنسون William Stevenson في «تسعون دقيقة في عنتيبي» (كتب بانتام، نيويورك، ١٩٧٦ م) الى احد افراد فريق عنتيبي: «.... ان رفاييل هو اسمه الرمزي». وفي كتاب «عين تل ابيب»، بقلم ستيف ايتان Steve Eytan هناك ذكر لاسم رفول، وهو يشير الى رفاييل (الذي يسمى أحياناً رفول) ايتان الذي ولد في مستعمرة بوادي جزريل سنة ١٩٢٩. وفي شبابه اصبح ضابطا في قوة البالماخ، ثم سرح والتحق بالجيش الاسرائيلي مرتين ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٤ م، وخلالهما درس التاريخ العسكري في تل ابيب. وقد أقام لنفسه شهرة كمقاتل جريء يقود الغارات الانتقامية تحت شعار

«اتبعوني». وبعد ان حضر دورة في كلية «القيادة والاركان» عين نائب قائد لواء مظلي، ثم منح اجازة ليدرس في الولايات المتحدة. وفي حرب حزيران ١٩٦٧ م قاد لواء مظلياً وقاتل في قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء. وقد جرح في القنطرة لثالث مرة في حياته العسكرية. ثم رقي الى رتبة لواء، وعين منذ سنة ١٩٧٤ م قائداً للجبهة الشمالية. (كان رئيساً لاركان الجيش الاسرائيلي حين غزو لبنان ١٩٨٢ م).

٧ــ مقابلة مع ابو داوود اجراها ماو تيتلباوم Mao Teitelbaum، صحيفة الصندي تايمز، ١٦ كانون الثاني، ١٩٧٧ م.

الفصل العشرون

١ــ صحيفة نيويورك تايمز، ٢١ ايار ١٩٧٤.

٢ــ صحيفة نيويورك تايمز، ١٢ ايلول ١٩٧٥.

٣ــ المصدر السابق.

٤ــ حياتي، موشه دايان.

٥ــ المصدر السابق.

٦ــ الادراك والخداع والمباغتة: حالة حرب يوم الغفران، تأليف مايكل ا. هاندل Michael I. Handel، الجامعة العبرية في القدس، اوراق القدس حول مشكلات السلام.

٧ـ المصدر السابق.

٨ـ اوراق أدلفي Adelphi Papers، الرقم ١١١: «الحرب العربية ـ الاسرائيلية، تشرين الثاني، ١٩٧٣: الخلفية والاحداث»، المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، لندن، ١٩٧٥.

٩ـ الحرب الخاطفة والنصر، ج. ب. ويليامز G. B. Williams.

١٠ـ صحيفة نيويورك تايمز، ٢١ ايار ١٩٧٤ م.

الفصل الحادي والعشرون

١ ـ «تسعون دقيقة في عنتيبي»، ستيفنسون.

٢ـ من تسجيلات للمخابرات الهاتفية التي اجراها العقيد (كولونيل) باروخ باريليف مع عيدي امين، ونشرها مكتب المعلومات الاسرائيلي.

٣ـ «عملية الرعد»، يهودا عوفر، كتب بنغوين، هارموند سويرث، ١٩٧٦

المصطلحات

الشاي Shai : جهاز المخابرات السري التابع للهاغاناه (قبل قيام اسرائيل).

ريخيش Rekhesh : فرع الحصول على الأسلحة والذخائر في الهاغاناه (قبل قيام اسرائيل).

بايلام Paylam : البحرية الاسرائيلية.

الشين بيت (مختصر شيروت بيتاخون Sheruth Bitachou) اي جهاز الامن، وكانت مهمتها الاساسية مكافحة التجسس وملاحقة الجواسيس والامساك بهم، ثم تطورت الى أكفأ جهاز لجمع المعلومات عن العالم العربي.

الموساد Mossad : جهاز المخابرات العامة.

شاباك : (شيروت بيتاخون كلالي Sheruth Bitachon Klali) قسم من الشين بيت، ويختص بمكافحة التجسس فقط.

أمان Aman : المخابرات العسكرية.

الميمونة Memuneh: رئيس الموساد والرئيس التنفيذي للمخابرات السرية

ورئيس اللجنة التي تتألف من رؤساء كافة اقسام المخابرات والمسؤول مباشرة امام رئيس الوزراء.

ريشود Reshud : جهاز يرتبط بالشين بيت، ومهمته مراقبة المنظمات الارهابية السرية واجراء الاعتقالات بناء على الادلة التي يجمعها عملاء الشين بيت .

يوفال نيعمان : الذي ورد اسمه كثيراً في هذا الكتاب بوصفه رئيسا لامان في فترة ما تولى وزارة العلوم زمن بيغن، وهو الان عضو في الكنيست، ومن حزب هاتحيا، اليميني المتطرف الذي يضم رفائيل ايتان وجيئولا كوهين وغيرهما .

الفهــرس

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

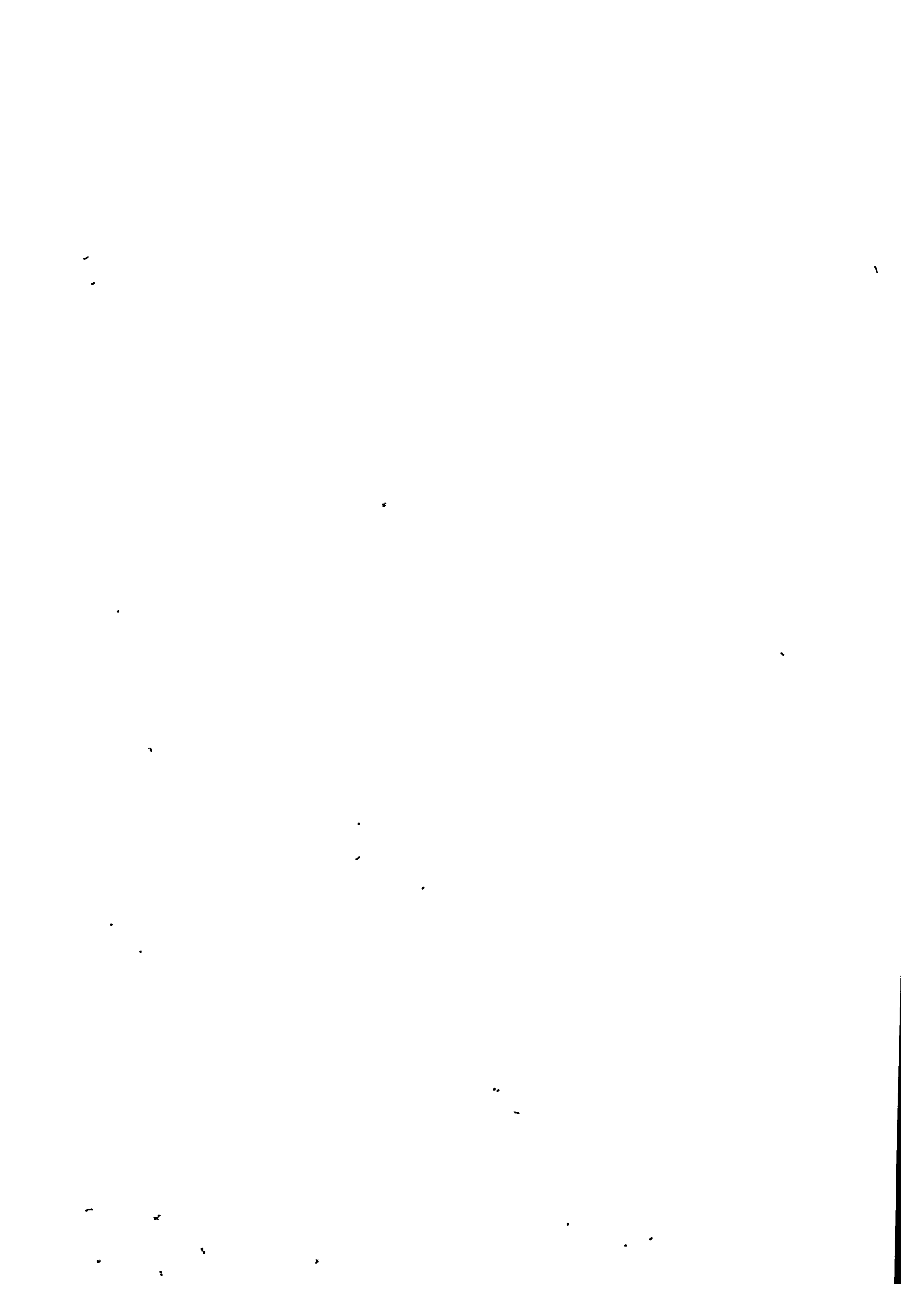
الفصل الحادي والعشرون

المخابرات الإسرائيلية = The Israeli Secret Service : تاريخها ـ إدارتها ـ أشخاصها ـ أعمالها ـ فضائحها / تأليف رتشارد ديكون ؛ ترجمة محمود فلاّحة . ـ ط. ١ . ـ دمشق : دار طلاس، ١٩٨٧ . ـ ٦٣٧ ص. ؛ ١٧ سم .

١ ـ ٣٢٧٫٥٦٤ د ي ك م ٢ ـ ٣٥٥٫٣٠٩٥٦٤
د ي ك م ٣ ـ العنوان ٤ ـ ديكون ٥ ـ فلاّحة
مكتبة الأسد

رقم الايداع ٣٤٢ / ٣ / ١٩٨٧





هـذا الكتـاب

يتتبع هذا الكتاب الجاسوسية اليهودية، ثم الصهيونية والاسرائيلية، منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، مستشهداً ببعض النصوص التوراتية، وبأشخاص لعبوا أدواراً هامة في هذا النشاط التجسسي.

المؤلف غربي وبريطاني، وهو لايخفي تعاطفه مع المخابرات الصهيونية، ويتكشف هذا التعاطف من خلال سرده لبعض الأعمال التي قامت بها أجهزة هذه المخابرات، ولتطور هذه الاجهزة، ولعرض أسماء بعض الأفراد الذين قاموا على إدارتها، فيذكر أصولهم ونشأتهم وسير حياتهم التي أوصلتهم إلى مراكز المسؤولية فيها، ثم ما قدموه لهذه الأجهزة حين تولوا إدارتها.

على أن المؤلف لم يستطع نفي أن هذه المخابرات ليست حصناً منيعاً مستعصياً على الاختراق أو الانكشاف، فاضطر إلى تسجيل بعض إخفاقاتها، وذكر ما قدمته لها مخابرات الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا، من عون ودعم، بهما أمكن تحقيق القسط الأوفر من عمل أجهزة المخابرات الصهيونية. كما أشار إلى بعض الاختراقات التي استطاعت أجهزة مخابرات عديدة أخرى، عربية بخاصة، أن تقوم بها في المجتمع الصهيوني وفي هذه المخابرات الصهيونية بالذات.

ومن هنا تنبع أهمية هذا الكتاب الذي تقدمه الدار، وترى أنه سيشغل مكاناً هاماً في معرفة العدو وأساليبه وكيفية التصدّي له فكراً وممارسة.

